

حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مجلة علمية، محكمة، سنوية، تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط
* تهتم المجلة بنشر البحوث والدراسات في مختلف مجالات الآداب والعلوم الإنسانية، وتسعى إلى إتاحة الفرصة للباحثين للاطلاع على أهم التطورات المستجدة في ميدان البحث. وتستوعب المجالات التالية:

- دراسات وبحوث أساسية
- وثائق ونصوص
- نصوص مترجمة
- دراسات ميدانية وعروض بيبليوغرافية
- عروض لمختلف الكتب والمجلات
- * تخضع البحوث والمقالات والعروض والدراسات للتحكيم والتقييم العلمي الذي يتولاه أساتذة باحثون مختصون، ولا تعاد البحوث والأعمال التي لم تنشر إلى أصحابها
- * تنشر البحوث والأعمال المجازة، في العدد المناسب وفق خطة هيئة التحرير
- * يشترط في الأعمال والأبحاث المقدمة أن تكون أصيلة ومبتكرة ولم تنشر من قبل وألا تكون جزءا من أعمال أكاديمية سابقة (رسالة ماجستير، دراسات عليا أو أطروحة...)
- * يراعى في المساهمات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية المتعارف عليها
- يمكن اعتماد المواقع الإلكترونية المعترف بها علميا مع الإشارة إلى عناوينها والجهة التي تسيرها.
- * يفضل ألا يقل العمل عن 10 صفحات وألا يزيد على 20 صفحة.
- * يجب أن يكون العمل مراجعا من قبل صاحبه عند طباعته أو يحمل في قرص أو يرسل على البريد الإلكتروني.

* توجه المراسلات إلى سكرتيرية التحرير:

على العنوان الخاص بالكلية: FLSH@univ-nkc.mr

إدارة المجلة

المشرف العام

محمد فال بيانه

مدير التحرير

محمد عبد الرحمن بن عمار

لجنة التحرير

محمد ولد الشيخ سيد أحمد

ممدو دحمد

محمد فاضل محمد الحطاب

عبد الله ابنو

لجنة القراءة:

بودواية مبخوت: الجزائر

عبد الرحمن بن عبد الله الأحمرى: المملكة العربية السعودية

فاتح عبد العالي: المملكة المغربية

أحمد حبيب الله: موريتانيا

محمد فاضل محمد الحطاب: موريتانيا

محمد ولد الشيخ سيد أحمد: موريتانيا

مريم بنت الشيخ: موريتانيا

ممدو دحمد: موريتانيا

محمد ولد جدو: موريتانيا

عبد الله ابنو: موريتانيا

اللجنة الاستشارية:

عبد الله ولد السيد: جامعة نواكشوط، موريتانيا

شريف دحه با: جامعة الشيخ آنتا جوب، السنغال

النانى ولد الحسين: جامعة نواكشوط، موريتانيا

أحمد محمد عطوة: المملكة العربية السعودية

محتوى العدد عشرون لسنة 2025

الصلات العلمية بين حواضر الغرب الإسلامي خلال تاريخي: الوسيط والحديث (قراءة في تفاعل حواضر شنقيط مع تلك الصلات.....د- تربه بباي عمار.....5	5
الإبداع الفني في الشعر الشنقيطي، دراسة أسلوبية لقصيدة من ديوان ابن أمبوجه التشيتي.....الدكتور حماد الله مياي.....23	23
الأمثلة النحوية ومزاياها في الكتب النحوية ابن مالك أنموذجاماجد بن رجاء بن ظاهر الشمري.....49	49
الخطاب السردى في رواية الشفق اللازوردى "طرائق التكتيف" . إفكو المختار أعمرى.....59	59
شعرية التخيل عند جميل بثينة (الاستعارة نموذجا).....محمد أحمد طالب البناني79	79
الثابت والمتحول في النبويات الموريتانية.....العالية بنت الشيبان89	89
الاتساع اللغوي من خلال التقارض في مقولتي النوع والعدد.....المختار السالم حمد109	109
مدينة (تيوان) في السنغال معقل لنشر الإسلام والثقافة العربية.....عبد العزيز صار123	123
سيمائية الأهواء {هوى الغيرة أنموذجا}.....الشيخ أحمد شنان139	139
النفائات الصلبة ودورها في تلوث مدينة نواكشوط.....حنان بنت الشيخ.....151	151
الإنتاج الزراعي المروي في موريتانيا وحجم تغطية الحاجة الوطنية.....محمد سالم محمد عبد الله.....165	165
المشاكل البيئية التي تواجه مدينة نواكشوط.....زينب بنت سيد أحمد الملقبة شيماء187	187
دور المحميات الطبيعية في تنمية السياحة البيئية في موريتانيا (محمية حوض آرकिन نموذجا).....محمد شهاب الدين أبوه207	207
الثروة السمكية في موريتانيا.....العالية عبيبة بنت عالي233	233
السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة وعلاقته بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة.....تسرو مامين محمد فاضل247	247
الدينامية الساحلية بمدينة نواكشوط، العوامل المؤثرة والتغيرات الجيومورفولوجيةأحمد ولد محمد عبد الله.....259	259
الآثار الاقتصادية والاجتماعية لاستغلال مناجم الحديد في موريتانياشيخنا محمد الأمين277	277

قراءة في عمق تحضر الساحل الإفريقي واستغلال مواردها الطبيعية.....مختار عبد الله	
ميغا	295
حركة السفر والرحلات من المنظور العلمي والقيمي: دراسة في الجغرافية السياحيةد/	
جعفر محمد مصطفى أبوزيد	313

الصلات العلمية بين حواضر الغرب الإسلامي خلال تاريخي: الوسيط والحديث (قراءة في تفاعل حواضر شنقيط مع تلك الصلات)

د- تربه بباي عمار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

تسعى هذه الورقة إلى تقديم صورة نحاول أن تكون جديدة أو على الأقل غير تقليدية، بمعنى أننا سنتجنب التكرار والاجترار نظرا لكثرة اشتغال معظم باحثي هذه الفترة في منطقة الدراسة بتلك الصلات، وذلك التفاعل الذي ساد منذ أكثر من ألف سنة بين مدن وحواضر تقع في منطقة ما كان يسمى إبان وبعد الفتح الإسلامي بمنطقة الغرب الإسلامي، ونقصد بذلك المغرب العربي في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن، إن الاشتغال بهذا الموضوع يحيل الباحث إلى كم كبير من المصادر والمراجع والدراسات، وما كبته كبار المؤرخين عن هذه الفترة التي كانت فترة تأسيسية ومفصلية لمجتمعات الغرب الإسلامي بمختلف سياقاتها وتوجهاتها.

سنشتغل في هذه الورقة على تقديم قراءة وتحليل لذلك التفاعل، الذي وقع بشكل حيوي باستمرار رغم بطئه ورتابته أحيانا، حتى وصفه بعض الباحثين بأنه كان بطيئا لكنه كان عميقا، شهد المجتمع خلاله تحولات كبرى وتبدلت انساق معرفية وسياقات سياسية..

وانطلاقا من هذا فإننا سنتناول في هذه الدراسة تأثير عدة مدن تقع حاليا في بعض بلدان المغرب العربي، على البلاد الموريتانية التي كانت يومئذ صحراء الملثمين أو بلاد شنقيط حسب السياق السياسي والثقافي، ذلك التأثير الذي انسب بشكل سلمي عبر الطرق البرية، كما نضيف عاصمة الغرب السوداني وهي مدينة تمبكتو الواقعة حاليا في دولة مالي، والتي كانت يومئذ إحدى أهم حواضر النشاط العلمي لفقهاء المالكية بنسخة دولة المرابطين بعد سقوطها وظهور الموحدين، حين كانت هي عاصمة الغرب السوداني وهو جزء من الغرب الإسلامي، سنعتمد الترتيب الزمني في تقديمنا لهذه المدن والحواضر، لما لذلك من ترتيب منهجي لتوضيح ما نسعى من ورائه في صورة التفاعل الذي اخترنا أن نطلق عليه "التفاعل" لأنه في نظرنا المصطلح الأكثر موضوعية في الحديث عن تلك الصلات، فما وقع خلال أكثر من ألف من السنين كان تفاعلا، خاصة ونحن نتحدث عن عدة مدن في بلاد شنقيط استقبلت وتفاعلت عبر قرون عديدة مع روافد عليمة وثقافية قادمة عبر الطرق البرية من حواضر علمية وعواصم سياسية بالغرب الإسلامي.

وحسبنا من ذلك التفاعل أنه أنتج انسجاما مذهبيا عرفته كافة مدن وحوضر المنطقة، اعتمادا على منهج علمي موحد قوامه ثلاثية: المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف الجنيدي، ولكي لا يذهب بنا حماس هذه الوحدة بعيدا يجب أن لا نغض الطرف عن حقيقة تاريخية مفادها أن مذهبي الخوارج والشيعة الإسماعيلية كان لهما حضور لافت في القرون الهجرية الأولى: الثاني والثالث والرابع إبان تشكل مغرب العالم الإسلامي، سنتوقف عند تلك التجربة الخارجية من تحت عباءة الفتح الإسلامي، وتدفق الموجات البشرية القادمة من المشرق العربي، في ظل تعدد المشارب والتنافس الطائفي الذي أخذت منه منطقة الغرب الإسلامي حظا كبيرا، وكان له بالغ الأثر في توسع رقعة الإسلام واللغة العربية، وإن كان ذلك تحت طموح مذاهب غير المذهب السني، الذي ستكون له الغلبة المطلقة في القرون التي تلت ذلك، نظرا لديمومة التفاعل بين المدن والحوضر التي اخترنا موضوع الدراسة فيها، كما اخترنا التفاعل دلالة على تنمية الوحدة المذهبية في منهج المالكية والأشعرية والتصوف الجنيدي، وذلك ما جعلنا نذكر بشيء من التفصيل مدن في بلاد شنقيط، وأخرى في بلدان مغربية، وخصصنا الحديث عن حواضر أهل السنة لأنها الأكثر حيوية وتأثيرا وديمومة، ذلك ما سيتجلى في هذه الورقة.

كان للحركات الإصلاحية ذات الهدف السياسي كبير الأثر على تلك الوحدة أو على الأصح كان لها الدور الحاسم في التعجيل بها، جاء ذلك مع دولتي: المرابطين والموحدين؛ مما عجل بالقضاء مطلق على المذاهب الأخرى؛ وسيطرة شبه تامة لأهل السنة في جانبهم الفقهي والعقدي والصوفي.

كانت نسخة المالكية الأصلية قد انطلقت من مدينة القيروان ووصلت مدينتي: كوبي صالح وأوداغست، تلك المدينتين التين نعرفهما بالجيل الأول من مدن بلاد شنقيط. وكانت تلك النسخة قد تطورت في مرحلة ثانية وأدخلت موطأ الإمام مالك في عمود المنهج العلمي عند علماء مدينة فاس، لتنتقل تلك النسخة إلى مدينة تمبكتو بالغرب السوداني، ومنها انتقلت مباشرة إلى حواضر الجيل الثاني من حواضر بلاد شنقيط، ونقصد بذلك: ولاتة وتيشيت وودان وشنقيط، حيث استقبلت هذه الحواضر تلك النسخة وتفاعلت معها فهما ودراية وتأليفا.

هذا عن النسخة المالكية القادمة من القيروان التي وصلت مباشرة مع مجموعة من التجار إلى أوداغست (عاصمة صنهاجة الأولى) وكوبي صالح (عاصمة مملكة غانا) وفي مرحلة ثانية انطلقت النسخة الثانية من المالكية أو علماء الجيل الثاني والثالث من مدينة فاس مروراً بتمبكتو وصولاً إلى ولاتة وتيشيت وودان وشنقيط، وسنلحق الحديث عن المالكية حديثاً عن الأشعرية التي وصلتنا في النصف الأخير من القرن الهجري الحادي عشر السابع عشر ميلادي، قادمة من

مدينة تلمسان بالشمال الغربي الجزائري، وترقدنا مدينة توات بالجنوب الجزائري أيضا بالتصوف السني مشكلة بذلك مرحلة اكتمال المنهج ووصول بلاد شنقيط (موريتانيا) مرحلة النضج المعرفي والاستقرار المذهبي.

وانطلاقا من هذا لن نستطيع الحديث عن الجانب العلمي وتفاعلاته الإقليمية إلا باستهلال الموضوع بتلك الحملات ذات الطابع العسكري، أو تلك التي تلتها وكانت أكثر منها نتيجة ووضوحا واستمرارا.. حيث كان طابعها سلميا، تولى التجار والدعاة مهمة توصيله عبر مسالك برية وطرق تجارية..

هذا ما سنتناوله في هذا البحث مع شيء من الإيجاز نرجو أن لا يكون مخلا وذلك من خلال الخطة المنهجية التالية:

المحور الأول: وصول الإسلام بحمولته المعرفية

نقدم خلاله حديثا عاما عن ظروف دخول الإسلام نشأة وتطورا، وعن دور حفر الآبار في حيوية الحركة والتفاعل؛ مما سيكون له بالغ الأثر في وجود جاليات إسلامية قد تكون سببا في رقد الجيل الأول من المدن بالإسلام السني.

المحور الثاني: الجيل الأول من الحواضر وتأثير رافد القيروان

نتحدث في هذا المحور عن روافد: القيروان وفاس وتمبكتو والأثر الواضح على مدينتي: كوبي صالح وأوداغست

المحور الثالث: نشأة وتطور الجيل الثاني من الحواضر

سيتم الحديث عن مستوى التطور المعرفي في بلاد شنقيط (موريتانيا) حد وصولهم للاكتفاء الذاتي، تفاعلا مع مراكز تلمسان وتوات ومكناس.

الخاتمة: سنختتم الحديث عن هذا الموضوع المختص بالتاريخ الثقافي لمنطقة المغرب العربي حاليا الغرب الإسلامي سابقا بخلاصات نرى أنها قد تحصلت عندنا في جولة بحثية تنقيبية في رحاب مدن وحواضر كان لها كبير الأثر في تشكيل وحدة علمية ومذهبية، جاءت تباعا حسب السياق الزمني، وذلك في تحليل السياق الثقافي.

المحور الأول:

وصول الإسلام بحمولته المعرفية إلى بلاد شنقيط (موريتانيا) لحظة تأسيس الهوية المعرفية.

إن أي حديث عن تأثير المدن العلمية ذات الطابع الإسلامي التي ظهرت في منطقة الغرب الإسلامي إبان الفتح أو بعده لن يقدم صورة مكتملة منهجيا إلا إذا استعرضنا الآلية التي تمت بها حركية النقل بين المدن، وأسهمت بشكل مباشر في التفاعل، وهي حفر تلك الآبار، التي كان لها

كبير الأثر على سلمية التواصل والتفاعل، هكذا يجب أن نستهل الحديث عن الصلات العلمية بين حواضر الغرب الإسلامي، بمحاولتنا لرسم ملامح البدايات التأسيسية للهوية العربية والإسلامية في البلاد الشنقيطية (موريتانيا) ويأتي ذلك عبر رحلة طويلة، نكاد نلتمس خيطها الأول مع دخول الإسلام في مراحله الأولى، التي نتج عنها وجود جالية إسلامية ذات حضور معنوي كبير، في بلاط ملك غانا وعاصمتها كوبي صالح، وكذلك تأسيس مدينة أوداغست نهاية النصف الأول من القرن الهجري الثاني، وتلتها بعد ذلك مدن أسسها أصحابها على مشروع ديني مع دوافع سياسية وأخرى أمنية؛ مما كان له بالغ الأثر في احتضان الإسلام في طوره الأول، ونسمي تلك الحواضر بالجيل الأول من المدن.

وبما أن دراسة التاريخ الثقافي، ورصد الحركة العلمية والفقهية، واكتمال سيرها بازدواجية التصوف السني بنسخته الجنيديّة والعقيدة الأشعرية بنسختها الباقلانية، كلها أمور تحتاج في مجمل منهجها إلى النظر في السياق التاريخي، والمحطات التحولية في مسيرة المجتمع الشنقيطي، الذي أصبح اليوم هو المجتمع الموريتاني بانسجامه المذهبي، واكتمال عناصر منهجه التعليمي، عبر محطتي: المسجد أولا والمحاضرة ثانيا.

وحسبنا من قيمة تلك الحملات العسكرية المفترضة أنها تركت أثرا قاوم وحشة الصحراء وخطورتها بحفر تلك الآبار، وما خلفته من أثر في اعتناق بعض قبائل الصحراء للإسلام، حيث أصبحت تلك الآبار تجمعا بشريا وقطبا تنمويًا يستقطب الدعاة والتجار؛ مما شكل فيما بعد المدن والحواضر التي احتضنت الإسلام في طوره الأول، وبعد التفاعل مع مدن أخرى أصبحت وعاء للمالكية، ونخص بالذكر تلك الآبار التي حفرها الأمير الفهري والتي كان دورها محوريا وجوهريا.. "بدأت ملامح إستراتيجية عربية جديدة تتحدد، وكان هدفها هو الوصول إلى الصحراء بالطرق السلمية لنشر الإسلام والمشاركة في المبادلات التجارية، وذلك عندما قام عبد الرحمن بن حبيب بحفر مجموعة من الآبار على طول الطريق الذي كان يربط بين تامدلت وأوداغست لتسهيل نقل الدعاة والتجار من دون أن يتعرضوا لخطر الموت عطشا، ويعتقد أحد الباحثين أن هذه الخطوة التي اتبعها عبد الرحمن بن حبيب ابتداء من سنة 745م كانت أكثر نجاحا من سابقتها حيث نجحت في تحقيق الهدف الذي كانت تسعى إليه"¹.

¹ - الناني بن الحسين، صحراء الملثمين، وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا، من منتصف القرن: 2 هـ 8م إلى نهاية القرن 5 هـ 11م، بدون تاريخ نشر ولا ذكر المطبعة، ص: 65.

وسابقاتها المقصود بها -أوما يتبادر للذهن- الحملات العسكرية، وهنا نجد الأستاذ الناني بن الحسين يؤكد على أن ما حققته الحملات السلمية هو الذي كانت تطمح له سابقاتها من الحملات العسكرية، كما يؤكد الدكتور الناني أيضا في كتابه القيم "صحراء الملثمين" أن تلك الآبار كانت سببا في رفد مدينة أوداغست بجالية عربية كبيرة كان وجودها واستقرارها سببا مباشرا في انتشار الإسلام¹..

ونجد عند المؤرخين الذين كتبوا عن مدينة أوداغست قولهم إنها كانت بعد حفر الآبار، وأن الآبار هم الذين أسهموا في تأسيس المدينة وتحفيز الحلف الأول من صنهاجة على تأسيسها، بعدما أمنت الآبار الطريق من مهالك العطش، فكان تأسيس الآبار عشرينات القرن الهجري الثاني، ومن المعلوم أن فترة حكم عبد الرحمن للقيروان من سنة 127هـ حتى 137 وكان تأسيس أوداغست سنة 140 هجرية. ونستنتج في هذا السياق أن تأسيس المدينة جاء نتيجة لحفر الآبار، وكذلك وصول الجالية لعاصمة مملكة غانا كان أيضا نتيجة لتلك الآبار التي أصبحت الشريان الذي غذى الحركة الدعوية والعلمية، وعزز قيمة التواصل بين الحواضر..

في السياق نفسه نجد البكري يحدد الطريق الرابط بين تامدلت وأوداغست ويقدم وصفا للآبار التي ينسبها لعبد الرحمن بن حبيب، ويصف بعض التضاريس التي تفصل بين المدينتين: تامدلت وأوداغست، وفي وصفه للمسافة الفاصلة بين بعض نقاط المياه يحددها أحيانا بثلاثة أيام وأحيانا أخرى بعشرة، واصفا طول الآبار بثلاث قامات وأحيانا أكثر وأحيانا أقل، ويقول حرفيا: "ثم إلى أوداغست وهي مدينة كبيرة أهلة رملية يطل عليها جبل كبير موت لا ينبت شيئا بها جامع ومساجد كثيرة أهلة في جميعها المعلمون للقرآن وحولها بساتين النخل ويزرع فيها القمح.."².

جملة قضايا وإشكاليات استدعى السياق المنهجي استعراضها في عجالة تمهيدا للحديث عن طبيعة تفاعل المدن والحواضر في تشكيل سياق مشترك، حيث كانت عاصمة مملكة غانا (كومبي صالح) أول الحواضر التي احتضنت جالية من التجار المسلمين، وقد أسهم وجودهم في حضور المظاهر الإسلامية كبناء المساجد.

¹ - الناني ولد الحسين، صحراء الملثمين، سيق ذكره، ص: 83.

² - أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص: 156.

المحور الثاني: الجيل الأول من الحواضر وتأثير رافد القيروان

1- كومبي صالح

تأسست هذه المدينة التي تبعد أطلالها حاليا 60 كلم من مدينة تمبوغا من ولاية الحوض الشرقي حاليا، وكانت هي العاصمة السياسية لمملكة غانا، وكانت المدينة محطة هامة وحيوية لانطلاق القوافل نحو إفريقيا جنوب الصحراء، وقد أهلها موقعها الجغرافي لاستقبال التجار العرب والمسلمين والدعاة، فكانت المدينة تضم جالية من المسلمين شيدوا المساجد ونشروا الإسلام بطريقة هادئة.. وكان تأسيس المدينة في حدود القرن الميلادي الثاني أو الثالث أي حدود ألف سنة من تأسيس الجيل الثاني من الحواضر وفي ظروف مختلفة جدا سياسيا واجتماعيا.. "يعود تاريخ المدينة إلى القرن الثالث الميلادي عندما سيطرت قبائل الماندية الوثنية على طرق القوافل التجارية بين كومبي صالح وأوداغست وتمبكتو وخلال القرن السابع الميلادي برزت إمبراطورية غانا كقوة عظمى مهيمنة في المنطقة متخذة من مدينة كومبي صالح عاصمة لها، ومع حلول القرن الحادي عشر الميلادي وصل عدد سكان مدينة كومبي صالح 30 ألف نسمة مجسدة أكبر مدينة على الإطلاق في القارة الإفريقية"¹.

تعتبر مملكة غانا من أقدم الإمبراطوريات بالسودان الغربي، امتازت بأنها كانت ومنذ دخول الفاتحين العرب لمنطقة الغرب الإسلامي حيث أصبحت محط أنظار العرب بسبب غناها بالذهب، وبعد فك العزلة عن الصحراء بسبب تلك الآبار الأنفة الذكر انتقلت مجموعات كبيرة من التجار للاستقرار بها، وكونوا جالية عربية مسلمة معظمها قادمة من القيروان².

"تتكون المدينة من مركزين، المركز الشمالي حيث عرف بمساجده الإثنى عشر بينما عرف المركز الجنوبي بالقلعة حيث كان القصر الملكي محاطا بالتجمعات السكنية، أو كما قيل كانت تنقسم إلى حيين: حي صالح للمسلمين وحي كومبي لغير المسلمين. بننها قبائل صنهاجة البربرية، وفي منتصف القرن الخامس هجري زحفت جيوش دولة المرابطين على المدينة ملحقة ضررا جسيما بالمدينة وبسجلاتها الموثقة وحل المرابطيون محل السكان الأصليين، في مطلع القرن الثالث عشر الميلادي استخدم ملك الصوص «سماري كائته» المدينة كقاعدة لجيوشه ومنطلق لعملياته العسكرية، بعدها صارت المدينة القديمة مهجورة حتى أعيد اكتشافها سنة 1913م

¹ - تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، من القرن: 2هـ / 8م / حتى 13هـ / 19م (قراءة جديدة لسيطرة المالكية وإسهام الشناقطة في طورها الأخير)، ط: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث،

دبي، الطبعة الأولى، 2025، ص: 211

² - البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص: 234.

كمركز للحفريات وقبلة لعلماء الآثار من جميع أصقاع المعمورة، وتوجد اليوم في نفس المكان تقريبا مدينة جديدة بنفس الاسم وهي عاصمة لبلدية كمبي صالح إحدى البلديات الخمسة التابعة لمقاطعة تمبوغه¹.

وفي هذه الفترة بالذات أقصد فترة دخول الإسلام السني لعاصمة مملكة غانا، كانت مدينة القيروان قد عرفت وجود تلامذة الإمام مالك المباشرين، مثل علي بن زيادة (ت183هـ) وأسد بن الفرات (ت213هـ) وعبد السلام بن سحنون (ت240هـ) وشكل هؤلاء الأئمة نقلة نوعية في إدخال المذهب المالكي لمنطقة الغرب الإسلامي بشكل عام ومدينة القيروان بشكل خاص، فكانت هذه النسخة الأصلية والمباشرة من المالكية هي التي وصلت مع تجارة القوافل لمدينة كوبي صالح، حيث امتاز الإسلام السني المالكي بمستوى من القبول عند نخبة العاصمة الغانية كالوزراء ورجال الدولة؛ مما شكل استثناء، ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى كون مجموعة التجار كانت ذات صلة مع رجال الدولة، وكبار التجار فنقلوا لهم الإسلام بحمولته المذهبية والفقهية واللغوية.. فكانت النتيجة وجود عدد من المساجد في بعض أحياء المدينة ذات الكثافة السكانية والازدهار الاقتصادي...!

وحسبنا من ذلك الدور الذي قامت به كومبي صالح أن مدينة أوداغست التي تأسست بعدها ورغم خصومتها معها فإن المناخ العام الذي كانت عاصمة غانا تمثل جزءاً منه قد ساعد على تأسيس مدينة إسلامية، مع دولة صنهاجة الأولى وعاصمتها أوداغست، حيث تأسست فعليا على الإسلام السني، رغم ما اتصف به إسلامهم من سطحية وبساطة إلا أنه نجح في استمرار التفاعل مع مدينة القيروان، وما تحمله القوافل القادمة منها من زاد معرفي وانسجام مذهبي.

2- أوداغست

يعود تأسيس هذه المدينة إلى قيام الحلف الصنهاجي الأول، حيث كانت أوداغست من أهم نتائجه، حيث تأسست هذه المدينة لتكون عاصمة سياسية وموقعا اقتصاديا وعسكريا لمجموعة قبائل صنهاجة ذات الكثافة السكانية الكبرى والقوة العسكرية العظيمة.²

ويرى بعض الباحثين أن عاصمة دولة صنهاجة الأولى لم تعرف ازدهارا علميا كبيرا، وإنما كان حظها من العلوم في حدود المبادئ الإسلامية، وأنها رغم وجود جالية سنية قادمة في

¹ - تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية، سبق ذكره، ص217.

² - تربه بنت عمار، مقال: القافلة والحاضرة: ثنائية أسست لتقافة شنقيطية عالمية، مجلة الموكب، العدد:63، يوليو:2024.

معظمها من مدينة القيروان إلا أن ذلك لم يشفع لها في ازدهار معرفي، وإنها كانت ذات طابع سياسي وعسكري واقتصادي بالدرجة الأولى.

وعندما قام الحلف الصنهاجي الأول في حدود 140 هجرية ضم ذلك الحلف معظم القبائل الصنهاجية الموجودة في بلاد شنقيط (موريتانيا حاليا) وكان من أعظم تلك القبائل لمتونة وكداله ومسوفة وقد اعتنقوا الإسلام، واختاروا موقعا استراتيجيا هاما يسد المنافذ عن مملكة غانا، ويربط المدينة بالقوافل التجارية القادمة من مدن وحواضر شمال وغرب إفريقيا، ظلت هذه المدينة عامرة ومزدهرة، وظل ملوكها يواصلون نشر الإسلام والتوسع السياسي والاقتصادي حتى بداية القرن الهجري الرابع¹.

ورغم ذلك فإن مدينة أوداغست تأسست إسلامية سنية، وإن وجود مجموعة فقهاء بها كان أمرا طبيعيا، وحتى بعد سقوط أوداغست مطلع القرن الهجري الرابع 306. بقيت مجموعات من الفقهاء مرتبطة بالمجتمع الصنهاجي بدليل أن البكري ذكر أن فقيها قيروانيا كان بمضارب صنهاجة وقد اعترض على بعض فتاوى عبد الله بن ياسين إبان قيام حركة المرابطين في طورها التصحيحي، الذي كان فيه ابن ياسين صارما في تطبيق ما يراه شرع الله، ويرى أن صنهاجة أهل اللثام قد ضيعوه وتخلوا عن تعاليم الشريعة الإسلامية².

وبعد قيام حركة المرابطين في بحر القرن الهجري الخامس سيسطع نجم مدينة مراكش بعدما أسسها يوسف بن تاشفين سنة 454هـ، (ت500هـ / 1106م) وكان ابن تاشفين أعظم ملوك الدولة المرابطية، في عملية انتقال بتقل الدولة نحو الشمال، وستشهد دولة المرابطين عناية فائقة بفقهاء المالكية، حتى أن علي بن يوسف (ت 537هـ / 1143م) كان لا يُعين واليا إلا عين معه فقيها وجعل أمر الوالي تابع لأمر الفقيه³. استفحل أمر الفقهاء وآلت لهم السلطة التنفيذية وأخص بالذكر فقهاء المالكية.

وقبل ختام الحديث عن الجيل الأول من مدن بلاد شنقيط (موريتانيا) وتفاعلها مع روافد مدن أخرى بمنقطة الغرب الإسلامي، يجب أن نذكر لمدينتي: أبيير وأزوكي دورهما في نشر الإسلام واللغة العربية في المنطقة، وإن كان الخلاف المذهبي بينهما جليا فإن ذلك لم يمنع من إسهامهما.

¹ - أبو عبيد الله البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص: 366.

² - البكري، المسالك والممالك، سبق ذكره، ص: 233.

³ - عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة لتاريخ المغرب العربي، ج: 1، ص: 287.

آبیر:

يعود تأسيس هذه المدينة إلى حدود 160 هجرية أي أنها كانت معاصرة لتأسيس أوداغست أو متأخرة عنها قليلا، وتبقى أطلال هذه المدينة في حدود 20 كلم من مدينة شنقيط بولاية آدرار شمال موريتانيا حاليا، ويرجح بعض المؤرخين فرضية تأسيس هذه المدينة أنه يعود لمجموعة من الخوارج الإباضيين حين حفروا بئرا في تلك الصحراء وأرادوها مدينة تقوم بنشر الإسلام الإباضي¹.

وانطلاقا من هذه الفرضية يمكن أن نلمس خيطا واضحا من التفاعل بين هذه المدينة مع تلك التي أسسها ابن رستم² الإباضي ذات الصيت الكبير في نفس الفترة تقريبا بالجنوب الجزائري. وهنا تمكنا العودة قليلا إلى تأييد هذه الفرضية بأن تلك الفترة بالذات أي سنة 160 هجرية كانت هي الفترة التي أسس فيها عبد الرحمن بن رستم عاصمته تاهرت بالمغرب الأوسط (الجزائر حاليا) وقد اعتمد الخوارج الإباضيون خاصة على التجارة والتي من خلالها استطاعوا نشر الإسلام واللغة العربية، إلا أن وجود صنهاجة وبكثرة في هذه الصحراء واعتناقهم للإسلام السني حد من انتشار المذهب الخارجي، وقد تكون أسباب عدم استمرارية مدينة آبیر يعود للوجود الصنهاجي، فظلت هذه المدينة ذات طابع اقتصادي تجاري محدود، فالحقناها منجيا بالجيل الأول نظرا لمعاصرتها لهم زمانيا وتقاسمها معهم الاهتمام السياسي والاقتصادي ثانيا³. ورغم أن الوجود الخارجي قد داهمه قوة الحضور السني المالكي، وكانت الأسانيد القيروانية حاضرة بقوة، مثل رسالة محمد عبد الله بن أبي زيد القيروان (310-386هـ) الذي كان يلقب بمالك الصغير، وكان عليه عمدة تدريس الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية.. ولهذا السبب فإن المد الخارجي لم يستطع الصمود في وجه المنهج السني، ويحسب لحركة الخوارج إسهامها في نشر الإسلام واللغة العربية على مستوى معين، مكن السكان من التفاعل مع حركة القوافل القادمة من حواضر أهل السنة، ونجد مؤلف كتاب المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري يحسم رأيه عن وجود مذهبي: الخوارج والشيعة بقوله: "فتأثير الفكر الشيعي أو

¹ - تربه عمار، سبق ذكره، ص: 189.

² - هو عبد الرحمن بن رستم مؤسس دولة الخوارج الإباضية بشمال الجزائر سنة 160 هجرية، وكانت عاصمة سياسية وثقافية ازدهرت في المنطقة وكان لها دور حيوي في التجارة الصحراوية، تميز تجار الخوارج بالحضور في الحركة العلمية في الغرب الإسلامي؛ مما مكنهم من نشر الإسلام واللغة العربية، توفي ابن رستم سنة: توفي سنة 171هـ - 787م.

³ - تربه عمار، القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

الخارجي في الغرب الإسلامي لم يكن على الإطلاق بدرجة التأثير السني، إلا أن ثمة حيثيات متناثرة من واقع تاريخ المنطقة وحتى حاضرها المعيش تؤكد وجود تغلغل للمذهب الشيعي وتركز للمذهب الخارجي في المنطقة"¹.

ورغم ذلك نستطيع القول إن مدينة أزوكي بطابعها السياسي وصرامة قائدها العسكرية قد استطاعت أن تقض على الوجود العلني أو الممارس منهجيا لمذهبي: الخوارج والشيعية، حيث كانت خاتمة عقد الجيل الأول من المدن والحوضر، حين وضعت لبنة رسمية للمذهب السني، بقيت آثارها حية في الذاكرة العلمية للمجتمع الموريتاني.

أزوكي

يعود تأسيس هذه المدينة إلى دولة المرابطين في شقها الجنوبي، ونقصد هنا بالشق الجنوبي ذلك الجناح السياسي الذي قاده أبو بكر بن عمر (ت480هـ) بعد عوته من المغرب الأقصى (المملكة المغربية) بعدما تنازل لابن عمه يوسف بن تاشفين إثر انقلاب أبيبض قام به هذا الأخير في قصة تناقلتها كتب التاريخ بشيء من التفاصيل لا نراه سلم من المبالغة، ولكن ما يهمنا هنا أن هذه المدينة التي تبعد 16 كلم من مدينة أطار حاليا اتخذها الأمير اللمتوني عاصمة سياسية لدولته في بلاد شنقيط (موريتانيا) في الربع الأخير من القرن الهجري الخامس، وبما أن دولة المرابطين كانت في بداية أمرها حركة إصلاحية علمية فقد استجلب أبو بكر بن عمر معه جماعة من العلماء والقضاة.. لكن المدة القصيرة لهذا الجناح لم تهمل الأمير في تأسيس رؤية علمية ومنهجية، لذا جعلنا هذه المدينة خارج إطار المدن الثقافية نظرا لطابعها السياسي وألحقناها بالجيل الأول من المدن رغم أن الإمام الحضرمي المرادي (ت 489هـ) قاضي أزوكي شكل أرثه الثقافي دورا كبيرا في بنية الذهنية الثقافية والمنهجية لعلماء الشناقطة².

بعدما تم الحديث بشكل مقتضب عن سميناه الجيل الأول من المدن ذات الطابع السياسي والاقتصادي، الذي اعتبرنا أنها أسهمت بشكل كبير في احتضان الحمولة المعرفية للروافد القادمة من حواضر الغرب الإسلامي، التي كان قوامها المذهب المالكي، ومنطلقها مدن القيروان وفاس ومراكش وغيرهم، ذلك المناخ الذي عرف قوة عطائه بعد ذلك بفترة، وكانت الفترة الزمنية التي

¹ - أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، الرباط، 2015، ص: 44.

² - تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية، سيق ذكره، ص: 187.

عقبت فترة المدن السياسية قد عرفت تشكل وظهور مدن خالصة العطاء لحمولة القوافل من الكتب والأسانيد الفقهية¹.

وانطلاقاً من هذا بدأت فترة التأسيس المنهجي تظهر للعيان، وهنا سيتم الحديث عن تلك المدن حسب الأسبقية الزمنية.

وكان لسقوط مدينة مراكش نهاية النصف الأول من القرن الهجري السادس بالغ الأثر على ظهور حواضر تيشيت وودان اللتان أسسهما تلامذة القاضي عياض (ت544هـ) الذي قتله الموحدون بعد دخولهم لمدينة مراكش، والقضاء النهائي على المرابطين، كما أسهم ذلك في انتقال النسخة المالكية النصانية التي كانت عند فقهاء دولة المرابطين إلى مدينة تمبكتو بالغرب السوداني، وسيكون لهذه المدينة تأثير مباشر بالجيل الثاني من الحواضر، حيث كانت مدينة ولالة المحطة الأولى زمانياً ومكانياً لرافدها.

المحور الثالث: نشأة وتطور الجيل الثاني من الحواضر

نتحدث من خلال هذا المحور الثالث والأخير عن محطة هامة من التاريخ الثقافي لبلاد شنقيط (موريتانيا) حين استقبلت هذه النسخة من المدن والتي كانت الأخيرة بسبب تبدل النسق الاقتصادي، نظراً للتحويل الذي عرفه مجتمع الغرب الإسلامي، حين تراجع دور القوافل البرية فاسحاً المجال للتجارة البحرية الأوروبية، النصف الثاني من التاريخ الحديث، وضعف السلط الإسلامية التي كانت تؤمن الطرق البرية، وبعد هذه الفترة مباشرة ستعرف البلاد بروز الإمارات الحسانية بحر القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي، وتكتظ البوادي بالسكان وتنتشر المحظرة كنسق معرفي وحيد وجديد..

نحن في هذه الورقة سيختصر حديثنا على الصلات العلمية بين مدن وحواضر الغرب الإسلامي وبلاد شنقيط، وبما أن الفكرة الأساسية لهذا البحث هي إبراز التفاعل بين هذه المدن ودور حواضر شنقيط في ذلك التفاعل، حين أدى استقبال المدن الموريتانية واحتفاؤها بحمولة القوافل العابرة للصحراء من زاد معرفي كانت نتائجه بروز نخب علمية وأدبية طورت وأنتجت واحتفت بها هي نفسها عواصم في الغرب الإسلامي في هجرة عكسية قامت بها نخب هذه البلاد عبر قرون ن قدرها حالياً بثلاثة قرون، حين كان علماء هذه البلاد يهاجرون لطلب العلم ولأداء فريضة الحج، وللتجارة والسياحة العلمية والروحية، وبعد ذلك كانوا يهاجرون جهادا في وجه المستعمر الفرنسي.

¹ - تربه عمار، القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

وانطلاقاً من ذلك فإن حدود هذا البحث ستجعل هذا الجيل الذي سميناه بالجيل الثاني من المدن هو محطتنا الأخيرة، حين نناقش طبيعة تعاظم هذه الحواضر مع نظيراتها وكيف اكتمل المنهج العلمي، وذلك ما سيتضح من خلال هذه المدن التي كانت مدينة ولاتة الأولى بالحديث عنها احتراماً للترتيب الزمني.

ولاتة

ولاتة هي مدينة صحراوية من أقدم الحواضر التي احتضنت المتنون الفقهيّة وأسانيد القراءات القرآنية والأوراد الصوفية، إضافة إلى هذا ظلت ولاتة المدينة الصحراوية التي علت مكانتها العلمية، ويرجع بعض المؤرخين تاريخ نشأتها إلى القرن الميلادي الأول حيث كانت تعرف بـ"بيرو" وتميزت هذه المدينة بقوة روابطها بالمحور الشرقي التابع للإقليم السوداني وكانت جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية المالية¹.

ورغم ذلك كان الحضور العربي بارزاً فيها وقد زارها الرحالة المغربي ابن بطوطة في القرن الرابع عشر ميلادي و في حدود 726 هجري، وتحدث عن الازدهار الشديد الذي كانت تعرفه المدينة بحكم موقعها الاستراتيجي كنقطة وصل بين الأقاليم الأفريقية في الجنوب وبين الدولة الإسلامية في الشمال حيث وصف رخاء معيشة أهلها بقوله : "ويجلب إليهم تمر درعة، وسجلماسة، وتأتيهم القوافل من بلاد السودان فيحملون الملح ويبيع الحمل منه إيولاتن بثمانية مثاقيل إلى عشرة ويبيع في مدينة مالي بعشرين مثقالاً وربما يصل إلى أربعين مثقالاً وبالمح يتصارفون كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به"².

وانطلاقاً من هذا كانت ولاتة هي الملاذ الآمن للعلماء الذين فروا من تنبكتو؛ فكان ذلك سبباً في ازدهار المدينة ثقافياً وفكرياً.. ومنذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي عرفت مدينة ولاتة بداية نهضة فكرية كبيرة، وأصبحت أحد أهم مراكز الإشعاع الثقافي العربي الإسلامي، وهاجر إليها عدد كبير من علماء مدينة تمبكتو التي عرفت اجتياحاً وانهياراً كان سبباً في هجرة علمائها نحو ولاتة ووادان وغيرهما من المدن التي كانت صغيرة وهامشية مقارنة بتمبكتو، وفي نفس الظروف هاجر إليها علماء ومفكرون من فاس وتلمسان ومراكش، كما استقر بها بعض أهالي توات بجنوب الجزائر، وبعض العائدين من الأندلس التي سقطت نهائياً بيد الأسبان عام 1492. هذا الكم المتنوع من المهاجرين رفد المدينة بمصادرهما الثقافية التي بقيت حتى الآن وسمح لها

¹ - تربه عمار، مقال: القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

² - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ط: دار الشرق العربي، ج: الثاني، ص: 658.

في نفس الوقت بأن تتحول خلال القرون الخمسة الماضية إلى منارة ثقافية وعلمية، وعاصمة من عواصم الفقه المالكي، كما نجد هذه الروافد المختلفة ماثلة في العمارة الولاتية، وفي عادات سكان المدينة المتحضرة وسط عالم صحراء بدوي، مخالفاً للعادات الحضرية التي استقدمها الوافدون معهم من فاس وتلمسان وغرناطة وغيرها من الحواضر العربية العريقة في العمران والمدنية¹.

تفرعت عن مدينة ولاتة مدارس مهمة خرجت أجيالا من العلماء والصلحاء مثل مدرسة أهل سيدي عثمان والتي خرج منها محمد يحيى الولاتي ومحمد يحيى بن سليمة². وتعتبر مدينة تشيت توأمة مدينة ولاتة في الزمان والمكان.

2 - تيشيت:

يعود تأسيس مدينة تيشيت لنفس الفترة تقريبا أو قبلها بقليل التي سقطت فيها دولة المرابطين ونفترض أن مؤسس المدينة الشريف عبد المؤمن بن صالح الذي ذكرت جملة من المصادر التي تناولت تأسيس المدينة أنه كان تلميذا للقاضي عياض قد ارتحل في ظل تنامي دعوة ابن تومرت وظهور بواذر سقوط الدولة، وبظل هذا مجرد افتراض تتقصه المصادر لتعزيزه. وكان أول عمل قام به مؤسس المدينة-فيما تذكره مصادر التأسيس- هو بناء مسجد بمنارة عالية.

وذكر النحوي أن تأسيس هذه المدينة كان سنة 536 هجرية. وتتدخل أسطورة التأسيس لتجعل سبب اختيار الشريف عبد المؤمن لهذا المكان لما كشف له من بركة فيه، ومن ذلك الوقت صارت هذه المدينة التي ظلت بعيدة عن اهتمام الكتاب ولم يرد لها ذكر رغم أنها كانت تقع على محور مدينة ولاتة الذائعة الصيت³ فهي كانت إحدى مدن الواحات القديمة، ومحطات القوافل، كانت تمر بها طريق قلم- ولاتة- تنبكتو- توات فزان- الإسكندرية- وغيرها³.

وقد لا يهمننا كثيرا ظروف نشأة هذه المدن بقدر ما يهمننا طبيعة تفاعلها مع الروافد القادمة من مدن الغرب الإسلامي، والتي شكلت قاعدة صلبة لم تستطع التيارات والمذاهب الأخرى اختراعها، وكانت مدينة وادان ثالث مدينة زمانيا حلت في الجيل الثاني من حواضر بلاد شنقيط(موريتانيا) وكان لها حضورها العلمي.

¹ تربه عمار، مقال: القافلة والحاضرة، سبق ذكره.

² الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ط: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس: 1987،

ص: 69

³ الخليل النحوي، سبق ذكره، ص: 70..

3- وادان

يعود تأسيس هذه المدينة إلى سقوط مدينة مراكش وخروج تلامذة القاضي عياض من سيطرة الموحدين، بحثا عن فضاء السني مالكي نصاني على منهج شيوخ المذهب، فكانت وادان مثل تيشيت تماما، حيث تأسست في نفس السنة التي تأسست فيها تيشيت بل إن أحد الثلاثة الذين أسسوها كان زميلا للشريف عبد المؤمن بن صالح مؤسس تيشيت وتلميذا للقاضي عياض أيضا، وهو الحاج عثمان الأنصاري وتنسج الذاكرة الشعبية قصتها المستوحاة من تكامل العناصر الأساسية في المجال الجغرافي لنجد ثلاثة التأسيس جمعوا بين صنهاجة وقريش والأنصار ليكتمل التعايش بتطهيرهم بحج بيت الله الحرام الذي عادوا منه بمشروع تأسيس المدينة ليكون بناء أسس على التقوى، وهم: الحاج عثمان الأنصاري تلميذ القاضي عياض والحاج يعقوب القرشي والحاج علي الصنهاجي ليلتحق بهم بعد التأسيس عبد الرحمن الصائم واكتفت بإطلاق صفة الصوم على صاحبها تطهيرا له وتركية¹.

ومنذ تأسيس هذه المدينة وهي مرتبطة بالعلم والعطاء وقد أهلها موقعها الاستراتيجي بامتلاكها لسبخة ملح يوم كان الملح بضاعة رائجة فكانت القوافل تقصد المدينة وترتبطها مع حواضر كبرى مثل درعة وسجلماسة من الشمال وتمبكتو من الجنوب وترتبط من ناحية أخرى بتوات وتغازة فكانت تصدر إلى الشمال المواشي وجلد النعام وإلى الجنوب الملح والتمر والأقمشة.. هكذا استفادت وادان من موقعها التجاري لتضطلع بوظيفة مزدوجة خدمة للعلم والتأليف ونشر الفقه².

خرج من مدينة وادان علماء أجلاء منهم ولد اطوير الجنة (ت1265هـ) وسيدي عبد الله (ولد رازكه) (ت1144هـ) والطالب محمد ولد بلعمش (1107هـ) ومن الجيل الأول من العلماء كان محمد بن أحمد بن بوبكر (توفي بعد 933هـ) مؤلف كتاب "موهوب الجليل في شرح خليل" ويتميز هذا الكتاب بأنه أول تأليف في بلاد شنقيط. خصصه مؤلفه لشرح مختصر خليل³.

ويعتبر فقه ابن القاسم تلميذ مالك قد حظي بالقبول والانتشار عند سكان هذا القطر، وتعود عليه عمد التدريس والتأليف والشرح..

¹ - تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، سبق ذكره. ص: 257.

² - تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، سبق ذكره، ص: 277.

³ - خليل النحوي، سبق ذكره، ص: 71.

4- شنقيط ط

لا نتوقف هنا كثيرا في حديثنا عن مدينة الشنقيط، تلك المدينة التي تسمى بها القطر كله في دلالة على قيمتها الثقافية، وحضورها العلمي.. ورغم ذلك الرصيد الرمزي الذي حظيت به إلا أن عنايتنا هنا في هذا المقام تركز على دورها في التفاعل مع محيطها الجغرافي، وروافدها التجارية، التي شكلت المدينة محطة حيوية، استقبلت العلماء والدعاة وغيرهم، حتى نسجت الأساطير عن شخصيات قادمة من مدن مثل فاس يحملون معهم علما غزيرا، أخذهم عنهم بعض الشخصيات العلمية ذات التأثير القوي في ميزان الساحة الفقهية والعقدية.. مثل الطالب محمد بن المختار بن الأعمش العلوي قاضي شنقيط (ت1102هـ) الذي شرح إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة لأحمد المقرئ التلمساني، وقربها لطلبة العلم وجعلها منهجا ثابتا في التدريس المحظري، مسعى منه لإدخال العقيدة الأشعرية بشكل فعلي، وذلك عندما بدأت مدينة تلمسان ترفد شنقيط بإنتاج كبار علماء الأشعرية في الغرب الإسلامي، حيث كان ابن الأعمش من أكثر علماء القطر آنذاك تهيئة لتولي ذلك الدور العلمي الكبير، والذي كان له صدى كبيرا استطاع أن يحارب أهل البدع ويساجل أصحاب المشاريع السياسية ذات النفس المهدوي¹

وذكر الخليل النحوي في سياق حديثه عن أول ظهور لاسم هذه المدينة في الكتابات مع السعدي: "ورد ذكر شنقيط موثقا لأول مرة في تاريخ السودان للسعدي، ونجد النسبة إليها في شجرة النور الزكية عند ذكر محمد الشنقيطي الآخذ عن زروق. وذكرها شارح القاموس في المستدرك.."².

وحسبنا من قيمة التداول التي حظيت بها مدينة شنقيط في المراسلات أنها كانت مستوى من التفاعل في السياق الثقافي والمعرفي أتت نتائجه على القطر كله.

هكذا تميز هذا الجيل من حواضر بلاد شنقيط (موريتانيا) بأنه تفاعل بشكل مباشر وباستمرار مع عدة مدن مثل: القيروان، وفاس، ومراكش، تمبكتو، تلمسان، توات، وأخيرا عاصمة الدولة العلوية (مكناس) حينما ظهرت هذه الأخيرة بعدما اكتمل النضج المعرفي، بسبب تمكن الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية والتصوف السني، وبدأ علماء الشناقطة يتولون التأليف فألف ابن الأعمش في العقيدة وكذلك في النوازل الفقهية، وكذلك ابن بونه الجكني (ت1220هـ) في العقيدة الأشعرية، وأدخل سيدي المختار الكنتي (1142-1727-1226هـ-1811م) التصوف

¹ - أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقراق، الرباط، 2015، ص: 73.

² - الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، سبق ذكره، ص: 72.

القادري على طريقة الجنيد السالك(ت297هـ—)وبعد انتصار علماء الأشعرية بقيادة ابن بونه على علماء السلفية بقيادة محمد بن حبلل المعروف ب"مجيدري" (1160-1204هـ) حيث كان لذلك السجل العلمي دوره في فك الحصار عن الشعر وبروز نخبة من العلماء شعراء، حيث ارتبط الشعر في تلك الفترة بالفقه دفاعا وشرحا وتقريبا.¹

هنا وفي لحظة مضيئة من تاريخنا الثقافي بعدما قدمت هذه المدن مجتمعة عبر رحلة كانت بطيئة لكنها كانت عميقة عصارة المنهج العلمي لأهل السنة، دخلت بلادنا عصرها الذهبي وتطورت مناهجها، فجاء التفاعل إعجابا وإشادة من طرف أمراء الدولة العلوية الإسماعيلية بمكناس احتفاء، جاء ذلك في قول الأمير العلوي محمد العالم بن مولاي إسماعيل (ت1706م):

أتانا من قرى شنقيط شعر@ تعالى فوق سحر الساحرينا

يقصر شعرنا عنه لو أنا @ بعثنا في المدائن حاشرينا.

والشعر هنا المقصود به العلم والشعر حيث كان الشعر توأما، حين كانت المحظرة تفرض منهج قراءة القرآن والفقه واللغة العربية والشعر..

هكذا استطاعت هذه المدن التي اخترنا منها نماذج ذات حضور حيوي في التأثير ونقل العلوم والمعارف إلى مدن بلاد شنقيط، حيث تمكنت تلك الحركة من خلق حركة موازية هنا في البلاد كانت وراء تأسيس هوية دينية وثقافية صارمة وثابتة، لم يستطع المستعمر الغربي الذي وصلت طلائعه عبر شواطئ المحيط الأطلسي، ومن خلال أطماعه التجارية التي عرفت البلاد منذ القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، فإن ذلك الإرث الذي تركته المدن وتلك النبة كانت بمثابة صمام أمان للمجتمع الموريتاني.

خاتمة:

ونستنتج مما سبق وبعد جولة في رحاب عدة مدن عرفت البلاد في فترة تأسيسية استطاعت هذه المدن عبر أجيالها المختلفة أن تكون الوعاء الصادق الذي احتضن وطور علوم الشريعة الإسلامية، وعلوم الآلة، وكان تعاطيه مع الروافد القادمة من القيروان وفاس وتمبكتو ومراكش وتلمسان وتوات تفاعلا واعيا، تولت النخب العلمية والقادة السياسيون ترتيب وتنسيق حاجة المجتمع لتلك العلوم والأسانيد، حيث كان المجتمع في بداية أمره في مرحلة الجيل الأول: كومي صالِح وأدغست يحتاج للفقه والفتوى لفك النزاعات وتسجيل الديون والعبادات وحل القضايا

¹ - أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية، سبق ذكره، ص: 167.

الاجتماعية كالزواج والطلاق والخلع والنفقة.. فكان المذهب المالكي بنسخته القبروانية الغير معقّدة خير وافد يحتاجه المجتمع حديث العهد بالوثنية.

وفي الجيل الذي تبع الجيل الأول حيث مثلت مدينة أزوكي بصفقتها عاصمة سياسية تلك المرحلة حين بدأ طموح مؤسسها يرتفع نحو ردف المنهج العلمي بالعقيدة الأشعرية؛ حين اصطحب الأمير ابن عمر معه في عودته الإمام الجليل ضاليع في علم الأشعرية الإمام الحضرمي، ورغم أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح ولا الاستمرار إلا أنها احتفظت لها الذاكرة بالتبجيل والتقدير؛ مما كان له بالغ الأثر في التكوين العلمي لدى الجيل الأخير من المدن. وتأتي المدن الأربع: ولاتة وتيشيت وودان وشنقيط كخاتمة العقد حين تطورت العلوم واكتمل نهجها وعطاؤها..

ومن أهم تلك النتائج ازدهار المرحلة الموالية التي تلت مرحلة الجيل الأخير من المدن، وهي مرحلة المحظرة والتي بموجبها تميزت البادية الشنقيطية بأنها استثناء من بين بوادي العالم بمستواها المعرفي الكبير، فحينما تراجع دور الحواضر بسبب تحول التجارة من صحراوية إلى شاطئية انعكس ذلك على أداء المدن بسبب الأزمة الاقتصادية عندما تحول المورد الاقتصادي الذي كان شريان الحياة في تلك الحواضر، ومن ذلك جاء نتيجة لتلك الثنائية متمثلة في ازدهار المحظرة التي أنتج منها العلماء الفقه والعقيدة والتصوف.

قائمة المصادر

- 1-الناني بن الحسين، صحراء الملثمين، وعلاقاتها بشمال وغرب إفريقيا، من منتصف القرن:2هـ-8هـ إلى نهاية القرن 5هـ-11م. بدون تاريخ نشر ولا ذكر للمطبعة.
- 2- أبو عبيد عبد الله البكري، المسالك والممالك، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- 3- تربه بنت عمار، الحركة الفقهية والمذهبية في الغرب الإسلامي، من القرن:2هـ-8هـ/ 8م حتى 13هـ-19م (قراءة جديدة لسيطرة المالكية وإسهام الشناقطة في طورها الأخير) ط: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الطبعة الأولى، 2025.
- 4-عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج 1، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- 5- أحمد ولد السعد، المساجلات الكلامية في بلاد شنقيط خلال القرن الثالث عشر هجري، ط: مركز الدراسات الصحراوية، دار أبي رقرق، الرباط، 2015
- 6- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج: الثاني، ط: دار الشرق العربي.

7- الخليل النحوي، بلاد شنقيط المنارة والرباط، ط: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

الإبداع الفني في الشعر الشنقيطي، دراسة أسلوبية لقصيدة من ديوان ابن أمبوجه

التشيتي

الدكتور حماد الله مياي
أستاذ بالمدرسة العليا للتعليم

الملخص

يتناول هذا البحث قصيدة من ديوان الشاعر ابن أمبوجه التشيتي، بالدراسة الأسلوبية، ضمن مساهمة في اختبار كفاءة المنهج الأسلوبي في دراسة الشعر العربي القديم، بوصفه منهجا يرى في الظاهرة اللغوية في النص الأدبي هي تقنية النص التي يجب الكشف عنها، وقد اخترنا ابن أمبوجه بوصفه نموذجا للشعراء الشناقطة المجيدين؛ الذين يستحقون الدراسة؛ ووفق المنهج الذي اخترنا فإن السمة المائزة لأي نص تكمن في لغته، وليس العمل الأدبي سوى رسالة لغوية، واللغة ليست مجرد أداة لنقل الأفكار؛ بل هي أداة يشكل من خلالها المبدع عالمه المفارق، ومشكلة الدراسة متأتية من كون ديوانه لم تدرس فنيا من قبل، بل أن الشاعر نفسه ظل مغمورا إلى وقت قريب. وبناء على ذلك فإن البحث يسعى إلى دراسة قصيدة مدحية مختارة من ديوانه، والتنبيه إلى الجمال والإبداع فيها. ومنهج الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي وفق النظرية الأسلوبية، وقد جاءت هذه الدراسة في: مدخل وأربعة مباحث مشفوعة بالخاتمة. وقد أظهرت نتائج الدراسة أن شعر ابن أمبوجه يتميز بـ: التزام دقيق بأصول الشعر الكلاسيكي من حيث الوزن والقافية، واستخدام متميز للمحسنات البديعية والصور الشعرية، وتنوع في المعجم اللغوي بين التقليدي والمبتكر، وعمق في الدلالات والرموز الشعرية.

هذه الخصائص تجعل من تجربة ابن أمبوجه نموذجا متميزا للشعر العربي في القرن التاسع عشر في الفضاء الصحراوي، وتأكد الحاجة إلى مزيد من دراسته ونقده.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب - الأسلوبية - المديح - ابن أمبوجه.

مقدمة

يسعى هذا البحث إلى دراسة قصيدة من ديوان ابن أمبوجه دراسة أسلوبية، وهي محاولة تتبع من رغبة قديمة لدي، مبعثها التعلق بتنفيذ رجاء أطلق الباحث الكبير الدكتور أحمد بن الحسن محقق ديوان الشاعر، عندما قال في مقدمة التحقيق: "ولا شك أن ديوان هذا الشاعر يحتاج بحثا نقديا مفردا يستجلي خصائصه الفنية والأسلوبية ويثري بنتائجه التاريخ العام للشعر الشنقيطي،

وهو ما نرجو أن يتيسر قريبا على يدينا أو أيدي غيرنا من زملائنا الباحثين⁽¹⁾. وقد فضلت المنهج الأسلوبي أيضا لأنني أقدر أنه هو المنهج نفسه الذي كان سيدرس المحقق وفقه الديوان لو أتيح له ذلك، كما فعل في أطروحته الهامة " الشعر الشنقيطي في القرن الثالث عشر الهجري، مساهمة في وصف الأساليب".

وقد كان بودي أن تكون الدراسة للديوان كله كما ورد في رجاء الراحل رحمه الله، لكنني فضلت تناول هذه القصيدة أولا، لأكمّله لاحقا إن تيسر ذلك، فهو ديوان يستحق الدراسة فعلا، فابن امبوجه يعد نموذجا من الشعراء الموريتانيين المجيدين؛ ولا شك أن المنهج الأسلوبي له قدرة فائقة على كشف جماليات اللغة، والسمة الأساسية للنص الأدبي تكمن في لغته، وهو قبل كل شيء رسالة لغوية، تعتمد استخدامات خاصة ومميزة للغة.

ومن الأكيد أن اللغة الأدبية وسيلة لنقل الأفكار والتجارب والمشاعر والتصورات، لكنها في الآن نفسه آلة يصنع منها المبدع عالما مغائرا أو مواز للعالم، "ذلك بأن اللغة عبر معايشرة الكائن الحي لها كونت حالة إدراكها الخاص فصار ينظر إليها على أنها أداة نفسها في إبداع فكرة الكاتب، كما صار ينظر إليها على أنها خالقة لموضوعها، ومبدعة له"⁽²⁾.

ومن هنا سعت الأسلوبية، بوصفها منهجا علميا يدعي لنفسه الموضوعية والانضباط إلى تحليل الظواهر اللغوية الأساسية التي تميز نصا ما، فرارا من الذاتية والذوق الانطباعي الذي ميز النقد القديم، ووفقا لهذا التقدير ارتأينا أن دراسة هذا النص من منظور أسلوبي من شأنه أن يؤدي إلى قراءة ثرية وموضوعية في الآن نفسه.

تمهيد:

الشاعر: نبذة عن حياة ابن امبوجه وشعره: (ت 1275هـ 1885م)

هو محمد بن محمد الصغير بن انبوجه العلوي التشيتي، فقيه كبير ومؤلف متصوف، عرف بغزارة العلم وكثرة التأليف، والرسوخ في التصوف، ولد بتيشيت، وبها درس، وتولى القضاء، انتمى للطريقة القادرية، ومدح شيخها المعاصر له الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي بعدد من القصائد، ثم انخرط في الطريقة التجانية التي لازمها إلى آخر حياته وخصص لها جل عمله نثرا وشعرا، وقد اتصل بالمجاهد الشيخ عمر تال الفوتي التجاني الذي أثارت انتصاراته وتوسعات دولته في مالي حماس ابن امبوجه، ولعله كذلك كان "يتطلع إلى أن يبسط

(1) سيدي عبد الله بن امبوجه: ضالة الأديب؛ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1996، ص: 49.

(2) بيبير جيرو: الأسلوبية، ترجمة: محمد منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط2، 1994، ص:

المجاهد الفوتي سيطرته على بلاد شنقيط نفسها في المرحلة التالية، ليخلصها من فوضى المكوس والإتاوات⁽¹⁾

ومن أشهر قصائده في مدح الشيخ عمر الفوتي القصيدة موضوع الدراسة. وهنا لا بد أن نشير إلى أن ديوان ابن امبوجه⁽²⁾ تضمن 1388 بيتاً موزعة على 66 نصاً، شديدة التفاوت طولا، من البيت الواحد إلى القصيدة التي تتأخر المائتين⁽²⁾. وكاد شعر الرجل أن ينحصر في الأغراض الدينية أو الأغراض الملامسة لها. وسنتناول الظواهر الأسلوبية البارزة في القصيدة، في المستويات التحليلية الصوتية، والتركيبية، والدلالية، وفق تحليل يتتبع الظواهر إحصائياً.

وينبع اختياري لهذه القصيدة من كونها في غرض المدح، وهو الغرض الذي نظم فيه الشاعر ابن امبوجه أغلب شعره، فقد استغرق 463 بيتاً من أصل 1388، هي كل ديوانه، أي نسبة 33.36%، بالإضافة إلى عناية الشاعر بها، فهي القصيدة الوحيدة في الديوان التي أعطها عنواناً، وهو: "شمس القصائد الغرر، في تهنئة الشيخ عمر" كما أن شكلها مغرٍ بالدراسة والقراءة، فقد صممها الشاعر تصميمًا بصرياً، محاكياً حركة الشمس اليومية، يقول ابنه سيدي عبد الله جامع الديون: "وهذه القصيدة لها مطلعان أحدهما في النسب وأوله:

سرى طيف....إلخ، والثاني تعرض فيه لمنوال لم يسبق إليه، ولا عرج أحد قبله عليه، أوله: أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر إلخ، ومَقِيل ومَغْرِب. فأما المَقِيل فهو ما تضمنته من مديح الشيخ

وتهنئته، وأما المَغْرِب فإنه نسجه على منوال الوعظ وأوله:

بلغتُ وجاوزتُ الأشد من العمر ...إلخ

ومن المناسب لها أن تكتب في وجه ورقة واحد كما فعل منشؤها بخط يمينه؛ قابل المطلعين الأولين، ولما تخلص، تابعها بيتاً بيتاً في وسط الوجه، ولما تم الوجه طولا شرع في المقطع الثالث عرضاً حتى قابل آخره حين التخلص ببيت التخلص وهو:

إمام الندى شيخ الهدى عمر الرضى... إلخ

ولأننا لم تمكنا متابعته في هذا المنوال لضيق طول الكاغد وعرضه بينا حقيقتها بهذا النمط، ثم سردناها متابعة كما سترى. ولما كانت شمسا كان لها مطلعان أولاً، وتقبل في مدح

(1) سيدي عبد الله بن امبوجه، مرجع سابق، ص: 45.

(2) سيدي عبد الله بن امبوجه: مرجع سابق، ص: 45.

الممدوح، وكان لها غروب تغرب فيه ويتخلص على المدح كالمطلعين، ومن تأمل تصريح
المطلعين عرفهما، من حرف الراء من بحر الطويل⁽¹⁾

الجدول (1)

المخطط الهندسي للقصيدة				
المطلع الأيمن			المطلع الأيسر	
سرى طيف سعدى حين لا طارق يسري وطاب كرى الخالين من حرج الصدر			أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر وأيامهم فيه كأعياده الغر	
المقيل				
إمام الندى شيخ الهدى عمر الرضى			سليل سعيد المرتضى الماجد البر	
المغرب				
بلغت وجاوزت الأشد من العمر			فتب واستقم وارجع إلى ربك البر	

المبحث الأول: المستوى الصوتي:

ستتطلب الدراسة من تحليل البنية الصوتية، في النص، بدءاً بمستوى الموسيقى الخارجية:
(البحر والوزن والقافية والروي)، ثم تنتقل لاستكشاف الموسيقى الداخلية: (التكرار وأنواعه
ودراسة الأصوات) مما سيكشف عن تنوع إبداعي في استخدام للأدوات الصوتية بمرونة أسلوبية
تبرز تفرد التجربة الشعرية لابن امبوجه التشيتي.

المطلب الأول: الموسيقى الخارجية ودلالاتها الأسلوبية

تشكل الموسيقى إحدى المقومات الرئيسية في تحديد هوية الخطاب الشعري العربي، يقول
ابن طباطبا: "الشعر [...] كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما
خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق."⁽²⁾ وتعنى
الدراسات الأسلوبية بالبنية الموسيقية أولاً، من وزن وقافية وروي، وغيرها من مصادر الإيقاع
الموسيقي، بقصد توضيح دلالات اختيار الشاعر لهذه الموسيقى دون غيرها، لما ينشأ عنها من
دلالات متباينة، ولقد كان لابن امبوجه نصيب كبير من التنويع الموسيقي، في ثنايا ديوانه،

(1) سيدي عبد الله بن امبوجه: ضالة الأديب؛ المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1996، ص: 187-
188.

(2) ابن طباطبا: عيار الشعر، تح: عباس عبد الستار؛ دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط 2، 2005، ص: 9.

وسنقوم هنا بدراسة الموسيقى الخارجية أولاً؛ وذلك بتحليل الوزن والقافية والروي.

وقد عرف إميل بديع الوزن بأنه هو: "الإيقاع الحاصل في التفعيلات الناتجة عن كتابة البيت الشعري كتابة عروضية، وله أثر مهم في تأدية المعنى"⁽¹⁾، ومن المعلوم أن الأوزان الشعرية العربية القديمة كانت ستة عشر وزناً؛ حسب استقراء الخليل بن أحمد الفراهيدي (170هـ)، واضع علم العروض.

وقد أعد أحمد بن الحسن محقق ديوان ابن أمبوجه جدولاً يستعرض فيه حصيلة الوزن والغرض على هذا

النحو:

الجدول (2)

البحر	الطويل	الكامل	البسيط	الرجز	الخفيف	السريع	الرملي	المتقارب	المجموع
الغرض									
الثناء	112	145	00	00	00	00	00	00	257
المديح	227	201	00	01	34	00	00	00	463
الهجاء	071	00	119	00	00	00	00	00	190
الخاتمة	78=1	00	13	29	00	00	00	00	120
	56=2	041	91	38	00	00	04	26	256
	27=3	002	35	00	05	33	00	00	102
المجموع	717	389	250	68	39	33	04	26	1388

إن استقراء هذا الجدول يبين أن عدد قصائد الديوان قد بلغ (66) ستاً وستين قصيدة، بمجموع أبيات بلغت (1388) ثمانية وثمانين وثلاث مائة وألف بيت، ويتضح من خلال هذا الاستقراء أن استخدام ابن أمبوجه للأبحر الشعرية يظهر تعدداً مبدعاً، وتلويهاً في استخدام الأبحر الشعرية، ويبين مدى القدرة الإبداعية لديه، ومن الملاحظ أن غرض المدح قد طغى على بقية الأغراض الشعرية الأخرى في الديوان؛ حيث بلغ عدد أبياته (463) ثلاثاً وستين وأربع مائة، من إجمالي أبيات الديوان البالغ عددها (1388) ثمانية وثمانين وثلاث مائة وألف بيت، بنسبة مئوية بلغت (33.36%).

لهذا اخترنا هذه القصيدة المديحية لهذه الدراسة؛ لتكون معبرة عن مجمل الديوان. ولنشرع الآن في تقطيع مطلع القصيدة الأول عروضياً:

(1) إميل بديع يعقوب: معجم مفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991، ص: 458.

سرى طيف سعدى حين لا طارقن يسري وطاب كر نخالين من حرج صُصدر
o/o/o// /o// o/o/o// /o// o/o/o// o/o// o/o/o// o/o//

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعول مفاعيلن مفاعيلن فعول مفاعيلن
فالقصيدية إذن من بحر الطويل، "وسمي هذا البحر بهذا الاسم لأنه طال بتمام أجزائه، فهو لا يستعمل مجزوء ولا مشطورا ولا منهوكا" ويعد من أكثر البحور استخداما في الشعر العربي القديم، وقدرت نسبة المنظوم فيه من الشعر العربي القديم بنحو الثلث،⁽¹⁾ ورغم أنه أخذ في التراجع لصالح البحور الأقصر كالخفيف والبسيط والوافر والمجوزات، خاصة في العصر العباسي، فإنه ظل حاضرا بكثافة، بل ظل مفضلا لأن إيقاعه بطيء وجليل، ويتناسب مع كثير من الأغراض القديمة مثل الفخر والمديح والثناء، ويعطي للشاعر مجالا واسعا للمعاني بسبب طوله، ويمنح القصيدة طابعاً فخماً يتماشى مع البلاغة التقليدية.

"ولا تأتي عروض الطويل سالمة (مفاعيلن) إلا عند التصريع فتكون سالمة مع التصريع ومقبوضة حيث لا تصريع، والقبض هو حذف الخامس الساكن."⁽²⁾

وبما أن شاعرنا صرع مطلعاه جاءت العروض سالمة والضرب مثلها، لكنه سيعيدها إلى القبض وهو حذف الخامس الساكن ابتداء من البيت الثاني، وبقيت الضرب سالمة وجوبا في جميع القصيدة لورودها سالمة في البيت الأول.

ونلاحظ في حشو البيت أن (فعولن) اعتراها زحاف القبض مرتين في شطر العجز، وهو زحاف حسن مأنوس كثير الاستعمال.⁽³⁾

وبعد تقطيع مطلع القصيدة الثاني عروضيا:

أكارم هاذ دَهرٍ هُم زينة دَهرٍ وأيامهم فيهي كأعياده لغري
o/o/o// /o// o/o/o// o/o// o/o/o// o/o// o/o/o// o/o//

فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن مفاعيلن
نجد أن الشاعر صرع مطلعاه الثاني مجددا، وبالتالي تأتي له أن يأتي بالعروض والضرب تامين، واستعمل جميع تفعيل المطالع دون أي زحاف أو علة، وهذا دليل على تمكنه من أدواته، وكونه شاعرا قديرا.

(1) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر، دار الكتب العلمية، ط2، 1952، ص: 56.

(2) إميل بديع يعقوب: معجم مفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، مطبعة الأنجلو المصرية، ط1، 1991، ص: 98.

(3) محمد على الهاشمي: العروض الواضح وعلم القافية، دار القلم، 2008، ص: 20.

وسنقطّع المقطع الثالث "الغروب" عروضيا:

بلغت وجاوزت نأشدّد من لعمري فتبّ وستقّم ورجع إلا ربّك لبرزي

o/o/o// o/o// o/o/o// o/o// o/o/o// /o//

فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

ونجد أن الشاعر صرع المطلع الثالث مجدداً، فجاز له عروضيا أن يأتي بالعروض والضرب تامين.

وبتقطيع المطالع الثالث نجد أن القصيدة كلها في بحر الطويل، بصفاته ومميزاته التي ذكرناها آنفاً، ومن خلال استقراء جميع أبيات القصيدة بأجزائها الأربعة؛ وتحليلها وتقطيعها عروضيا؛ وجدنا أنها قليلة الزحافات خالية من العلل، وأن الشاعر أكثر من استعماله للتفعيلات الصحيحة في قصيدته؛ لأنها متوافقة مع الشاعر ونفسيته المتزنة الرقيقة، كما لاحظنا أن الزحافات التي جاءت بنسب أقل بكثير من التفعيلات الصحيحة؛ كانت بدافع الخروج عن الإيقاع الثابت، لا عن ضرورة عروضية.

وقد جاء روي القصيدة بمقاطعها المختلفة واحداً هو حرف الراء المكسورة المطلقة (ري).

المطلب الثاني: الموسيقى الداخلية ودلالاتها الأسلوبية:

وسنتناول في هذا المطلب الموسيقى الداخلية، بأنواعها المختلفة من تكرار وتصريع وطباق، مع قراء لدلالة الأسلوبية لكل لون منها.

- التكرار ودلالته:

يقول ابن رشيق في باب التكرار: "وللتكرار مواضع يحسن فيها، ومواضع يقبح فيها، فأكثر ما يقع التكرار في الألفاظ دون المعاني، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل"⁽¹⁾ فالتكرار له موسيقى ذات تأثير جميل، وهو أحد الأساليب البلاغية التي يستغلها الشاعر لإضفاء نغمة إيقاعية مميزة على النص، وتعميق المعنى، وشد انتباه المتلقي، للنظر والسمع معاً، وتتولد موسيقاه من إعادة لفظ أو عبارة أو تركيب في مواضع مختلفة من النص، بشكل عفوي أو مقصود، لكنه في الحالتين يزيد النص إيقاعاً، ويعزز الدلالة الشعورية، ولنأخذ نموذجاً على ذلك⁽²⁾:

(1) أبو علي حسن بن رشيق القيرواني: "العمدة في محاسن الشعر وآدابه"، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل للنشر، لبنان، ص: 256.

(2) سيدي عبد الله بن امبوجه، مرجع سابق، ص: 193.

1.سرى طيف سعدى حين لا طارق يسري وطاب كرى الخالين من حرج الصدر
11.تساور من يأبى مسامرة السهى مساورة تدهي حجي كل ذي حجر
24.أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر وأيامهم فيه كأعياده الغر
29.سرى الفكر كالنقاد قلب نقده وميز مدخول النقود من الحر
137.وغالب أهل الدهر أعوان دهرهم على من رماه الدهر في ثغرة النحر
ومن الملاحظ تكرار ألفاظ مثل: (سرى - يسري)، و(تساور - مساورة)، و(الدهر - الدهر) و(النقاد - نقده - النقود) ورغم أن استخدام الشاعر لظاهرة التكرار لا تبدو مقصودة، فقد ورد في النص كثير منه، وسنورد هنا جملة من الألفاظ التي تكررت أكثر في النص:

الجدول(3)

الكلمة	عدد التكرار
الله	22
الدهر	08
الإمام	06
كرم	05
الشعر	05
الفجر	04
المال	03

ورغم ما ذكرنا سابقا من كون هذا التكرار لا يبدو مقصودا، فإنه يؤكد معاني ملحّة لدى الشاعر مثل السري الدال على بعد المسافة بينه وبين ممدوحه، والمساورة الدالة على القلق، كما أن كلمة "النقد" وردت ثلاث مرات في بيت واحد لتؤكد استحضار الشاعر للنقد؛ لعدم خشيته، كما عكس التكرار العام في النص المحاور الرئيسية للقصيدة مثل الزمن: (الدهر)، والإيمان: (الله)، والتبرم بغياب الدولة: (الإمام) والرغبة في استتباب الأمر للمدوح: (النصر). وقد منح أغلب هذا التكرار إيقاعا داخليا في النص ماتعا.

- التصريح:

يعرف ابن رشيق القيرواني التصريح بأنه هو: (ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه، وتزيد بزيادته)⁽¹⁾، ولا يكون إلا في مطلع القصيدة؛ فيعرف به قبل تمام

(1) أبو علي حسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل للنشر، لبنان، ص: 2.

البيت الشعري؛ روي القصيدة وقافيتها، ويبرز التصريح في مطلع كل قصيدة، لكن البناء الخاص لقصدتنا المشكلة من ثلاثة مطالع جعل الشاعر يصرع المطالع الثلاثة ليبرز قدرته الشعرية من جهة، وليؤكد على انفصال المقاطع من جهة أخرى، يقول الشاعر في مطلع القصيدة الأول:

سرى طيف سعدى حين لا طارق يسري وطاب كرى الخالين من حرج الصدر
وفي المطلع الثاني:

أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر وأيامهم فيه كأعياده الغر
وفي المطلع الثالث:

بلغت وجاوزت الأشد من العمر فتب واستقم وارجع إلى ربك البر
ولا بد أن تعدد هذه المصارع أسس لقافية القصيدة في ذهن القارئ، وجدها مع كل مقطع جديد، وأعطى في نفس الوقت جرساً موسيقياً يطرب الأذن ويلفت الانتباه.

- الطباق:

الطباق من أبرز المحسنات البديعية، ويقوم على الجمع بين اللفظ وضده في سياق واحد، و(الطباق والمطابقة والتطبيق والتضاد والتكافؤ كلها أسماء لمسمى واحد، وهو الجمع بين المعنى وضده في لفظتين، نثراً كان أم شعراً)⁽¹⁾، وقد ورد بكثرة في النص، وسنستخرج الآن أمثلة منه⁽²⁾:

كان المعاني الوحش والفكر صائد والألفاظ شص والمقاصد كالوذر
أو الفكر ريح والمعاني جداول والألفاظ مزن والمقاصد كالقطر
وما كل منظوم قلائد جوهر وما كل موزون يعد من الشعر
وما الشعر إلا ما تناسب: لفظه جواهر ياقوت، ومعناه كالدر
وقوله:

قد اكتتفتها حدة عمرية تشاب بعطف مثل عطف أبي بكر
لقد أضاف الطباق أثراً فنياً أثيلاً في النص، واستطاع الشاعر رسم في ذهن القارئ تأثيراً كبيراً، من خلال صورته الجميلة ووقع الشجيرة.

المبحث الثاني: المستوى الصرفي

في هذا المبحث سنعرض للمستوى الصرفي، من حيث العدول الصرفي في الأفعال المجردة والمزيدة، والمشتقات المختلفة.

(1) يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، دار المسيرة، عمان، ط1/2007، ص: 244.

(2) سيدي عبد الله بن أمبوجه، مرجع سابق، ص: 192.

المطلب الأول: العدول في البنية الصرفية ودلالاتها

الصرف كما عرفه السكاكي: (هو تتبع اعتبارات الواضع في وضعه، من جهة المناسبات والأقيسة)⁽¹⁾ وتنتشر في قصيدتنا مختلف الصيغ الصرفية للأفعال، وتنبأين وفق المضامين المعبرة عنها، وهنا سنبدأ بأوزان الأفعال، ودلالاتها، مثل قوله:

بهم تزدهي الحاجات في ثوب نجحها وتبتهج الآمال في حل الظفر
وأخلاقهم تملئ على مبتغي الندى فتكتب في لوح القريحة بالحبر
فتستعمل الأفكار بيض بناتها فتجمع منثور اللآلئ والشذر
وتفصح عنها للمصاقع ألسن صوارم لا تفري الظبي مثل ما تفري

فمن خلال هذا النموذج ندرك كثافة استخدام الشاعر للأفعال، المجردة والمزيدة، فقد استخدم تسعة أفعال مختلفة في أربعة أبيات، ومن المعروف أن الأفعال تدل على الحركة وأن المزيد منها يدل على زيادة في المعنى، والملاحظ استخدام الأفعال الثلاثية بكثرة، ولقد أفرز إحصاء الأفعال الجدول الآتي:

جدول (4) إحصاء الأفعال المجردة والمزيدة:

الفعل	العدد	النسبة
المجرد	243	53%
المزيد بحرف	152	33%
المزيد بحرفين	48	10%
المزيد بثلاثة أحرف	17	4%
المجموع	460	100%

يشير الجدول السابق إلى إحصاء الأفعال المجردة والمزيدة؛ وقد وردت الأفعال المجردة 243 مرة، مثل: (سرى، طاب، قال، نجح، فهم، جمع، نزل، عزل، ورد، قدر)، وقد وردت الأفعال المزيدة بحرف 152 مرة، في حين تكررت الأفعال المزيدة بحرفين 48 مرة، والمزيدة بثلاثة أحرف 17 مرة، إن اعتماد الشاعر على الأفعال الثلاثية المجردة؛ يظهر ميله إلى السهولة اللفظية في الأسلوب، بحكم سهولة نطق هذا النوع من أبنية الأفعال، قياساً على باقي الأبنية كالحماسي، والسداسي، فلعل الشاعر كان سهل الطباع، فانعكس ذلك في سهولة في ألفاظه. وعلى العموم فقد لاحظنا:

(1) السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ط3، 1996، ص: 231.

- هيمنة الثلاثي المجرد (خاصة فَعَلَ) بسبب طبيعة النص الوصفية والإنشائية.
- حضوراً قوياً للأفعال المزيدة بحرف (خاصة أَفْعَلَ وَتَفَعَّلَ) لتعميق المعاني والتعديّة.
- ندرة الأفعال (فَعَلَ وَفَعَّلَ) التي تظهر في سياقات محددة (مثل الصفات الثابتة).

المطلب الثاني: عدولات المشتقات، ودلالاتها:

لقد لاحظنا في الدراسة كثرة استعمال الشاعر للمشتقات، التي عرفت بأثر البالغ في الكلام، كاسم الفاعل، واسم المفعول، وصيغة المبالغة، فقد استخدم الشاعر صيغاً صرفية متنوعة مكنته من التعبير عن معانٍ مختلفة، وقد أفرز إحصاء المشتقات الجدول التالي:

جدول (5) إحصاء المشتقات:

نوع الصفة	العدد	النسبة	أمثلة من النص مع رقم البيت
اسم الفاعل	92	48%	مُتِمَّ (البيت 3) مُقَاسِيهَا (البيت 12) مُسَيِّئِينَ (البيت 83)
اسم المفعول	64	33%	مَخْذُول (البيت 29) مَحْفُوظَة (البيت 56) مَطْرُوزَة (البيت 77)
صيغ المبالغة	36	19%	سَبُوح (البيت 20) رَهِيْب (البيت 89)
المجموع	192	100%	

يشير الجدول السابق إلى أن صيغة اسم الفاعل قد وردت (92) مرة، أما صيغ المبالغة، فقد جاءت منها (36) مرة، وهي صيغة تفيد المبالغة في أداء الفعل، وتكرار حدوثه، كما تكررت صيغة اسم المفعول (64) مرة، ويدل الاستخدام الواسع أسلوبياً لاسم الفاعل الأكثر استخداماً (48%) على الحركة والحالية، وهو أساس الوصف في النص، بينما صيغ المبالغة التي كانت أقل شيوعاً (19%)، لم تظهر إلا في سياقات محددة للمبالغة، مثل: (جَمُوح، سَبُوح، رَهِيْب)، وكأنها صفات طبيعية لا تزول بزوال الوقت، أما صيغة اسم المفعول فقد جاء بنسبة (33%)، واستخدم لوصف النتائج أو الآثار (مثل: مَكْرُوه، مَطْرُوزَة).

ولنقرأ قوله⁽¹⁾:

وجودك فيها طافح الموج بحرّه تضلع جل الناس من مائه الغمر

(1) الديوان، ص: 193

وعذلك سار في مريدك مثل ما سرى الماء في عنقود أخضر من خضر
وسيفك في أعداء ربك راسب وقد حكمت فيهم لدان القنى السمر
ورعبك في أحشائهم متمكن يقلبهم ظهرا لبطن إلى ظهر
ف نجد في هذه الأبيات الأربعة أربع صيغ من صيغ اسم الفاعل، هي: (طافح، سار،
راسب، متمكن)؛ وهي صيغة تخدم غرضا أسلوبيا دقيقا، هو تصوير صفات الممدوح (الهيبة،
العدل، الرهبة) كصفات ثابتة، متجذرة، مستمرة، وليست طارئة أو عارضة. وهذا يعزز البناء
الإيقاعي والنفسي لصورة الممدوح القوي العادل، الذي تفيض هيئته في المكان، ويتمكن رعبه
في القلوب، وتوظيف صيغ أسماء الفاعل جاء حاملا دلالة الفاعلية المتواصلة؛ فكثف الشاعر من
استعماله لهذه الصيغة؛ لما تثيره من دوام الحركية.

أما اسم المفعول فإنه أقل انتشارا، مقارنة باسم الفاعل، وهذا مفهوم من غرض النص،
المكرس أساسا لصفات الممدوح، لكنه مبعوث في ثنايا النص، يقول الشاعر⁽¹⁾:

ترى السنة الغراء قائمة على قوائمها محفوظة الشفع والوتر
مشنفة الأسماع باهرة السنى مكرمة المثنوى مقلدة النحر
فعندما أراد وصف ما آلت إليه السنة النبوية بقيام دولة الممدوح كثف استخدام اسم
المفعول، ففي هذين البيتين وردت أربع صيغ لاسم المفعول، لتضفي على السنة الغراء هالة من
القداسة والثبات والتكريم المتجدد، فهي محفوظة، مكرمة، مزينة، مشنفة، مما يعكس التعظيم
الكامل.

المبحث الثالث: المستوى التركيبي

يتعرض البحث في هذا المبحث للمستوى التركيبي حيث يستعرض في هذا المستوى نظام
الجملة والعدولات في التركيب النحوي، والأسلوبي، والبلاغي، ودلالات كل منها.

* المطلب الأول: العدولات في التركيب النحوي، ودلالاتها:

تكمن أهمية اللغة بالنسبة للمدخل الأسلوبي في أنها الوسيط الذي يتجلى فيه الأسلوب،
والأسلوب في جوهره ليس إلا اختيارات لغوية مخصوصة تميز نصا عن آخر، أو كاتباً عن
غيره، فـ"المدخل الأسلوبي لفهم أي قصيدة هو لغتها"⁽²⁾، فدراسة الجمل ومكونات التركيب من
مبتدأ وخبر، وفعل وفاعل ونحوها، يسهم في الكشف عن خصائص الأسلوب، كما سيتضح في
التفصيل الآتي:

(1) الديوان، ص: 192

(2) شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، مصر، ط2، 1992، ص: 138.

الجملة الفعلية:

ويمكن أن نمثل لكثافة استخدام الشاعر للأفعال، والاعتماد عليها بأنواعها المختلفة، في تركيب جملة بقوله:

يكاد بلا قدح يرى زند جوده وينبوعه يجري علينا بلا حفر
ويستصغر الدنيا لراج ويكتفي بتعريض من أثنى فيسمح بالوفر
فقف أيها العافي وناد ببابه يزل عنك رب الناس ما مس من فقر

أول ما يلفت النظر في القراءة الأولى للأبيات السابقة، أنها تشتمل على مجموعة متنوعة من الأفعال؛ (ثمانية أفعال مضارعة: يكاد، يرى، يجري، يستصغر، يكتفي، يسمح، يزل)، و(فعل ماض واحد: مس)، و(فعل أمر: قف، ناد).

وقد منحتنا هذه المجموعة المتنوعة من الأفعال في هذا المثال دليلاً كافياً على ما يتوفر عليه النص من الحيوية والحركة، ولقد أفرز إحصاء الأفعال حسب أزمنتها الجدول (6) التالي:

الزمن	العدد	النسبة
الماضي	299	65%
المضارع	138	30%
الأمر	23	5%
المجموع	460	100%

والملاحظ في الجدول حضور الزمن الماضي بنسبة عالية، بينما يأتي المضارع في المرتبة الثانية، وكان الأمر أقل حضوراً بكثير، إن توظيف الشاعر لهذه الأزمنة، بهذه النسب وهذا التوزيع يوحي بارتباط عميق بالممدوح، وتأكيد الزمن لصفاته، كما يعبر عن تعلق الشاعر بالماضي لما يجد في ممدوحه من رغبة في استعادته.

المطلب الثاني: العدول في التركيب البلاغي، ودلالته:

سنسعى في هذا المطلب إلى تحليل الانزياحات والعدولات على مستوى التقديم والتأخير والحذف والذكر والتعريف والتذكير ...

أ- التقديم والتأخير:

يعتبر التقديم والتأخير سمة أسلوبية من أبرز السمات على المستوى التركيبي؛ يقول الجرجاني: "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك، أن قدم فيه

شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان⁽¹⁾، ونلمس كل ذلك بوضوح في قول الشاعر⁽²⁾:

فسبحان من أعطاك من فيض فضله خصوصية تسمو على الكوكب الذي
تجلى بها في اللوح وجه نهاره وسار بها في جوه الليل إذ يسري
متى نشرت أعلامها تخف عندها فضائل أرباب العلى وأولي الأمر
وقد فقتهم - يا زينة الدهر- همة وقد فقتهم فيما يكون من الفخر
فنرى أن الشاعر قد قدم شبه الجملة (من فيض) على المفعول به (خصوصية) وكان أصل
الكلام: (فسبحان من أعطاك خصوصية من فيض فضله)، لقد أدى تقديم شبه الجملة (من فيض)
إلى تأكيد المعنى، ومثله: (في جوه) فقد قدم شبه الجملة على الفاعل؛ لدواع بلاغية لعلها منها
الاهتمام بالمتقدم، الذي هو وجه الممدوح.

ب- الحذف:

وسنلتقي بالجرجاني مرة أخرى إذ يقول عن الحذف في مقاربتة لنظرية النظم، هو: "باب
دقيق المسلك، لطيف المأخذ، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت
عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين!!"⁽³⁾
وهو أسلوب شائع في الشعر خاصة، و"لا تكاد تخلو قصيدة من استخدام هذا الأسلوب على نحو
أو آخر"⁽⁴⁾، ومن أمثلة الحذف في قصيدتنا:

أطال على قلب المقيم ليلة من الدهر في ليل من الهم معتر
طوى عن مناشير الصباح بجنحها يد البسط حتى لا تسلط للفجر
ففي البيتين السابقين غاب الفاعل في البيت الأول فلم يذكره الشاعر؛ وتقديره: (الكرى أو
الهم)؛ فحذف الفاعل (الهم)، وأبقى على المفعول فقط (ليلة)؛ وفي البيت الثاني حذف شبه الجملة،
وتقديرها: (على الليل)، وأبقى على المصدر وفاعله المجرور لفظاً: (تسلط للفجر)؛ وللحذف
خواص جمالية تمتع القارئ وتشعره بالمتعة عند اكتشاف المعنى المراد.

(1) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1/1983، ص: 62.

(2) الديوان، ص: 194.

(3) الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف، التعريفات، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1/1983، ص: 62.

(4) يوسف أبو العدوس: الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ط1/2007، ص: 190.

* المطالب الثالث: العدول في الأسلوب، ودلالته:

أولاً: الأسلوب الإنشائي: يعرفه يوسف أبو العدوس بقوله، هو: "كلام لا يحتمل صدقاً ولا كذباً لذاته ... ولا يحصل مضمونه ولا يتحقق إلا تلفظت به"،⁽¹⁾ ومن أهم أنواعه: النداء، والاستفهام، والأمر ... إلخ.

أ- الاستفهام: ويقصد به: (طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل)،⁽²⁾ ورغم أن شاعرنا استخدم الاستفهام بمعناه الحقيقي، فسنورد هنا مثالا غير حقيقي؛ إذ لا يدل على طلب العلم بالمستفهم عنه، بل على التمني؛ فاستخدم الاستفهام، ليبرز ذلك التمني أكثر؛ في قوله:⁽³⁾

فمن لي بسعدى أن تفي بوعودها بوصل؟ أو ان توفي بما كان من نذر؟
وما لي غنى أن ينشب الموت برثنا بنفسي ينسي ما الأقي من الأمر؟

فالشاعر لا يسأل حقيقة، وإنما يتمنى ويترجى في الأسئلة التي استخدم لها "من".

ب- النداء: وهو: (طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف نائب مناب "أنادي" المنقول من الخبر إلى الإنشاء)⁽⁴⁾، وقد استخدم الشاعر هذا الأسلوب عدة مرات، ومن أمثلته قوله:⁽⁵⁾

أيا ابن سعيد أيد الله دينه بسيفك حتى يمحي أثر الكفر
ويا كعبة الجود المعظمة التي يطوف بها العافون في كل ما شهر

وقد جمع بين الهمزة الخاصة بنداء القريب، و"يا" الخاصة بنداء البعيد، لدلالة على قرب المنادى الممدوح نفسياً، وبعده مكانياً، كأنه يستحضر قربه ليسمع ما دبح فيه من مديح، وهذا التوظيف لأداة النداء له دلالاته الأسلوبية، وأثره العميق لدى المتلقي من تشويق واستمالة عاطفية.

ج- الأمر: هو: (طلب حصول الفعل المخاطب، وإذا كان الأمر حقيقياً فإنه يكون على سبيل الاستعلاء والإلزام)،⁽⁶⁾ ونصنا طافح بصيغ الأمر، خصوصاً في مقطع الغروب ذو الغرض التوجيهي الديني حيث حشد (14) فعل أمر مسند للمخاطب المفترض في (15) بيتاً، وهذا مفهوم في ذلك المقام، غير أنه أيضاً استخدم الأمر خلال الغرض الرئيس للنص (المديح) في عدة تراكيب بصيغ مختلفة من الأمر الصريح إلى الأمر بلام الأمر: "ليبيكهم الباكون" واسم

(1) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، ص: 76.

(2) المصدر نفسه: ص: 78.

(3) الديوان: 192.

(4) يوسف أبو العدوس: مدخل إلى البلاغة العربية، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط1، عمان 2007، ص: 84.

(5) الديوان، ص: 191

(6) يوسف أبو العدوس: نفس المرجع، ص: 86.

فعل الأمر: "قدونكها حسناء" ومن أمثلة الأمر التي خرجت إلى دلالات ومعان أخر قول الشاعر:⁽¹⁾

فقف أيها العافي وناد ببابه يزل عنك رب الناس ما مس من فقر
فالأمر في البيت السابق إنما قصد منه الشاعر إبراز كرم ممدوحه؛ فطلب من كل ذي حاجة أن يلجأ إليه.

ثانياً: الأسلوب الخبري: قال الجرجاني: "وجملة الأمر أن 'الخبر' وجميع الكلام، معان ينشئها الإنسان في نفسه، ويصرفها في فكره، ويناجي بها قلبه، ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض، وأعظمها شأنًا 'الخبر'، فهو الذي يتصور بالصور الكثيرة، وتقع فيه الصناعات العجيبة، وفيه يكون، في الأمر الأعم، المزايا التي بها يقع التفاضل في الفصاحة، كما شرحنا فيما تقدم، ونشرحه فيما نقول من بعد إن شاء الله تعالى".⁽²⁾

وقد عرفوه بأنه "كل كلام يحتمل الصدق والكذب"؛ وهو الأسلوب الأكثر انتشاراً في النص، بل سائر الكلام كما قال الجرجاني، وهو الأنسب لغرض المدح، ومن أمثلة الأسلوب الخبري في القصيدة قوله:

وهيبتك العظمى التي في نفوسهم وحبك فيها أغنياك عن الزجر
وجودك فيها طافح الموج بحرته تضلع جل الناس من مائه الغمر
وعدلك سار في مريدك مثل ما سرى الماء في عنقود أخضر من خضر
وسيفك في أعداء ربك راسب وقد حكمت فيهم لدان القنى السمر

فقد حشد الشاعر جملة من الجمل الخبرية؛ "لأنه [الأسلوب الخبري] يخلق حركة متموجة ممتدة تضيف على النص حيوية ونشاطاً"،⁽³⁾ وقد وظفها الشاعر بشكل فني رائع؛ لإضفاء طابع الحتمية واليقين على صفات: (العظمة، الجود، العدل، القوة) في ممدوحه، مما يعكس ثقته العالية به.

المطلب الرابع: العدولات في التركيب البياني، ودلالاتها:

المقصود بهذه العدولات هي تلك الصور التي يخلقها الشاعر للنأي عن مألوف الكلام، وتجريب إمكانات اللغة المختلفة في التعبير عن رؤية شعرية بمجازات مختلفة كالتشبيه، والاستعارة، والكناية، مما يسمو بالخيال ويترك أثراً ساحراً في القارئ.

(1) الديوان، ص 192.

(2) دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص 528.

(3) الأزهر الزناد: دروس البلاغة العربية، نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي للنشر، بيروت، لبنان، 2007، ص: 13.

أ- التشبيه:

قال قدامة بن جعفر في "نقد النثر": (وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في التشبيه ألطف كان بالشعر أعرف).⁽¹⁾ ويعرفه الخطيب القزويني بقوله: (التشبيه: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى)⁽²⁾ بمعنى أنه تمثيل شيء بشيء لاشتراكهما في صفة أو أكثر؛ وقد وظفه شاعرنا كثيرا، ومن أمثلته قوله يصف الشعر:

كأن المعاني الوحشَ والفكرَ صائدٌ والالفاظَ شصٌ والمقاصدَ كالوزر
أو الفكرَ ريحٌ والمعاني جداولٌ والالفاظَ مزنٌ والمقاصدَ كالقطر
وما كل منظوم قلائدُ جوهر وما كل موزون يعدُّ من الشعر
وما الشعر إلا ما تناسب لفظه جواهرٌ ياقوت ومعناه كالدر

وقد وظف الشاعر "التشبيه التمثيلي" لتصوير عملية الكتابة الشعرية، التي اعتبرها في البيت الأول مشابهة لمغامرة صيد، حيث المعاني كائنات وحشة تفر من صائدها، وفي البيت الثاني صورها دورة طبيعية (الريح → الجداول → السحاب → المطر)، وفي البيت الأخير جعلها عقدا تنظم فيه الألفاظ التي هي جواهر مع المعاني التي هي درر من الذهب. هذه الانزياحات تظهر كيف يحول الشاعر المفاهيم المجردة (الفكر، المعاني، الألفاظ، المقاصد) إلى صور محسوسة، سعيا إلى الإمتاع والإقناع، ولعله لم يسبق إليها، مما يجعله أكثر أصالة وإبداعا، وقد استطاع التنسيق بين أفكاره، والتعبير عنها بصورة تتم عن موهبة شعرية خلاقة.

ب - الاستعارة:

هي (أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالّا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخصّ المشبه به).⁽³⁾ أو تشبيه حذف أحد طرفيه، ونقلت بواسطته كلمة من حقل لغوي إلى حقل لغوي آخر.

وأظهرت دراستنا للنص استخداما كثيفا للانزياح الاستعاري، مع تنوع دلالي بين الاستعارة التصريحية والمكنية، ولعل ذلك يعكس نزعة الإحياء لدى الشاعر، ولنستمع إليه مثلا

(1) قدامة بن جعفر، نقد النثر، نشر: طه حسين، وعبد الحميد العبادي، المكتبة العلمية، بيروت، ص 58.

(2) القزويني، التلخيص ضمن، مجموع المتون الكبرى، ص: 473.

(3) القزويني، الإيضاح: ص 226.

في قوله: (1)

ترى السنة الغراء قائمة على قوائمها محفوظة الشفع والوتر
مشنفة الأسماع باهرة السنى مكرمة المثنوى مقلدة النحر

فالشاعر في البيتين استخدم استعارات متنوعة: (السنة الغراء قائمة على قوائمها، مشنفة الأسماع، باهرة السنى، مكرمة المثنوى، مقلدة النحر)، هذا التركيب الاستعاري يجعل النص نسيجاً من الصور المتداخلة، حيث تتحول المعاني المجردة (السنة الغراء) إلى كائنات وأشياء (الكائن الحي → الإنسان → الشمس → إلهي)، للتأثير في نفس المتلقي، من خلال تقريب الصورة وإضفاء طابع شاعري تخيلي على الموضوعات.

ج- الكناية:

هي (لفظ أطلق، وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى، أو هي اللفظ الدال على معنيين مختلفين: حقيقة ومجازاً، من غير واسطة لا على جهة التصريح). (2)

وقد انتبه البلاغيون إلى أن جمال الكناية يكمن في تخفية المعنى، والتكنية عنه، والميل عن التصريح، بهدف الإثارة والرغبة في كشف الخفاء، ومن أمثلتها في النص كناية الشاعر عن جوده أفكار الممدوح ورجاحة عقله، ببنات الأفكار، يقول الشاعر: (3)

أكارم هذا الدهر هم زينة الدهر وأيامهم فيه كأعياده الغر
بهم تزدهي الحاجات في ثوب نجحها وتبتهج الآمال في حل الظفر
وأخلاقهم تملئ على مبتغي الندى فتكتب في لوح القريحة بالحبر
فتستعمل الأفكار بيض بناتها فتجمع منثور اللآلئ والشذر

ويكني عن بعد مستوى ممدوحه من الملوك المحاربة له بقوله: (4)

وأمرك مبني على الزهد والندى وأمرهم يبني على الضم والكسر

ففي قول الشاعر في البيت الأخير من المثال الأول: (فتستعمل الأفكار بيض بناتها)، كناية عن جودة الفكرة وصحة العقل، فعبر عن المعنى المراد تلميحاً لا تصريحاً، وفي المثال

(1) الديوان، ص: 192.

(2) يوسف أبو العدوس: مرجع سابق، ص: 212.

(3) الديوان، ص 192.

(4) الديوان، ص 191.

الأخير كنى بالضم والكسر في عن الهبوط إلى مستنقع الفتنة بجمع المال والبخل. ولعبت هذه العدولات المختلفة أدوارا بارزة في مواطن متعددة من النص؛ إذ كانت بمثابة الألوان التي تزين لوحاته الفنية، والبهارات التي تضيف إلى طعمه نكهة ومذاقا، واللمسة التي تضيف عليه رونقا وسحرا وجمالا.

المبحث الرابع: المستوى الدلالي

يمثل المستوى الدلالي ركنا أساسيا في الدراسة الأسلوبية، مثل المستوى الصوتي، والمستوى التركيبي، فـ(نظرية الحقول الدلالية تعنى بدراسة مفردات اللغة من خلال تجميعها في حقول أو مجالات دلالية)،⁽¹⁾ بمعنى أن المستوى الدلالي هو ضم مجموعة من الكلمات تحت خط عام يجمعها؛ يقول شكري عياد: (المفردات التي تشيع في قطعة أدبية ما، تكون فيما بينها أنواعا من العلاقات التي لا تتوقف قيمتها على وظيفة كل كلمة مفردة في جملتها، وإحدى هذه العلاقات هي ما يسمى "الحقول الدلالية").⁽²⁾ هذه الحقول الدلالية هي ما سنتناول الآن.

* المطلب الأول: المعجم الشعري للشاعر ودلالاته الأسلوبية:

تضمنت القصيدة نحو: (2325) كلمة وظيفية بما فيها حروف الجر، العطف، الضمائر، الأدوات النحوية، منها: (262) كلمة ذات دلالة معجمية في التحليل الأسلوبي. وقد أظهر الإحصاء التحليلي أن النص قد سيطر عليه معجم ثلاثي: ديني، وكوني، وحربي، وشكل نسيجا مترابطا ليؤكد الشاعر من خلال المعجم الديني أن ممدوحه زعيما دينيا، وبطلا شبه أسطوري بالاستعانة بمعجم الطبيعة والحرب، وعالما حكيما كريما من خلال معجم الصفات لطفحة بمعني العلم والحكمة. هذا التوزيع يظهر أن الشاعر استخدم إستراتيجية معجمية متعددة المستويات لتعظيم الممدوح، مع تحقيق توازن بين الشرعية الدينية، والمصادقية السياسية، والهيمنة العسكرية.

(1) أحمد عمر مختار: علم الدلالة، دار العروبة، القاهرة، مصر، ط3/1992، ص: 79.

(2) شكري عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، ص: 121.

ويشير الجدول (6) إلى عدة نتائج نفصلها فيما يلي:

الحقل الدلالي	عدد الكلمات	النسبة المئوية	أبرز الأمثلة
الطبيعة	48	18%	نجم، فجر، ظلام، صباح، ريح، موج، بحر، قمر، شمس، أرض، سحب، قطر، ليل، ضوء، ظل، جنة، نهر، صخر، رعد، برق.
الدين	52	20%	صلاة، صوم، ذكر، جهاد، تقوى، خليفة، عدل، قرآن، بعث، نشر، حشر، طهر، إخلاص، زهد، ثواب، آخرة، رسول، إمام، هدى، قيامة، ميزان، جنان، ذكرى، مناسك، وقف، زكاة.
الحرب والفروسية	34	13%	سيف، فناء، جيش، ظفر، قهر، سمر، دعر، سلاح، حرب، عدو، نصر، جلد، درع، رمح، قيد، رسيق، حملة، وقار، صولجان، ميدان
الإنسان وصفاته	42	16%	قلب، عين، نفس، صدر، يد، وجه، سمع، بصر، عقل، فكر، خاطر، همة، صبر، حلم، جود، كرم، بخل، شجاعة، حكمة، ضعف، قوة، عزم، ذل، عز.
الزمان	28	11%	يوم، ليلة، دهر، عمر، وقت، ساعة، شهر، صباح، عصر، غد، أبد، لحظة، حين، أمد، أوان، سنين، دقائق
المكان	22	8%	دار، بيت، قصر، طريق، شط، مصرع، ميدان، جنان، سرير، عرش، قبة، مذود، محراب، روضة، وطن، غرفة.
العواطف	30	11%	حب، هجر، شوق، وجد، حنين، لوعة، هم، غم، فرح، خوف، رعب، وجع، سخط، رضى، حزن، كآبة، بهجة، اشتياق، قلق
الكرم والمال	18	7%	مال، ذهب، لؤلؤ، جود، كرم، بخل، نذر، عطاء، من، درهم، نفقة، كنز، رزق، فضة، متاع، قروش، أجر، هبة.
الفكر والمعرفة	16	6%	فكر، عقل، حكمة، رأي، ذكاء، بصيرة، إدراك، معنى، خاطر، علم، حجة، برهان، منطق، فلسفة، ذهن، فطنة.
الأشجار والثمار	12	5%	ريحان، شجر، ثمر، زرع، غصن، ورد، نخل، زهر، بستان، جنى، حصاد، بئر.

أ- معجم الطبيعة:

استخدم الشاعر (48) كلمة، من معجم الطبيعة؛ أي نسبة (18%) من كلمات النص، وسنورد نموذجين من استخداماته المكثفة لهذا المعجم، أولهما للتعبير عن شبه أسطورية الممدوح؛ ليجعل المتلقي يرسم صورة في ذهنه حاملة عنه، والثاني عالج فيه صورة خيالية لعملية الإبداع الشعري، ويظهر من خلال هذا المعجم شدة اتصال الشاعر بالطبيعة، يقول ابن أمبوجه: ⁽¹⁾

ليهنك أن الله أولاك فضله وأئك شمس المجد في نفنف الفخر

(¹) الديوان، ص: 192.

ويقول:

كأن المعاني الوحش والفكر صائد والألفاظ شص والمقاصد كالوذر
أو الفكر ريح والمعاني جداول والألفاظ مزن والمقاصد كالقطر
ب- المعجم الديني:

استخدم الشاعر نحو (52) كلمة مرتبطة بالدين، أي نسبة (20%) للتعبير عن كون
ممدوحه ليس مجرد زعم زمني، بل خليفة للمسلمين، وإماما للدين، بالإضافة إلى الدلالة على
عمق إيمان الشاعر، وسعة ثقافته الدينية، ولنستمع إليه في هذا المقطع:

إمام طوى دنياه في دين ربه وأنفق في مرضاته زلف العمر
خلافته أكرم بها من خلافة وكان بها نعم الخليفة في الأمر
أقام بها للناس ميزان عدله وصلى بأهل الله مكتوبة العصر
وصام عن التقصير في حفظ ودها وزكى نفوس الكفر من دنس الكفر
وحج بها محجوج بيت نظامهم وراعى حدود الله في كل ما قطر

د- الحرب والفروسية:

وظف الشاعر نحو (30) كلمة ذات علاقة بالحرب والفروسية والجهاد، أي نسبة (13%)،
للتأكيد على شرعية الممدوح، البطل المجاهد في سبيل الله، ولنعطي مثالا على ذلك:
وسيفك في أعداء ربك راسب وقد حكمت فيهم لدان القنى السمر
إذا ما بدا إكليل نصرك أذعنوا كأنهم نودوا لقارعة الحشر
ورعبك في أحشائهم متمكن بقلوبهم ظهرا لبطن إلى ظهر
تقوم عليهم ساعة كل ساعة فلا يستطيعون القيام من الذعر
وتبعث من أغفى من النوم مفزعا فيضحى خبيث النفس من حرج الصدر
وقد كتب الله الجلاء عليهم وعذب من لم يجل بالخزي والأسر
ه- معجم المكان:

المعجم المكاني في النص -رغم قلته النسبية- يلعب أدواراً حاسمة، حيث استثمره
الشاعر كأدوات بلاغية ليصير جزءاً من إستراتيجية تعظيم شخصية الممدوح وتعميق
صورته، فربط بين معاني المدح بأمكان لها دلالات في سياق الحديث عن المعاني؛ يقول

الشاعر: (1)

لذاك أقام المرملون إليكم صدور مطايا القصد من كل ما قطر
وقد ضربوا أكبادها من بلادهم إليك تجوب البيد قفرا على قفر
و- معجم الإنسان:

هذا المعجم استخدم منه الشاعر (42) كلمة أي نسبة (16%) من المعاجم الكثيرة الانتشار،
ويدور حول صفات الممدوح، من مجد وإمامة وكرم وشرف وخلق ودين وعلم وحكمة، ومن
أمثلته قوله:

ولم تتكلف من حلى المجد حلية ولكنها طبع بموجبه يسري
ولم تسترقها من أجانب معشر ولكنها متروك أجدادك الغر
وأخذ مجد ما توارثه الفتى عن اجداد صدق كلهم طيب النجر
وعلمك موروث بصحة نسبة إلى المصطفى المبعوث للسود والحر

وقد تضمن الجدول حقولا معجمية أخرى، وهي: معجم الزمان الذي وردت منه (28)
كلمة، أي نسبة (8%)، والعواطف، الذي وردت منه (30) كلمة، أي نسبة (11%)، وغير ذلك من
الحقول المذكورة في الجدول، واكتفينا بالحقول السابقة للتمثيل.

الخاتمة

بعد تحليل القصيدة وفق المنهج الأسلوبي، توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

المستوى الصوتي:

- استخدم الشاعر بحر الطويل، المناسب فخامة المديح وجزالته، مع الحفاظ على سلامة التفعيلات وقلة الزحافات، مما يعكس تمكنه من أدواته الفنية.
- اعتمد على روي الراء المطلق، الذي يعزز إيقاع الجزم والثبات، مع تكراره في جميع مقاطع القصيدة لتعزيز الوحدة الموسيقية.
- وظّف التكرار (مثل: "الدهر"، "الإمام") لتأكيد المحاور الرئيسية (الدين، السلطة)، كما استخدم التصريع في المطالع الثلاثة لتعزيز الانفصال بين المقاطع مع الحفاظ على تماسك النص.
- جاء الطباق (كـ "الوحش/الصائد"، "اللفظ/المعنى") لخلق توتر وتضاد يعمق الدلالة

(1) الديوان، ص: 192.

ويبرز براعة الشاعر في الصياغة.

المستوى الصرفي:

- هيمنت الأفعال الثلاثية المجردة (53%)، على النص، الأمر الذي عكس ميل الشاعر إلى البساطة والوضوح، بينما جاءت الأفعال المزيدة (47%) للتعبير عن التعدية والتكثيف الدلالي.

- سيطر اسم الفاعل (48%) على المشتقات، لوصف صفات الممدوح الثابتة (كـ "إمام"، "متمكن")، بينما قلَّ اسم المفعول نسبياً (33%)، ووظف لوصف النتائج (كـ "مَحْفُوظَة").

المستوى التركيبي:

- غلبة الجمل الفعلية (65% ماض، 30% مضارع) لإضفاء الحيوية على النص، بينما جاء الأمر (5%) في مقطع "الغروب" للنصح الموعظة.
- اعتمد التقديم والتأخير (كتقديم الجار والمجرور والظرف) لتأكيد المعاني، والحذف للإيجاز البلاغي.
- تنوعت الأساليب بين إنشائية (نداء، استفهام) لجذب الانتباه، وخبرية لترسيخ صفات الممدوح.

المستوى الدلالي:

- طغى المعجم الديني (20%) لترسيخ شرعية الممدوح كزعيم روحي، ومعجم الطبيعة (18%) لوصفه بصور شبه أسطورية (كـ "شمس المجد").
- جاء المعجم الحربي (13%) لتأكيد البطولة، بينما مثل معجم الزمان والمكان (19%) إطاراً لحركة النص.
- استخدم التشبيه: ("المعاني كالوحش") والاستعارة: (كـ "السنة الغراء قائمة على قوائمها") لتحويل المجردات إلى صور حية، والكناية (كـ "بيض بنات الأفكار") للإيحاء بدلا من التصريح.

السمات الأسلوبية العامة:

- التكثيف الرمزي: عبر تداخل الحقول الدلالية (الدين/الطبيعة/الحرب) لبناء صورة متكاملة للممدوح.
- الانزياحات البيانية: لكسر المألوف عبر الصور الشعرية المبتكرة (كـ "الفكر ريح والمعاني جداول").
- الوظيفة الإقناعية: الجمع بين الإمتاع (بالموسيقى والصورة) والإقناع (بالحجج الدينية

والسياسية).

ولا بد أن نلاحظ أن القصيدة تمثل نموذجا مكتفا لأسلوب الشاعر وتوجهه الصوفي والسياسي، وقد اختار هو نفسه عنوانها على غير عادته في ديوانه؛ إذ لم يختار عنوانا لأي قصيدة أخرى، بالإضافة إلى التفرد في تصميمها على هيئة حركة الشمس، فجعل لها "مطلعان": أحدهما في النسيب، والثاني في المدح، و"مقل": في المدح والتهنئة، و"مغرب": يتضمن وعظا وإرشادا.

هذا التصميم الاستعاري الذي يأخذ من النهار مراحل، يشير إلى شمولية النص وإحاطته بمدح الشيخ منذ البداية إلى النهاية، فليست مراحل النهار سوى مراحل الحياة في بعد ثان هو "معنى المعنى" على حد تعبير الجرجاني.

ينضاف إلى ذلك تشكيل القصيد تشكيلا بصريا مبتكرا، إذ رُتبت على شكل جيش له ميمنة وميسرة وقلب، وحامية، فالميمنة والميسرة، هما "المطلعان" المكتوبان متوازيان، والقلب هو "المقل"، المكتوب تحتها، ثم الحامية خلفه وهي "الغروب" وهذا التشكيل البصري يدل على ذوق فني رفيع، وعي فكري عميق بفضاء النص الذي كتب في مدح سلطان مجاهد، وهو أمر لا يتكرر كثيرا في شعر المنطقة.

وفي الختام لا بد من الإشارة إلى أن هذه الدراسة مجرد محاولة لدراسة نص شعري غني وفق منهج نقدي معروف، لكنها لا تدعي لنفسها الوصول إلى نتائج وخلاصات نهائية؛ إذ الخطاب الشعري سيبقى بطبعه عصيا على أحادية التأويل، ومنفتحا على تعدد القراءات ومجالا خصبا للباحثين والقراء.

المصادر والمراجع

1. أبو علي حسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجبل للنشر، لبنان. الطبعة: الخامسة، 1981.
2. أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، بيروت، 2017.
3. أحمد عمر مختار: علم الدلالة، دار العروبة، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1992.
4. ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق: عباس عبد الستار، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، 2005.
5. إميل بديع يعقوب: معجم مفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
6. الأزهر الزناد: دروس البلاغة العربية، نحو رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي

- للنشر، بيروت، لبنان، 2007.
7. بيبير جيرو: الأسلوبية، ترجمة: محمد منذر عياشي، مركز الإثراء الحضاري، حلب، سوريا، طبعة لثانية، 1994.
8. الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف: التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1983.
9. السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1996.
10. سيدي عبد الله بن امبوجه: ضالة الأديب، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1996.
11. شكري محمد عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، مكتبة الجيزة العامة، مصر، الطبعة الثانية، 1992.
12. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: ضياء الدين عبد الغني القالاش، دار اللباب.
13. الخطيب لقزويني لتلخيص ضمن: مجموع المتون الكبرى، مكتبة لتجارية الكبرى- مطبعة الاستقامة، 1955.
14. قدامة بن جعفر: نقد النثر، نشر: طه حسين وعبد الحميد العبادي، المكتبة العلمية، بيروت.
15. محمد علي الهاشمي: العروض الواضح وعلم القافية، دار القلم، 2008.
16. مجموع المتون الكبرى: مجموعة من العلماء، المكتبة لتجارية الكبرى، مطبعة الاستقامة، 1378هـ / 1955م.
17. يوسف أبو العوس: الأسلوبية، الرؤية والتطبيق، المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2007.

الأمثلة النحوية ومزاياها في الكتب النحوية ابن مالك أنموذجا

ماجد بن رجاء بن ظاهر الشمري
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
المملكة العربية السعودية

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

ابن مالك ألف كتباً عديدة في النحو العربي، وذكر فيها أمثلة كثيرة، وتتنوعت هذه الأمثلة، وتميزت على غيرها من الكتب النحوية، حتى جعل النحويون يستمدون من هذه الأمثلة، فيما يلي أذكر بعض الخصائص التي تميز بها الأمثلة النحوية عند ابن مالك:

أولاً: الاستفادة من التراث النحوي: يستفيد ابن مالك من التراث النحوي السابق عليه، ويقوم بتحليل الأمثلة التي قدمها النحاة السابقون، مع إضافة شرحه وتعليقاته التي تسهم في توضيحها وتسهيل فهمها، وقد رأينا بالتفصيل في الفصل الأول، وكيف وظف ابن مالك أمثلة النحويين القدامى، فعلى سبيل المثال:

عبد الله منطلق، ذكر ابن مالك هذا المثال في باب المبتدأ والخبر؛ على أن المبتدأ مرفوع بالابتداء، والخبر مرفوع بالمبتدأ، وهو من أمثلة سيبويه، نقله منه فقال: "ومذهب سيبويه أن المبتدأ مرفوع بالابتداء، وأن الخبر مرفوع بالمبتدأ، صرح بذلك في مواضع كثيرة، منها قوله: "المبتدأ كل اسم ابتدئ به ليبنى عليه كلام" ثم قال: "فالمبتدأ الأول، والمبني عليه ما بعده، فهو مسند ومسند إليه" ثم قال: "واعلم أن المبتدأ لا بد أن يكون المبني عليه شيئاً هو هو، أو يكون في مكان أو زمان، وهذه الثلاثة يذكر كل واحد منها بعد ما يبتدأ به، فأما الذي بني عليه شيء هو، فإن المبني يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء، وذلك قولك: عبد الله منطلق، ارتفع عبد الله لأنه ذكر ليبنى عليه المنطلق. وارتفع المنطلق لأن المبني على المبتدأ بمنزلته" هذا نصه، وقوله هو الصحيح، لسلامته مما يرد على غيره من موانع الصحة⁽¹⁾.

من الأمثلة القديمة التي ذكرها ابن مالك، قوله: مررت برجل خير منه أبوه، وهو من أمثلة سيبويه، ذكر ابن مالك هذا المثال في باب المبتدأ والخبر، حيث ذكر أن الوصف الذي يأتي مبتدأ لا بد أن يكون فاعله يغنى عن الخبر، فإذا لم يغن عن الخبر لا يقع مبتدأ، كما في قولك: أقائم

(1) شرح التسهيل 270/1.

أبوه زيد؛ لأنه لا يحسن السكوت على (أبوه) فلا يكون (قائم) مبتدأ وأبوه فاعلاً سد مسد الخبر، بل يعرب (قائم) مبتدأ، و(زيد) خبره، ولكن يرد عليه أن (قائم) نكرة، و(زيد) معرفة، والأصل في المبتدأ أن يكون معرفة والخبر نكرة، فيرى ابن مالك أنه يجوز في مثل هذه المواضع أن يكون المبتدأ نكرة، والخبر معرفة، كما ذكر سيبويه في مثال (مررت برجل خير منه أبوه) أن (خير) مبتدأ، و(أبوه) خبر⁽¹⁾.

فذكر ابن مالك هنا مثال سيبويه، وهذا المثال نفسه ذكره سيبويه وغيره من النحاة، فقد ذكر سيبويه هذا المثال في باب الصفة أي النعت، فيرى أن النعت إما أن يكون وصفاً مشتقاً فيجري على المنعوت، فتقول مررت برجل قائمٍ بخفض قائم، أو يكون نعتاً سببياً فالراجح أن يكون بالرفع فتقول مررت برجل حسن أبوه، فحسن مبتدأ وأبوه فاعل سد مسد الخبر، والمبتدأ مع الفعل نعت لرجل، قال سيبويه: " فلما جاءت مضارعة للاسم الذي لا يكون صفة البتة إلا مستكراً، كان الوجه عندهم فيه الرفع إذا كان النعت للآخر، وذلك قولك: مررت برجل حسن أبوه"⁽²⁾.

هذا إذا كان معنى الوصف قوياً، أما إذا لم يقو معنى الوصفية، وقوي الابتداء، فيعرب الوصف مبتدأ والاسم بعده خبر، فقال: "فلما جاءت مضارعة للأسماء التي لا تكون صفة وقويت في الابتداء كان الوجه فيها عندهم الرفع، إذا كان النعت للآخر. وذلك قولك: مررت برجل خير منه أبوه"⁽³⁾.

ووجدنا هذا المثال عند عدد من النحويين غير سيبويه، فقد ذكر ابن السراج في باب الصفة المشبهة، فقال: "ولا يجوز: مررت برجل خير منه أبوه على النعت ولكن ترفعه على الابتداء والخبر، وذلك لبعده من شبه الفعل والفاعل من أجل أن "خير منه" لا يؤنث ولا يذكر ولا تدخله الألف واللام، ولا يثنى ولا يجمع فبعد من شبه الفاعل فكل "أفعل منك" بمنزلة: "خير منك" وشر منك" وما لم يشبه اسم الفاعل فلا يجوز أن ترفع به اسماً ظاهراً البتة"⁽⁴⁾.

وذكر الرماني في باب الأسماء التي تعمل عمل الفعل من كتاب منازل الحروف، فقال: والصفة غير المشبهة نحو: زيد أفضل أباً، وزيد خير منك أخاً، وتقول: مررت برجل خير منه أبوه، ولا يجوز أن تخفض (خير)؛ لأنه لا يرتفع بهذه الصفة اسم ظاهر، وإنما يرتفع المضمرة خاصة، وما

(1) شرح التسهيل 269/1.

(2) الكتاب 25/2.

(3) الكتاب 26/2.

(4) الأصول 130/1.

كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُضْمَرِ فَقَوْلُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَيْرٍ مِنْكَ؛ لِأَن فِي خَيْرٍ ضَمِيرًا يَعُودُ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ الْمَوْصُوفُ، فَإِذَا أَخْرَجْتَ الضَّمِيرَ لَمْ يَجْزِ أَنْ تَرْفَعَ بِهَا ظَاهِرًا، فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ وَالْخَبَرِ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَبُوهُ خَيْرٌ مِنْكَ".

وذكر العكبري في باب أفعل التفضيل من كتاب اللباب في علل البناء والإعراب، فقال: "وأما (أَفْعُلُ مِنْكَ) فَالْوَجْهُ أَلَّا تَعْمَلَ فِي مَظْهَرٍ إِلَّا أَنْ يَقَعَ الْمَظْهَرُ مَوْقِعَ الْمُضْمَرِ؛ لِأَنَّ (أَفْعُلُ مِنْكَ) بَعْدَ اسْمِ الْفَاعِلِ، فَإِنَّهُ لَا يَتَنَبَّى وَلَا يَجْمَعُ وَلَا يُؤَنَّثُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ: مَرَرْتُ بِرَجُلٍ أَفْضَلُ مِنْهُ أَبُوهُ، فَتَرْفَعُ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ مُتَقَدِّمٌ، وَمِثْلُهُ مَرَرْتُ بِرَجُلٍ خَيْرٌ مِنْهُ أَبُوهُ، وَشَرُّ مِنْهُ غُلَامُهُ؛ لِأَنَّ أَصْلَ خَيْرٍ وَشَرٍّ (أَخِيرٌ وَأَشْرَرٌ)".

فوجدنا أن هذا المثال ذكره غير واحد من النحويين، ولكنهم كلهم ذكروه في باب الصفات، واتبعوا سيبويه في ذكر المثال والمسألة، إلا ابن مالك، فقد أخذ المثال عن سيبويه، واستدل به على مسألة أخرى، وهي مسألة وقوع المبتدأ نكرة، والخبر معرفة، فقد أعرب سيبويه هذه الجملة، وذكر أن (خير) مبتدأ مع أنه نكرة، و(أبوه) خبر؛ مع كونه معرفة.

أضاربُ الزيدان؟ وما مضروبُ الزيدان.

ذكر ابن مالك في باب المبتدأ والخبر أن من أنواع المبتدأ الوصف الرافع ما انفصل وأغنى، وذكر أن المراد بالوصف ما كان اسم فاعل أو اسم مفعول من الأسماء المشتقة، أو ما جرى مجرى المشتق، ثم أورد أمثلة على ذلك، من ذلك: أضاربُ الزيدان؟ وما مضروبُ الزيدان. وأذاهبةُ جاريتاك؟ وأكريمةُ نساؤكم؟ أفرشي قومك؟ وأقرشي أبواك؟

أخذ ابن مالك هذه الأمثلة من سيبويه، وصرح بذلك، فقال: "وهذه الأمثلة من أمثلة سيبويه" (1).

ثانيا: الوضوح والبساطة: يتميز ابن مالك باختيار أمثلة واضحة وبسيطة تُسهّل على القارئ فهم القواعد النحوية المعقدة. فهو يحرص على أن تكون الأمثلة قريبة من الاستخدام اليومي للغة، مما يجعلها أكثر قابلية للفهم والتطبيق.

فمن ذلك:

زيد كاتب، ذكر ابن مالك هذا المثال في باب المبتدأ والخبر؛ في عدة مواضع، فقد ذكر في شرح التسهيل دليلا على أن المبتدأ قد يكون اسما، منه هذا المثال، فقال: "الإخبار عن الشيء يكون

(1) شرح التسهيل 268/1.

باعتبار لفظه، كما يكون باعتبار معناه، وأن المخبر عنه بالاعتبارين يكون اسماً، نحو: زيد كاتب، وزيد معرب⁽¹⁾.

أورد ابن مالك مثالين: زيد كاتب، وزيد معرب. وهما مثالان جديان عند ابن مالك لم يسبقه أحد، أما زيد كاتب، فهو مكون من جزأين، الجز الأول زيد، وهو مشهور في كتب النحو، ذكره جميع النحويين منذ القدم، بل لم يخل كتاب من هذا الاسم؛ لسهولة على اللسان، أما الجزء الثاني، وهو كاتب، فقد ورد في كتب النحو منذ القدم، أورده سيبويه مثال على اللفظة المفردة، فقال: "ومما يميلون ألفه قولهم: مررت ببابه، وأخذت من ماله. هذا في موضع الجر وشبهوه بفاعل نحو كاتب وساجد"⁽²⁾.

والجديد عند ابن مالك أنه ركب هاتين الكلمتين، وجعلهما مثال على الجملة المفيدة المكونة من مبتدأ وخبر، وقد ورد هذا المثال عند ابن مالك في كتب مختلفة، فجاء في شرح الكافية الشافية مثال على تعدد الخبر، فقال: "تعدد الخبر على ضربين: تعدد في اللفظ، والمعنى نحو: زيد كاتب حاسب".

هذا المثال واضح، سهل، مستوف للقاعدة النحوية لذا ذكره ابن مالك بطريقة أخرى، وهو: ما زيد إلا كاتب، وإنما زيد كاتب⁽³⁾.

من لدن صلاة العصر إلى وقت كذا، من لد الحائط إلى مكان كذا، هذا المثال ذكره ابن مالك في باب حروف الجر، على أن (من) تأتي لابتداء الغاية الزمانية، وذكر في خلاف العلماء، ويرى أن سيبويه يذهب إلى جواز مجيء (من) لابتداء الغاية الزمانية وعدم جوازه، فقال: "وفي كلام سيبويه تصريح بجوازه وتصريح بمنعه. فأما التصريح بجوازه فقوله في باب ما يضمن فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف: "ومن ذلك قول العرب:

مِنْ لَدْ شَوْلًا فَإِلَى إِتْلَائِهَا

نصب لأنه أراد زماناً. والشوال لا يكون زماناً ولا مكاناً فيجوز فيها الجر كقولك: من لدن صلاة العصر إلى وقت كذا، وكذا من لد الحائط إلى مكان كذا، فلما أراد الزمان حمل الشول على شيء يحسن أن يكون زماناً إذا عمل في الشول، كأنك قلت: من لد أن كانت شولا إلى إتلائها". هذا نصه في هذا الباب. وفيه تصريح بمجيء من لابتداء غاية الزمان ولابتداء غاية المكان⁽⁴⁾.

(1) شرح التسهيل 267/1.

(2) الكتاب 122/4.

(3) ينظر: شرح الكافية الشافية 370/1.

(4) شرح التسهيل 131/3.

قلت أخذ ابن مالك هذا المثال من سيبويه، ولكن سيبويه لم يذكر في مسألة معنى (من)، وإنما ذكره في مسألة إضافة (لد) إلى الزمان⁽¹⁾، كما هو واضح من نص سيبويه السابق، فأخذ ابن مالك هذا المثال، وغير في موطن الاستدلال، وهذا من التجديد عند ابن مالك. وممن ذكر هذا المثال قبل ابن مالك السيرافي⁽²⁾، وابن يعيش⁽³⁾.

ما رأيته مذ يومين، هذا من أمثلة سيبويه عند ابن مالك، نقله ابن مالك على أن ابتداء الغاية قد يكون دون منتهى⁽⁴⁾، قال سيبويه: وتقول: ما رأيته مذ يومين، فجعلتها غاية كما قلت: أخذته من ذلك المكان، فجعلته غاية ولم ترد منتهى⁽⁵⁾.

وهو من الأمثلة المشهورة في كتب النحو، تداوله النحويون في كل زمان، فممن ذكر هذا المثال ابن السراج⁽⁶⁾، والفارسي⁽⁷⁾، وابن يعيش⁽⁸⁾.

ويظهر لي أن كل واحد منهم نقل عن سيبويه، فأصل هذا المثال عند سيبويه.

ما أتاني من رجل، من الأمثلة القديمة عند ابن مالك، وهذا المثال مشهور عند النحويين على مجيء (من) زائدة، ذكر ابن مالك هذا المثال دليلاً على أن سيبويه يرى في (من) الزائدة معنى التبعية⁽⁹⁾، وقد صرح سيبويه بذلك فقال: "وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيماً ولكنها توكيد بمنزلة ما، إلا أنها تجر لأنها حرف إضافة، وذلك قولك: ما أتاني من رجل، وما رأيته من أحد. ولو أخرجت من كان الكلام حسناً، ولكنه أكد بمن لأن هذا موضع تبعية، فأراد أنه لم يأت به بعض الرجال والناس"⁽¹⁰⁾.

وقد ذاع هذا المثال عند النحويين منذ القدم، فلا تجد نحويًا وإلا تجد عنده هذا المثال، هذه الأمثلة كلها تتسم بالوضوح والبساطة، وقد بسط ابن مالك الأمثلة النحوية باستخدام جمل قصيرة

(1) الكتاب 1/265.

(2) شرح الكتاب 2/163.

(3) شرح المفصل 2/140.

(4) شرح التسهيل 3/135.

(5) الكتاب 4/226.

(6) الأصول في النحو 1/411.

(7) التعليقة على كتاب سيبويه 4/226.

(8) شرح المفصل 3/118.

(9) شرح التسهيل 3/135.

(10) الكتاب 4/225.

وواضحة تُظهر الفكرة بشكل مباشر، إبراز هذه الأمثلة مع توضيح القواعد النحوية بطريقة بسيطة يجعل الفهم أسهل للطلاب أو المهتمين بدراسة اللغة العربية.

الوضوح والبساطة في الأمثلة النحوية يُعدان من العناصر الأساسية لفهم القواعد النحوية بشكل سهل ومباشر. عندما تكون الأمثلة النحوية واضحة وبسيطة، يصبح من السهل على المتعلمين استيعاب القواعد وتطبيقها بشكل صحيح. وقد استخدم ابن مالك عدة أساليب تجعل الأمثلة واضحة بسيطة، ومن ذلك: اختيار الجمل القصيرة والواضحة، والمفردات الشائعة مثل كلمات "قرأ" و"الكتاب" يجعل المثال أكثر وضوحاً وسهولة للفهم مقارنة باستخدام كلمات أقل شيوعاً، وتجنب التعقيدات النحوية غير الضرورية، وتوضيح القاعدة النحوية بشكل مباشر، واستخدام أمثلة من الحياة اليومية، وتجنب التشبيهات المعقدة، والتدرج في تقديم الأمثلة.

الوضوح والبساطة في الأمثلة النحوية يساعدان على ترسيخ القواعد في أذهان المتعلمين بشكل أسرع وأكثر فعالية. لذلك اختار ابن مالك أمثلة قصيرة وواضحة ومباشرة، وتجنب التعقيدات غير الضرورية التي قد تشتت الانتباه أو تُصعب عملية الفهم.

ثالثاً: السهولة في الأسلوب، والأمثلة، إن ابن مالك -رحمه الله- عمد إلى استخدام أسلوب سهل مبسط، يناسب برفق وأناة فيسيل عذوبة تدفع حلاوتها القارئ إلى الاستمرار، والبعد عن الملل. وكثيراً ما يشاهد القارئ ابن مالك يوجه إليه الحديث مخاطباً، فيقول: "إذا عين لك اسم من جملة، وقيل لك: كيف تخبر عنه؟ فصدر بما يطابقه من "الذي" وفروعه مجعولاً مبتدأ، وآخر المسئول عنه مجعولاً خبراً، واجعل في موضعه ضميراً يخلفه فيما كان له من الإعراب عائداً إلى الموصول. مطابقاً له، وما بين الخبر والموصول صلة له فإذا أخبرت عن التاء من قولك: "بلغت من الزيدتين إلى العمرين رسالة" قلت: "الذي بلغ من الزيدتين إلى العمرين رسالة أنا". فإن أخبرت عن "الزيدتين" قلت: "الذان بلغت عنهما رسالة إلى العمرين الزيدان". فإن أخبرت عن "العمرين" قلت: "الذين بلغت من الزيدتين إليهم رسالة العمرون". فإن أخبرت عن "الرسالة" قلت: "التي بلغت من الزيدتين إلى العمرين رسالة"⁽¹⁾.

ومن هنا تتضح براعة المصنف في إبراز الأمثلة، فقد اشتمل مثاله الحكاية عن: الضمير، والظاهر. العاقل، وغير العاقل. المفرد، والمتى، والجمع.

(1) شرح الكافية الشافية 4/1772.

رابعاً: التنوع في الأمثلة: يحرص ابن مالك على تقديم أمثلة متنوعة تشمل مختلف أنواع الجمل والأساليب النحوية، سواء كانت جملاً اسمية أو فعلية، أو أساليب مثل الاستفهام والنفي والتعجب. هذا التنوع يساعد في تغطية جوانب متعددة من القواعد النحوية، فمن أمثلته:

المرتضى يرضى، القاضي يقضي، أعوذ بالله من أذى كل مؤذ، إن الأتقى لن يشقى، إن المتقي لن يبغى ولن يجفو، أورد ابن مالك هذه الأمثلة على إعراب الاسم المعتل الآخر، وكذا الفعل المعتل الآخر، وذكر أن الكلمة إذا كان آخرها ياء أو واو تقدر فيها الضمة والكسرة، أن الفتحة فتظهر⁽¹⁾.

التنوع في الأسلوب في هذه الأمثلة النحوية يتجسد من خلال استخدام تراكيب مختلفة من حيث البلاغة والأسلوب، وكل منها يعبر عن معاني متباينة بطرق متنوعة. "المرتضى يرضى" استخدام الفعل "يرضى" مع الاسم "المرتضى" يعكس إيقاعاً مزدوجاً من حيث المعنى والتكرار في الحروف، الأسلوب هنا بسيط ومباشر، ويظهر تناغماً بين الاسم والفعل في تصوير حالة الرضا.

"القاضي يقضي" مشابه للأسلوب السابق من حيث الإيقاع. "أعوذ بالله من أذى كل مؤذ" في هذه الجملة، نجد استخداماً للعبارة الدينية "أعوذ بالله" التي تدل على الالتجاء إلى الله والاحتماء به. الجملة تتضمن تركيباً استعاضياً يتسم بالبلاغة والإيحائية، ويعكس التضرع واللجوء إلى الحماية، والجملة فعلية.

"إن الأتقى لن يشقى" هذا أسلوب توكيد باستخدام "إن" و"لن" لتأكيد المعنى. الأسلوب هنا يحمل طابعاً تطمينياً، ويدعو إلى الثقة بأن التقوى ستؤدي إلى الراحة والسعادة في النهاية، ويناسب القاعدة النحوية في نصب الفعل والاسم،

"إن المتقي لن يبغى ولن يجفو" استخدام "لن" في النفي يعزز من التأكيد على معنى الطهارة والابتعاد عن البغي والجفاء. الأسلوب هنا يعبر عن النبل والأخلاق الحميدة، ويدعو إلى التحلي بالتقوى لتجنب الأفعال السلبية.

من خلال هذا التنوع، نجد أن الأساليب تتفاوت بين البساطة والبلاغة، وبين التأكيد على القيم الأخلاقية والدينية، مما يجعلها تعبيرات متنوعة في معانيها وأهدافها.

خامساً: التدرج في الصعوبة:

(1) شرح الكافية الشافية 213/1.

يبدأ ابن مالك بالأمثلة البسيطة والمباشرة، ثم يتدرج إلى الأمثلة الأكثر تعقيداً، مما يساعد المتعلم على بناء فهم متدرج للقواعد النحوية دون إرباك.

ومن ذلك ما ذكر في باب الاشتغال، فقال: "ومن موانع العمل في السابق والتفسير لعامل فيه وقوع الفعل بعد استثناء نحو، ما زيدٌ إلا يضربه عمرو، فلا يجوز في زيد وما وقع موقعه إلا الرفع، لأن ما بعد إلا لا يعمل فيما قبلها ولا يفسر عاملاً فيه. وكذلك ما وقع بعد معلق والمراد بالمعلق الاستفهام والنفي بما ولا ما الابتداء والقسم نحو زيد هل ضربته وعمرو كيف وجدته وخالد ما لمسته وعمرو لمحبه بشر، والمحسن ليجزيه الله، فلا يجوز في زيد وعمرو وخالد والمحسن وما وقع مواقعها إلا الرفع، لأن ما بعد الاستفهام، وما النافية ولا مي الابتداء والقسم لا يعمل فيما قبلها ولا يفسر عاملاً فيه. وكذلك ما وقع بعد حرف ناسخ للابتداء نحو زيدٌ إني أضربه وعمرو ليتني ألقاه، وكذا الواقع بعد كم الخبرية نحو زيد كم لقيته فإنها أجريت مجرى الاستفهامية، وكذا الواقع بعد التحضيض نحو زيد هلاً ضربته، وبعد العرض نحو عمر ألا تكرمه، وبعد التمني نحو العون على الخير ألا أجده"⁽¹⁾.

التدرج للصعوبة في الأمثلة النحوية المذكورة يعتمد على تعقيد القواعد النحوية المتعلقة بالعوامل المؤثرة في الإعراب، ومدى تطلبها لفهم دقيق لتفاعل الحروف والجمل.

فمثلاً: "ما زيدٌ إلا يضربه عمرو"، تُعدُّ قاعدة الاستثناء من القواعد الأساسية في النحو، لكنها هنا تُقدم حالة خاصة حيث لا يعمل ما بعد (إلا) فيما قبلها.

ثم أتى بالجملة بعد (المعلق) بالاستفهام أو النفي، "زيد هل ضربته"، "عمرو ما لمسته"، "المحسن ليجزيه الله".

وهنا تُدرس تأثير أدوات الاستفهام (هل)، والنفي (ما)، والابتداء (لام القسم أو الابتداء) على الجملة، فيجب إدراك أن هذه الأدوات (مثل هل، ما، لام القسم) لا تعمل فيما قبلها، مما يبقي المبتدأ مرفوعاً.

وأما "زيدٌ إني أضربه"، "عمرو ليتني ألقاه"، فالحروف الناسخة مثل (إن، ليت) عادةً تُغير إعراب الاسم (تنصبه)، لكن في هذه الحالة، الاسم يبقى مرفوعاً لأنه مُبتدأ، والحرف الناسخ دخل على جملة مستقلة، فيتطلب فهماً عميقاً للفرق بين دخول الحروف الناسخة على المبتدأ مباشرة أو على جملة كاملة،

(1) شرح التسهيل 138/2.

"زيد كم لقيته"، (كم الخبرية) تُعامل معاملة الاستفهامية رغم أنها للخبر، مما يجعل ما بعدها لا يؤثر في إعراب ما قبلها، ويحتاج إلى تمييز بين (كم الاستفهامية) و(كم الخبرية)، وفهم سبب عدم تأثيرها في الإعراب، فيصعب على القارئ لخصوصية استخدام (كم) ودقة التفريق بين أنواعها.

"زيد هلاً ضربته"، "عمر ألا تكرمه"، "العون على الخير ألا أجده". أدوات مثل (هلاً، ألا) للتحضيض (الحث) أو العرض أو التمني تُستخدم في سياقات عاطفية، وتحتاج إلى فهم أن الجملة بعدها مستقلة إعرابياً، صعوبة الربط بين المعنى العاطفي (كالحث أو الرغبة) وعدم تأثير العوامل النحوية، لارتباطها بفهم دلالات الحروف والسياق البلاغي.

1. الاستثناء بـ (إلا) — أسهل (قاعدة مباشرة).
 2. الجملة بعد الاستفهام والنفي — متوسطة (تتطلب معرفة بأدوات النفي والاستفهام).
 3. الحروف الناسخة (إن، ليت) — متوسطة/متقدمة (تداخل القواعد).
 4. (كم الخبرية) — متقدمة (خصوصية التمييز بين الأنواع).
 5. أدوات التحضيض والتمني — الأصعب (ربط بين النحو والدلالة العاطفية).
- كل مرحلة تعتمد على سابقتها، لكنها تضيف تعقيداً جديداً إما بخصوصية الحروف (مثل كم الخبرية) أو بالربط بين المعنى النحوي والدلالي (مثل التحضيض والتمني).

سادساً: التركيز على التطبيق العملي:

الأمثلة التي يقدمها ابن مالك ليست نظرية فحسب، بل تركز على التطبيق العملي للقواعد النحوية في الكلام، مما يجعلها ذات فائدة عملية كبيرة.

ومن ذلك ما ذكر في أمثلة حذف المبتدأ وجوبا، فقال: "وأما الحذف الواجب فكحذف المبتدأ المخبر عنه بنعت مقطوع لتعين المنعوت بدونه لكونه لمجرد مدح، كقولهم: الحمد لله الحميد، وصلى الله على محمد سيد المرسلين. أو لمجرد ذم، كقولك: أعوذ بالله من إبليس عدو المؤمنين. أو لمجرد الترحم كقولك: مررت بغلامك المسكين، فهذه ونحوها من النعوت المقطوعة للاستغناء عنها بحصول التعيين بدونها، لك فيها النصب بفعل ملتزم إضماره، والرفع بمقتضى الخبرية لمبتدأ لا يجوز إظهاره، وذلك أنهم قصدوا إنشاء المدح، فجعلوا إضمار الناصب أمانة على ذلك، كما فعلوا في النداء، إذ لو أظهر الناصب لخي معنى الإنشاء وتوهم كونه خبرا مستأنف المعنى، فلما التزم الإضمار في النصب التزم أيضا في الرفع ليجري الوجهان على سنن واحد"⁽¹⁾.

(1) شرح التسهيل 287/1.

ففي مثال "الحمد لله الحميد". حُذِفَ المبتدأ هنا، والتقدير: "الحمد لله هو الحميد". النعت "الحميد" جاء للمدح، وتعين المنعوت (الله) بدونه، فلم يكن هناك حاجة لذكر المبتدأ. وكذا في مثال: "صلى الله على محمد سيد المرسلين". حُذِفَ المبتدأ، والتقدير: "هو سيد المرسلين"، فالنعت "سيد المرسلين" جاء للمدح، وتعين المنعوت (محمد) بدونه. وفي المثال: "أعوذ بالله من إبليس عدو المؤمنين"، حُذِفَ المبتدأ، والتقدير: "هو عدو المؤمنين"، النعت "عدو المؤمنين" جاء للذم، وتعين المنعوت (إبليس) بدونه. وفي المثال "مررت بـغلامك المسكين"، حُذِفَ المبتدأ، والتقدير: "هو المسكين"، النعت "المسكين" جاء للترحم، وتعين المنعوت (غلامك) بدونه. فحذف المبتدأ واجب عندما يكون المخبر عنه نعتاً مقطوعاً لأغراض المدح أو الذم أو الترحم، وذلك لأن النعت يُغني عن ذكر المبتدأ لتعين المنعوت بدونه، وهذه الأمثلة التطبيقية تساعد في فهم كيفية استخدام النعت للاختصار مع الاحتفاظ بالمعنى الكامل للجملة، وهو أسلوب شائع في اللغة العربية خاصة في المدح والذم والترحم.

سابعاً: الربط بين القواعد والأمثلة:

يربط ابن مالك بشكل وثيق بين القواعد النحوية والأمثلة التي يقدمها، بحيث تكون الأمثلة تطبيقاً مباشراً للقاعدة المذكورة، مما يعزز فهم القارئ ويساعده على تذكر القاعدة بشكل أفضل. باختصار، تمتاز الأمثلة النحوية عند ابن مالك في شرح التسهيل بوضوحها، تنوعها، وارتباطها الوثيق بالقواعد النحوية، مما يجعلها أداة فعالة في تعليم النحو العربي وفهمه.

الخطاب السردى في رواية الشفق اللزوردي "طرائق التكثيف"

إفكو المختار أغمي

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مقدمة:

يرمي هذا المقال إلى دراسة الخطاب الروائي في رواية الشفق اللزوردي للكاتب محمد الأمين ولد احطانا من خلال العناصر الخطابية وكيفيات تكثيفها وطرائق اشتغالها، فالخطاب بما هو متتالية من الجمل قائمة على احتواء مجموعة من العناصر تضيق وتتفتح باعتبارات مختلفة، فإن تتبعه في الأعمال الأدبية والسردية خاصة، يقتضي الوقوف عند هذه العناصر وحتى طرائق اشتغالها، لاستبانة مكونات النص وإحياءاته الدالة وتصويراته الفنية الكامنة في النص.

عتبة:

يعتبر الأدب الموريتاني حديث النشأة والتشكل، بالموازنة مع الآداب العربية الحديثة، ويعود ظهور الأشكال السردية الحديثة فيه إلى الربع الأخير من القرن العشرين، فكانت هذه الفترة بداية تراكم شعرية الأدبية وتحول جمالياته التقليدية وألفة تلقيها، لتنتقل إلى جماليات جديدة مختلفة، «ولأن هذا الأدب الحديث النشأة، جاءت شعرية نصوصه متحققة في أفق شعرية الأدب العربي الحديث ومحكومة بخبرة كتابة نصوصه الإبداعية»¹ وهذا يظهر ليس على مستوى الشعر فحسب بل أيضا على مستوى السرد الحديث، الذي تنامت شعرية أشكاله مع الأيام، واتسعت دوائر تلقيه. وتتجلى العلاقة ما بين النص الأدبي الموريتاني الحديث بالنص الأدبي العربي الحديث، في كون النص الموريتاني لاحق في شعرية وإبداعية على النص العربي، حيث «ارتبطت فيهما أدبية النص اللاحق (النص الموريتاني) بالنص السابق (النص العربي) محدثة نوعا من التعالق النصي، لا على مستوى النص فحسب، وإنما أيضا على مستوى خبرة المبدع ذاته في الكتابة الأدبية، فجاء النص الموريتاني بذلك محكما بشعرية النص العربي المتحقق في أفقه نتيجة للتفاعل النصي القائم ما بين الاثنين، شأنه في ذلك شأن النص الأدبي

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات والرواية الموريتانية، (نواكشوط، الطبعة الأولى، 2010/1431هـ) ص:

العربي المتزامن معه في الظهور، أو السابق عليه قليلا، كما هو حال الأدب في بعض بلدان الخليج مثلا»¹.

أولا: ظهور الأشكال السردية في موريتانيا:

إن هذه النثرية المؤسسة للنص الأدبي الحديث تتبني أساسا على هيمنة نثرية ما، ولذلك يمكن القول بأن أشكال الكتابة عامة لا تظهر إلا في سياق هيمنة نثرية معينة، ذلك أن تداول هذه النثرية، وتكثيف و تطويع نثرها لغرض ما، هو الذي يؤدي إلى تكريس أشكال كتابتها، وغياب أو اختفاء أشكال كتابة النثرية التي قامت على أنقاضها»² وفي سياق النثرية المنتجة للنص، وهذا التحول هو «الذي أدى إلى ظهور الرواية، والمتمثل في تأثير مكون السرد ونثرته، على مكون الشعر وأوزانه التقليدية، أمام سلطة النثر وشعرية السرد وجماليات تقبله الجديدة»³ وعليه؛ فإن تراكم النثرية يؤدي إلى ظهور سردية من نوع ما، وفي الوقت ذاته تتراجع نثرية أخرى، وهذا ما انطبق على النص الموريتاني، الذي كان هو الآخر نتيجة تحول في النثرية، ذلك أنه «مع بداية الثمانينات من القرن العشرين، وبفعل التراكم النثري للنثرية العربية الحديثة في موريتانيا»⁴، وتراجع ملحوظ للنثرية التراثية المحلية وأشكال كتابتها السردية بذلك «ظهر النص الروائي الموريتاني تعبيراً عن التبدل في المواقع ما بين النثريتين المتعايشتين، فقد تراجعت النثرية التراثية تاركة الواجهة للنثرية العربية الحديثة وأشكال كتابتها، في الوقت الذي نشط فيه تداول هذه الأخيرة، وتوالت تراكمات نصوص أشكال سردها القصيرة مع جيل ما بعد الرواد مما يمكن القول معه أن ظهور النص السردى التراثى الموريتانى كان تحولا من سلطة نثرية تراثية فقهية مهيمنة وقتها إلى سلطة نثرية عربية حديثة ذات ملمح محلي، عرفت أديبة النثر العربى في موريتانيا بداية الثمانينات من القرن العشرين»⁵ وهي البداية الحقيقية لظهور الكتابة الروائية الموريتانية، وفي وصفنا لشعرية رواية الصحراء الموريتانية نهتم أولا - يقول الدكتور محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم- بسردية النص التقليدي «وتتضح ملامحها في مجموعة من النصوص ظل فيها اشتغال المكون السردى بسيطا، تشمل روايتي: الأسماء المتغيرة (1981)

1- المرجع ذاته، ص: 148.

2- د/محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، بنية الخطاب ودلالاتها في رواية القبر المجهول أو الأصول، (المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000)، ص: 57.

3- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات والرواية الموريتانية، مرجع سابق، ص: 138.

4- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات والرواية الموريتانية، مرجع سابق، ص: 183.

5- المرجع ذاته، ص: 145.

والعيون الشاخصة (1999) لأحمد ولد عبد القادر، ورواية قصة أحمد الوادي (1986) ورواية قصة أفكار لسيدي محمد حيماد (1999) ورواية الأشباح (2000) للسني عبداوة، وكلها نصوص روائية ذات متخيل صحراوي¹.

وعلى هذا النحو يتبين لنا مما سبق أن ظهور الرواية في الأدب الموريتاني الحديث، كان تعبيراً فنياً عن تحول أدبي في هذا الأدب سواء في بعده التاريخي المرتبط بأدبية النوع الأدبي حيث «كان ظهور الرواية الموريتانية تعبيراً عن تأثير أدبية النثر وجماليات أشكاله السردية على أدبية الشعر وشعريته التقليدية منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي أو في بعده الداخلي المرتبط بأدبية النثر ذاتها، وجماليات أشكاله السردية»²، فالرواية كانت الشكل السردى المعبر عن هيمنة النثرية العربية الحديثة وجمالية أشكالها الحديثة على النثرية التراثية الفقهية وأشكال كتابتها المحلية منذ بداية الثمانينيات، وباختفاء جل هذه الأشكال وتراجع نثرية الأدبية إلى مواقع خلفية- على حد تعبير، د. محمد الأمين مولاي إبراهيم- في الإبداع دون أن تفقد سلطتها الأدبية وحضورها الفنى في الأشكال السردية الموريتانية الحديثة المهيمنة خاصة منها الرواية.

فالصراع القائم بين الأصوات واللغات داخل النصوص محكوم بالسياق المساهم من جهة في بلورة طبيعة الصراع وآلياته، ومن جهة ثانية يقوم بدور فعال في صياغة ملامح النص الجديد، وتحديد علاقته بالعالم الذي يظهر فيه. ومن هنا كان موضوع التناص غير مقتصر على تلك الأبعاد التي تتيح للقارئ التمرس بقراءة نوع معين من النصوص، والتعرف على رؤية وأفكار نص لم يسبق له الاطلاع عليه ولكنه يتجاوزها، لي طرح العديد من القضايا حول علاقة النصوص بعضها ببعضها الأخر من جهة وعلاقتها بالعالم وبالمؤلف الذي يكتبها من جهة أخرى، كما يطرح موضوع العناصر الداخلة في عملية تلقيها لأي نص فهمنا له، وهو موضوع يثير أغلوطة الاستقلالية التي تنطوي على القول بإمكانية أن يصبح النص عالماً متكاملًا في ذاته منغلًا على نفسه، فالتناص من وجهة أخرى «يلفتنا إلى النصوص المندغمة في بعضها البعض الآخر أي أن العمل إنما يكتسب ما يحققه من معنى بحذقه ووعيه لكل ما كتب قبله في نوعه،

¹ محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، شعرية رواية الصحراء، (منشورات جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2012)، ص: 28.

² محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، سرديات الرواية الموريتانية، مرجع سابق، ص: 145.

من نصوص رفيعة، كما أنه يدعونا إلى اعتبار النصوص الغائية هذه مكونات لشفرة خاصة، يمكننا وجودها من فهم النص الذي نتعامل معه، وفض بعض مغاليق نظامه بالإشاري»¹.

ثانياً: التيارات الروائية في موريتانيا

يمكن أن نقسم الروايات الموريتانية إلى تيارات متعددة، وإن كان هذا التقسيم لا يخلو من مجازفة أحياناً ومحاذير، لكن ركون د. محمد الحسن محمد المصطفى إلى هذا التقسيم -بعد استقراره وتبصر- يشير إلى أن التصنيف ضرورة منهجية يقتضيها الفهم والدراسة، وهذا التقسيم على النحو التالي:

تيار الرواية التاريخية:

تتعلق الرواية التاريخية بالواقع وترصد تحولاته، وهزاته وليس همها التأريخ للأحداث والأشخاص بل تجعل الوقائع التاريخية خلفيات تنفذ منها إلى واقع فني يصدق على المجموع لكنه لا يخص أحداً بعينه وهنا اكتسبت قيمتها الأدبية، وتمثله روايات الأسماء المتغيرة، والقبر المجهول لأحمد بن عبد القادر، ووجع السراب، للمختار السالم أحمد سالم 2014.

التيار الواقعي الرمزي: هو تيار يجمع بين المدرستين الواقعية والرمزية وذلك حين يهتم الكاتب بوصف الواقع وتتبع حيثياته، حيث تعتني بتحديد مميزات أبطاله ونوازعهم وصدماتهم غير أن ذلك كله يقدم في سياقات رمزية لا تكون فيها النزعة الواقعية مقصودة لذاتها وإنما يتم توظيفها من خلال رموز وإيحاءات جديدة.

ويضم هذا التيار مجموعة من الروايات تتفاوت بنسبتها إليه وهي على النحو التالي:

- | | |
|--|-------|
| أحمد الوادي: الشيخ ماء العينين أشببه | 1986. |
| مودة: محمد سالم بن الصوفي | 1999. |
| العيون الشاخصة: أحمد بن عبد القادر | 2000. |
| أشباح: السني عبداوه | 2002. |
| تجمعنا سفينة واحدة: حمود بن سليمان | 2002. |
| حشائش الأفيون: سميرة حمادي الفاضل | 2007. |
| أولاد أم هانئ: محمد ولد تتا | 2008. |
| الشفق اللازوردي: محمد الأمين ولد احطان | 2008. |

¹ - محمد سالم الأمين الطلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، (الانتشار العربي، ط1،

2008، بيروت - لبنان)، ص: 15.

- دروب عبد البركه: محمد ولد محمد سالم 2010.
- للحديث بقية: الشيخ ولد أحمدو 2012.
- هجرة الظلال: رواية تفاعلية: محمدو ولد احطان 2014.
- منينة ابلانشي: محمد ولد أمين 2014.

التيار الرمزي: وهو تيار يوغل في الرمزية وينزع نحو استلهاام الأسطورة، ويفجر اللغة على نحو يقترب فيه السردى من الشعري، وقد اتجهت روايات هذا التيار نحو الغرابة، حيث نصبأ أمام نص مفتوح لقراءات مختلفة ويقبل التصنيف بتعسف، ومن أمثلته "أودية العطش" لبدي ولد أبنو.

التيار العجائبي: وهو تيار يروم الخروج من شرنقة الاجترار والتفوق خلف المدارس التقليدية في الكتابة الروائية المرتكزة على الواقعية بتياراتها المختلفة إضافة إلى الرومانسية والرمزية التقليدية وغيرها، وأخذ هذا التيار يكتسح الساحة العربية والعالمية في العقود الأخيرة» وتعتبر روايتا مدينة الرياح 1995 والحب المستحيل 1996 لموسى ولد ابنو أبرز الأعمال المشكلة لهذا التيار، وإن كانت الأولى تأخذ تاريخ البلاد مرجعية، والثانية تتخذ من أدب الخيال العلمى منطلقا لها¹.

تيار الرواية الأيديولوجية: كان منطلق هذا التيار الروائى فى الغرب ماركسيا يربط الأدب بالمجتمع، ويعتبره انعكاسا للواقع الطبقي وينتهى فى نهاية رواياته إلى الإيحاء بانتصار الطبقة العاملة²، ومن ثم فإنه لا يمكن أن نستبعد تماما روايتي "القبر المجهول"، و"الأسماء المتغيرة" اللتين صنفناهما سابقا- يقول الدكتور محمد الحسن محمد المصطفى- فى سياق الرواية التاريخية من تيار الرواية الأيديولوجية الاجتماعية أيضا ولكن غلبة البعد التاريخى جعلنا نضعهما منهجيا فى ذلك التيار دون أن نغفل حضور السند الفكرى لهذا التيار فيهما، وهو تيار له نظرة خاصة إلى التاريخ قد لا تتناقض بالضرورة مع مستوى من مستويات المنظور الروائى لهما.

ويمكن القول إن رواية القنبلة 1992 لمحمد سالم بن محمد مختار تدخل فى سياق الرواية الأيديولوجية ولكن من منظور دينى وليس من منظور ماركسى فلسفى ومعلومة الحدود التى تفصل بين المنظورين ومنهج كل منهما.

¹ محمد الحسن محمد المصطفى، مجلة الوسيط، المعهد الموريتانى للبحث والتكوين فى مجال التراث والثقافة، (نواكشوط، العدد 19، لسنة 2021)، ص: 13.

² محمد الحسن محمد المصطفى، الرواية العربية الموريتانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، 1996، ص:

تيار رواية الصحراء:

وتجدر الإشارة إلى أنه قد ظهرت في السنوات الأخيرة في الساحة الأدبية العربية تيار واسع يطلق عليه الرواية الصحراوية خاصة عند عبد الرحمن منيف وإبراهيم الكوني وهي رواية تفترض خصوصية لها من حيث أنها: «تكسر المفاهيم التقليدية للرواية وارتباطها بالمدينة وصراعاتها وأنماط العيش فيها والعلاقات في داخلها حيث يوحى المصطلح بنوع من التنافر حاولت الرواية الصحراوية أن توظفه على نحو إيجابي للخروج بالرواية نحو آفاق أرحب من التجريب والإبداع»¹، وكان للرواية الموريتانية نصيبها من ذلك خاصة من خلال روايتي "القبر المجهول" لأحمد بن عبد القادر، و"مدينة الرياح" لموسى ولد أبنو، ومن الصعب إخراج الحصيلة الروائية الموريتانية، عموماً من أن تكون رواية صحراوية حتى وإن جرت بعض أحداثها في المدينة، ولكن مصطلح الرواية الصحراوية ومفهومها ما زال محل نقاشات في الساحة النقدية والإبداعية العربية وغيرها.

ويمكن القول إن تقسيم الأعمال الأدبية إلى تيارات أو اتجاهات يحمل الكثير من التجاوز والمخاطرة، حتى وإن دعت إلى ذلك الضرورة المنهجية وفرضته غايات القراءة.

ثالثاً: القصة في رواية الشفق اللزوردي

وهي رواية للكتاب الموريتاني محمد الأمين ولد احطانا. وكانت واحدة من ثلاثية له تناول خلالها المجتمع العربي الموريتاني من خلال شرائح (العرب، والحراطين، والزوايا) والمادة القصصية عموماً هي التي يسرد من خلالها السارد متخيله الروائي.

وتدور أحداث هذه القصة في منطقة أوكيرة في الجنوب الغربي الموريتاني وهي قصة أدبية تمتح من الواقع شخصها، وتعتمد عليه في منطلقها؛ لنجد أن طفلاً سيتربى في هذه الربوع الصحراوية، حيث تفتقت حواسه وملكاته الطرية المشحونة بصفاء الأشياء، ونقاء الطبيعة، طبيعة وبساطة لفت مجمل نواحي الحياة؛ فالشمس حارقة، والسموم لافحة، والبرد قارس، في مقابل ذلك؛ النسيم العليل، والأمطار والخضرة، والمياه المنهمرة من الوديان والخلجان رقرقة تسر الناظرين، كل هذا كان يتلقاه الطفل الفتى بحواس صقيلة لم تكدر صفوها المدنية بعد، لتشكل حياته مرآة عاكسة للحياة في هذه الربوع بجلاء، فحياة الطفل الذي أصبح مراقباً فيما بعد ملأى بالملذات والمنغصات بالأفراح والأتراح، فلئن كانت ثمة أشياء تعكر على الطفل حياته من

¹- محمد الحسن محمد المصطفى، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال التراث والثقافة، (نواكشوط، العدد 19، لسنة 2021)، ص: 14.

قبيل الظلمة، وما تلفه من مخلوقات هلامية أو هكذا يتصورها "كبعشرين اظفر" و"افريغش" و"بهلب"، فهي كما يحكي عنها الكبار أشباح مخيفة وفتاكة، وخاصة بالصغار الذين يكون ليلاً، وذلك حينما ينداح الليل وتسدل الظلمة ستارا سميكا على الحي المتناثرة خيمه، هنا تتحرك هذه المخلوقات بأعينها الحمراء التي ترى في الظلام وتحاول الانقضااض على كل طفل لا يحتمي بحضن أمه وبنام- أو هكذا يحكي عنها الكبار- كما كان يخاف ركوب الحمير الذي أصبح ماهرا فيه فيما بعد، وكان كذلك يخاف من أم جناح البقرة النطاحة التي كادت تقتل إبراهيم" القيم على البقر" يوما لولا أن أسعفه بعض رجال الحي، تلك الحادثة التي لم تغب عن مخيلته حتى وهو نائم، و يكتف السارد المتخيل في قصة" الشفق اللازوردي" من خلال ثنائية الحلم والواقع، فإذا كان الكاتب يتتبع -أو هكذا يتصور- حياة أحمد في حركاته وسكناته مع رفاق دربه وبين أهله وجيرانه، وكيف يراقب الأحداث ويعايش طقوس الأفراح والأتراح، ويقاسي مشاق الحياة ويستمتع بمتعها، لكن مع كل هذا كانت تشطح بالمرهق في نومه الذاكرة فتعبر به الآماد وتجتاز به الدهور ليعايش تارة فترة الجفاف التي ضربت البلاد، وأهلكت الزرع والضرع فلم يجد أهل البدو بدا من الاحتماء بالسنغال التي أصبحوا يأتونها اضطرارا بعد ما كانوا يسافرون إليها اختيارا، وتارة أخرى إذا به يعيش نضال الكادحين والحركات الشبابية والتنظيمات العمالية وصراعا المستमित مع السلطة لتحقيق مطالبها، كما نجده يشهد بدايات التعايش بين القبائل والشرائح الموريتانية في انواكشوط، ويواصل في عبور الزمن حتى يجد نفسه رجلا متقدما في السن يحضر مؤتمرا دوليا في إحدى الدول الأوروبية.

عموما، فالرواية تتبعت الناس في حلها وترحالها في فعلها وفكرها في فرحها وجزعها في بؤسها ونعمائها، عند كبارها وصغارها، لكنها كما وصفها كاتبها بأنها" ليست مدونة للأحوال الشخصية، بل إنها صورة في إطار مكسر ... جملة من اللقطات بعضها يذكر الناظر بالتجاعيد على صفحة قدم منعمة ... نتف منقوشة من حياة إنسان لم يدرك معنى إنسانيته إلا عندما حضرته النهاية.. نهاية الأمل في حياة مقنعة، ونهاية الأمل في مشاهدة لازوردوري".¹

رابعا: الخطاب في رواية الشفق اللازوردي

1- الزمن في الرواية:

يرى الدارسون السرديون في تحديدهم لعنصر الزمن في النص السردى أنه ينقسم إلى زمنين؛ زمن القصة وزمن الخطاب، مشيرين إلى"أن الأول زمن متعدد الأبعاد، والأحداث فيه على

¹ - محمد الأمين ولد أخطانا، رواية الشفق اللازوردي، انواكشوط، 2007، ص: 4.

تعددتها يمكن أن تقع في نفس اللحظة وفي أمكنة مختلفة، لأن الزمن هنا زمن طبيعي، أما زمن الخطاب، فهو عندهم زمن سرد أحداث القصة في النص، وهو زمن خطي بعبارة تودوروف¹؛ لأن خطية زمن الخطاب هذه منشؤها طبيعة اللغة التواصلية؛ لأن التواصل باللغة خاضع للتتابع الخطي للدوال، وهي تبين عن مدلولاتها، من هنا كان تتابع العلامات اللسانية يأخذ شكل متتالية خطية، أثناء عملية التواصل بالمكتوب أو المنطوق.

فالزمن، لا مغالاة، إذا قلنا: إنه من أهم عناصر الخطاب بل هو أهمها؛ إذ هو السمة البارزة والثابتة في الرواية «حيث إننا إذا ما قسمنا الفنون إلى مكانية وزمانية نجد أنه كثيرا ما ينظر إلى الرسم باعتباره فنا مكانيا وإلى الرواية باعتبارها فنا زمانيا، وهو ما ذهب إليه هيتي". فذكر: أن الرواية عمل كلامي تجري (أحداثه) في الزمن؛ إذ يمكن، في بعض الأحيان، أن نجد رواية تخفي كل ما يؤشر إلى الفضاء لكننا لا يمكن أبدا أن نتصورها خالية من أي تركيب زمني»².

ولهذا السبب اهتم به الروائيون والنقاد-دون غيره- اهتماما كبيرا وفي وقت مبكر " إذ يرجع أصل الاهتمام بهذا المكون إلى أعمال الشكلايين الروس. في العشرينات من هذا القرن"³.

فيما يتعلق بروايتنا-موضوع الدراسة- فإن الكاتب قسمها إلى فصلين الأول تحت عنوان: "بنات نعش" وتحت عدة عناوين يدخل تحتها الواقع والحلم اللذين يتوزعان الرواية ويسهمان بشكل مهم في تخطيط الزمن، وذلك عن طريق الاستباق بحيث نعبر أزمنة سحيقة، أحيانا، ونعيش في أكناف الخيال ودهاليز اللاوعي في زمن آخر وأرض أخرى وبأفكار لا نعرف من أين استقيناها، كما نجد أنواعا أخرى لتخطيط الزمن كالاسترجاع والتضمين والتناوب... إلخ.

وأول عنوان يطالعنا في هذا الفصل هو الغفرة وفيه بدأ الكاتب بالحديث عن أول ما علق بذاكرة الطفل (البطل) ليتحدث عن الزمن أو يرهن الزمن في الرواية حينما ذكر أنه «منذ ضحى ذلك اليوم الأول من مشوار أحاسيس طفل بدوي أسمر، والأطفال ينتظرون "الرواية" القادمة من بئر بعيدة، كانوا يغنون ثم يواصل الحديث عن هذه الأحاسيس التي بدأت تتفتق وكأنها تعمل لأول مرة تباعا الواحدة تلو الأخرى، ويوما بعد يوم، حتى نجده يحدد الزمن مرة أخرى بقوله: في

¹- محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، بنية الخطاب ودلالاتها في رواية، القبر المجهول أو الأصول، (المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000)، ص: 125.

²- أزيد بيه ولد محمد البشير، تجديد الرواية العربية، (الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006)، ص: 83.

³- نفس المرجع، ص: 84.

ذلك المساء أو في واحد يشبهه في لون صفرة الشمس وتناثر خيم الحي وقع أهم انقلاب في حياته، إنه يوم قدوم "لمرابط".

ثم يواصل في استعراض الزمن وتحديدته ولكن بشكل غير حاسم كما سنرى في حديثه عن يوم ذهاب الطفل أحمد (البطل) إلى "لمرابط" وذلك حينما قال: «بعد يوم أو يومين انطلق إلى خيمة لمرابط يجر لوحا ثقيلًا مقيتا»¹. وما زلنا في بداية الرواية وفي الأيام الأولى بعد انطلاق حواس الطفل، ليعرج مرة أخرى على ذكر الزمن حين نقل عن لمرابط قوله: لا بد من يوم آخر حتى ينتشرب الدهن، وتكون الكتابة عليه ممكنة، يحتاج ليوم آخر حتى يجف. لكن انتظار ذلك الغد كان يصلي نارا حامية في جوفه، وهنا يحدد الزمن أيضا حين ذكر أنه "في الصباح الباكر ألبسته أمه دراعة من "باخ"².

تسير الرواية على هذا النحو، ويتسارع الزمن، يختزل مراحل من عمر البطل، فقد أصبح يجيد ركوب الحمير ماهرًا فيه، وهنا نصل إلى تحديد أكثر حسما للزمن في عنوان آخر وهو: "الزباني" حيث رهن اللحظة التاريخية وذلك بقوله: هذا العام يدعى عام "بوغرطة" وهي بئر تقع إلى الشمال الشرقي من سهل "الركيز"، علم الصبي فيما بعد أنه عام 1961.

وبعد أسبوع أو أسبوعين من بكور الطلبة الكبار بحثًا عن "العلك" الصمغ العربي يجمعون المحصول في مزادات وشنن، ثم يسافرون به صحبة لمرابط إلى مدينة لكصية وهنا تحديد للمكان، وبعد عودته من سفرة "لكصية" منهكا تعبًا لا يتمالك نفسه، فيسرقه النوم ف (يتوثب اليأس ويشمخ ظلام النفس، ويتم الانفصام بين الأمل والألم بين الخوف والرجاء.. تتهادى الأحلام بصورتها المكبرة.. إنه يعاشر الحلم، لأول مرة، وهو حلم أم الجناح، فقد رأى فيما يرى النائم أم الجناح بقرونها التي تطاول السماء، وتشق الطير، وتقطع الرياح، ولا حائل بينهما)³ فحاول بكل ما أوتي من قوة مجابهتها، فلم يقدر، فلاذ بالفرار، وهو ما لم تساعد عليه رجلاه الحرونيين، فجأة تلاشت أظلافها وقرونها، لتصبح "لمرابط" وقد زاغت عيناه، وتطاير ريقه غضبا عليه، لأنه لم يحفظ لوحه. ثم يستيقظ ويذهب إلى لوحه، وفي يوم آخر من الأيام وحين كان عائدا من لوحه رأى ناسا يتجمعون حول خيمة أهل ميمونة، الطفلة التي كانت بضعة قبل

1- محمد الأمين ولد أحظانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق، ص: 8.

2- محمد الأمين ولد أحظانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق، ص: 9.

3- المصدر نفسه، ص: 21.

أيام، إنها الآن تصارع الموت التي لم يكن يعلم أنها تصيب الأطفال وفي هذا المقطع يتحدث الكاتب عن الموت وطقوسها.

وهنا يحدث تخطيط آخر للزمن وذلك من خلال الاسترجاع وهو تذكّر أم الجناح بلامحها المقيّنة، والتي تحولت فجأة إلى لمرايط وقد زاغت عيناه وتطاير ريقه غضبا عليه؛ لأنه لم يحفظ لوحه، وهنا نشير إلى أن الاستباق والاسترجاع من خلال الأحلام، والتي اقتسمت مع الواقع المتخيل مجمل متن الرواية، وهي ظاهرة كسرت خطية زمنها. حتى نصل إلى عنوان "الإكليل" من الصفحة 28-33 وفيه نجد حديثا عن حرارة الأيام ما جعل الأطفال يلعبون "أم اكشيف" تحت الخيمة الجديدة التي تم إنشاؤها منذ وقت قريب، وشارك الطفل وأقرانه في إعدادها، ثم عرج الكاتب على فصل آخر من الحياة يتمثل هذه المرة في معاناة العبيد من خلال بلال؛ عبد السيدة البذيئة التي أذاقته الأمرين هذا فضلا عما يسمع ويلقى من لدن الرفاق وعامة المجتمع، وهنا نصل إلى عنوان آخر وهو: "القلب": فصل آخر من فصول أطفال "أوكيرة" فصفاء الجو وانسياب النسيم على تلاله الصقيلة مدعاة للتأمل والبهجة، فمساء تخرج البنات إلى التلال في أزهى الحل، حيث يلتقيان الشباب هنالك. الأطفال يرقبون المشهد عن بعد كأنهم بغاث الطير لا يستطيع الاقتراب من كبار النسور والعقبان. ثم يأتي على حكاية الفتية التي قصت عليه قصة بياض البياضين وسواد السوادين لنصل إلى "الشولة" في هذا المقطع من الرواية نبحر في معمعان الأحلام ونعيش مع صاحبنا الحلامة عالما آخر جعله الكاتب موازيا لحياته اليومية، عالم متلاطمة أمواجه ومختلفة معاييرها، وهنا سيسافر مع صديقه بلال وقد كبرى وأصبحت رجلين حقيقيين مختونين، ولهما سراويل من "لميلس" وأقشطة طويلة تداعب الكعبين صنعت من جلود (الزوايا)، فلم يفهم صاحبنا عن بلال حين رآه يجلد سيدته البذيئة، كان منهمكا في ضربها وهي تتمرغ وتستنجد "أحمد أدركني" لكن بلالا انتهره: لا تتدخل إنها أصبحت زوجتي.

وحكى له أنه إثر أعوام الجفاف المحلة والتي أهلكت الزرع والضرع نزع سكان البدو الموريتانيين إلى السنغال وبدأوا يعملون هنالك حتى أثرى بعضهم ثراء كبيرا، ومن أولئك بلال الذي غير اسمه إلى محمد حيدر، وعليه جاءت سيدته مستجدة (بأهل السنغال) فلقبت بلالا، فأكرمها أيما إكرام، ثم بعد فترة من المعاشة والإكرام رضيت به زوجا. وحينما نلاحظ هذه القصة ندرك أن تنظيم الزمن حصل فيه ما يعرف بالاستباق، فعاش الطفل من خلال هذا الحلم واقعا ليس واقعه الحقيقي؛ إذ تكسرت خطية الزمن وعبرنا بجسور الخيال آماد اللاوعي.

ونشير إلى أن الرواية تتألف من ثمانية عشرة عنوانا تتخللها: عشرة أحلام، وتظل العناوين تتساق والأحداث تترى حتى نصل إلى "بطن الحوت" حيث نصادف تحديدا آخر للزمن، فأثناء

حديثه عن بداية كتابة أحمد بنفسه في لوحه؛ إذ كتب بأحرف مائلة وأسطر تمشي في اتجاه البطن «الرحمن علم القرآن». ثم بعد ذلك جاء على قصة مجيئ الحاكم و(كوماندي سيركل) وبعض الجنود في «لادروفيرين» جديتين، قصد تعداد الناس والأنعام وإكرام أهل الحي لهم، وبدأت «ونكاله» الأولى، وتكون في فترة الخريف وهي إشارة أخرى للزمن، يشرع في وصف لعبة «غميظ» التي يلعبها الأطفال، وواصل تتبع هموم الطفل وانشغاله بقصة ظهور ذلك الشفق اللازوردي الذي هو علامة للآخرة والتي كما يذكر أحميد سالم أنها حكايات يرددها الزوايا والطلبة يخوفون بها الناس، بعد ذلك يأتي الحلم السادس مترنحا بين الحلم الصافي، واليقظة المشوبة برذاذ ينضحه الزمن المظمور في خبايا الغيب المتمنع على الرؤية والاستشراف، وفي تفصيله لقصص مجموعة من أصحاب أحمد (البطل) يركبون سفينة تمخر بهم عباب البحر، حين طفق كل منهم يحكي قصته مع هذه الحياة حيث نجد أن أحد الجماعة ذكر أنه في صبيحة أحد الأيام من سنة 1989م، وهو لعمرى استباق في الزمن، ومثاله أيضا، وهنا نصل «الثريا» والحلم التاسع وهذه المرة أصبح الفتى رجلا ناضجا، ويشارك في مؤتمر بلندن حيث قالت إحدى المضيفات «نحن الآن نستعد للهبوط في مطار لندن الدولي الساعة العاشرة مساء بالتوقيت العالمي مساء الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر 2022... نتمنى لكم إقامة ميمونة في مدينة الضباب والجمال»¹. ثم يعود بنا الزمن القهقري في الحلم اللاحق الذي يعيش فيه فترة دراسته مع مجموعة من زملائه في انواكشوط، ويخطب الزمن في كامل الرواية على هذا النحو، فالسارد ينظم زمن الخطاب في النص من خلال الاستباق والاسترجاع، والحلم والواقع، وقد مكنته هذه التقنية من تكثيف القصة في الرواية، فجاء متخيلها الروائي مفتحا على الدلالة والواقع.

2- الصيغة السردية في الرواية

الصيغة السردية من أهم عناصر الخطاب، فهي متعلقة بالطريقة التي يقدم بها الكاتب القصة. فقد ورد في لسان العرب لابن منظور قوله: «صاغ الشيء يصوغه صوغا وصياغة، وصيغة وصيغوة... سبكه. ورجل صواغ: يصوغ الكلام ويزوره.. وصاغ فلان زورا وكذبا: إذا اختلقه.. يقال: صاغ شعرا وكلاما أي: وضعه ورتبه»².

فالصيغة إذن عنصر من أهم مكونات الخطاب السردية، ومقولة مركزية بالنسبة لأصحاب السرديات عموما، والحصريين منهم خصوصا «وذلك على اعتبار أن صيغة السرد هي المقولة

¹ محمد الأمين ولد احظانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق، ص: 249.

² ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، (مكتبة بولاق، القاهرة، مصر، 1299)، ص: 442.

المحددة لأي عمل سردي من جهة، ومن جهة ثانية؛ لأنها المقولة الجامعة التي تلتقي بواسطتها كل الأعمال الحكائية، ومن خلالها-أخيراً- تتجسد، وبها تختلف عن غيرها من الأجناس والأنواع¹.

أما بالنسبة لروايتنا "الشفق اللازوردي"، فإنها تشتمل على أغلب أنواع الصيغ، إن لم نقل كلها، لكننا سنأتي بنماذج فقط من أنواع الصيغة هذه، إذ تبدأ بـ :
أ- صيغة الخطاب المسرود:

إزاء هذا اللون من الخطاب نجدنا أمام خطاب الراوي، وهو أكثر حكياً وسردية وهو الخطاب الذي يرسله المتكلم وهو على مسافة من أقواله، ويتحدث إلى مروي له سواء كان مباشراً أو غير مباشر².

وذلك حينما بدأ الكاتب بقوله: «أول شيء علق بذاكرته هو رائحة العطن المنبعث من القرب؛ القطرات التي تلامس الأرض تنحدر خلل الروث العالق بالشنن من فتحات قرب الوكاء .. تنساب ببطء حتى وسط القربة، فتتهوي بعد تردد»³.

ب- صيغة الخطاب المعروض:

وهي الصيغة التي نجد فيها المتكلم يتكلم مباشرة إلى متلق مباشر، ويتبادلان الكلام بينهما دون تدخل الراوي وهو الذي يسميه جنت: immediate ويرى أنه تنويع على الخطاب.

رأى أحد الأطفال العائدين من عند الخيمة ظنه يحمل شيئاً في يديه لكنه كان مرتعباً سأله:

- أهذا من الضيوف البخلاء الذين لا يفرحون الأطفال؟

- هذا ليس ضيفاً .. إنما ابنة "أهل الخيمة" ميمونة.

- ما شأنها، وما بها؟

- أصابتها حمى شديدة، قالوا إنها ستموت، أو هي على حافة الموت.

- وما ذا يفعلون لها، وكيف يموت الأطفال؟

- إذا حضر ملك الموت لأخذ روح أحد الأطفال ... فإنه لا تنزع روحه إلا عند ما تبتعد أمه عنه.

- وإذا بقيت أمها إلى جانبها لا تموت؟

¹ سعيد يقطين، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، (القاهرة، مصر الطبعة الأولى، 1987)، ص: 48.

² سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1997، ص: 197.

³ محمد الأمين ولد احظانا، رواية الشفق اللازوردي، (المصدر السابق)، ص: 6.

- لا أعرف!

ج- صيغة المسرود الذاتي:

وهو الخطاب الذي يتحدث فيه المتكلم عن ذاته وإليها عن أشياء تمت في الماضي، ويمكن أن يدخل فيها التذكر، وما يتصل باسترجاعات الماضي، وأمثله في الرواية كثيرة- وخاصة أن الرواية يتقاسمها الحلم والواقع- من ذلك قوله؛ وهو يتذكر قول أخته"حقا العبيد لا يموتون من العطش ولا تؤذيهم الشمس الحارقة"¹.

د- صيغة لمعروض غير المباشر:

نجد في نوع الصيغة هذا» مصاحبات الخطاب المعروض التي تظهر لنا من خلال تدخلات الراوي قبل العرض أو خلاله أو بعده، وفيه نجد المتكلم يتحدث عن الآخر»² ومثاله هو التالي: سأل أخته:

- هل ما قاله هذا الرجل صحيح؟

- سمعته يقولونه، ويرددونه ولا أعرف صحته من عدمها.

- من هو السيوطي هذا ولماذا يحرق هذا العالم كتبه إن لم تأت الآخرة؟

- قالوا والله أعلم أن السيوطي هذا أورد أحاديث عن الآخرة التي هي نهاية الدنيا وقد حسب هذا العالم التوقيت الذي ورد في تلك الأحاديث فوجد أنها في هذه السنة من الهجرة أو التي تليها.. ولهذا جزم بأنها نهاية الدنيا، وإن لم يتم ذلك فمعناه أن الأحاديث غير صحيحة، ومن حقه حرق كتب السيوطي التي وردت فيها هذه الرواية.

- ولكن هل يعني ذلك أنما أورده السيوطي غير كتابي؟

- أنت كثير الأسئلة اتركني وشأني وتضاحكت ...

- أنت لا تخافين الآخرة؟

- ومن الذي لا يخاف الآخرة؟

- لماذا تضحكين والآخرة قادمة هذه السنة؟

- أعطاك الله عقلا مطروحا، كي لا تسأل هذا النوع من الأسئلة.

¹- محمد الأمين ولد احظانا، الشفق اللازوردي، المصدر السابق، ص: 32.

²- سيدي محمد ولد كابر، الصيغة السردية في مجموعة" من كرامات الشيخ"، نواكشوط، 2010 - 2011، ص: 20.

كان شديد الخوف من يوم الآخرة، فهو يعني أن الموت سيطوي الجميع وكلهم سيحاسبون على أفعالهم .. لكن الأمر إنما يعني الكبار، أما الأطفال، فلا يحاسبون؛ لأنهم لم يبلغوا الحلم بعد.. أطفال المسلمين سيذهبون إلى الجنة، بل يشفعون في آبائهم..

- لكنهم سيموتون قبل أن يدخلوا الجنة ؟

- طبعا .. كل نفس ذائقة الموت"

غرق الفتى في أحاديث عابثة مع الفتيات اللاتي تجتمعن ضحوة في إحدى الخيام، وهن يهيئن لعبة (السيك)

- إنهم يلعبون والآخرة تظللهم؟! ..

هـ- صيغة المعروض الذاتي:

وهي نظير صيغة الخطاب المسرود الذاتي. إلا أن هناك فروقات تتم على صعيد الزمن، فإذا كنا في المسرود الذاتي أمام متكلم يحاور ذاته عن أشياء تمت في الماضي، فإننا هنا نجده يتحدث إلى ذاته عن فعل يعيشه وقت إنجاز الكلام.

ومن أمثلته في هذه الرواية أن بلالا تحدثه نفسه بفعل شيء ما، وهو الذي صار تاجرا ثريا، حيث قال: دخلت بيتي وغيّرت ملابسني بعد أن أخذت حماما سريعا، ووضعت عطرا نفاذا الرائحة عدت إلى الدهليز «تشجع يا محمد حيدر... إنها فرصتك»¹ فتقدمت بتردد وحذر صوب بيتها، فوقفت على مقربة من الباب... لقد غيّرت وضعيتها حيث ازداد انحسار القطاء، دخلت والرجفة تحملني وتطرحني، عدت إلى بابها وأغلقتها إلى نصفه... جلست بظلف قريبا من ركبتيها. لقد أصبحت حرا وأن لي أن أبحر، نظرت في عينيها إنهما ترمشان، وهي إذن تتظاهر بالنوم، بل أصبح نفسها أكثر تلاحقا، لقد تراءت طريقي إلى هذا القمم المسحور سالكة، كما بدت طريق إلى الانتقام أكثر وضوحا.

و- صيغة المنقول المباشر:

وهو الذي نجد فيه أنفسنا «أمام معروض مباشر، لكن يقوم بنقله متكلم غير التكلم الأصل، وهو ينقله كما هو، وقد يقوم بنقله إلى متلق مباشر (مخاطب) أم غير مباشر» ومثاله قول الكاتب وهو يحكي قصة صراع جرى بين أدلكان وكرت (الفسق) «...ذلك الرجل الذي سمع حكايته من زوج أحميد سالم، قالت: "إنه أكل العيش الصباح، وأتبعه بحفنة من أدلكان المطبوخ دون أن ينضج بشكل كاف، ثم وجد بعض القوم يأكلون (كرت) الفستق، فاستف منها ملء يده مرة أو مرتين،

¹- محمد الأمين ولد احظانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق، ص: 36.

وحين وصلت كرت إلى جوفه طلبت من أدلكان أن يسامحها؛ لأنها ستمر، فحمقها أولاً، ولم تصل عنده درجة إعطائها جواباً، وحين غيرت لهجتها وقالت:

- أتركني أيها السافل اليبس المشعث ..

أجابها بجفاء وتحد:

- ابحثي عن طريق آخر غير هذا الطريق فهو مسدود..

- وأي طريق تعني.. أريد المرور..

- ابحثي عنها في الأعلى، وإن دفعت بك حماقتك المعهودة ورعونتك ودسمك المقرف إلى أن تقتربي مني؛ فسترين ما أنا فاعل بك..

- سأمر رغم انفك ... الحقيقة أنه لا يعرفك إلا ذلك الطبيب الذي سئل عن شروط أكلك قال لمن سأله: اطبخه في لتر كامل من دهن الضأن الصافي واتركه يوماً كامل على النار، ثم اذهب به وبأنيته إلى خلوة الخلاء، واحفر له غاراً حتى المنكب وادفنه مع أنيته، ودر على المكان سبعة وأنت مغمض العينين ثم اسلم ساقيك للرياح ...

- إن أعجبتك شجاعتك، فتقدم لتريني ...

كان أدلكان رائد الشعث والعدو اللدود لكرت، وحين تواجدا في بطن البللوطي نشبت بينهما معركة مريعة¹.

وعلى هذا النحو ينتظم الرواية خطابات؛ مسرودة ومعروضة ومنقولة مشكلة متتالية سردية هي الصيغة السردية للنص، وقد شاركت هذه المتتالية السردية في تكثيف المتخيل الروائي للرواية. وقبل أن ننتقل إلى موضوع الرؤية نوضح أن هنالك علاقة كما يرى تودوروف: «...وطيدة بين الجهات والصيغ باعتبارهما يتعلقان بصورة الراوي، ولذلك يخلط بينهما بعض الباحثين، ويشير إلى أن كلا من هنري جيمس، و ب. لوبوك ميزا بين أسلوبين متميزين للحكي: الأسلوب البانورامي (السرد) ويرتبط بالرؤية من الخلف، والأسلوب المشهدي (العرض)، ويرتبط بالرؤية مع، وإن كان هذا الارتباط ليس ضرورياً².

¹ - محمد الأمين ولد احطانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق، ص: 212.

² - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، (المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1997)، ص:

3- الرؤية في "الشفق اللازوردي":

اتخذ هذا المفهوم تسميات مختلفة؛ كالرؤية السردية، أو المنظور السردى أو وجهة النظر، أو التبئير، وهي تسميات ذات دلالة بصرية في أغلبها، "وهي العلاقة بين المؤلف والراوي وموضوع الرواية"¹، فالرؤية تأخذ أهميتها من كونها ألصق المكونات بطبيعة الأدب نفسه برأى تودوروف: أن المقولة الثالثة المهمة التي تسمح بوصف الانتقال من الخطاب إلى التخيل هي مقولة الرؤية، فالوقائع التي يتألف منها العالم التخيلي لا تقدم لنا أبداً في «ذاتها» بل من منظور معين وانطلاقاً من وجهة نظر معينة.

قبل استظهار أنماط الرؤية التي من خلالها قدم الراوي قصة الشخصية الرئيسة، يحسن بنا إضاءة هذا الجانب نظرياً، وهنا نشير إلى نظريتي تودوروف وجرار جنت، أما الأولى، فجاءت على النحو التالي:

أ- الرؤية من الخلف (الراوي > الشخصية) وهي التي يعرف فيها الراوي أكثر مما تعرفه الشخصيات (الراوي أكبر من الشخصية).

ب- الرؤية مع: (الراوي = الشخصية) وهي التي يعرف فيها الراوي ما تعرفه الشخصية (الراوي يساوي الشخصية).

ج- الرؤية من الخارج: "وهي التي يقدم فيها الراوي الشخصية كما يراها ويسمعها دون الوصول إلى عمقها الداخلي، وبالتالي، فمعرفة الراوي هنا ضئيلة (الراوي أصغر من الشخصية)"².

أما جيرار جنت، فقد اعتمد في تصوره حول تحليل الخطاب الروائي على آراء سابقه وخاصة "ابويون" وتودوروف، ولهذا جاءت نظريته قريبة من تصور تودوروف على الرغم من الاختلاف في التسمية حيث يسمي الرؤية السردية تبئيراً، كما أضاف بعض التفاصيل مع اعتماد التقسيم الثلاثي، وذلك على النحو التالي:

أ- التبئير الصفر: اللاتبئير وهو مطابق للرؤية من الخلف حيث يعرف السارد أو الراوي أكثر مما تعرف الشخصية الروائية.

ب- التبئير الداخلي: وهو مطابق (للرؤية مع) عند تودوروف بحيث يعرف الراوي أو السارد ما تعرفه الشخصية الروائية.

¹ - إزيبويه ولد محمد البشري، (مرجع سابق، ص: 286).

² - سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، المرجع السابق، ص: 293.

ج - التبئير الخارجي: وهو مطابق للرؤية من الخارج عند (تدوروف) حيث لا يعلم الراوي عن الشخصية إلا ما يرى أو يسمع.

أما بالنسبة لرواية الشفق اللازوردي فظلت الرؤية من الخارج -حسب جرارجنت- تحكم الرؤية بأسرها مع وجود بعض الاستثناءات التي سنعود إليها بعد حين بعد أن نسلط الضوء على الرؤية الغالبة وهي الرؤية مع والتي-كما أسلفنا- يقدم فيها الراوي الشخصية كما يراها ويسمعها، فمعرفة هي ذاتها معرفة الشخصية، فمثلا في المقطع الأول من الرواية، وبينما كان الكاتب يتحدث عن الطفل أحمد (البطل) كيف بدأت حواسه تتطلق، وبدون استئذان، أحس بالعطش وحينما ذكر له أبوه أن أمه ستمدق له اللبن وستحليه له حينها تذكر طعم السكر، وفي اليوم الثاني انطلق إلى خيمة لمرباط يجر لوحا ثقيلًا، وتستمر الرواية بهذه الرؤية، وظل يسوق لنا الطريقة التي يعامل بها لمرباط تلامذته والرؤية هي ذاتها.

الرؤية من الخلف:

أما الرؤية الأخرى التي ظلت تتخلل الرواية من حين لآخر، فهي الرؤية من الخلف، والتي من أمثلتها ما ذكره الكاتب في المقطع الأول من الرواية في سياق حديثه عن بداية قراءته اللوح على المرباط بدأ وهو لا يعرف المنتهى فقال: كانت البداية مع ملحمة لم يعرف الهدف منها، وهي أن يصل "الماليف" (لام الألف) الذي بدا له بعيد المنال.

كما نجد ذلك أيضا تحت العنوان الثاني من الرواية (الزباني)، وعند الصفحة 16 حينما ذكر أن « هذا العام يدعى "بوغرظه" وهي بئر تقع إلى الشمال الشرقي من سهل الركيز، علم الصبي فيما بعد أنه عام 1961»¹

وفي الفصل الأول والحلم الثالث منه تحديدا نجد هذا المثال «...كانوا في أقصى درجات الانهماك... اقترب منهم، فرأى أعوادا و بعرا في صفوف متقابلة، وضعت على خطوط متقاطعة ... أخبر الراوي أنها تدعى (أصرند). كان يريد أن يعرف حقيقة صديقه المقرئ، ففتح له راوي الحلم صفحة شرع في قراءتها" في الستينات كان من علية القوم، يشتري ما يشاء، لأنه موظف، وحياة الموظفين في تلك الفترة رغبة، كما أنه كان عضوا في نقابة المعلمين العرب ... إلخ»².

وعاد الكاتب للرؤية مع وهو يروي قصة رحيل أحمد وأهله جهة الشمال، فلا يروي إلا أشياء يعلمها أحد أو يراها أو يسمعها، حتى نصل إلى الحلم الثاني من الفصل الثاني نجد هذا المثال:

¹ - محمد الأمين ولد احظانا، رواية الشفق اللازوردي، مصدر سابق الذكر، ص: 16.

² - محمد الأمين ولد احظانا، مصدر سابق، ص: 108.

كانت المدينة جديدة عليه بكل المقاييس، فهو يدخلها لأول مرة، اتجه صوب صديق لا يعرف بالتحديد لماذا هو صديقه، ولا يدرك من أين جاء لهذه المدينة المترامية الأطراف... فالراوي لم يخبره بعد....

ثم يعود أيضا إلى الرؤية مع وتقطع عبرها الرواية أشواطاً حتى نصل إلى هذا الحلم وهو تحت عنوان (البطين) حيث نجده يعود إلى الرؤية من الخلف وذلك في قوله...وفي المساء ركب في مؤخرة إحدى الشاحنات المليئة بأجناس البشر، وفي آخر الليل وصل مدينة لعيون، ذهب إلى منزل توجد به مجموعة يسكن معها في هذه المدينة التي بدأ الراوي يحكي له صلاته الوثيقة بها... لقد بدأت صلاته بها حين حول إلى هذه المدينة مدرسا.... كما يرجع ضمن هذا الحلم للرؤية مع وأثناءه أيضا يعود إلى الرؤية من الخلف وذلك في هذا المثال:

...وفي المساء يركبون السيارات ويتبارون من جديد وعلى المغلوب استضافة الشلة العطلة القادمة... أيام لم ينسها الفتى حين فتح له الراوي نافذة لفترة لم تحن بعد، وإن كانت في تلافيف الماضي القريب... وقبل النهاية عاد الرؤية مع، ثم عاود أخيراً للرؤية من الخلف وختم بها الرواية في قوله قال الراوي: «إنها موريتانيا الأعماق، الأرض التي تتجب السمرة والجمال الغض، والرجولة الصخرية، والأنوثة الريحانية... إلخ»¹.

لقد سرد السارد القصة في "الشفق اللازوردي" من خلال رؤية سردية تهيمن عليها الرؤية مع، مستخدماً وموظفاً تقنية الحلم في مساحات واسعة من النص، مما أعطى للنص كثافة فنية في الرؤية كثفت المتخيل الروائي وفتحته على آفاق سردية محلية مرتبطة بالذاكرة الشعبية وقصصها الشعبي.

خاتمة:

لقد تبعنا في هذا المقال عناصر الخطاب السردية في رواية الشفق اللازوردي، حيث وقفنا بداية عند إطار نشأة النص السردية الموريتاني، وما اكتنف ذلك من بؤادر إرساء نثرية عربية حديثة، وتراكم من شعرية هذه الأشكال السردية، وألفة في تلقيها، وإبداعية في فنيات كتابتها، بعد أن كان الشعر وألفة تلقيه هما المهيمنين على الذائقة الجموعية والإنتاج الإبداعي في هذه الربوع، مع كل هذا بدأت الأعمال السردية تأخذ مكانها وتقرض نفسها في الساحة الأدبية؛ إبداعاً ونقداً، حتى غدت جزءاً معتبراً من الإنتاج الأدبي المحلي يكاد يزاحم الشعر باكتساحه مساحات واسعة من الساحة الأدبية، من حيث غزارة الإنتاج، وتنوع الدراسات النقدية المقتفية أثره المبينة عن

¹ - محمد الأمين ولد احطانا، مصدر سابق، ص: 289.

جماليات إبداعه، وإن كان البعض يرى أن الشعر لم تخب ناره ولم يتراجع إشعاعه في بلاد "المليون شاعر" -على الأقل- حتى الآن.

ثم تناولنا عناصر الخطاب من؛ زمن، وصيغة، وتبئير، مروراً بالقصة والمتخيل، قاصين تمظهرات هذه العناصر داخل الرواية (الشفق اللازوردي) وما ينشأ من توظيف هذه العناصر الخطابية من جماليات في المبنى وعمق في الدلالة.

المصادر والمراجع:

المصادر:

ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، مكتبة بولاق، القاهرة، مصر، 1299.

محمد الأمين ولد أحطانا، رواية الشفق اللازوردي، نواكشوط، 2007.

المراجع:

أزيد بيه ولد محمد البشير، تجديد الرواية العربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2006

سعيد يقطين، السرد العربي: مفاهيم وتجليات، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1987.

سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1997.

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، السرديات والرواية الموريتانية، ط1، نواكشوط 2010.

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، بنية الخطاب ودلالاتها في رواية القبر المجهول أو الأصول.

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، بنية الخطاب ودلالاتها في رواية، القبر المجهول أو الأصول،

المكتبة الأكاديمية، الطبعة الأولى، القاهرة، 2000.

محمد الأمين ولد مولاي إبراهيم، شعرية رواية الصحراء منشورات جامعة نواكشوط، كلي الآداب والعلوم

الإنسانية، 2012.

محمد الحسن محمد المصطفى، الرواية العربية الموريتانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة

الأولى، 1996.

محمد سالم الأمين الطلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، الانتشار العربي، بيروت - لبنان، الطبعة

الأولى، 2008.

المجلات والمنشورات الجامعية:

سيدي محمد ولد كابر، الصيغة السردية في مجموعة "من كرامات الشيخ"، نواكشوط 2010 -

2011.

محمد الحسن محمد المصطفى، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث والتكوين في مجال

التراث والثقافة، نواكشوط، العدد 19، لسنة 2021.

شعرية التخيل عند جميل بثينة (الاستعارة نموذجاً)

محمد أحمد طالب البنانى
طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

تمهيد

حظي موضوع الخيال باهتمام الفلاسفة والنقاد والبلاغيين العرب المسلمين، وإن كان الفلاسفة هم من حازوا قصب السبق في تناول هذا الموضوع؛ فقد تناولوا مفهومه ووظائفه، وأثره في مجال الإبداع الشعري، لما يمثله من أهمية في مجال البحث الفلسفي، لأنه مرتبط بقوة النفس ونشاطاتها المختلفة، وقد استعمله فلاسفة العرب ونقادهم للإشارة إلى النشاط الإبداعي الذي يمارسه الشعراء، وهذا المفهوم هو الذي نجده في الدراسات النقدية الحديثة باسم التخيل ولا فرق بين المفهومين، وسنحاول تحديد مفهوم التخيل ثم نبحث عن شعرية في ديوان جميل بثينة. وننطلق في هذا الموضوع من المحددات التالية:

الشعرية: وهي علم يتخذ من الأدب موضوعاً له مرتبطاً في ذلك من المقومات التي تكسب الأدب أديبته. التخيل: هو مجال خصب، وملكة تمكن الناقد من الغوص في أغوار الذهن، فعن طريقه يكشف لنا النقاد تأملات النفس وتصوراتها.

جميل بن معمر: شاعر أموي غزل، اشتهر بحبه بثينة التي نسب إليها ويعد أحد أبرز شعراء الغزل العذري في طابعه البدوي (ت 82هـ).

أولاً: الدلالة اللغوية

التخيل مشتق من الفعل خال. جاء في لسان العرب: "خال الشيء: يخال خيلاً وخيلاً وخالاً وخيلاً وخيلاً ومخالاً ومخيلاً وخیلولة.. ظنه، وفي المثل: "من يسمع يخل" أي يظن. وتخيل الشيء له تشبه وتخيل له أنه كذا أي: تشبه وتخيل، يقال تخيلته فتخيل لي، كما تقول: تصوريته فتصور وتبينته فتبين وتحققته فتحقق

والخيال والخيالة: ما تشبه لك في اليقظة والحلم من صورة قال الشاعر:

فلست بنازل إلا أملت برحلي أو خيالها الكذب⁽¹⁾

¹ - ابن منظور: لسان العرب، مصدر سابق، مادة خيل

فالخيال يقوم على الشك والظن في تشابه الأشياء، ونادرا ما يكون ترابط هذه الأشياء متعلقا بالحالة النفسية التي تحفز المخيلة" فالخيال كل شيء تراه كالظل وخيالك في المرأة، وهو ما يأتي العاشق في النوم على صورة المعشوقة، وتقول تخيل لي الخيال"⁽¹⁾

ثانيا: الدلالة الاصطلاحية

تعددت التعريفات الاصطلاحية للتخيل، وذلك بتعدد الميادين التي تتناوله باعتباره جزءا من اهتماماتها، ومن أبرز من تناولوه بالدراسة الفلاسفة العرب المسلمون، ونقاد العرب القدماء، فعند الفلاسفة نجد ابن سينا في كتابه عيون الحكمة يرى أن القياسات الشعرية تعتمد الخيال في خلق صورها الإبداعية، حتى ولو كانت خالية من المصادقية، لما تخلقه من أثر في نفوس متلقيها إذ يقول: "فالقياسات الشعرية من مقدمات مخيلة، وإن كانت مع ذلك لا يصدق بها، لكنها تبسط الطبع نحو أمر وتقبضه عنه مع العلم بكونها كاذبة..⁽²⁾

فانقباض النفس وانبساطها، دافعه الرئيسي هو تلك الصور المتخيلة، التي يستجيب لها المتلقي أو تنفر منها نفسه مع العلم بأنها كاذبة، إلا أن المتلقي يتوهم هذا الشيء، وهذا التوهم هو التأثير الذي يحدثه الشعر في نفوس متلقيه، فالإنسان بطبيعته يحاكي ما يراه ويتخيله، معتمدا في ذلك على الحس ومن ثم العقل، ثم يأتي الانفعال النفسي ليترجم أحسيس المتخيل وينقلها لمتلقيه، وهذا الانفعال أعطاه الفلاسفة أهمية عظيمة فالكندي يعتبره المحفز الأول والأساسي للصور الحسية حيث يقول: "الحس هو إدراك النفس صور ذات الطين في طينتها بأحد سبل القوة الحسية، ويقال: هو قوة للنفس مدركة للمحسوسات، فالقوة الحساسة هي التي تشعر بالتغيير الحادث في كل واحد من الأشياء مثالها أن تشعر بالبدن ومما كان خارجا عن البدن"⁽³⁾

فالنفس هنا هي المحدد الأول لطبيعة التخيل ومن ثم يأتي العقل الذي يلعب دور المنظم لتلك الصور، فهو لا يستطيع إدراك الصور من دون الحس، فالنفس هي جميع الأشياء والأشياء إما محسوسة أو معقولة، فالمحسوسة بالحس والمعقولة بالعلم، ولأن النفس تحتل "موقعا وسطا بين العالم المعقول والعالم المحسوس"⁽⁴⁾

1- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهدي: كتاب العين، تح، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1988، مادة خيل

2 - ابن سينا: عيون الحكمة، تح، عبد الرحمن بدوي، ط2، دار القلم، بيروت لبنان، 1980م، ص 13

3 - أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تح، محمد عبد الهادي أبو ريده، ط2، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1950م، ص 16

4 - رجاء أحمد علي: الله والعالم في فلسفة ابن سينا، ط1، التتوير للطباعة والنشر بيروت لبنان، 2010م، ص 276

أما النقاد العرب القدماء فقد أعطوا للخيال أهمية لما يلعبه من أدوار أساسية في بناء الصورة الشعرية، ومدى قربها من الواقع وبعدها عنه ومن أبرز من تناول تلك القضية عبد القاهر الجرجاني في تصوره للمعاني والانفعالات الحسية، مقسما إياها إلى معان عقلية وأخرى تخيلية، مركزا على الصدق والكذب في كل ذلك، وقد تناول القرطاجني مسألة التخييل وما تحدثه من أثر في نفس المتلقي، رادا وظيفة التخييل إلى التأثير في النفوس بدل ما ذهب إليه الجرجاني، فهو يعتبر الشعر الصادق أقرب إلى المتلقي حيث يقول: "إن أفضل الشعر ما حسنت محاكاته، وهيأته، وقويت شهرته أو صدقه، أو خفي كذبه..."⁽¹⁾

ويعتبر التخييل أو الخيال مجالا خصبا، وملكة تمكن الناقد من الغوص في أغوار ذهن، فعن طريقه يكشف لنا النقاد تأملات النفس وتصوراتها، فيبرزون لنا جوانب مخيلة الشاعر الغامضة، وما تتركه تخييلاته من روعة وجمال في نفوس المتلقين، لأنها تأتي بالصورة المختلفة، وتجمع بين أشناتها، خالقة صورا تهز الشعور وتؤثر في النفوس، فما يحسه الشعراء في الواقع المحسوس يترجمونه عبر العواطف، بعمل تصويري بديع إلى صورة موجودة ومخزنة في العقل الباطن لأن الخيال "أنفع المواهب والملكات في فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والعواطف الإنسانية"⁽²⁾

ويعرف محمد الخضر حسين التخييل بأنه "قوة تتصرف في المعاني لتنتزع منها صورا بديعة، وهذه القوة إنما تصوغ الصورة من عناصر كانت النفس قد تلقتها عن طريق الحس والوجدان وليس في إمكانها المتخيلة أن تبدع شيئا من عناصر لم يتقدم للتخييل معرفتها"⁽³⁾ فالخيال الشعري عنده يتصل بالإبداع الذي هو عمل المخيلة، وقد خالف فيه علماء البلاغة والفلاسفة في معنى الخيال فهو يرى أنهم "خصوا بهما ما لا يصادق عليه العقل"⁽⁴⁾ في الوقت الذي يرى هو فيه أنه يشمل مع ذلك كل عمل فيه ابتكار وتجديد "سواء أذعن له العقل أو تجافى"⁽⁵⁾

1 - حازم القرطاجني: منهاج البغاء وسراج الأدياء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، 1981، ص72

2 - محمد عبد المنعم حجاجي: ابن المعتز تراثه في الأدب والنقد والبيان، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1991، ص 302

3 - محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ط1، المكتبة العربية في دمشق سوريا، 1992م، ص13

4 - المصدر نفسه، ص 12

5 - المصدر نفسه، ص12

وللتخييل فوائد منها "فائدة عامة لا تتخلى عنه وهي تحريك نفس السامع لتلقي المعنى بارتياح له وإقبال عليه ولو كان من قبيل الحديث المؤلف أو المعلوم بالبديهة"⁽¹⁾

كما يمكن التخيل المبدع من أن "يعرض المعنى الواحد في صور خيالية متعددة والشعر واحد فيجد السامع عند كل صورة داعية لذة"⁽²⁾

ويرى المازني أن الخيال ليس هو الابتعاد عن الحقيقة والإتيان بما لا يتصور، وقد انتقد فهم الناس لكلمة الخيال لأنهم فهموا أن كلمة الخيال تعني "مجازة الحقائق وتكذب التجارب واقتناص شوارد الأوهام والمحالات"⁽³⁾

ثالثاً: تجليات التخيل في الديوان:

يعد الجاحظ أول من أعطى تعريفاً للاستعارة وذلك في كتابه البيان والتبيين حيث قال: "تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه"⁽⁴⁾

وبعد الجاحظ جاء ابن المعتز في كتابه البديع وعرفها "استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها"⁽⁵⁾

وعرفها الجرجاني بقوله: "أن تريد تشبيه الشيء بشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فيتغير المشبه"⁽⁶⁾

ويعرفها أبو هلال العسكري بقوله: "الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيد، والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة"⁽⁷⁾

1 - المصدر نفسه، ص 69

2 - المصدر نفسه، ص 72

3 - إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، ط1، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1976م، ص 232

4 - عمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1998، ص 153

5 - ابن المعتز: البديع، تح، أغناطيوس كراتشكوفسكي، ط2، دار المسيرة، بيروت، لبنان، 1982، ص 54

6 - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق أحمد مصطفى المراغي، المكتبة العربية، 1950م، ص 67

7 - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تحقيق محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط، 1998م، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ص 205

ويعرفها السكاكي بقوله: "الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه، وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به"⁽¹⁾ ويرى الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة أن الاستعارة "ضرب من التشبيه ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعييه القلوب، وتدركه العقول، وتستفتي فيه الأفهام والأذهان، لا الأسماع والآذان"⁽²⁾.

ويمكن عد الاستعارة مظهراً من مظاهر الانزياح، يعمل على مفاجأة السامع ونقله من التفكير في المعنى المعجمي المألوف، إلى البحث فيما وراء المعنى للوصول إلى الهدف المنشود، ولأهمية الاستعارة، وجمال أسلوبها نجد جميل بثينة اعتمدها واهتم بها في التعبير عن عشقه لبثينة، ولرصد الاستعارة التي تعد واحدة من أهم المظاهر الأسلوبية التي تعتمد على الانزياح، وتحمل بين طياتها دلالات إيحائية مباحة للمتلقى، فإننا سندرس بعض الأبيات التي تضمنت هذا المنبه الإبداعي، ومن أمثلة تلك الصور الشعرية قوله:

إذا قعدت في البيت يشرق بيتنا وإن برزت يزداد حسناً فناؤها
بثينة تزري بالغزالة في الضحى وإن برزت لم يبق يوماً بها بها
فإن لم أزرها عادني الشوق والهوى وعاد قلبي من بثينة داؤها⁽³⁾

يطالعنا جميل بثينة في هذه الأبيات بجمالية أخرى من جماليات التخييل الشعري تمثلت في الاستعارة، التي هي نوع من المجاز يقوم على علاقة المشابهة بين المستعار منه والمستعار له، مع حضور قرينة تمنع من إيراد المعنى الحقيقي، وهي في الأصل تشبيه حذف أحد طرفيه فإن حذف المشبه وصرح بالمشبه به كانت تصريحية، وإن حضر المشبه، وغاب المشبه به مع استبقاء عنصر يدل على الطرف المحذوف سميت مكنية.

فالشاعر في البيت الأول من هذه الأبيات استعار فعلين، فهو شبه البيت وهو المشبه المذكور بالشمس وهي المشبه به المحذوف، وترك قرينة دالة على ذلك وهي الفعلان أشرق وتبرز على سبيل الاستعارة المكنية، فإذا كانت الشمس بزوجها تضيء الكوكب الأرضي وتبدد الظلام الدامس، فإن بثينة محبوبه الشاعر لها من جمال الوجه ونضارته، ما يفقد الشمس بهاءها وإشراقها، وفي البيت الثالث من الأبيات يرسم لوحة أخرى من لوحات الإبداع الشعري تمثلت

¹ - محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تح، نعيم زورور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص 369

² - عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي: أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص 15

³ - جميل بن معمر: الديوان، جمع وتحقيق حسين نصار، د ط، د ت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ص 23

في الاستعارة التصريحية في قوله: وعاد قلبي من بثينة داؤها، فشبه حب بثينة الذي لا يفارق قلب الشاعر ولا للحظة بالداء الذي لا شفاء له، فإذا كان الداء يرهق المصاب به ويسبب له الأحران والأوجاع، فإن حب بثينة المخامر قلب الشاعر، والذي لا يفارق قلبه أودى بيه حزينا، فلا هو يحصل على بثية فيمتع قلبه بلقاها، ولا هو يشفى من حبها، الذي أودى به سقيما لا يجد له دواء.

ونجده في قصيدة أخرى منزاحا عن اللغة العادية حيث يقول:

لما دنا البين بين الحي واقتسموا حبل النوى فهو في أيديهم قطع
جادت بأدمعها ليلي وأعجلني وشك الفراق فما أبقى وما أدع
يا قلب ويحك ما عيشي بذئ سلم ولا الزمان الذي قد مر مرتجع
أكلما بان حي لا تلائمهم ولا يبالون أن يشتاق من فجعوا
علقتني بهوى منهم فقد جعلت من الفراق حصاة القلب تتصدع⁽¹⁾

فمن خلال اللغة الشعرية اتخذ الشاعر وسيلة للإبانة عن حالته النفسية ورؤيته للحياة، فانزاح بألفاظه عن دلالتها الوضعية والنمطية إلى دلالات بعيدة؛ لإثارة المتلقي، وجعله يبحث عن المعاني الخفية وراء هذا الاستخدام، ففي البيت الأول انزاح الشاعر عن المعنى الوضعي للبعد الذي عرضه الشاعر في صورة حبل ملموس بقي قطعاً في الأيدي بعد ما كان متماسكا، فحال هذا الحبل هي حال قلب الشاعر الذي أودى به الفراق إلى أشلاء متناثرة، وهو ما جسده البيت الأخير الذي شبه فيه الشاعر قلبه بالحصاة التي لم تتحمل ألم هذا الفراق، فتحولت من تماسكها إلى أشلاء ممزقة، فقلب الشاعر لم يتحمل فراق المحبوبة التي تعلق بها، فأرداه ذلك التعلق متصدعا من ألم الفراق.

ونجده في الأبيات التالية، ينزاح عن اللغة العادية حيث يقول:

بنجر قد سقين المسك منه مساويك البشام ومن غروب
ومن مجرى غوارب أقحوان شتيت النبت في عام خصيب⁽²⁾

انزاح الشاعر بمفردة شتيت النبت من مدلولها الأصلي إلى مدلول استعاري، حيث شبه نبات الأسنان في فم المحبوبة بنبات الأرض في عام خصيب، فإذا كانت الأرض في زمن الخصب والأمطار تنزين وتلبس أبهى حللها، فإن جمال نبات أسنان المحبوبة وتراصها ورائحة فمها

¹ - جميل بن معمر: الديوان، مصدر سابق، ص 118

² - جميل بن معمر: الديوان، مصدر سابق، ص 34

الزكية، تضاهي جمال الطبيعة الأخاذ، فـ"محور الاستعارة والصورة في الشعر هو تجاوز اللغة الدلالية إلى اللغة الإيحائية، وهو عبور يتم عن طريق الالتفاف خلف كلمة تفقد معناها على مستوى لغوي أول لتكتسبه على مستوى آخر، وتؤدي بهذا دلالة ثانية لا يتيسر أدائها على المستوى الأول"⁽¹⁾.

ومن هنا تبدأ براعة جميل بثينة في خلق رؤية متعمقة واعية للواقع وذلك بمعارضة حرفية للغة العادية، ولجوءه إلى لغة المجاز بما فيها من إحياء؛ لأن استخدام الشاعر للصور هو خروج بالمفردات من دلالتها الوضعية أو المعجمية إلى الاستخدام المجازي أو الرمزي لها. ومن أمثلة التخييل الاستعاري قوله:

ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني أضاحك ذكراكم وأنت صلود⁽²⁾

يتجلى التخييل الاستعاري في هذا البيت في قول جميل (أضاحك ذكراكم) فقد استعار الشاعر الضحك وهو صفة من صفات الإنسان الحسية للذكرى التي تمثل شيئا معنويا مجردا، فالشاعر يجعل من ذكرى المحبوبة بثينة إنسانا يضاحكه، فمن خلال التكتيف الصياغي لهذا التركيب الاستعاري، الذي هو في الأصل تشبيه حذف أحد طرفيه، حقق الشاعر سموا دلاليا، وانزياحا حقق من خلاله تماهيا عظيما وتقريبا بين المتباعدات، كان من شأنه أنسنة ذكرى المحبوبة من خلال منحها واحدة من أبرز صفات الإنسان وهي الضحك، فالشاعر بهذا الانزياح يخبرنا بمدى تعلقه بمحبوبته بثينة، وهو تعلق وصل إلى درجة اقتراب فيها من الجنون، فما مضاحكة الذكرى إلا دليل قاطع على شدة هذا التعلق والجنون.

وفي خاتمة البحث يمكن القول إنه كان للشعر القديم اهتمام خاص بالخيال الذي هو التخييل في حقيقته أو قريب منه؛ فلفظ التخييل وإن لم يكن معروفا بهذا المفهوم فقد كان حاضرا بالقوة في التراث الشعري والنقدي العربي، فالتخييل عند النقاد القدماء، إبراز للصور الشعرية في قالب حسي يجعل المتلقي ينفعل وجدانيا بما ترسمه الصورة وما تحدثه من أثر في النفس، فيتماهون مع مضمونها صدقا كان أو كذبا.

والتخييل عند المحدثين قوة تتصرف في المعاني لتنتزع منها صورا بديعة تحرك النفوس طربا بما يحدثه التخييل فيها من لذة لدى المتلقين.

¹ - صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1998م، ص 240 - 241

² - جميل بن معمر: الديوان، مصدر سابق، ص 67

والملاحظ أن التخيل بطريق الاستعارة عند جميل كان انزياحا عن المؤلف اللغوي، وارتقاء بالصورة إلى مجالات تخيلية، لها خصوصيتها الإبداعية، وطابعها التأثيري الخاص، وذلك لارتباطها بطبيعة الشعر العذري التعبيرية، وانتزاع أجزائها من بيئة الشاعر البدوية الخاصة، وبذلك تفعل تأثيرها في القارئ بما تحمله من صدق تعبير عن شعور الشاعر، وبما فيها من تصوير لعوالم العشق البدوي العفيف.

المصادر والمراجع:

- ابن سينا: عيون الحكمة، تح، عبد الرحمن بدوي، ط2، دار القلم، بيروت، لبنان، 1980م
- ابن المعتز: البديع، تح، أغناطيوس كراتشكوفسكي، ط2، دار المسيرة، بيروت، لبنان، 1982.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين): لسان العرب، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2003م
- إبراهيم عبد القادر المازني: حصاد الهشيم، ط1، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1976م
- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهدي: كتاب العين، تح، مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط1، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1988
- أبو هلال العسكري: الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1998م.
- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي: رسائل الكندي الفلسفية، تح، محمد عبد الهادي أبو ريده، ط2، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1950م.
- أرسطو: فن الشعر، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.
- جميل بن معمر: الديوان، جمع وتحقيق حسين نصار، د ط، د ت، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- رجاء أحمد علي: الله والعالم في فلسفة ابن سينا، ط1، التتوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2010م.
- صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، 1998م.
- محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، تح، نعيم زورور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983.
- محمد الخضر حسين: الخيال في الشعر العربي، ط1، المكتبة العربية في دمشق، سوريا، 1992م
- محمد عبد المنعم خفاجي: ابن المعتز تراثه في الأدب والنقد والبيان، ط1، دار الجيل بيروت، لبنان، 1991
- مصطفى الجزو، نظريات الشعر عند العرب الجاهلية والعصور الإسلامية، ج1، ط1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2002م

عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، دلائل الإعجاز، تحقيق: عبد السلام
محمد هارون، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، 1984
عمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي،
القاهرة، مصر، 1998

الثابت والمتحول في النبويات الموريتانية

العالية بنت الشيبان

طالبة دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مدلول الموضوع:

يتسبج موضوع هذا المقال عبر تركيبين دلاليين أولهما "الثابت والمتحول" وثانيهما "النبويات الموريتانية" توسطت بينهما أداة الجر "في" لتحديد مكان الدراسة وطبيعة المدونة المدروسة.

يحيل التركيب الأول في مدلوله إلى جدلية علي أحمد سعيد أودونيس حول الإبداع والإتباع في كتابه "لثابت والمتحول: بحث في لإبداع والإتباع عند العرب" الصادر سنة 1973م. وهي جدلية صارت مؤشرا معرفيا مركزيا في الثقافة العربية.

أما التركيب الثاني فيحيل إلى بعدين: الأول منهما معرفي "النبويات" وهي جمع نبوية نسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أي القصائد التي تختص بمديح رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعداد مآثره، وصفاته الخلقية والخلقية.

والبعد الثاني مكاني جاء لتحديد المجال الجغرافي الذي يتحرك فيه البحث وهو: الجمهورية الإسلامية الموريتانية.

إذا كان أودونيس قد وظف نظريته تلك "الثابت والمتحول" في دراسة الثقافة العربية الإسلامية بصفة عامة فإننا هنا سنقتصر على إطار خاص هو المديح الموريتاني، وهذا ما يجعلنا ننطلق من إطار عام هو: ما الثابت وما المتحول في النبويات الموريتانية؟ بمعنى آخر هل استطاع شعراء هذه النبويات إعادة إنتاج القصيدة النموذج في أصولها الزاهرة عبر بنية أسلوبية ومضمونية جديدة؟ أم إنهم ظلوا في حدود الإتباع والاشتراط؟

تاريخ النبويات الموريتانية:

كان الشعر الديني والتعليمي عموما من أول الأغراض ظهورا في الثقافة الموريتانية، فالنصوص المتاحة بين أيدينا أقدمها التوسل، وأكثر أغراضها الدعاء والإنابة إلى الله تعالى؛ وقد لا ينافسه في ذلك إلا المديح النبوي الشريف. فقد حظي باهتمام بالغ من لدن شعراء هذه البلاد؛ إذ ما من شاعر إلا له منه حظ معلوم، ونصيب مفروض لابد آتية، إما في مبدأ صلته بالشعر تيامناً أو

على آخر عمره احتساباً وتبركاً، أو تكفيراً عما سلف من هزل القول أو مجونه، هذا إن لم يختص به طوال تلك المدة أو هذا العمر لورعه¹.

ومن خلال دراستنا لتاريخ هذا الشعر لاحظنا أن الحديث عن بداية الشعر الموريتاني الفصيح في بلاد شنقيط هو بصفة عامة حديث عن بداية المديح النبوي الشريف، وأن البداية الفعلية لهذا الفن كانت مع سيدي عبد الله بن رازك² (1144هـ) والشيخ محمد اليدالي (ت 1166) ومعاصريهما. ففي القرن الحادي عشر "دوت فجأة أصوات المصاقع بأشعار امتازت بجزالة اللفظ وإحكام التراكيب لمع من بين قادتها المرموقين سيدي عبد الله بن رازك³، والشيخ محمد اليدالي². وقد اعتنى الشناقطة بالمدائح عناية خاصة وظلت مثلاً أعلى للشعراء مستأنسين بنهجها وأساليبها، معتبرين لغتها عنوان الفصاحة والبيان، وآية السلقة والإبداع، مما أعقب في نفوسهم تعلقاً بهذا اللسان العربي راسخاً، وأثر بشكل فاعل في معارفهم اللغوية ومحفوظاتهم الأدبية³. وكان تأثر النصوص النبويات الموريتانية بالمنتوج المديحي السابق لها قد عرف مستويات مختلفة منها: التضمين، والاستشهاد، والتوظيف في الطرائف العلمية المتداولة، لكن سرعان ما تحول ذلك إلى عملية مبارزة فنية يحاول فيها الشاعر اللاحق تجاوز النموذج القديم والتفوق عليه.

وإذا كان أغلب الباحثين قد عقد الإجماع على أن البداية الجدية للشعر الموريتاني كانت مع جيل ابن رازك⁴، فإننا نستطيع لأنفسنا القول: إن هذه البداية مثلت مرحلة تطور وتغير في تاريخ النبويات الموريتانية حيث ظهرت المعارضة المديحية؛ فقصيد اليدالي (صلاة ربي) أنشدها بديهة معارضا أو منافسا بها الشاعر الحساني الذي كان يمدح أحد الأمراء آنذاك، وقد صرح اليدالي نفسه بهذه القضية⁴.

كما أن سيدي عبد الله بن رازك⁵ نظم فائتيه المديحية الشهيرة في وصف النعل الشريفة معارضا بها فائية الشامي⁵ في مدح النعل الشريفة أيضاً، كما صرح هو الآخر بذلك في بعض أبيات القصيدة إذ يقول:

¹ عبد الله بن احميد، الشعر العربي في بلاد شنقيط، ط1، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا، ص 108.

² محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، 1987، ص 46.

³ محمذن ولد المحبوبي، ظلال البردة في المديح الموريتاني، (مرفون بدون تاريخ)، ص 4

⁴ محمد اليدالي، المربي على صلاة ربي، ط1، دار الإسرائ نواكشوط، 2022، ص13

⁵ الشامي هذا هو أبو الحسن علي بن أحمد (ت 1030هـ)، ينظر: أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط5، الشركة الدولية للطباعة، مصر، 2006، ص 10.

قفوت بها الشامي في الفاء موقناً بأنني وإن دون إدراكه ضعفا وهي معارضة تدل على تمكن أصحابها من المعاشرة الطويلة للنصوص القديمة حفظاً وأداءً، كما تثبت أيضاً تمكنهم من ناصية الإبداع الشعري والقدرة الفائقة على مجارة النصوص المختلفة.

وبعد هذه الفترة تقفن الشعراء في محاورة النصوص القديمة فظهرت المعارضة بأنواعها والتشطير¹، وهي أشكال فنية يستعرض فيه الشاعر طاقته الإبداعية وقدرته على محاكاة النصوص وإعادة ربطها بنفس شعري جديد يربط الحاضر بالماضي.

وقد حظي امرؤ القيس بعناية شعراء المدائح النبوية وكانوا يعارضون قصائده ليكتسبوا المران على نظم الشعر الأصيل، واتفق بعضهم على قصائده فشطروها صارفين معناها إلى المديح النبوي، من ذلك قصيدة حازم القرطاجني الذي شطر فيها معلقته وإلى جانب تشطير القصائد القديمة نجد تشطير النبويات المشهورة وتخمينها، وأكثر القصائد التي نالت من هذه التغيرات الشعرية هي بردة البوصيري، إذ جذبت شهرتها جهود رواة هذا النوع من التشكيل الشعري في مختلف الأقطار العربية.

وسنحاول دراسة ملامح الإبداع والاتباع في بعض نصوص المديح الموريتاني المشهورة في هذا المجال وهي نصوص يجمعها ما يعرف بالاشتغال على النصوص، أو الإبداع المؤسس على إبداعات أخرى". وقد جاءت هذه النصوص على نوعين من الكتابة الشعرية المتداخلة مع النصوص السابقة، وهما: المعارضة، والتشطير.

وقد درسنا هذه الظاهرة انطلاقاً من ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول في الموسيقى

والثاني في المعجم

والثالث في البلاغة.

المبحث الأول في الموسيقى:

الموسيقى هي عماد الشعر وركنه الأساسي، فالشعر " كلام موزون مقفى يدل على معنى"² والوزن هو " أعظم أركان حد الشعر وأولها به خصوصية"³.

¹ - التشطير هو أن يعتمد الشاعر إلى نص شاعر آخر فيضم إلى كل شطر منه شطراً من عنده مراعيّاً تناسب اللفظ والمعنى بين الأصل والفرع.

² - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ط 3، دار الكتب العلمية، 1995، ص 15.

فالشاعر مهما حشد من صور وعواطف لاتصبح شعريته شعرية بالمعنى الحق إلا إذا لمستها أصابع الموسيقى، ونبض في عروقها الوزن، ولهذا فالشاعر المبدع لا يعمل على نبذ الوزن لأن الشعر يحلو بموسيقاه القادرة على أن تكسب القصيدة سمة الخلود.

وتمثل عناصر الموسيقى الخارجية إطارا كافيا لدراسة حدود الإبداع والتقليد في هذه النصوص. ونعني بذلك النظم الصوتية التي تتناغم معا لبناء هيكل إيقاعي للقصائد، مما يتيح لها نغما منتظما يتناسب مع مضامين الأبيات، وحالات الشاعر، وجذب انتباه المتلقي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مدونتنا خاصة بالمديح النبوي، لكن القصائد التي قام شعراؤنا بمعارضتها أو تشطيرها، لم تكن خاصة بالمديح بل إن من بينها قصائد جاهلية وظفوا محاورتها في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنقف عند موسيقى هذه النصوص على النحو التالي:

1- البحور:

البحور جمع بحر، وهو الوزن الخاص الذي تنتظم فيه جميع أبيات القصيدة الواحدة. وسميت بحور الشعر بهذا الاسم لأنها تشبه البحر الذي يُغرف من مياهه ولا ينتهي.

وتكمن أهمية البحور في قدرتها على تنظيم موسيقى الشعروا تساقها على نحو مخصوص. لقد صاغ هؤلاء الشعراء مديحياتهم وفق القوالب الموسيقية الخيلية المعروفة. فقد نظم كل واحد منهم في إيقاع معين تبعا للنص الذي يعارض، أو يشطر لكنهم في كل ذلك حافظوا على سنن أسلافهم في البحور والقوافي ولم يحدوا عنها قيد أنملة.

وقد بنيت موسيقى هذه النصوص على ثلاثة بحور¹ تعد من أحفل البحور بالجلال والرصانة والعمق؛ إلا أن الطويل أرحب صدرا وأطلق عنانا، وألطف نغما فنغمه من اللطف بحيث يخلص إليك وأنت لا تشعر به. وذلك ما جعله يهيمن على هذه المديحيات التي اتخذ أصحابها من معارضة نخبه الشعر العربي وسيلة لشعرية القول وبلاغة الخطاب، وأبهته وجلاله. فأطلقوا العنان في هذه التجارب الإبداعية، وذلك بهدف إنجاح مشاريعهم النصية الصعبة.

وكانت معارضة الشعراء للمدونة العربية قد أخذت أشكالا متباينة طبقا لما يسميه جورج جنتب "التعلق النصي" ويقصد به العلاقة التي تربط بين نص سابق ونص لاحق وهي علاقة تقليد أو محاكاة أو تحويل. ومن الأمثلة على ذلك قصيدة محمد يحيى بن سيد أحمد التي شطر فيها معلقة

³ ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، ج1، ط5، المكتبة التجارية، مصر، 1981، ص 134.

¹ خلف خازر، جمالية التشكيل الإيقاعي العروضي، 2014، ص5 بتصرف

² محمد باخوش، التناص والإبداع فن المعارضة نموذجا، ص3

امرئ القيس فقد التزم فيها بالبحر الروي والقافية، كما ألزم نفسه بتضمين الشطر الأخير في أغلب أبياتها لكنه تصرف في الغرض فوجهه توجيهها ينسجم مع مديح رسول الله صلى الله وسلم حيث يقول:

رُبُوعٌ سَلِمَى بِـ"الشَّبَارِ" لَهَا قُلْ قَفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزَلٍ
فَعَرَجَ عَلَيْهَا وَأَبْكَ فِي عَرَصَاتِهَا وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُحَوَّلٍ
فَسَحَّتْ لَذِكْرِي الْعَهْدَ مِنْهَا مَدَامَعِي عَلَى النَّحْرِ حَتَّى بَلَ دَمْعِي مَحْمَلِي
كَأَنِّي بِنَتِكَ الدُّورِ لِلْحُزَنِ وَالْأَسَى لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلٍ
مَرَابِيعُ أَقْوَتْ مِنْ سَلِمَى وَأَقْفَرَتْ وَجَارَاتِهَا أُمَّ الرِّبَابِ بِمَأْسَلٍ
سَقَاهَا حَيًّا تَغْدُوا بِهِ هَضْبَاتِهَا مِنْ اللَّيْلِ وَالْغُثَاءِ فُلُكَةُ مَغْزَلٍ

هذا النموذج يوضح لنا كيف تعامل هذا الشاعر مع معلقة امرئ القيس حتى طوعها لخدمة غرضه المديحي في انسيابية تامة للألفاظ، والموسيقى، ودون أن يخل ذلك بالمعنى وجودة السبك.

وهنا تظهر أولى مؤشرات التناص الموسيقي بين قصيدة محمد يحي هذه ومعلقة امرئ القيس، وهو تناص شمل جميع عناصر الإطار الخارجي (البحر والقافية والروي) بفعل سيطرة الشاعر التامة على السطر الأخير من أبيات النص السابق.

وهذا البناء الخاص القائم على دمج عناصر النص السابق في النص اللاحق ساهم في خلق تشكيل إيقاعي يبرز قيمة التحول الدلالي لإنتاج النص الجديد، وقد مهد الشاعر لهذا التحول باستخدام فعل الأمر "دع" ذي النبرة القوية والصوت العالي وهو فعل يدل على القطيعة مع الماضي والدخول في مرحلة جدية، وأتبعه كذلك بفعل "مل" الدالة على التحول الحركي حيث يرى البلاغيون أن فعل الأمر ينقل الحالة الانفعالية للشاعر.

كما أن التفاعل النصي القائم بين هذين النصين كلف الشاعر باستدعاء الكثير من مفردات المعلقة وجملها وخاصة الجمل الطويلة (من ذكرى حبيب ومنزل، وهل عند رسم دارس من محول، لدى سمرات الحي ناقف حنظل، إذا ما اسبكرت بين درع ومجول، وخير معم في القبيلة مخول...)، وهذه الجمل هي بؤرة التناص مع المعلقة، فقد قام الشاعر من خلالها باستدعاء هذا التراث الأدبي وتوظيف معطياته الفنية والأسلوبية في بناء خطابه الشعري وكان في تشطيره لهذه المعلقة قد استثمر محاورها المختلفة موظفا إياها بصفة تخدم الغرض المنشود لذلك تنوعت آلياته

التنصيصية وجهازه المفاهيمي لكنه رغم كل ذلك طوع تلك الإمكانيات لمديح رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد فعل الشيء نفسه البشير بن امباريكي، ومحمد الأمين ولد الشيخ المعلوم حيث قام الأول بتشطيرها ضمن قصيدة طويلة تبلغ تسعة وسبعين بيتا، حاول في أغلب أبياتها تضمين أعجاز المعلقة وهي:

أَلَا يَا مُعِينَ النَّفْسِ فِي كُلِّ مُعْضِلٍ قَفَا نَبْكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
بِجَنَبِيْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ يَلُوحُ لَا بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
مَنْزَلُ بَيْنَ اللَّابَتَيْنِ تَتَكَرَّرَتْ بِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
هَوَايَ بِهَا يَعْطَلُوا هَوَى مِنْ كَأَنَّهُ لَدَى سَمَرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلٍ

أما محمد الأمين ولد الشيخ المعلوم (ت 1341هـ) فقد شطرها في قصيدة تتألف من ثلاثة وثلاثين بيتا، ومطلعها:

عَلَى مَنْزِلٍ كَانَ الْحَبِيبُ بِهِ قُلْ قَفَا نَبْكَ مِنْ ذَكَرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
حَلَفْتُ يَمِينًا غَيْرَ ذِي مَثْنَوِيَّةٍ لِمَعْهَدٍ خَيْرِ الْخَلْقِ أَفْضَلِ مُرْسَلٍ
أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ دِيَارِ عَنِيْزَةٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
مَعَاهِدُ خَيْرِ الْخَلْقِ لَمْ يَعْفَ رَسْمَهَا لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
إذا توقفنا عند العلاقات التنصيصية بين هذه النصوص نلاحظ أن الشعراء كانوا أوفياء للنص الغائب في جميع العناصر الموسيقية، بالإضافة إلى تكرار الكثير من تراكيبه وألفاظه في هيئات مختلفة وعبر آليات متنوعة.

وخلال المقارنة بين نصوص مدونتنا والنصوص الغائبة لا يجد الباحث كثير عناء في اكتشاف الخيط الرابط بينها، بل إنها وصلت إلى حد التكرار للكلمات والجمل بصورة تكشف عن القدرة على امتصاص النص الغائب وإعادة إنتاجه في سياق مختلف دون أن يخل ذلك بالنسق التركيبي أو الدلالي.

كما امتازت هذه النصوص أيضا بتوافق الأنظمة الإيقاعية والموسيقية واستلهاهم الوزن الشعري للنص الغائب بطاقات كبيرة ومتنوعة، وقد وفقوا جميعا في دعم توظيف البحر الطويل عبر تفاعيله في كلا الشطرين من دون تغيير يذكر إلا ما قل مثل: حذف الخامس الساكن من (فعولن) فتصير (فعول)، أو الخامس الساكن من (مفاعيلن) فتصير (مفاعلن)، وهي تغييرات شائعة في الموسيقى العربية ولا تعد عيباً، وهذا مما ساهم في خلق توازن دلالي وإيقاعي مشترك بين النصوص.

أما النصوص الأخرى التي انتهج أصحابها نهج المعارضة فقد قامت العلاقة بينها وبين النصوص الغائبة على المنافسة والتحدي، واعتمدت آلية التحويل والمجازة إلا في الموسيقى والمضمون الدلالي حيث شكل الإطار الموسيقي جميع عناصره استلهاما للأنظمة الإيقاعية والموسيقية في النص الغائب. يقول ابن رازكه في مديحيته وهي مديحية نظمها معارضا بها فائية الشامي كما سبق أن رأينا:

غَرَامٌ سَقَى قَلْبِي مُدَامَتَهُ صَرِفًا وَلَمَّا يُقَمُّ لِلْعَدْلِ عَدَلًا وَلَا صَرَفًا
قَضَى فِيهِ قَاضِ الْحُبِّ بِالْهَجْرِ مَذْمُومًا مَرِيضًا بِدَاءٍ لَا يُطَبُّ وَلَا يُشْفَى¹
نَهَا رِيَّ نَهْرٍ بَيْنَ جَفْنِي وَالْكَرَى وَلَيْلِي بِحَرْمَرَسَلٍ دُونَهُ سَجَفًا

ويقول زين بن اجمد في مديحيته التي نظمها معارضا بها البديعيات المعروفة:

بَرَاةُ الْمَدْحِ فِي عُرْبٍ بِذِي سَلَمٍ كَمَطَّلَعِ الْبَدْرِ جَلَّى حَالِكَ الظُّلَمِ
أَشْفَى بِكُلِّ نَسِيمٍ مِنْ صَبَا وَصَبَا لَعَلَّهُ جَاءَ مَرْدُوفًا بِنَشْرِهِمْ
وَكَانَ مِنْ شَأْنِ شَأْنِ الْعَيْنِ إِذْ بَعْدُوا جَرِيَّ وَمَا تَمَّ عَيْشٌ بَعْدَ بَعْدِهِمْ

وهنا نلاحظ أن الشاعرين استثمرا المقدرات الإيقاعية والموسيقية في النص الأصلي مما جعل العملية التناسية تأخذ طابعا حركيا قائما على امتصاص شفرات النص الغائب وإعادة كتابته من جديد وفق مقصدية الشاعر.

2- القافية:

اختلف النقاد في تعريف القافية، فالخليل بن أحمد (ت170هـ) يرى² أنها "آخر ساكنين في آخر البيت مع ما بينهما من الحروف". بينما يرى الأخفش³ أنها "آخر كلمة في البيت". وباختصار هي: ذلك النغم الذي يتحكم في ضربات الإيقاع المتتالية. فهي أصوات تتكرر في أواخر أعجاز أبيات القصيدة. وتكرارها هذا يشكل جزءا مهما من الموسيقى الشعرية. فهي بمثابة الفواصل الموسيقية التي يتوقع السامع تردها. فتحدث إيقاعا خاصا عند انتهاء كل بيت أنيا وعلى مذهب الخليل، سندر القافية في مدونتنا التي تميزت بوحدة القافية في بناء قصائدها، وذلك استجابة لشرط جمالي يتعلق بالمعارضة. فقد تفيد جميع شعرائنا بوحدة القافية بالرغم من اعتماد بعضهم منهج الجمع والتفصيل في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صارت

¹ الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مرجع سابق، ص10

² ابن السراج، الكافي في علم القوافي، تحقيق: محمد رضوان، ط3، ص 116.

³ - المرجع نفسه والصفحة نفسها.

نصوصهم شبيهة إلى حد بعيد بالأنظام فهي تركز كثيرا إلى الشعر التعليمي لكنها أصحابها تقيّدوا بتوحيد القافية على العموم.

غير أن الدارس لمدونتنا يلاحظ بوضوح أن القوافي في نصوصها ستأخذ أنواعا وأشكالا مختلفة وذلك عائد بالأساس إلى النص المدروس وطبيعة العلاقة التي تربطه بالنص الغائب. لنرى مثلا قصيدة محمد يحيى بن سيد أحمد التي يشطر فيها قصيدة النابغة (كليني لهم يا أميمة ناصب) وكيف تعامل مع قوافي هذه القصيدة ودمجها في سياق مختلف يقول:

لِبرَحِ الأَسَى بِالذِّكْرِ يَا تَالِذِّ الْوَاهِبِ كَلِّينِي لَهُمْ يَا أُمِيمَةً نَاصِبِ
لَقَدْ أَرَقَّتَنِي وَالْخَلِيُونَ نَوْمَ بَلِيلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
أَرَقْتُ لَهَا فِيهِ أَرَقِبُ نَجْمَهُ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بَائِبٌ¹

هذه القوافي كما هو واضح مطابقة لقوافي النابغة لم تحد عنها إلا بالقليل. لكن من بين نصوص مدونتنا ما هو مختلف تماما عن هذه الوضعية وسيوضح لنا ذلك أكثر من خلال البيانات التالية:

النموذج الأول: القوافي في القصائد المشطرة لمعلقة امرئ القيس (التعالقات النصية):

المعلقة	البيت	قصيدة البشير	البيت	قصيدة محمد يحيى	البيت	قصيدة ولد الشيخ المعلوم	البيت
فحومل	1	منزل	1	منزل	1	منزل	1
شمأل	2	حومل	2	معول	2	مرسل	2
حنظل	3	شمأل	3	محمل	3	فحومل	3
وتحمل	4	حنظل	4	حنظل	4	وشمأل	4
معول	5	معول	5	بمأسل	5	وتحمل	5
ليبتلي	6	مسأل	6	مغزل	6	محمل	6
كلكل	7	جلجل	7	مزمل	7	فلفل	7
أمثل	8	متحمل	8	السجنجل	8	حنظل	8
يذبل	9	المفتل	9	مَجُول	9	معول	9
جندل	10	منزل	10	مرسل	10	يحول	10

¹ - الشعاع المحظري، ص 410.

النموذج الثاني: القوافي في القصيدتين المشطرتين لقصيدة النابغة (كليني لهم):

قصيدة النابغة	البيت	نص البشير	البيت	نص محمد يحي	البيت
الكواكب	1	ناصب	1	ناصب	1
بائب	2	الكواكب	2	الكواكب	2
جانب	3	الغياهب	3	بائب	3
عقارب	4	عقارب	4	جانب	4
بصاحب	5	جانب	5	التجارب	5
حارب	6	بصاحب	6	المراتب	6
المحارب	7	حارب	7	العواقب	7
أشائب	8	كاذب	8	عقارب	8
كاذب	9	بعصائب	9	الثواقب	9
بعصائب	10	المرانب	10	المحارب	10

من خلال هذه البيانات التي استخدمنا يتضح بجلاء أن التقفية في هذه النصوص صيغة مشتركة، لا تكاد تقرأ قافية في بيت أحدهم إلا سرعان ما عدت إليها في نظيره عند الشاعر الآخر أو في البيت الموالي له. فهي قوافي تتردد بين النصوص، وهي علاقات تتناص أكسبت النصوص قوة التماسك وجمال الإيقاع. كما أنها توحى بمستوى عال من الشاعرية فيبدو أن الشعراء قد اعتمدوا القافية كركن أساسي من أركان المعارضة ولم يغيروا فيها شيئاً يذكر مع أن هذا المخطط البياني اتخذناه نموذجاً، لذلك لم يزد على عشرة أبيات. ولم نلاحظ كذلك فرقاً بين النصوص. فصيغة القافية فيها كانت مكررة دائماً لأنهم ألفوا هذا النوع من المعارضة باعتباره يحقق مكسباً أدبياً للنص، ويضفي عليه طاقة موسيقية أكثر.

النموذج الثالث: القوافي في بعض معارضات ميمية البوصيري:

نص الميمية	البيت	معارضة زين بن أجمد	البيت	معارضة ناجي محمد الإمام	البيت
بدم	1	الظلم	1	الغنم	1
إضم	2	نشرهم	2	النسم	2
يهم	3	بعدهم	3	القلم	3
مضطرم	4	لحظهم	4	شبه	4
العلم	5	سقم	5	ألم	5
الخيم	6	الألم	6	إرم	6
السقم	7	الفهم	7	سدم	7
الغنم	8	الحكم	8	قدم	8
الألم	9	بينهم	9	الأمم	9
تلم	10	حبهم	10	همم	10

وإذا قارنا هذا الجدول بما سبقه نلاحظ مدى الاختلاف الواضح في توظيف القوافي؛ فهناك نوع من التحرر إلى حد ما من سيطرة النصوص الغائبة، مع أن ذلك لا ينفي وجود صيغ مشتركة مثل (الألم والعلم). لكن كما هو واضح فإن الشعراء هنا حاولوا السيطرة على التقفية. وهو ما أكسب نصوصهم نوعاً من الاستقلالية ووضوح الإيقاع. فجاءت القوافي في القصائد متناغمة مع المعاني منسجمة مع الجو العام للنصوص.

المبحث الثاني في المعجم

العمل الشعري يتمثل في كونه في المقام الأول لغة شعرية، ومن ثم يكون عملاً جمالياً، مما يعني أنه عمل لغوي وجمالي¹. وقد أكد الجرجاني هذا المعنى حيث يرى أنه لا يكون لإحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها في المعنى تأثيراً لا يكون لصاحبتهما².

¹ جمالية اللغة العربية، ص 13

² دلائل الإعجاز، ص: 407

فالتفاعلات اللغوية داخل أي نص شعري تساهم في خلق تآلفات وتنويعات دلالية مختلفة، خاصة وأن اللغة في مدونتنا عرفت تمازجات وتعالقات دلالية متنوعة هي التي منحنتها سمة الفنية والإبداع.

وقد تميزت مدونتنا بانفتاحها على نصوص شعرية تنتمي إلى مرجعيات ثقافية متنوعة ومختلفة في الزمان والمكان، وهو ما دعم شعرية المعنى فيها، مع أن لكل شاعر طريقته الخاصة في إنتاج الدلالة داخل نصه.

وفيما يلي سنعرض أهم الآليات التعبيرية التي ساهمت في خلق لغة جديدة تستأنس بالنص الغائب لكنها في الآن نفسه تعمل على تكثيف الدلالة في هذه النصوص. لنقف أولاً مع قصيدة محمود بن حَبْلٍ اليعقوبي التي شطريها قصيدة امرئ القيس (سما لك شوق) والتي استخدم فيها ما يعرف بـ "التناس المضا¹" حيث يقول:

أَمِنْ ذَكَرٍ خَيْرِ الْخَلْقِ مَنْ سَادَ لِلْوَرَى	سَمَا لَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا
بِهِ كَانَ تَهْيَامِي وَمَا كَانَ قَوْلُهُ	وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنِ قَوْ فَعَرَعَرَا
وَلَيْتَ جَوَارِي كَانَ هُوَ وَلَا الَّتِي	مُجَاوِرَةَ غَسَّانَ وَالْحَيَّ يَعْمَرَا

تَفُوقُ قُبَابُ الْمُصْطَفَى سَيِّدِ الْوَرَى	حَدَائِقُ دَوْمٍ أَوْ سَفِينَا مُقْبِرَا
مُرَادِي دَوِينِ الْقَابِ كَانَ وَ لَمْ يَكُنْ	دَوِينِ الصِّفَا اللَّائِي يَلِينَا الْمَشْقَرَا
وَأَنوَارُهُ الْحُسْنَى عَلَتْ كُلَّ نِيرٍ	وَ عَالَيْنَ قَنَوَانَا مِنَ الْبُسْرِ أَحْمَرَا
لَقَدْ قَوْمَ الدِّينِ الْحَنِيفِ صَحَابُهُ	بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى أَقَرَّ وَأَوْقَرَا
أَقَامُوا عِمَادَ الدِّينِ شَرْقًا وَ مَغْرِبًا	وَ أَكْمَامُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَهَصَّرَا
لَقَدْ ضَاءَ نُورُ الْحَقِّ حَتَّى بَدَا لَنَا	تَرَدَّدَ فِيهِ الْعَيْنُ حَتَّى نَحِيرَا
فَقُلْتُ كَسَا الْآفَاقَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ	يَحْلِينُ يَاقُوتَا وَشَدْرَا مُفْقَرَا
وَطَيْبَةُ قَدْ خُصَّتْ بِهِ فَاعْلَمْ أَنَّهَا	تُخَصُّ بِمَفْرُوكٍ مِنَ الْمِسْكِ أَذْفَرَا ²

(الطويل)

¹التناس المضا هو: اختطاف الجمل وتحويلها، أو قلب معانيها في صورة نقيضة. وتعود أهمية هذا النوع من التناس إلى أن الشاعر يستطيع من خلاله أن يشكل البؤرة الدلالية والجمالية ليحقق لأفكاره إشعاعات شعرية تكون قادرة على جلب ذهن المتلقي وإشراكه في العملية الإبداعية من خلال الاستقصاء ومعرفة البنية الضدية. ينظر: التناس في الشعر العربي الحديث، حصة عبد الله البادي، ط: 2009، ص: 159. وحمادى صمود، ص: 169.

²محمد يحيى بن سيد أحمد، الإشعاع المحظري، ط1، مطبعة المنار (دت)، ص404

وحتى نتمكن من كيفية توظيف شاعرنا لهذه التقنية لابد أن نقف على مقدمة النص السابق (سما لك شوق)، يقول امرؤ القيس في هذه المقدمة:

وَحَلَّتْ سُلَيْمَى بَطْنَ قَوْ فَعَرَعَرَا	سَمَا لَكَ شُوقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا
مُجَاوِرَةَ غَسَّانَ وَالْحَيَّ يَعْمَرَا	كِنَانِيَّةً بَانَتْ وَفِي الصَّدْرِ وَدَهَا
لَدَى جَانِبِ الْأَفْلَاحِ مِنْ جَنْبِ تَيْمَرَى	بِعَيْنِي ظَنُّنَ الْحَيَّ لَمَّا تَحْمَلُوا
حَدَائِقَ دَوْمًا وَسَفِينًا مُقِيرَا	فَشَبَّهْتَهُمْ فِي اللَّالِ لَمَّا تَكْمَشُوا
دُوَيْنَ الصَّفَا اللَّائِي يَلِينُ الْمُشَقَّرَا	أَوِ الْمَكْرَعَاتِ مِنْ نَخِيلِ ابْنِ يَامِنَ
وَعَالِينَ قُنُونًا مَنَالِبُسْرًا حَمَرَا	سَوَامِقَ جَبَّارٍ أَثِيثٍ فُرُوعَهَا
بِأَسْيَافِهِمْ حَتَّى أَقْرَ وَأَوْقَرَا	حَمَّتْهُ بَنُو الرِّبْدَاءِ مِنْ آلِ يَامِنَ
وَأَكْمَامُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَهْصَرَا	وَأَرْضَى بَنِي الرِّبْدَاءِ وَاعْتَمَ زَهْوَهُ
تَرَدَّدَ فِيهِ الْعَيْنُ حَتَّى تَحِيرَا ¹	وَأَكْمَامُهُ حَتَّى إِذَا مَا تَهْصَرَا

إذا كان امرؤ القيس افتتح نصه هذا بلوحة غزلية وصف فيها مشاعره تجاه رحيل أحبته، ومدى شوقه وحزنه لفراقهم، فإن شاعرنا وظف هذا الأسلوب بطريقة مخالفة، وقد آذن بخرق النظام التعبيري في بداية النص من خلال تقديم التأخير الذي يفيد الحصر، وربطه بالاستفهام التقريبي؛ فشوقه سما وارتفع عن الشوق المألوف قاب قوسين أو أدنى؛ وهنا تتضح الفجوة بين ما كان وما هو كائن، وقد حرص الشاعر منذ الوهلة الأولى على تبيان المخالفة الحسية والمعنوية بين ما يقصده ويتعلق به، وبين ما جاء في نص امرؤ القيس فعمل على نقض هذه المعاني وصرفها إلى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من خلال توقفنا على الدوال المعجمية التي جعلنا الشاعر نطل من خلالها على مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم، ولتي كما رأينا — هي دوال ذات طابع خاص، لكنه رغم ذلك استطاع توظيف التناص المضاد فيها من خلال تحوير الخطاب الغزلي وإعادة تركيبه بصياغة جديدة لتحقيق علاقة تناصية حيوية، وإدخال دلالات جديدة تكون مؤسسة بدورها بفعل دوال جديدة التركيب، مخالفة الدلالة، والأشياء تتميز بأضادها.

وظف الشاعر هذا التضاد على مستوى التنوع في الأساليب، حيث بدأ بالاستفهام (أمن) ثم جاء بالإثبات (به كان تهيامي)، في مقابل النفي (وما كان)، ثم التمني في مقابل النفي أيضا (وليت

¹ديوان امرؤ القيس، ص 48.

جواري كان هو ولا التي) ... إلخ وما ذاك إلا لينقض معاني هذا النص ويقيم على أنقاضها معانيه الخاصة، وفي سبيل ذلك قام بمقارنة ذكية بين قيام الدولة الإسلامية على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراحل اكتمال حدائق النخل، وقد استطاع بتقنية رائعة أن يقدم لنا المعنى المقصود في أحسن صورة وكأننا نرى هذه الحديقة رأي العين. لقد تحدث عن أفضل أنواع النخيل وعن مراحل نموها ونضجها بدءاً بالقنوان مروراً بالزهو، ثم مرحلة الأكمام، وحتى مرحلة النضج والاكتمال.

هذه المراحل نفسها هي مراحل قيام الدولة الإسلامية، فالصحاباء رضوان الله عليهم مثلهم كمثل هذه البساتين الجميلة المثمرة، لقد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونصرة دينه، وغيظ أعدائه فبذلوا أنفسهم وأموالهم في حمايته حتى استوى على سوقه، كما أنهم بدأوا دخول الإسلام وهم عدد قليلون ثم مازالوا في الزيادة من حين لآخر حتى بلغ الإسلام ما بلغ من الانتشار والازدهار.

والعلاقة بين النخيل والصحابة رضي الله عنهم تبدو واضحة، ذلك أن النخل شجر كريم يكثر فيه الخير والبركة ظله دائم لا ينقطع وثمره طيب، وكذلك المسلم في كثرة طاعته، واستمراره في فعل الخير كالنخل.

وهذا ما جعل شعرية النص تكمن في هذه الشحنة الدلالية العميقة الكامنة وراء هذه الدوال المتنوعة. وقد شطر القصيدة نفسها محمد يحيى، لكنه مدح بآليات تعبيرية مختلفة، يقول بعد المقدمة

الطللية:

نَبِيُّ الْهُدَى مَنْ لَيْسَ فِي الْخَلْقِ مِثْلُهُ	أَبْرٌ بِمِثَاقٍ وَ أَوْفَى وَ أَصْبَرًا
وَ أَكْرَمُهُ نَفْسًا وَ أَكْرَمَ مُحْتَدًا	تَوَارِثَ تَلَدَ الْمَجْدِ أَكْبَرَ أَكْبَرًا
وَ أَرْجَحُهُ حِلْمًا وَ أَجْمَلَ صُورَةً	تُخَصُّ بِمَفْرُوكٍ مِنَ الْمَسْكِ أَذْفَرًا
بِهِ خَتَمَ اللَّهُ الرَّسَالَهَ فَاهْتَدَى	بِهِ مَنْ هَدَى وَ الْغَيْرُ لِلْحَقِّ أَنْكَرًا
فَفَازَ الَّذِي لَبَّى وَ مَنْ عَنْهُ قَدْ أَبِي	مَشَى الْهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرَفَرَا
فَمَا ضَرَّ إِلَّا نَفْسَهُ فَبِغْيِهِ	غَدَا بِحُمَاةِ الدِّينِ هَرَا مُشَجَّرَا
وَ لَمَّا أَبِي مَنْ ضَلَّ إِلَّا ضَلَالَةً	غَزَاهُ فَأَمْسَى حَبْلُهُ قَدْ تَبَتَّرَا كَمَا ذَعَرَتْ كَأْسُ
فَرِيَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرٍ لِأَمْرِهِ	الصَّبُوحِ الْمُخْمَرَا

نلاحظ أن معجم هذه القصيدة بدأ وكأنه يدور في حقل المديح العادي (أبر، أكرم، محتدا، أكرم نفسا، توارث تلد المجد، أرجحهم حلما، أجمل صورة إلى آخره) لكن سرعان ما تحول الشاعر

من هذه المصطلحات البسيطة إلى مصطلحات عتيقة مأخوذة من نص امرئ القيس: (مفروك¹، أذفر²، فرفر³، الفرانق⁴، الهيدبي⁵).

فالوحدات المعجمية في هذا النص تضمنت حقلين دلاليين:

أولهما يدور حول تبيان بعض الصفات النبيلة للمصطفى صلى الله عليه وسلم (البر، الوفاء، الصبر، الحلم، الجمال... إلخ)، وعلى النصر المؤزر الذي حالفه هو وأصحابه رضوان الله عليهم يوم بدر (ف فاز الذي لبي، بكل فتى شهم، ومكة يوم الفتح أشرق نورها)

أما الحقل الثاني فيدور حول خسارة قريش وخيبة أملها وما صاحب ذلك من ذل ومهانة، (مشى الهيدبي، ثم فرفرا، ريعت قريش إلى آخره)

ونلاحظ أيضا أن محمد يحيى خالف أسلوب ولد حبلا رغم أنهما كانا يشتغلان على نفس النص، وفي موضوع واحد (المديح) لكننا يمكن أن نفسر ذلك بأن الأول وظف المقدمة الطللية من النص السابق، فطغى معجمها على نصه، وهو معجم تغلب عليه لغة النخيل، بينما وظف الثاني مقطع الفخر منه فغلبت على نصه العبارات الدالة على شرف الأخلاق ونبيلها، وتركيزية النفس وتهذيبها.

المبحث الثالث في التصوير البلاغي:

تتحدد القيمة الفنية للصورة الشعرية من خلال السياق الذي تشكلت فيه، وذلك لما لها من دلالات مختلفة وتراطات متشابكة، وطبيعة مرنة مراوغة عصية على التحديد، فهي تشكيل جمالي متفرد يصعب تعيين ماهيته، أو مهمته، أو عناصره⁶

الشعرية هي تكتيفية اللغة والكلمة الشعرية لتغيير الدلالة البيانية للمعنى، ولكنها تغير شكله. فهي تجتاز من الحياد إلى التكتيف، وعليه يصبح للصورة الشعرية ملمحان اثنان، فهي من الناحية البنيوية شمولية، ومن الناحية الوظيفية تكتيفية، فإذا كانت الشعرية تكتيفا للغة، فإن الصورة تكتيف للشعرية⁷

¹فرك الثوب إي دلكه وحكه

² أذفر أي أجود المسك

³ فرفر أسرع

⁴الفرانق دليل الجيش

⁵ نوع من مشي الخيل في جد

⁶ . ينظر بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1994، ص19

⁷ - نفس المرجع، ص 36

لقد أخذت الصورة الشعرية في نصوصنا نمطا بنائيا خاصا ذلك أن هذه المدونة تتناص مع مجموعات شعرية مختلفة، كان أصحابها قد بذلوا ما بوسعهم من ملكات التصوير الفني الشعري الرفيع، والتعبير اللغوي الفصيح في المدح، وهم مهرة الشعر وسدنة اللغة مما استهوى قلوب الشعراء فطفق كل منهم ينظم على غرار فضاغوا لنا من ذلك روائع القصائد وأبدعوا في توظيف التصوير الفني العميق في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تأتي الصورة الشعرية أو الفنية— كما اصطُح عليه حديثا بعدة أشكال منها: الاستعارة والتشبيه، والكناية وقد طبعت في هذه النصوص بطابع تحويري يقدم الصورة البلاغية أحيانا في شكل معاكس سعيًا من الشعراء للتفوق على نظرائهم في المديح.

لقد تنوعت الصور البلاغية في مدونتنا هذه وتعددت مشاربها، لذلك لا نستطيع الوقوف عليها بصورة تفصيلية، وإنما سنكتفي بنماذج منها توضح الثابت والمتحول فيها من خلال دراسة الخصائص العامة التي توضح آثار الإبداع والابتكار في هذه الصور وذلك على النحو التالي:

1 — التشبيه:

للتشبيه روعة وجمال، وموقع حسن في البلاغة؛ وذلك لإخراجه الخفي إلى الجلي، وإدناؤه البعيد من القريب يزيد المعاني رفعة ووضوحا، ويكسبها جمالا وفضلا، ويكسوها شرفا ونبلا، فهو فن واسع النطاق، فسيح الخطو، ممتد الحواشي، متشعب الأطراف، متوغل المسلك، غامض المدرك، دقيق المجرى، غزير الجدوى¹.

وسنحاول في هذا الموضوع عرض بعض تشكيلات التشبيه وجماليات بنائها، وبلاغة خطابها لدى هؤلاء الشعراء. لكن قبل ذلك لا بد أن نشير إلى أن طبيعة بناء الصور البلاغية هنا عرف نمطا خاصا وهو ما فرض علينا أن ندرسها دراسة خاصة.

والتشبيه الذي هو موضوعنا تنوعت أساليب توظيفه لذلك نرى فيه تشبيهات متنوعة، بعضها محولا أي مقتبسا بصيغته الكاملة من النص الغائب، والبعض الآخر كان تشبيها مبتدعا.

ومن التشبيهات المحولة قول محمد الأمين ولد الشيخ المعلوم في مديحيته المشطرة لمعلقة امرئ القيس:
تَرَى عِنْدَهُ الدُّنْيَا جَمِيعاً بِأَسْرَهاَ وَزَخْرَفَهاَ كَأَنَّهاَ حَبُّ فُلْفُلٍ
وهو تشبيه ضمني لأن الشاعر شبه الدنيا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بحب الفلفل، حيث أن الفلفل رمز للحزن والدموع فهو يحرق اللسان ولقلب. وبهذا يتضح مدى الأسى والحسرة الذين أصابا كلا الشاعرين من فراق محبوبه

¹ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، الباب الأول، ص 131

وبيت امرئ القيس هو:

تَرَى بَعْرَ الْأَرَامِ فِي عَرَصَاتِهَا وَقِيَعَانِهَا كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلٍ

ومن هنا نلاحظ أن الشاعر بادر إلى توظيف مقدمة النسيب لدى امرئ القيس في مستهل نصه ليربط لنا بين الحالة النفسية له ولامرئ القيس، فحالته النفسية وبكائه على أطلال حبيبته المفقودة، وحبه له، يذكره بما عانى منه امرؤ القيس.

غير أننا نلاحظ أن شاعرنا في بيته هذا قام باستدعاء الخطاب القرآني في الآية الكريمة "إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَىهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"¹، وذلك سعيًا من الشاعر لتبيان مصير هذه الدنيا وكونها آتلة إلى زوال مهما بلغت. وقد استطاع ذلك في تأليف عجيب بين دلالة النصين ودلالة الآية الكريمة، وتوظيفه لهذه الآلية التناسلية لتحقيق للنص اللاحق شعرية الإنتاج والتجاوز بأسلوب جديد أخذ مما ساهم في إثرائه وظيفيا ودلاليا.

ومنها كذلك في نفس النص يشبه الشاعر كفار قريش بحمر الوحش:

فَمَا زَالَ يَدْعُو كُلَّ جَابٍ فَوَادُهُ كَجُلُودِ صَخَرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

وهو تشبيه تمثيلي لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، فالشاعر لم يكتف بأن شبه الكافر بحمار الوحش الغليظ، فزاد على ذلك بأن مثل لقلبه بالصخر العظيم الصلب المنحدر الذي رماه السيل الجارف من فوق الجبل وهو تمثيل في غاية الروعة والجمال اقتبسها الشاعر من قول امرئ القيس:

مَكْرٌ مَفِرٌّ مُقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعَا كَجُلُودِ صَخَرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ومن هذه التشبيهات التمثيلية قول محمد يحيى في تشطيره لقصيدة (خليلي مرا بي على أم جندب):

أَسُودُ بِذِكْرِ اللَّهِ لَيْلًا دَوِيَهُمْ كَنَحْلٍ وَوَدَقٍ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلَّبٍ

وقد حول الشاعر هذا التشبيه من تشبيه امرئ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدَقٌّ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلَّبٍ

1 - سورة يونس، الآية: 23

وصف امرؤ القيس في هذا البيت جواده فبين أن شدة وقع حوافرها على الأرض أخرجت الفيران من أجحارها. كما لو وقع مطر شديد أخافها ومن شدة روعها تركت أجحارها وخرجت ناجية بنفسها.

أما شاعرنا فشبه قيام الصحابة الليل بأصوات المطر الشديد ممزوجة بأصوات النحل في الليل وهو نوع من التدقيق في وصف المشبه به عهدناه في تشبيهات هذا الشاعر، لا يكتفي بتحويل التشبيه لصالحه؛ بل يعمد إلى التفصيل والتدقيق وهو ما يدفعنا للبحث عن العلاقة بين هذه العناصر.

يبدو أن الشاعر لم يجمع بين هذين العنصرين اعتباطاً، ولا صدفة وإنما فعل ذلك عن دراية، فقد ثبت علمياً أن النحل يستخدم الماء لتخفيض درجة الحرارة داخل الخلايا، وتزويد جسمه بالماء الضروري، وتزداد حاجته إلى الماء كلما ارتفعت درجة الحرارة، فهو إذا ينتعش وتدب فيه الحياة عند نزول المطر الشديد، وذلك مثل الصحابة رضوان الله عليهم، تستأنس قلوبهم وتحيا بذكر الله قال تعالى "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب"¹ ولعل هذا هو وجه الشبه في تشبيه شاعرنا فقد جاء في تفسير هذه الآية أنها تعني صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

2- الاستعارة:

تناول جان كوهين هذا المبحث ضمن "نظرية الانزياح" التي أكد فيها أن الشعر انزياح عن معيار قانون اللغة، وأن الاستعارة ليست مجرد تغير في المعنى، بل تغير في طبيعة أو نمط المعنى، انتقل من المفهوم إلى المعنى الانفعالي²

وقد أخذت هي الأخرى نصيبها من الإبداع والإتباع فجاءت متباينة الطرح في هذه النصوص. ومن الاستعارات المبتدعة في هذه النبويات قول ناجي محمد الإمام:

أعيت طلاوته بزت طراوته شلت بلاغته ذا اللسن والكلم
فهو هنا يصف بلاغة القرآن وإعجازه وقد استعار لعذوبة الألفاظ الطلاوة، ولجزالتها ونقائنها الطراوة، ولإفحام الخصم تعطل الحركة. وفي هذا الأسلوب الذي وظف استدعاء لقصة الوليد بن المغيرة مع قومه (بني مخزوم) بعد كلامه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال لهم: لقد

¹ - سورة الرعد الآية: 28

² - بنية اللغة الشعرية عند جان كوهين، ترجمة محمد الولي، ومحمد العمري، نشر دار توبقال.

سمعت من محمد أنفاً كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى.

من بين شعرائنا من توسل بهذه الصورة البيانية للتعبير عن مدى حبه وتعلقه بالحبیب صلى الله عليه وسلم، وليبرز كذلك مهاراته اللغوية حتى يتمكن من لفت انتباه القارئ ويشده إلى نصه من خلال سلسلة الاستعارات المتتالية كابن رازكه في قوله:

غرامٌ سقى قلبي مدامتهُ صرفاً ولما يُقْمُ لِلْعَذْلِ عدلاً ولا صرفاً
قَضِيهِ قاضي الحب بالهجر مذغداً مريضاً بداء لا يُطْبُّ ولا يُشْفَى
إلى أن يقول:

جَرِيحُ سَهِامِ الْحُبِّ عاثَ به الهوى فأبدى الذي أبدى وأخفى الذي أخفى
تَوَطَّنتِ الْأَشْوَاقُ سُوداءَ قَلْبِهِ فَتَرَفَعُهُ ظَرْفاً وَتَخَفِضُهُ ظَرْفاً

هكذا افتتح الشاعر بهذه الاستعارات التخيلية واسترسل فيها مما مكنه من التفنن في تصوير لواعج قلبه المكسور من فرط الشوق، وجعل الحب تارة إنساناً يسقي قلب الشاعر المدامة الصافية وجعل له قاضياً يصدر الأحكام، كما جعل له سهاماً جارحة. كل هذا من أجل التعبير عن عمق محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأصلها في القلب.

غير أننا نلاحظ أن شاعرنا في علاقته مع النص الغائب بدأ أكثر تحرراً فبالوقوف عند النص الغائب (فائية الشامي) نلاحظ ندرة حضورها في هذا النص إذا ما استثنينا بعض الاقتباسات القليلة والمفردة ومنها:

وَلَا تَصْرَفُوهَا عَنْ هَوَاهَا وَسْؤْلَهَا بِعَدْلِكُمْ فَالْعَدْلُ يَمْنَعُهَا الصَّرْفَا. هَيْامَا وَيَسْقِيهَا
وَلَا تَعْتَبُوهَا فَالْعَتَابُ يَزِيدُهَا مَدَامَ الْهَوَى صَرْفَا.

الاستنتاجات:

في نهاية هذا المقال الموسوم بـ "الثابت والمتحول في النبويات الموريتانية" ومن خلال هذه النماذج التي ضربنا على سبيل التمثيل لا الحصر، يمكننا أن نخرج بالنتائج التالية:

- أن الشعراء حاوروا مجموعة من النصوص تنتمي إلى أزمنة وبيئات مختلفة.
- أن هذه النبويات قد تشكلت وفق نظام من العلاقات اللغوية التي تضيف على الأسلوب طابع التفرد وتكسبه تميزاً خاصاً يرجعه الباحثون إلى عبقرية الشاعر ومقدرته الفنية، وقد تجسد ذلك عبر نسقين من التداخل النص هما: التشطير، والمعارضة.

وبعد دراسة هذه النماذج دراسة تحليلية ومقارنتها مع أصولها تبين لنا أن الشعراء تمكنوا من إعادة إنتاج هذه النصوص وربطها بنفس شعري جديد يربط الحاضر بالماضي بطريقة تضمن استقلالية النص الحاضر.

-تبين لنا كذلك أن الثابت في هذه النبويات يمثلها الجانب الإيقاعي وخاصة الإطار الخارجي (البحور والقوافي والراوي) فهي عناصر ثابتة تتكرر في كل الأبيات وفي كل النصوص. وتتجلى كذلك مظاهر الثبات في المضامين المديحية المعروفة التي ترد في كل النصوص المديحية

وأن المتحول يمثلها البناء المعجمي، فهو يتغير من نص لآخر تبعا لمقصدية الشاعر بينما كانت الصورة الشعرية تتراوح بين الثبات والتحول، وذلك وفق معايير فنية تتحول وتتنوع من نص إلى آخر مع الحفاظ على أصولها لأن المتحول دائما هو الطريقة التي تتشكل بها المعاني والصور داخل النصوص.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن السراج، الكافي في علم القوافي تحقيق: محمد رضوان، ط3
ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر، ج1، ط5، مصر المكتبة التجارية، 1981
أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة، الباب الأول
أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أبناء شنقيط، ط5، الشركة الدولية للطباعة، مصر، 2006
بنية اللغة الشعرية عند جان كوهين، ترجمة محمد الولي، ومحمد العمري، نشر دار توبقال
خلف خازر، جمالية التشكيل الإقاعياالعروضي، 2014
الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1994
عبد الله بن حميد، الشعر العربي في بلاد شنقيط، ط1، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، طرابلس ليبيا
قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ط3، دار الكتب العلمية، 1995
محمد المختار ولد أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، 1987
محمد اليدالي، المربي على صلاة ربي، ط1، دار الإسراء نواكشوط، 2022
محمد باخوش: التناص والإبداع فن العارضه نموذجاً
محمد يحي بن سيد أحمد، الإشعاع المحظري، ط1، مطبعة المنار، (دت)
محمذن ولد المحبوبي، ظلال البردة في المديح الموريتاني، (مرقون بدون تاريخ)

الاتساع اللغوي من خلال التقارض في مقولتي النوع والعدد

المختار السالم حمد

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

المقدمة:

تعتبر مقولتا النوع والعدد من المقولات المحورية في تصنيف الوحدات اللغوية داخل قسم الأسماء، حيث تمكن مقولة النوع من تصنيف وحدات هذا القسم إلى أصناف مذكورة وأخرى مؤنثة، كما تصنف مقولة العدد هذه الوحدات إلى مفرد ومثنى وجمع، ولكل قسم من أقسام المقولتين متطلبات تركيبية خاصة يحددها النظام النحوي، ويتنبأ بإمكانات العدول عنها. ويخضع النحاة هاتين المقولتين لمقولة الأصل والفرع، المحورية في الفكر النحوي العربي، فيصنفون التذكير أصلاً والتأنيث فرعاً عليه والإفراد أصلاً والتثنية والجمع فرعين عليه¹.

ويسوغون أصالة التذكير بتجرده من العلامة، والتجرد هو خاصية الأصول؛ حيث تستغني بالأوضاع الأول عن العلامات الطارئة للفرق. والتجرد أيضاً هو ذاته مسوغ اعتبار الأفراد أصلاً للتثنية والجمع؛ حيث إن المفرد لا يحتاج إلى علامة خطية للدلالة على العدد في الأصل بينما يفتقر المثنى والجمع بأنواعه إلى أمارات دالة على العدد².

ومصطلح التقارض مأخوذ من القرض: بمعنى السلف، أي أن الكلمة تستعير خاصية الأخرى للورود في موقعها والحلول محلها، فهو من وقوع اللفظ موقعا ليس له بالأصالة، وإنما يحله عن طريق التوسع أو الترخص في القرائن عند أمن اللبس. ويقول ابن جني عن معنى التقارض: "اعلم أن هذا الشرح غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح، قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منشورا منظوما، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعاً"³

وستتناول موضوع التقارض في هاتين المقولتين: "مقولة النوع ومقولة العدد" من خلال فرعين نخصص الأول للتقارض داخل مقولة النوع، ونجعل الثاني للحديث عن التقارض في مقولة

¹ -حسن خميس الملخ، نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ط1، دار الشروق، 2001م، ص86-89

² - نفس الرجوع ص89

³ محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ط1، دار الشروق، 2000م، ص153

العدد. ونلفت انتباه القارئ الكريم إلى أن مصطلح التقارض أو التبادل بين هذه المقولات قال به النحاة كآلية لتفسير العدول عن قانون المطابقة، أو عدم الالتزام به في بناء التراكيب. إضافة إلى تفسير إيراد بعض الصيغ اللفظية مكان بعضها الآخر كنوع من التوسع، وإن لم يترتب عليه هدر قرينة المطابقة. فهو وسيلة لتفسير كثير من العدول اللفظي، وإيراد الصيغ في موضع غير موضعها الذي تقرره القواعد، واعتبار ذلك كله غير مؤثر على البنية الأساسية للتركيب.

الفرع الأول: التقارض في مقولة النوع

العدول عن المطابقة في مقولة النوع أسلوب عربي ورد به القرآن والشعر وفصيح الكلام المنثور، وقد اعتبر النحاة أنه جزء من فكر العربي وتصوره عن اللغة، لكثرة هذا الأسلوب في كلامهم. فيروي الأصمعي عن أبي عمرو أنه سمع رجلاً من أهل اليمن يقول فلان لغوب جاءتة كتابي فاحتقرها، فاستتكر أبو عمرو إلحاقه علامة التأنيث للفعل جاء والفاعل مذكر، فقال له: أنقول جاءتة كتابي؟ فرد الرجل قائلاً: نعم، أليس بصحيفة؟ ومعنى هذا أن الكتاب لما كان في دلالة مساوية للصحيفة، والصحيفة مؤنثة ساغ حمل الكتاب - ذهنياً - على معنى الصحيفة وإلحاق علامة التأنيث لذلك بالفعل. وفي كتاب المذكر والمؤنث لابن الأنباري أن الفصاحة زينة ومروءة، ترفع الخامل وتزيد النبيه نباهة؛ وأول الفصاحة معرفة التأنيث والتذكير في الأسماء والأفعال والنعى قياساً وحكاية، وهي ألزم من معرفة الإعراب¹.

فمن القوانين النحوية المقررة الثابتة المطابقة بين المبتدأ والخبر، أو بين المنعوت والنعى أو بين الحال وصاحبها، وإن كانت تتفاوت بين الإطلاق وعدمه. وقد ساعد المعنى - في بعض الحالات - على الترخص في بعض نواحي المطابقة، فجاء المبتدأ مذكراً، والخبر مؤنثاً، كما ورد العكس أيضاً، وجاء الفاعل مذكراً ولحقت الفعل علامة تأنيث كما جاء مؤنثاً ولم تلحق الفعل علامة تأنيث. كل ذلك يمكن اعتباره نوعاً من الترخص في قرينة المطابقة، عند أمن اللبس وقيام دليل حالي أو مقالي دال عليها.

أولاً: تذكير المؤنث

حظيت ظاهرة تذكير المؤنث بمساحة معتبرة في مصنفات القدماء؛ حيث أفرد لها بعضهم أبواباً وفصولاً واستطردوا لها العديد من الشواهد؛ سواء من القرآن الكريم، أو الأحاديث النبوية

¹ - ابن الأنباري، المذكر والمؤنث، ت: طارق عبد عون الجنابي، ط1، مطبعة العاني، بغداد، ص48

الشريفة، أو من أشعار العرب، وحتى من كلامهم المنثور. ويقول ابن جني: "إن تذكير المؤنث واسع جداً؛ لأنه رد فرع إلى أصل"¹.

ومن ما جاء من النصوص وفق هذه الظاهرة قوله تعالى: {فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}²، حيث جاءت الآية بتذكير الموعظة في إسنادها إلى الفعل، وهي مؤنثة في اللفظ؛ وذلك لأن الموعظة هنا حملت على الوعظ³.
ومثل ذلك قول الشاعر:

هل تعرف الدار يعفيها المور والدجن يوماً والعجاج المهمور
لكل ريح فيه ذيل مسفور

فأورد الضمير "فيه" مذكراً لأن الدار مكان، فحملة على ذلك⁴.
ومن ذلك قوله تعالى: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَ مِثَا}⁵، حيث ذكر وصف البلدة (ميتاً) وهي مؤنثة لأنها حملت على معنى المكان، (أي مكاناً ميتاً)، ومنه قوله عز وجل: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي}⁶، ذكر اسم الإشارة العائد على الشمس وهي مؤنثة لأنه ذهب به إلى معنى هذا الشخص أو هذا المرئي. منه كذلك قوله تعالى: {الْأَسْمَاءُ مُنْفَطِرِ بِهِ}⁷، حيث وصف السماء وهي مؤنثة لأنه ذهب بها إلى معنى السقف⁸.

ومنه (تذكير المؤنث) قول الأعشى:

أرى رجلاً منهم أسيفاً كأنما يضم إلى كشحيه كفا مخضباً
فذكر «الكف» لأنه ذهب بها مذهب العضو.

¹ - ابن جني، الخصائص، ج2، ص415

² [البقرة: 275]

³ - ابن جني، الخصائص، ج2، ص412

⁴ - سيبويه، أبو بشر عثمان ابن قنبر، الكتاب، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، ط4، ج2، ص180

⁵ [ق: 11]

⁶ - [الأنعام: 78]

⁷ [المزمل: 18]

⁸ - ابن عطية: أبو محمد عبد الحق بنغ البينعطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، دار الخير بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ج8، ص446

ومنه في التنزيل تذكير خبر الرحمة في قوله تعالى: {إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} ¹، لأن المراد بالرحمة ههنا في بعض التفسير: الغيث. ومنه أيضا قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} ²، والمراد به آدم عليه السلام.

وقال بعض العرب: قال فلانة، وكلما طال الكلام فهو أحسن، نحو قولك: حضر القاضي امرأة، لأنه إذا طال الكلام كان الحذف أجمل [يقصد سيبويه حذف تاء التأنيث من حضر، وكأنه شيء يصير بدلا من شيء]. يقصد بطول الكلام الفصل بين الفعل والفاعل، وهذا الفصل سد مسد التأنيث بالتاء. وعلى حذفهم تاء التأنيث بـ "أنه صار عندهم إظهار المؤنث يكفيهم عن ذكرهم التاء ³. ومن هذا قوله عز وجل: {مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى} ⁴، وقوله: {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ} ⁵. وهو كثير في القرآن والشعر. ومنه أيضا قول الأعشى:

فَمَا تَرَى لِمَتِي بُدِّلَتْ فَإِنْ الْحَوَادِثُ أَوْدَى بِهَا
فذكر ضمير الحوادث وحذف التاء من (أودى)؛ لأنه ذهب بها مذهب الحدثان.
ومنه قول الحطيئة:

ثلاثة أنفس وثلاث ذود لقد جار الزمان على عيالي
حيث ذهب بالنفس إلى الإنسان، فذكر لأنه حمل أنفس على معنى إنسان أو شخص ⁶.
وكذا قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا
وقال عامر ابن جوين الطائي:
فلا مزنة ودقت ودقها ولا أرض أبقل إبقالها ⁷
فذكر حيث ذهب بالأرض إلى المكان
ومن هذا كذلك قول زياد الأعجم:
إن الساحة المروءة ضمنا قبرا بمرور على الطريق الواضح

¹[الأعراف: 56]

²[النساء: 1]

³ - سيبويه الكتاب، ج2، مرجع سابق، ص38

⁴[البقرة: 275]

⁵[آل عمران: 105]

⁶ - ابن جني، الخصائص، ج2، ص412

⁷ - سيبويه الكتاب، ج2، ص 46

حيث ذكر الضمير العائد على السماحة والمروءة وهما مؤنثتان لأنه ذهب بالسماحة إلى السخاء وبالمروءة إلى الكرم.

ومنه قول جرير:

لقد ولد الأخيطل أم سوء على باب استها صلب وشام

وقول الآخر:

إن امرؤ غره منك واحد بعدي وبعدك في الدنيا لمغرور

حيث لم يلحق الشاعر علامة التأنيث بالفعل "ولد" في البيت الأول مع أن الفعل مسند إلى اسم مؤنث تأنيثاً حقيقياً، كما ذكر الآخر الفعل "غره" مع أنه مسند إلى اسم مؤنث وهو لظة "واحدة". فهذه نماذج من حمل المؤنث على المذكر.

ثانياً: تأنيث المذكر

يعتبر النحاة أن تأنيث المذكر أقل من تذكير المؤنث وأضعف منه في القياس، لأن تأنيث المذكر من باب ترك الأصل إلى الفرع. ويقول عنه بن جني إنه: "أذهب في التناكر والإغراب"¹.

ومن تأنيث المذكر قوله تعالى: "ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا"² بنصب فتنتهم، رغم أن اسمها "أن قالوا" مذكر، وقوله تعالى: "لِيَلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ" {يوسف: 10}، جاء الفعل على التأنيث مسنداً إلى (بعض) وهي مذكر. وربما قالوا في بعض الكلام: ذهبت بعض أصابعه، وإنما أنث البعض لأنه أضافه إلى مؤنث، وهو منه، ولو لم يكن منه لم يؤنثه، لأنه لو قال: ذهبت عبد أمك لم يحسن³. ومن ما جاء في الشعر من هذا القبيل قول الأعشى:

وتشرق بالقول الذي قد أذعته كما شرقت صدر القناة من الدم

فالمضاف (صدر) اكتسب صفة التأنيث من المضاف إليه (القناة)، ومنه أيضاً قوله:

ألم يك غدر ما فعلتم بشمعل وقد خاب من كانت سريرته الغدر
فالمبتدأ «الغدر» مذكر، والخبر (سريرته، مؤنث)، وأسند الفعل مؤنثاً إلى الغدر لما كان هو السريرة في المعنى.

ومثل هذا في التنزيل، فيما وردت به الرواية عن نافع وأبي عمرو وعاصم فيما رواه عنه أبو بكر بن عياش "ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا" بنصب (الفتنة)، وإسناد «تكن إلى أن قالوا»

¹ - ابن جني، الخصائص، ج2، مرجع سابق، ص415

² [الأنعام: 23]

³ - سيبويه الكتاب، ج1، ص51-52

والتقدير ثم لم تكن فتنتهم إلا قولهم وجاز تأنيث القول لأنه الفتنة في المعنى، ومثله رفع الإقدام ونصب العادة في قول لبيد:

فمضت وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عردت أقدامها
وإنما استجاز تأنيث الإقدام لتأنيث خبره
ومنه قول الشاعر:

يا أيها الراكب المزجى مطيته سائل بني أسد ما هذه الصوت
فإنه ذهب بالصوت إلى الاستغاثة¹

ومن تأنيث المذكر، ما كثر عن العرب من إلحاق علامة تأنيث بفعل الفاعل المذكر إذا أضيف إلى مؤنث، فكأن المضاف بعض المضاف إليه، أو به أو منه ولذلك قرئ قوله تعالى لا تنفع نفسا إيمانها، بالتأنيث، فأنث فعل الإيمان إذ كان من النفس وبها². ومنه قول النواح الكلابي:
وإن كلابا هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
فذكر العدد مع المعدود المذكر، لأنه حمل المعدود أبطن على معنى قبائل أو القبيلة³.
ومنه قول الشاعر:

مشين كما اهتزت رماح تسفهت أعاليها مر الرياح النواسم
وقول الآخر:

لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع
فأنث الفعل المسند إلى (مر الرياح) في البيت الأول، وكذا الفعل المسند إلى (سور) المذكر في البيت الثاني، وذلك لإضافة كل منهما إلى مؤنث.
وقال عمرو بن أبي ربيعة:

وكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر
فذكر العدد والمعدود لأنه ذهب بالشخوص إلى النساء⁴.
ومنه قول الشاعر:

فلو أنك في يوم الرخاء سألتني فراقك لم أبخل وأنت صديق

¹ - ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج2، ص415

² - ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج5، ص47

³ - ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج2، ص417

⁴ - نفس المرجع والصفحة ذاتها

وقول الآخر:

إذ الناس والزمان بعزة وإذ أم عمار صديق مساعف¹

وكذا قول امرئ القيس:

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكر²

الفرع الثاني: التقارض في مقولة العدد

أ- التبادل بين المفرد والمثنى

من أساليب العرب إيراد اللفظ الدال على المفرد في موضع اللفظ الدال على المثنى، فعبر عن الإثنين بلفظ الواحد، ويكثر هذا في كل اثنين مترابطين غالباً عند الذكر، فلا يغني أحدهما عن الآخر، ولا ينفرد أحدهما دون الآخر؛ كالعينين والأذنين ونحو ذلك. ويحدث هذا أيضاً فيما كان في الجسد منه شيء واحد لا ينفصل كالرأس والظهر والبطن.

1- وضع المفرد موضع المثنى

من ما جاء من النصوص على وضع المفرد موضع المثنى؛ قوله تعالى: {فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ}³ حيث خاطب موسى وأخاه هارون وجاء النداء إلى موسى بالإفراد. ومنه كذلك (فقلوا إنا رسول رب العالمين)، حيث وردت لفظة رسول مفردة وهي عائدة على موسى وهارون ومنه قوله تعالى: {وَأَوَّلَهُ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ}⁴، فوحد الضمير في يرضوه رغم أنه عائد إلى الله ورسوله؛ ومسوغ توحيد الضمير هو أن لا تفاوت بين رضا الله ورضى رسوله صلى الله عليه وسلم فكأننا في حكم مرضي واحد.

ومنه قول الفرزدق:

كأنه وجه تركيبين قد غضبا مستهدف لطعان غير منحجر

حيث أضاف الجزئين إلى متضمنيهما⁵. ومنه قول الآخر:

حمامة بطن الوديين ترنمي سقاك من الغر الغوادي مطيرها

حيث جاء بلفظ البطن مفرداً مضافاً إلى المثنى والمقصود هو بطني الوديين.

1 - حسين عباس الرفيعة، ظاهرة العول عن المطابقة في العربية، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة، 2003م، ص 135-136

2 - نفس المرجع، ص 139

3 [طه: 49]

4 [التوبة: 62]

5- ابن يعيش، أبو البقاء ابن يعيش، شرح المفصل، ج3، دار الكتب العلمية، 2001م، ص212

وكذا أيضا قوله تعالى: (لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) فجاء على أفراد الرحلة وهما في الحقيقة رحلتان؛ رحلة الشتاء ورحلة الصيف، ولكن جاء على الأفراد لأمن اللبس ووضوح المعنى¹

ومنه قول الشاعر:

وكأن بالعينين حب قرنفل أو سنبلأ كحلت به فانهلت

ومنه كذلك قول الشاعر:

إذا ذكرت عيني الزمان الذي مضى بصحراء فلج ظلتا تكفان

حيث ورد لفظ عيني بالأفراد والمراد عيناى بدليل "تكفان" وإنما سوغ ذلك وضوح المعنى وأمن اللبس.

2- وضع المثنى موضع المفرد

من أساليب العرب كذلك أن يعكسوا الأسلوب السابق؛ وضع المفرد موضع المثنى، فيضعوا المثنى موضع المفرد، فيأتي خطاب الواحد بلفظ الإثنين، ويذكر المثنى والمراد به الواحد على سبيل التوسع والتفارض بين الصيغتين. فوضع المثنى موضع المفرد من سنن العرب السائرة في القول، سيما في آي الذكر الحكيم ومطالع القصائد.

ومن ما يعد من هذا القبيل؛ قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}²، وإنما يخرج ذلك من المالح دون العذب. وكذا قوله عز وجل: {الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ}³، لأن الخطاب في الآية إنما هو لمالك خازن النار.

ومن ذا قول سويد بن كراع:

فإن تجزرائي يابن عفان أنزجر وإن تدعاني أحم عرضا ممعنا

حيث أورد الفعلين: "تجزرائي وتدعاني" مسندين في الظاهر إلى مثنى والمراد الأفراد كما هو واضح من قوله: "يابن عفان". ومثله قول يزيد بن الطثية:

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجتز شيجا

حيث أورد صاحبي مثنى والمقصود به الرفيق، ومنه أيضا قول جرير:

بان الخليط برامتين فودعوا أو كلما رفعوا لبين تجزع

¹ - ابن عطية، المحرر الوجيز، مرجع سابق، ج8، ص693

² [الرحمن: 22]

³ [ق: 24]

حيث ثنى رامتين وهي أرض واحدة تسمى رامة¹.

ب- التبادل بين المفرد والجمع

من الأساليب الخاصة في مقولة العدد التقارض بين المفرد والجمع؛ فيعبر بالمفرد عن الجمع كما يرد الجمع للتعبير عن المفرد.

1- وضع المفرد موضع الجمع

ومن أساليب العرب الخاصة كذلك التعبير باللفظ المفرد أو ما يقوم مقامه من ضمير عن الجمع، ومنه قوله تعالى حكاية عن إبراهيم {قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ}²، فالمعنى هؤلاء ضيوفي ولكن جرى على التعبير بلفظ المفرد عن الجمع لوضوح المعنى وأمن اللبس³. ومنه كذلك قوله تعالى: {هُمْ أَعْدُوٌّ فَاحْذَرُهُمْ}⁴ فالمعنى هم الأعداء، ولكن جرى التعبير هنا أيضا بالمفرد عن الجمع⁵.

ومثل هذا قوله تعالى: {نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً}⁶، أي: أطفالا، وقوله جل وعلى: {وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا}⁷، فالمعنى وحسن أولئك رفقاء.

ومنه قول الراجز:

لا تنكروا القتل وقد سبينا في حلقكم عظم وقد شجينا

حيث وضع الحلق المفرد موضع الحلق، وكذا قول الشاعر:

كلوا في بعض بطنكم تعفوا فإن زمانكم زمن خميص

حيث استعمل لفظة البطن بالإفراد موضع البطون⁸، ومنه كذلك قول الآخر:

بها جيف الحسرى، فأما عظامها فبيض وأما جلدها فصليب

حيث استعمل الجلد بالإفراد والمقصود الجمع جلود⁹، ومنه أيضا قول القطامي التغلبي:

¹ - ابن جني، الخصائص، مرجع سابق، ج2، ص420

² [الحجر: 68]

³ السيوطي، المزهري في علوم العربية وأنواعها، مرجع سابق، ج1، ص333

⁴ [المنافقون: 4]

⁵ - نفس المرجع والصفحة ذاتها

⁶ [الحج: 5]

⁷ - [النساء: 69]

⁸ - سيبويه، الكتاب، مرجع سابق، ج1، ص209

⁹ - نفس المرجع والصفحة ذاتها

كأن نسوع رحلي حين ضمت حوالب غرزا ومعى جياعا
حيث لفظ "معى" المفرد والمقصود الأمعاء بالجمع، ومنه قول الآخر:

أحقا أن جيرتنا استقلوا فنيتنا ونيتهم فريق

قال: فريق، كما تقول للجماعة: هم صديق، وقال الله تعالى جده: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}¹. والمرد الجمع، ومن ذلك أيضا قوله تبارك وتعالى: {فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ}²، وإن شئت تقول: أنفسا³.

ومن مجيء الجمع بمعنى الواحد قوله تعالى: {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}⁴، أجرى الأول على لفظ الواحد، والآخر على المعنى⁵.
ومنه قول الشاعر:

ألما تعلموا أنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور
وقول الآخر:

ألا إن جيرانى العشية رائح دعتهم دواع من هوى ومنايح⁶
ومنه كذلك قول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
ومنه كذلك أيضا قول زهير:

وإن يشتجر قوم يقل سرواتهم هم بيننا فهم رضى وهم عدل

حيث وحد "رضى" و"عدل" على أنهما من باب المصادر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث⁷.

ومنه أيضا قول الآخر:

وقوم على ذوي مرة أراهم عدوا وكانوا صديقا
كما يخرج عليه أيضا بعض النحويين قول الشاعر:

¹ [ق: 17]

² [النساء: 4]

³ - نفس المرجع والصفحة ذاتها

⁴ [البقرة: 112]

⁵ - سيبويه الكتاب، ج1، مرجع سابق، ص65

⁶ - حسين عباس الرفايعة، مرجع سابق، ص90

⁷ - نفس المرجع، ص88

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبي إذا الطير مرت
وذلك لأن خبير يوازن المصدر كالصهيل والنعيق¹.

2- وضع الجمع موضع المفرد

ومن سنن العرب عكس الوضع السابق، فيأتون باللفظ الدال على الجمع أو ما يقوم مقامه من ضمير للتعبير به عن المفرد على سبيل التوسع والتقارض ومن ما ورد من ها القبيل قوله تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ} [التوبة: 17]، لأن المراد إنما هو المسجد الحرام. وكذا قوله عز وجل حكاية عن بلقيس: (وإني مرسله إليه بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون)، والمراد الإفراد بدليل قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ}، وقوله: {أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ}، ومنه أيضا قول الأعشى:

ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبير بأجسادها

يريد بجسدها، ومنه قول الفرزدق:

وإذا ذكرت أباك أو أيامه أخزاك حيث تقبل الأحجار

المقصود حيث يقبل الحجر يعني الحرم.

فهذه الشواهد تعد من إيراد الجمع مرادا به المثنى رغم انها ليس فيها هدر للمطابقة.

د- تبادل المثنى والجمع

1- وضع المثنى موضع الجمع

من أساليب العرب أيضا التعبير بالمثنى عن الجمع، إلا أنه في الحقيقة ليس بذلك الحد من الكثرة، ومن ما ورد من أمثله قول الشاعر:

كأن حملهم لما التقينا ثلاثة أكلب يتطاردان

حيث استعمل الفعل مسندا إلى ألف الإثنين، وهو راجع إلى جمع (ثلاثة أكلب)، ومنه أيضا قول الفرزدق:

وما قمت حتى كاد من كان مسلما ليلبس مسودي ثياب الأعاجم

حيث استعمل المثنى "مسودي" وهو يريد الجمع "مسودات"

¹ - نفس المرجع والصفحة ذاتها

² [النمل: 36]

³ [النمل: 37]

2- وضع الجمع موضع المثني

وقد أفرد له سيبويه باباً قال فيه: "هذا باب ما لفظ به مما هو مثني كما لفظ بالجمع، وهو أن يكون الشيئان كل واحد منهما بعض شيء مفرد من صاحبه، وذلك قولك: "ما أحسن وجوههما"، وأنت تقصد التعجب من الوجهين. وقد علل الخليل هذا المسلك اللغوي بأن الاثنين جميع، وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ذلك.

وعلل سيبويه ذلك بأنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون مفرداً وما يكون شيئاً من شيء، وقد جعلوا المفردين جميعاً¹. وكأن العرب أرادت أن تفرق بين الشيء الموجود منفرداً بطبيعته وبين الشيء الذي يكون جزءاً من كل، كالوجه والقلب، فإنها أجزاء من كل هو الجسم. فما كان شيئاً من شيء ينوب جمعه عن تثنيته، وهو الأكثر في كلامهم والأفصح، ومنه قوله تعالى: "إن نتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما.

الخاتمة:

يلحظ المنتبغ لتوظيف مقولتي النوع والعدد في الأساليب العربية، أن هاتين المقولتين - بما تمنحانه من إمكانات التبادل، والتنويع في الرصف والتركيب - قد أمدتا الأساليب العربية بملح اتساعي متميز، وظفته نصوص القرآن وإبداعات أرباب الكلمة وسلاطين القول. حيث جاءت بتوظيفات لهاتين المقولتين تكاد تنفك عن كل القيود والضوابط التي تضعها مصنفات التعليم وكتب القواعد. فذكر المؤنث وأنت المذكر وتصور معنى الواحد في الجماعة ومعنى الجماعة في الواحد، ووضع المثني موضع المفرد كما وضع المفرد موضع المثني. واستعمل المثني استعمال الجمع كما استعمل الجمع استعمال المثني، كل ذلك في شكل من التقابلات والتوازيات شديدة الترابط والتلاحم وإن أبدت خلاف ما عليه أنبت. ومن اللافت في هذا الصدد أن ملح الجمال والتميز الذي اتسمت به هذه النصوص إنما اكتسبته بتجاوزها للمحددات والضوابط النحوية المقررة في هذا الباب، باب المطابقة. حيث اعتمد بدلاً منها وضوح المعنى وأمن اللبس. وهذا أمر يؤكد أن القواعد والمحددات الأساسية التي وضعها النحاة للأبواب والمقولات النحوية إنما وضعوها كأساسيات للتحليل، ينطلق منها في التفسير ويعاد إليها ما خالفها بالتأويل وإبراز الصلات والروابط الباطنية بين تلك التظاهرات السطحية الخارجية والبنية العميقة الأساسية. وهو أمر ذو أهمية بالغة، حيث يضيف على الاستعمالات اللغوية نوعاً من الحرية المنظمة يرشد الإبداعات التركيبية ويبقيها في حدود المعقولة والمقبولة. حتى تكون مفهومة مستوعبة من

1 - سيبويه الكتاب، ج2، مرجع سابق، ص48

ناحية، ولغوية لا هوائية من ناحية من ناحية ناشية. وهما - في الحقيقة - منحيان شديدا الترابط
لا يمكن التفريق بينهما إلا من الناحية الإجرائية.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

ابن الأنباري، المذكر والمؤنث، ت: طارق عبد عون الجنابي، ط1، مطبعة العاني، بغداد
ابن جني أبو الفتح، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، د.ط
ابن عطية :أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز،
ط2، دار الخير بيروت، لبنان، 2007م

ابن يعيش، أبو البقاء ابن يعيش، شرح المفصل، درا الكتب العلمية، 2001م
حسن خميس الملح، نظرية الأصل والفرع في النحو العربي، ط1، دار الشروق، 2001م
سيبويه، أبو بشر عثمان ابن قنبر، الكتاب، ت: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي،
القاهرة،

حسين عباس الرفايع، ظاهرة العدول عن المطابقة في العربية، أطروحة دكتوراه، جامعة مؤتة،
2003م

محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة مدخل لدراسة المع

مدينة (تيواون) في السنغال معقل لنشر الإسلام والثقافة العربية

عبد العزيز صار

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

أصل تسمية مدينة تيواون

ترجع الروايات الشفوية أصل تسمية مدينة تيواون إلى نبوءة متداولة في التراث المحلي مفادها أنه هذه الأرض، التي لم تكن مأهولة في السابق، سيكتب لها مستقبلا مشرقان وستغدو موطنًا مباركًا يحمل في طياته ذكرى رجل رباني عظيم، منحدر من أصول فلانية(التكرور)، وتشير النبوءة إلى أن هذا الرجل سينزل ضيفا على أهل المنطقة، وسيقابل بحفاوة، وكرم من ساكنيها.

ومع تعاقب الزمن، تحققت تلك النبوءات بقدوم الشيخ الحاج مالك سه بن عثمان، رضي الله عنهما، اذي كان حضوره إلى هذه الأرض بمثابة نقطة تحول تاريخية. فقد أضفى الشيخ على هذه الإشارات الروحية دلالات تبعث الأمل وتبشر بالخير للأجيال القادمة، وكانت المنطقة آنذاك مأهولة بجماعات من طبقة تيدو المعروفة بانغماسها في الترف والملذات، وكان من بينهم من يعتنق معتقدات وثنية تناهض الإسلام.

غير أن استقرار الشيخ الحاج مالك رضي الله عنه في هذه الأرض غير ملامحها الروحية، والثقافية، والاجتماعية، إذ حولها إلى مدينة للعلم والتركيز، ومركز لإشعاع التوحيد ونور الإسلام. أصبحت تيواون بعد ذلك واحة للسلوك القويم، وانتشرت منها القيم الإسلامية إلى أرجاء شتى.

وفي العصر الحديث، تُعد تيواون من أبرز المدارس التعليمية والتربوية في العالم الإسلامي، كما تُعتبر من أقدس المحاريب التي يؤمها المؤمنون من مختلف الأقطار، خاصة خلال موسم المولد النبوي الشريف، حيث تُقام الاحتفالات تليدًا لسيرة خير البرية، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، باعتباره النموذج الأكمل والقُدوة الأسمى للإنسانية جمعاء¹.

¹- AtoumaneNdiayeDoumbia, (Tivaouane en image: L’histoire de la ville depuis 1886), Maguilien, 2011.

تأسيس زاوية مدينة (تيواون)

الزوايا الثلاثة للشيخ الحاج مالك سي ومنجزاتها الثقافية العربية الإسلامية. تُعد الزاوية التي أنشأها الشيخ الحاج مالك سي بمدينة تيواون أولى معالم مشروعه الروحي والثقافي في السنغال، وقد أصبحت مع مرور الزمن مركزاً إشعاعياً للثقافة العربية الإسلامية. تليها زاويتان أخريان أسسهما الشيخ بنفسه؛ واحدة في دكار العاصمة، وأخرى ثالثة في مدينة سانت لويس السنغالية.

هذه الزوايا لم تكن مجرد أماكن للعبادة والذكر، بل مثلت مراكز تعليمية وتربوية وثقافية ساهمت بشكل فاعل في ترسيخ الهوية الإسلامية وتعليم اللغة العربية، ونشر معاني التصوف السني السمح، وإرساء القيم الروحية السامية في المجتمع السنغالي. ويُعد هذا المشروع امتداداً لرؤية روحية وتربوية عميقة استلهمها الشيخ الحاج مالك سي من سلفه المجاهد الكبير الحاج عمر الفتوي تال، رضي الله عنه.

ولد الحاج عمر الفتوي في قرية هلووار (Halwar) منطقة فوتا تورو شمال السنغال سنة 1797م. وقد حمل هم الدعوة إلى إقامة دولة إسلامية موحدة في غرب إفريقيا، تُعلي من شأن الدين وتحفظ المصالح الإسلامية والوطنية في وجه الاستعمار والوثنية. أطلق مشروعه الجهادي سنة 1852م.

ويُحسب للحاج الفتوي تال عمر كما يُروى عن الدكتور عامر صمب - أنه كان أول من حجَّ إلى بيت الله الحرام من بين العلماء السنغاليين، كما يُعد أول من نظم الشعر العربي في السنغال، وهو ما يعكس عمق تواصله الثقافي والديني مع المشرق الإسلامي، وحرصه على نشر علوم الشريعة واللغة العربية في بيئة كانت آنذاك تحت ضغط الاستعمار ومحاولات طمس الهوية الإسلامية¹. فإن الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنه الذي ولد في قرية غايا Gayah بالقرب من مدينة داغانا Daganala (1853/1922م) فهو الآخر أول من أقام زاوية بمدينة تيواون، وأول من أدخل فيها الشعر العربي في رأي الباحث.

قدم الحاج مالك سي إلى تيواون عام 1900م، وقيل في رواية أخرى عام 1897م حيث بنى فيها زاويته سنة 1902م، فالزاوية كانت ساعتئذ، تتألف من أربعة غرف حسب الرأي

¹-الدكتور عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،

الذي أدلاه بول مارتي، وفوروصول الحاج مالك سي إلى تيواون أنشأ أول مسجد في المدينة، وبدأ ينشر الطريقة التجانية، ويفتح مدارس لتعليم القرآن الكريم، تعرف محليا باسم (دارا)، وتسمى عند المغاربة والموريتانيين بتسمية المحظرة أو الكتاب.

و يرتبط تاريخ هذه المدينة بكونها مرجعية إسلامية ومدرسة رائدة في التربية الصوفية مع قدوم الشيخ إليها سنة 1900م الميلادي وقيل أنه قدم إليها قبل هذا التاريخ بثلاث سنوات، وهو سنة 1897م، وعندما حطّ فيها الشيخ الحاج مالك سي رحاله قادما من شمال السنغال ماراً في طريقه بمدينة كيل Kél متجها نحو قرية انجاردى Ndiarndé، وهذه الأخيرة على بعد مسافة 60 كيلومترا من تيواون، وفي قرية انجادي أقام الشيخ مدة سبع سنوات مع مجموعة صفوة من التلاميذ ومن كبار مقدّميه رضوان الله عليهم، وهناك في انجاردى ربّاهم الشيخ ودرّسهم وأعدّهم إعدادا خاصا ودقيقا وذكيا ليكونوا لاحقا ومستقبلا على مستوى من المسؤولية، والبصيرة، والبيئة بأمر الدين وواعين بواقع العصر لمواجهة نشاط الاستعمار والوثنيين، وذلك عن طريق تعليم القرآن الكريم، وبحث التربية والثقافة العربية الإسلامية.

مدينة (تيواون) جامعة شعبية:

ولما وصل إلى تيواون اتخذها مقعلا لنشر الإسلام والطريقة التجانية، وخلال حقبة قصيرة من الزمن دانت له الدنيا والتف حوله الناس لحضور مجالسه العلمية، كما شهد على ذلك بول مارتي Paul Marty الكاتب الفرنسي في بحثه عن الإسلام في السنغال عند قوله: إن الخاصية المميزة لزاوية الحاج مالك بتيواون هي أنها تشكل جامعة شعبية حقيقية، فهي تُكوّن عددا ضخما من الأساتذة والمعلمين لعلوم الشريعة الإسلامية ثم ينتشرون عبر البلاد ويكونون بدورهم كوكبة من الأساتذة يساهمون على نشر مبادئ التعاليم الإسلامية

من خلال هذا الرأي يتضح لنا أن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه بنى صرحا شامخا معرفيا وعلميا وأدبيا وأخلاقيا ومنارة تنبعث منها الإشعاعات الروحية والثقافة الإسلامية إلى أرجاء القارة السمراء. وإلى هذه المدرسة الشهيرة، يشير الشيخ سعد بن أبيه الشاعر الموريتاني مادحا الشيخ الحاج مالك سه، ومنوها بمكانة وسمو وشهرة

زاويته ومدرسته أو جامعته الشعبية ودورها الريادي في استقبال طلبة العلم وتكريمهم وتربيتهم تربية إسلامية¹ صحيحة وسليمة فقال:

على فائق الأقران مالك دهره	يعود سلام طاب ليس له حدّ
تطيب به الأفراح إن فاح نشره	وفي طيه من عندنا الودّ العهد
فـــــــــــــــــموجبه إنا جعلنا	يقوم به عنا لك الصمد الفرد
فإفضاله السامي عزيز مناله	وإن سامه المخلوق يقصر به الجهد
مدارسه في العلم خير مدارس	وأوراده في الذكر ما مثله ورد

مدينة تيووان ملتقى موسميا للمولد النبوي الشريف:

استطاع الشيخ بإشعاعه الروحي استقطاب أتباع كثر في المنطقة، وحول ورفع منزلة تيووان من درجة عاصمة مملكة كيُور إلى مرتبة عاصمة الطريقة التجانية في السنغال والمناطق المجاورة ثم أطلق الشيخ في السنة التي نزل عليها احتفالية لتخليد ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم وتسمى كامو Gammou باللهجة الولوفية². وقد كان مولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين 8 أو 9 في شهر ربيع الأول. وأصبح موسما سنويا يحضره المسلمون، ويشاركون فيها سلالة الشيخ، من السنغال وخارجه وخاصة أتباعه من التجانيين، ويجري تخليد هذه الاحتفالية على امتداد البلاد، فإن كل منطقة أو قرية في البلاد تقيم احتفالها استجابة لدعوته وامتثالاً لأمره وندائه العام والموجه للجميع بقوله:

ألا عظموا ليل الولادة حسبة إذا لم يكن نحو الحرام عدول³

"فزاويته منذ عهد تأسيسها ارتبط اسمها بزاوية المتقنين، لقد كون أتباعه الذين تعلموا منه تكوينا ثقافيا وروحيا، كما وضع الشيخ تصانيف ومؤلفات وخصص جزء كبيرا منها للأمداح الدينية والتعليمية، التي أسهمت إسهاما ملحوظا في تقدم العلوم

¹ - (بول مارتي Paul Marty) بحث عن الإسلام في السنغال، هو من أبرز مؤرخي الإدارة الفرنسية الاستعمارية، وأحد كبار الضباط والإداريين الاستعماريين، ومن كبار المستشرقين الفرنسيين الملمين باللغة العربية، وكان متخصصا ومهتما بإسلام إفريقيا جنوب الصحراء، المرجع: موقع (غوغل) 2013/13م تاريخ الزيارة 25/ديسمبر 2020م، الساعة الثانية عشر ليلا، ترجمة الباحث

² - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيين بالتواوين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية، ص 91

³ - الحاج مالك سه، الديوان، المحمديات، زاوية تيووان، ج 3، ص 48

الدينية، واللغة العربية وآدابها إلى الأمام ورفع معاني الطريقة التجانية في البلاد¹. ويحظى كتابه (خلاص الذهب في سيرة خير العرب) أكبر تقدير وإقبال، ويبلغ عدد أبياته ألفا وستين بيتا. ويقول العلامة محمد السعيد با في مؤلفه: (نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب)"وقد ألفه الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه في فترة واحد وعشرين 21 يوما، ولاغرو لأن الإمام السيوطي ألف ألفيته في علم الحديث خلال خمسة أيام فقال:

نظمته في خمسة الأيام بقدره المهيمن العالم²

وكان الشيخ يحضر إلى المسجد لأداء الشعائر الدينية، وللوعظ، وتلاوة القرآن. ويترأس أنشطة العبادات في الصباح والمساء. ولما نزل الشيخ على تربة تيواون واتخذها سكنا أصبحت المدينة تعد أكبر مراكز التأثير الصوفي والثقافة الإسلامية بالسنگال، باعتبارها مقراً رئيسياً للطريقة التجانية في منطقة غرب إفريقيا، وتحضن سنويا احتفالية كبيرة بمناسبة المولد النبوي الشريف وقدغير وعدل الشيخ سلوك جل سكانها بعد أن كانت اهتماماتهم تتجه إلى لملذات والحظوظ النفسية، والنزوع إلى اللهو والميل وحب الراحة و الدعة والطرب، والغناء، متأثرين، بطبائع و عادات وتقاليد موروثة من طبقة (تيدو Thiédde) التقليديين حلفاء الاستعمار، وعليه يبدو في الأمر بأن أهل تيواون أصيبوا بدهشة وإعجاب من هذا التغيير والتحول الجذري السريع الذي أحدثه الشيخ بمدينة تيواون، فيقول الدكتور عثمان جا في رسالته (لم يخطر ببال أحد من أهل تيواون الذين ألفوا الطرب واللهو والتقن في القول أن بقعتهم هذه ستغدو في يوم من الأيام منار من منارات الإسلام في بلاد كجور وقبلة يؤمها التجانيون وهواة الثقافة الإسلامية في كل وقت، وذلك لما رحبوا بالشيخ الحاج مالك سي ليقطنها ويستقر فيها داعية اسلاميا)³.

حضور المعالم الإسلامية في المظهر العام بمدينة تيواون: وأثناء مدة يسيرة من الزمن وتطور الحياة بمدينة تيواون التي أخذت منحى وتوجها جديدا ونزعة الروحية تمكن الشيخ أن يحول المدينة إلى معالم وحضور ديني وصوفي

¹ - سيدي أحمد سه الأمين مقابلة صحفية الموقع www.alaraby.co.uk

² - با محمد السعيد، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ج1، طبعة ثالثة، مركز النجاشي العلمي، بفاس قناس، السنغال، 2012م، ص18

³ جا عثمان، المرجع السابق، ص 179

يلحظ زائر المدينة وجودا واسعا وكثيرا لأسماء (مشائخ الطريقة على أهم منشآت المدينة ومرافقها الصحية والتعليمية، والتاريخية والثقافية والرياضية)¹. وحتى جل أحياء السكن في تيووان تطلق عليها أسماء الشيوخ والخلفاء من سلالة الشيخ نفسه، أو اسم مؤسس الطريقة التجانية الشيخ أحمد بن محمد التجاني رضي الله عنه. أو أسماء المدن الإسلامية التي كانت لها ازدهار وشهرة في نشر الإسلام والعلم، أو أسماء تدل على أماكن الشعائر ذات الأبعاد الروحية. وهذه من نماذج بعض الأحياء بمدينة تيووان: حي المدينة المنورة، وحي منى، وحي جدة، وحي عرفات، وحي المزدلفة، وخاصة من المدن المغربية الشريفة مثل: حي بليدة، وحي عين ماضي، وحي أبي سمغون، وبعد أن استقرّ الحال للشيخ الحاج مالك بشكل نهائي بمدينة تيووان مقره الدائم. ثم افتتح مدرسته التي كانت تمثل جامعة شعبية لتعليم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية والفنون العربية². ومن هذه الزاوية انطلقت شعلة التعليم والتربية والثقافة العربية الإسلامية لتشق طريقها إلى ربوع السنغال وحتى إلى خارجها، وما كان الشيخ الحاج مالك قادرا على النهوض بهذه المهمة.

الشاقة التي تعد من أصعب الأمور لدى كل من يسعى حاملا مشروعا دعويا للتغيير العقدي والفكري والاجتماعي متشمرًا ومقبلا على الله، لو لم يكن الشيخ يتوفر في شخصه مجموعة من المواصفات القيادية كالكفاءات العلمية والقدرات الفردية النادرة، والرؤية السديدة، أو البصيرة النافذة، والثبات على المبادئ والاعتصام بالقيم والمثل العليا، فلولا هذه السمات لكان من الصعب يحقق ويبلغ الشيخ إلى هذه الغاية الربانية النبيلة. ولكن كما يقال " إذا عرف السبب زال العجب". فإن ثقافة الشيخ الحاج مالك الرفيعة وتجاربه المتنوعة والغنية، وشهرة دراسته الموسوعية الفذة، وعلو كعبه في العلوم الشرعية، والفنون العربية، وكثر رحلاته وخبراته الثرة، وشخصيته المثالية، وعدم اهتمامه بزخارف الحياة الدنيا، فإن ذلك يوحى إلى مدى القوة والقدرة في التأثير الذي كان يتمتع به الشيخ الحاج مالك وأودع في شخصه القدوة رضي الله عنه.

وقد دون لنا بعض شعر هذه الزاوية جانبا من سماته ومواقفه الجريئة تجاه بعض الوقائع والأحداث ومكافحته ومحاربته باللسان والقلم بعض الانحرافات والتصرفات

¹ - سيدي أحمد سه، المرجع السابق

² - سيدي أحمد سه الأمين، مقابلة صحفية، www.alaraby.co.uk

الجائرة السائدة والمنتشرة كانت في المجتمع السنغالي، والتي يتطلب تغييرها امتلاك روح صلابة وعزيمة، وجرأة الليث، وقد سجل الشعر هذه الشيم الفاضلة، كما سنرى ذلك لاحقاً، في انتاج الحاج منصور سهوخليفته الثاني حيث قال معبراً عن إعجابه بالشيخ الحاج مالك سه:

الله درك من شيخ يدل على مولاه قولاً وفعلًا يابنعثمانا
كالليث حلّ بأشبال على أجم فلا تقل لرماة حولها صيدوا¹

ولما أقيمت الزاوية ورأت النور بدأت تعطي ثمارها يانعة من تخريج دفعات وأفواج وجماعات من العلماء، مهتمهم الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والقدوة الصالحة، وكان من بينهم قراء، وأئمة، ومعلمون، ومربون، وأدباء، وغيرهم. فحملوا شعلة العلم والتربية الإسلامية، مقبلين على نشر الإسلام والطريقة التجانية في أرجاء البلاد، وخاصة في الأوساط والمناطق التي تمارس وتنتشر فيها الوثنية، ويستوطنها طبقة (تيدو Thiédodo) الموالين للاستعمار والمروجين لمشروعه السيادي، وكان أسلوب الشيخ بعد أن أتم وأكمل المتعلمون التعليم والتكوين على يديه، أو يحرزون القدر والمستوى المرجو من العلم والتربية، أو يبلغون مرتبة العالم يمنحهم الشيخ إجازات في الفنون التي تلقوها، وفي الشريعة، والطريقة، ثم يعينهم إلى المكان الذي يرى الشيخ أن لهم حاجة ملحة إلى من يعلمهم القرآن الكريم أو أمور دينهم، فهم عند الوصول إلى المنطقة المحددة يسировون على سيرة ونهج الشيخ الحاج مالك معلمهم المربي، الذي كان يرى عدم وجود أهمية وجدوى في استخدام العنف وحمل السيف لقتال الاستعمار، لأن المرحلة لم تعد صالحة وملائمة للجهاد.

يقول الشيخ سيدي أحمد سه الأمين "والشيخ الحاج مالك سه كان يتعامل مع الاستعمار بسياسة السلم، لأنه كان زعيماً سالماً، ولم ير فائدة في مواجهة الاستعمار، واختار أن يكون متفرغاً لتربية الأتباع وتعليمهم"².

فوظف عمره المبارك بين التعلم والتعليم والتأليف والتربية والوعظ، والإرشاد والعمل في المزرعة والتجارة، فقد أنشأ مزارع وحقولا، لتكوين أتباعه وتدريبهم على ممارسة العمل وكسب اليد والاعتماد على النفس ليكون عيشهم هنيئاً وبالحلم رخيماً. ويظهر هنا

¹ - الحاج محمد المنصور سه، ديوان مخطوط، في زاوية تيووان، السنغال

² - مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقع www.alaraby.co.uk

نجله الحاج منصور سه يرسم لنا بريشة قلمه نبذة من النشاطات والحياة اليومية للشيخ
الحاج مالك سه بقوله:

فيوما تـراه لتدريسه ويوما لوعظ وهادي الأمم
ووقتا لتأليف مدح النبي ووقتا لمن شكره قد حتم
تلك هي المدرسة الفريدة التي أراد بها مؤسسها أن تكون ذات طابع فريد متميز عن
غيرها وقد طبقت شهرتها الآفاق، ودارت أخبارها بين العامة والخاصة حتى كانت
مضرب المثل في الأخلاق الكريمة السامية، والمثل العالية الفاضلة¹. فقال فيها ابنه
العلامة الشيخ محمد المنصور ومشيرا إلى جدول أعمال الشيخ اليومية في الزاوية:

للخلق في نفسه أطوار منفعة لله بالله ذا التقسم قاساه
طورا لتدريسه الفنون مع حكم يحار ذو الفهم فيها نعم فتواه
وتارة في أحاديث النبي وطو رافي التأليفلا تطمع قصاره²
أسلوب الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه مع الاستعمار:

وقد فضل الشيخ الحاج مالك سه منهج المصالحة والمسالمة مع الاستعمار وهو أسلوب
(لا حرب ولا سلم). أن الاستعمار أحكم قبضه على مجموعة الدول الغربية الإفريقية،
والدليل أن الشيخ الحاج لما بدأ دعوته الإصلاحية القائمة على التعليم وقد وجد أن
البلاد كلها محتلة³.

لأن الاستعمار أسقط جميع رموز المقاومة من الرجال والزعماء، ولكسب الوقت والزمن
وملاحقة العدو الغازي يرى الشيخ الحاج مالك سه بأن من العبث وضياح الزمن
والجهد مواجهة الاستعمار بالسلاح، وهذا الخيار السلمي قد مكنه وأكسبه كثيرا من
 وإنجازات مكاسب، فما كان يقدر هو أن يحرزه لو تبنى أسلوب المواجهة والعنف
والجهاد والقتال بالسيف وتجنيد الجنود، وهذا في رأي الباحث، وإلى ذلك يشير
الدكتور عثمان جا في بحثه قائلا: (لقد نجح الشيخ الحاج مالك سي في أسلوبه السلمي
الذي سلكه مع المحتل الفرنسي فرفض فكرة الجهاد ضد أي أحد. لا يرى في ذلك

¹ - الحاج محمد المنصور سه، المرجع السابق

² - الحاج محمد المنصور سه، المرجع نفسه

³ - محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرسة تتيواون)
بالعلويين بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار السنة
2002/2003م، ص13

مصلحة للإسلام ولللمسلمين)¹. وهذا النجاح الذي أحرزه الشيخ هي ثمرة ووليد مجهودات وتضحيات بذلها على مدى من الزمن طويل، والهدف منه إنقاذ شعبه من ويلات الاستعمار، وتحريرهم من التبعية العمياء، والإقبال إلى ما هو أهم، ولذلك يقول ابنه وخليفته الأول الشيخ أبوبكر سه رضي الله عنه: "العقل من عرف زمانه واشتغل بنفسه".

ويرى الشيخ على يقين منه بأن أمثل طريق وأنجع وسيلة للوصول على ذلك هي التعليم والتربية الإسلامية، وأن المرء لا ينال سعادة الدارين إلا بالعلم والدين، فالدين يحرره من ربة العبودية والركون لسوى الخالق الأحد، والعلم يرشده إلى التمييز والمعرفة بين الصالح والفساد، والقيام بمسؤولية ربانية والدور الجوهري الذي ينبغي أن يشتغل الإنسان ويعمر فيه الوقت استعمار في الأرض والقيام بمسؤولية الاستخلاف في الأرض، ولتحقيق هذا الهدف النبيل أعد الشيخ جيلا مثاليا وقدوة ونخبة صفوة مسلحة ومزودا بالعلم الصحيح للشريعة الإسلامية والسنة الشريفة. "أسس الشيخ زاويته أو مدرسته على مبدأ أنه إذا انتهى من تعليم أحد - من - أتباعه يأمره بالعودة إلى أهله أو إلى محلّ يفتقر سكانه إلى من يعلمهم القرآن الكريم والثقافة الإسلامية، من تعليم الناس ما حصل عليه من العلم"².

سواء في القرى والأمصار والمدن الحضرية لمواجهة هذا الواقع المتردي الذي جرّه المستعمر الغاشم بفرض ثقافته مستعملا وسيلة التعليم من جانب و وسيلة الترغيب بمنح سكان بعض المدن حق التمتع بالجنسية الفرنسية، هذا بقدر كما استعمل أسلوب التهيب بفرض قيود مشددة أمام معلمي القرآن الكريم من ناحية أخرى، ففي السنغال فقد أحكم الاستعمار سيطرته على المدن الحضرية الأساسية، وأقام مدارس، ووضع نظام تعليمه وقرّر مناهجه الدراسية، وأثرفي البنية الاجتماعية حيث بنى مدرسة في تليميديبموريثانيا، وأخرى بمدينة سنلوى في السنغال لتعليم وتكوين أبناء الطبقة الأرستقراطية من أجل كسب موالاتهم وتعاطفهم معه، واستخدمهم لتنفيذ مشروعه

¹ - عثمانجا، المرجع نفسه، ص 178

² - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطالبة التجانيينالتواونيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية

التوسعي¹، ولكن الشيخ يبطل ويدراً الخطة التي دبرها الاستعمار بهمة عالية وعزيمة سبابة بتنمية الوعي الديني والوطني لأتباعه، مناضلاً باللسان والقلم، حتى تفتقت وانشرحت له قلوب طالما كانت مسدودة، رافضاً أسلوب المواجهة العسكرية، كالجهاد لترحيل الاستعمار، لقد قرر واختار الشيخ هذا الرأي، واتخذ هذا الموقف في ذلك العصر لمعرفته أحوال الناس ومتطلبات الوقت². ولاغرو في ذلك، فهو شيخ صوفي، يعرف كيف يسير ويدير أوقاته ويوظف طاقاته، ويقال بالمثل الصوفي بأن "الصوفي ابن وقته". ها هو نجله، خليفته الأول، الشيخ أبوبكرسه المشهور باسم (الشيخ الخليفة) الذي قد نظم قصيدة طويلة لتقريظ مؤلف والده الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنهم، القيم الجم الفوائد (خلاص الذهب في سيرة خير العرب "منوها على غزارة العلم والثقافة الموسوعية ويصف الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنهما، - بأنه بحر خضم، ولايطاول مداه ولايجارى في الفنون والعلوم النقلية والعقلية الشرعية منها واللغوية. والقصيدة رائية، من بحر الطويل، ونورد منها هذا البيت الآتبع لما بأن قدرا كبيرا منها سيذكر محلها خلال هذه الدراسة، فقال:

وكل فن لسان الحال قال له ألق العصا تلق من تيسير ما عسرا³
ومن ناحية ثانية، فقد استعرض نجله وخليفته الثاني الحاج منصور سي رضي الله عنه، الشاعر فحل ويصوغ لنا شعرا يدون ويصف فيها أخلاق والده الشيخ الحاج مالك سي رضي الله عنهم الفاضلة الرفيعة، وشيمه السامية ونفسه الأبية، وقيامه بمجهودات فكرية مضنية، أبلاها بلاء حسنا، ويذكر الخصائص الروحية التي اتسم بها الشيخ، والرصيد العلمي الزاخر الذي قد تبحر به، ويمدحه مقررًا بأن الله عز وجل قد وفق الشيخ لحاج مالك سه، هياً له شروط النصر لإلحاق هزيمة على جيوش البدع، والدحض، والزعزعة والدك على أركانها من هارة، وحطم أعلامها منتكسة، حيث عدد مجموعة هذه الصفات الحميدة، من خلال قصيدة أخرى وصف الشيخ الحاج محمد المنصور سه نفسه، مشيراً إلى أن الشيخ الحاج مالك سه والده وشيخه المربي كان طبيياً عالماً، خبيراً، ذا موهبة في معرفة علل النفوس وأمراضها، وبالتالي فهو قادر على

¹ - الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي،

إيسيسكو، 1432هـ/2011م، ص33

² - عثمان جا، المرجع السابق، ص176

³ - أبوبكرسه، ديوان، مخطوط، في زاوية مدينة تيووان، السنغال.

إزاحتها وعلاجها ومداوتها، وأنه يهدي النفوس التائهة إلى برّ الأمان، ويروي الأرواح المتعطشة بماء الوصال والوقوف إلى عتبة الحضرة الربانية لمعرفة الله تعالى ومحبتة، وأن الشيخ كان يقوم خير قيام على ساق الجدّ لهداية ورياضة النفوس البائسة الضائعة الضالة، قابضاً بزمام سيرها، حتى تبلغ سفينتها راسية على شاطئ الأمن والسلام والنجاة من الردى، بقوله:

رضت النفوس لدين الله تربية إبليس ما ابتستمت منه
وقدامتدحه خليفته الأول - الذي مر ذكره سلفاً - الشيخ أبوبكر سي رضي الله عنه في مواطن عديدة، مقرراً بأن الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، لاغنى عنه من وجوده في هذه البلاد وفي هذا الزمان، بقصيدة نونية من بحر الكامل:

لولا وجودك في الزمان أماتنا ظمأ الوصال وكثرة الجولان¹
يقول الدكتور عامر صمب: "الحاج مالك سي أنار الله لنا بيننا بنور شمسه الذي نشر التجانية في السنغال، وبنى زاويته في تيواون..... هي الزاوية الكبرى لمن تبع طريقة الحاج مالك سي من التجانيين"². ويفهم من سياق هذا النص بأن الشيخ الحاج مالك أحى معالم الإسلام في هذا القطر الغربي الإفريقي عموماً وربوع السنغال خصوصاً، هذا في الزمن الذي قد تعرض فيها الإسلام للطمس، والهجمة والإساءة. وقد جاء الشيخ الحاج مالك سه معلماً، ومربياً داعياً، ومصلحاً وأعاد للإسلام حيويته وللطريقة التجانية نشاطه. وقد وضّح الدكتور عثمان جابأن كثيراً من الأوساط العلمية تقوم بدراسة أبحاث عديدة وتعدّد ندوات ولقاءات علمية لإبراز أهمية ومكانة ودور هذه الزاوية التجانية بقوله: "وليس اهتمام الدارسين والباحثين في الثقافة العربية الإسلامية وفي الطرق الصوفية بالسنغال، بهذه الزاوية قديماً وحديثاً سوى مظهر من مظاهر نفوذها وحضورها في إسلام هذا البلد الإفريقي وفي ثقافته الإسلامية الروحية، فالدراسات المنجزة حولها بالفرنسية والعربية قديماً وحديثاً كثيرة كثيرة تخيل للمرء إلى الأسباب أن التجانية كلها ملك لتيواون، وإن وجدت مراكز تجانية أخرى في البلاد."³ وأثبت أيضاً عامر صمب هذه الحقيقة الواقعة في كتابه: "بأن مدينة تيواون من أهم مراكز الثقافة التي

¹ - الشيخ أبوبكر سه، المرجع السابق.

² - عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م،

ص35

³ - عثمان جا، المرجع نفسه، ص171

قد سار بصيتها الركبان إلى ما جاوز حدود السنغال من البلدان وقد علا بها الحاج ملك سي إلى مادون الثريا قبل مائة عام تقريبا، وهي ما اقترن الإسلام والأدب بالسنغال.....الذي نشر الطريقة التجانية في السنغال، في الحقيقة، إذ لم يبق أثر ذوبال عن الشيوخ المجاهدين مثل الحاج عمر وأحمد شيخو ومابه جخ من جهة النفوذ الصوفي"¹

يشير عامر صمب في رسالته إلى ما حققه الحاج مالك سي من جلائل الأعمال وفي مجالات عديدة من نشر الإسلام، ورفع شأن الطريقة التجانية، وبالتالي إعادة روح الحيوية والنشاط للتصوف، وفي مجال العلم والأدب الإبداع في فن الشعر، وفي ميدان الاجتماع سعى جاهدا لتغيير الواقع السيئ والردى الذي قد جثم على صدر المجتمع، وأنهاك قواه، وعلى الرغم من تعدد هذه الجبهات وحدة الأزمات، وقلة العدد والعتاد لم يمل الشيخ لم ييأس ولم يتوان، بل أصر وبقي صامدا حاملا ورافعا للإسلام ولثقافته العربية الراهية عالية خفاقة، ومتوكلا على الله واثقا بنفسه على أنه سيكون حليف النصر، فواصل السير على الدرب لتحقيق مهمته.

ولم يتراجع قيد أنملة عن موقفه الشريف، ولم يتوان بسبب تراكم العقبات التي كانت تعترض سبيله، فقد توكل على الله تعالى، متوشحا برداء من الصبر والمثابرة، راضيا بقضاء الله وقدره، وملتصبا رحمته ولطفه الخفي، فقال متوسلا إلى الله تعالى:

أشكو إلى الله حاجا ليس سواك ياربنا يا الله

ورضني بالقضا رب مصبرني على بلائك يا رحمان

وما السفينة ترجى غير عظمى العميمة كلّ الخلق يا

وهكذا كان يسعى الشيخ للوصول إلى الغاية التي ترنو وإليه عينه ويصبو إليه، وهو تجديد أمر الدين الإسلامي، والإصلاح، وإعلاء الطريقة التجانية باعتبارها ونظيراتها من الطرق الصوفية كلها قلاعا وحصون تمنع الإسلام وتحميه من الهجمات والمساس لمحارمه. فقال رضي الله موضحا وحدة الهدف لجميع الطرق:

والطرق كلها إلى الرحمان مسلكة موصلة يا جان²

¹ - عامر صمب، المرجع السابق، ج1، ص35

² - الشيخ الحاج مالك سه، ديوان، بزوايته، تاون، السنغال

يقول عثمان جا: "ولقد استطاع الشيخ الحاج مالك سه أن ينفخ في التجانية روحاً جديدة ويمنحها دينامكية حية بعدما عرفت نوعاً من الركود والبرودة نتيجة موت زعيمها الكبير الحاج عمرا لفوتي، وبعض خلفائه الذي حملوا السبحة التجانية لنشرها لأنهم اصطدموا بالقوة الاستعمارية المتحالفة مع الوثنية...."¹

ما هي عند الحرية عند الشيخ الحاج مالك سه؟

فالشيخ الحاج مالك سي هو عاش ناشراً للطريقة التجانية في السنغال وفي غرب إفريقيا، وقد اعتنى بنشاطه التربوي على إعداد الإنسان حراسوياً مستقيماً، باعتباره أن الإنسان هو العنصري الأساسي و الجوهرى الذى يبنى ويصنع الحضارة، ويكون قادراً بأداء دور المستخلف في الأرض والمستعمر فيها، ولا يتأتى ذلك إلا عن طريق العلم، واتباع الدين الحنيف فقال الشيخ الحاج مالك رضي الله ملتسماً من الله جل وعلا أن يجعله عبداً حراً في كافة النواحي، بحيث لا يتعلق قلبه في أية حالة من الحالتين رغبة ورهبة ولا ينساق إلى أي مخلوق، بل ينقاد لله وحده فقال:

ألاهمتي فاجعل إلهي عليّ لأن صرت حراً خالصاً كل وجهتي

لقد مر الشيخ بمراحل عديدة لتنفيذ مشروعه الإصلاحى، ولتحقيق طموحاته المرتكزة على التعليم والتربية. وأهم الأطوار من الزمن التي مرّ بها الشيخ هي مرحلة أومدرسة قريّة انجاردندé Ndiardé ويلاحظ بأن جل الذين لازموا الشيخ فيها كانوا علماء متبحرين في فنون كثيرة، وقبل لقائهم بالشيخ كانوا أرباب مناصب ومسؤوليات دينية عالية، فمنهم مثلاً من هم حملة القرآن الكريم، أئمة أو قضاة وإلى غير ذلك. فالنمط التدريسي الذي كان يزاوله الشيخ في هذه المدرسة الأنجاردية كانت بمثابة دروس أكاديمية، بحكم طبيعة الناس الموجودين فيها، أصحاب مستوى رفيع، وذوي مستويات وكفاءات عالية³.

ويرجع سبب تقاطر هذا الوفد إلى الشيخ في انجاردلما تلقونه إثر عودته من الحج، بأنه قام مدرسة شعبية للتعليم والتربية، فتبادروا إلى قرية انجاردللاستزادة والاستفادة من زلال مائه المعين الثر. وأما المرحلة الثانية ومن ميزاتها وسماتها أن الجماعة من

¹ - عثمان جا، المرجع نفسه، ص 171

² - الحاج مالك سه، المرجع نفسه.

³ - عثمان جا، المرجع السابق، ص 183

العلماء والطلبة الذين صحبوا الشيخ في زاويته (تياوان) يختلفون عن أولئك السابقين في قرية انجار، والفارق بينهما أن الدراسة التياوانية دون الدراسة الأنجارية في المستوى والدرجة، وبالتالي فإن التعليم في زاوية تياوان كان مفتوحاً أمام الجميع، بغض النظر عن المراتب العلمية والمستويات الثقافية، ومن هنا يظهر أن الدرجات فيها متفاوتة، ولهذا كانت الدراسة في مرحلة تياوان تهتم وتراعي الفوارق الفردية¹. وقد صنف الشيخ الدراسة جملة طلابه في زاوية تياوان، -لدى نزوله فيها- إلى فئات وقسم أطوار التعليم إلى مراحل عديدة حيثينجم عن ذلك وجود عدد من الحلقات والمجالس، بعضها يستقبل فيها التلاميذ المبتدئون لتحفيظ القرآن الكريم، والبعض الآخر يخص لذوي المستويات المتوسطة، والفئة الثالثة للمتفوقين، وكان الشيخ يدرس كل تلميذ على حدة، ثم يسند تعليم ذوي المستوى الأدنى إلى من هم فوقهم من في الزاوية².

قائمة المصادر والمراجع

العربية:

- 1 - الدكتور عثمان جاه، التجانية في الأدب السنغالي العربي، ط1، مطبعة أرمتان، 2017م
- 2- بول مارتي Paul Marty، بحث عن الإسلام في السنغال
- 3- محمد السعيدبا، نيل الأرب من خلاص الذهب، شرح خلاص الذهب في سيرة خير العرب، ج1، طبعة الثالثة، مركز النجاشي العلمي، بفاس قناس، السنغال 2012م
- 4 - شخصية الشيخ الحاج مالك سه رضي الله عنه، دراسة تحليلية نقدية، بحث للطلبة التجانيين التياوانيين بمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة، بالرباط، المملكة المغربية.
- 5 -مقالة حول مدينة تياوان، السنغال، الموقع www.aljazeera.net
- 6- مقابلة صحفية، سيدي أحمد سه الأمين، الموقع www.alaraby.co.uk
- 7 -الحاج محمد المنصوره، ديوان مخطط
- 8 -محمد ولد محم، العلاقات السنغالية الموريتانية، عبر الشيخ الحاج مالك سه (مدرسة تياوان) بالعلويين، بحث مقدم لنيل شهادة الدراسات المعمقة، قسم اللغة العربية، جامعة شيخ أنت جوب، دكار، السنة 2002/2003م

¹-الطلبة التجانيينالتياوانيين، المرجع السابق، ص37.

²- الطلبة التجانيين التياوانيين، المرجع نفسه، ص37

9 -الدكتور عمران كبا، الشعر العربي في الغرب الإفريقي، خلال القرن العشرين الميلادي، إيسيسكو، 1432هـ/2011م.

10 - الشيخ أبوبكر الخليفة، ديوان مخطوط بزاوية تيواون، السنغال

11 - الشيخ الحاج منصور سه، الأول، ديوان مخطوط، بزاوية تيواون، السنغال

12-الدكتور عامر صمب، الأدب السنغالي العربي، ج1، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م

13 -الشيخ الحاج مالك سه، ديوان مطبوع، بزايته، تيواون، السنغال.

المراجع الأجنبية:

14/ Atoumane Ndiaye Doumbia, (Tivaouane en image: L’histoire de la ville depuis 1886), Maguilien, 2011.

15/ M.CHAILLEY ET Autres, Notes et études sur l’islam en Afrique noire, Université de Paris

سيمائية الأهواء

{هوى الغيرة أنموذجاً}

الشيخ أحمد شنان

طالب دكتوراه: مكونة اللغة العربية

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

مقدمة:

أنتج تلاحق الأفكار في الساحة النقدية جملة من المناهج التي فرضت نفسها على الكاتب العربي، والتي استطاعت برمجة الشعر العربي، وانتظامه في مناهجها المتعددة، ومن أهمها المنهج السيميائي، الذي شغل كثيراً من النقاد على الصعيدين النظري والتطبيقي. ورغم تجذر هذا المذهب في الثقافة الغربية فإن له أصلاً في الثقافة العربية، فقد حوت المعاجم اللغوية والثقافة الإسلامية لفظ "السيمياء"، بمعنى علم العلامات، الذي سأل به الحبر وامتألت به المراجع وشغل الباحثين وتعددت فيه الآراء وتباينت، كما شغل الساحة النقدية وأصبح محل نقاش.

أدت هذه البحوث السيميائية إلى تطور ملحوظ في المنهج السيميائي، تمخض عنها منبرج مهم وهو الجانب النفسي، ومحاولة سبر أغواره، وتنظيم أحاسيسه وأفكاره، مما ولد بحوثاً مهمة استفادت منها النصوص الأدبية، والتي من أهمها: {سيمائية الأهواء}. يصنف الباحثون سيميائية الأهواء، بأنها من أهم المباحث التي اهتم بها البحث السيميائي، ذلك أن جانب الأهواء مضمر وغير مباشر، لأنها معاني مشفرة تساهم في إثراء الخيال العاطفي، وقد عرفت السيميائيات بهذا الجانب تحولا من العمل إلى الهوى، مما "فرض آليات جديدة داخل النظرية حيث كانت حصيلتها إعادة الاعتبار إلى المكون التلفظي، والمكون الهوي، والمكون التوتري بالنسبة للذات"¹.

المفاهيم الإجرائية لسيمائية الأهواء:

لا تتسع المسافة الفاصلة بين سيميائية الأهواء عن مصدرها الأصلي ومنبعها الفكري، وقلبها النابض وهو سيميائية العمل، فشكلت مفاهيم تكشف عن مكونات الذات، ومن أهم هذه المفاهيم ما يلي:

¹ محمد بادي، سيميائية مدرسة باريس، ص: 289

1- الاستهواء:

يعتبر الاستهواء المقولة المركزية في البناء النظري لسيميائية الأهواء، ذلك أنه "المادة التي تتشكل منها الأهواء، وبدون هذه الأهواء لا يمكن الحديث عن أهواء، ... فهو القوة الانفعالية الكامنة التي يستند إليها خطاب الأهواء لرسم معالمه"¹ إنه حالة الوعي الإنساني، ويقوم على مكونين الصالح والطالح² "بتوجيه الحركة بحيث يشكلان حالة استقطاب"³ فحالة التجاذب بين الصالح والطالح يتشكل منها عامل يسمى الاستهواء الذي يساعد في محاولة الإمساك بالشروط القبلية للدلالة التي يتوقف عليها توليد كينونة المعنى.

ويقوم هذا الاستهواء على تجاذب الشعر العربي بين العواطف النفسية التي تلبس بها النص الشعري، وبين المدونة الأخلاقية للمجتمع، فولد ذلك حالات متباينة عند الذات لتشكل تجاذبا نفسيا يمد الذات بانفعال وأحاسيس تطغى على النص فتشكلت بذلك النظرية الهويوية في النصوص، فنجد أن القوة الانفعالية التي تحلى بها النص الغزلي، وتلك المأساة التي تلبس بها الرثاء، وذلك الطمع الذي يخفي وراء الكلمات في المدح ليست سوى مرآة تعكس الاستهواء الهوي في النص الشعري.

وفي عملية تفكيك هوى الغيرة نجد أن شعور الذات بالتهديد، وإحساسها بالعداء تجاه المنافسين يشكل مرحلة الاستهواء، لأن الذات تتصفح حينها بانفعال يتضمن الشعور بالألم النفسي، فالغيرة: انفعال فطري عند الإنسان، والغيور يشعر بإحساس ضد من ينافسه وهو الغريم، مما يجعل الذات تعيش حالة تفكير وعتاب وتأنيب، كما تخشى من فقد الموضوع الأساسي، وهو هوى الحب، ومن ذلك قول الشاعر:

أصابك عشق أم رميت بأسهم	فما هذه إلا سجية مغرم
أصابك سهم أم رميت بنظرة	فما هذه إلا خطيئة من رمي
فدع عنك ليلى العامرية إنني	أغار عليها من فم المتكلم
أغار عليها من أبيها وأمها	إذا حدثاها في الكلام المغمغم
أغار عليها من أخيها وأختها	ومن خطوة المسواك إن دار الفم الفم

¹ غريماس، فونتنتيني، سيميائية الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات نفس، ص: 31.

² الصالح والطالح: ينبثقان عن الاستهواء باعتبارهما الشكّلين الأولين المسؤولين عن استقطاب الهوي، وهما يستوعبان حداً بحد كل الحالات الإيجابية من جهة (صالح)، والسلبية من جهة (طالح).

³ غريماس: سيميائية الأهواء، ص: 30.

أغار على أعطافها من ثيابها إذا ألبستها فوق جسم منعم¹
فالقوة العاملة التي تمثل الاستهواء في هذه الأبيات هي شعور الغيور بعداء المنافسين، إلا أن
هوى الغيرة في هذا النص يتشكل من استهواء مبني على حالة إيجابية تمثل الصالح، وهي
مبالغته في الغيرة من العوامل التالية: (أبيها - أمها - أخيها - أختها - المسواك - ثيابها)، أما
الحالة السلبية التي تمثل الطالح، فهي: طغيان الغيرة عند الذات، وارتفاع حالة الخوف، باتهام
العوامل الصديقة، مما يعد تقليصا لمساحة الحرية، والعلاقة الإنسانية، وتشكلت هذه الثنائية
(الصالح - الطالح) حالة انفعال خفي تشكل من خلاله الاستهواء الهووي، وهوى الغيرة في
الشعر العربي يتضمن هوى الحب، من ذلك: (أصاب عشق - سجية مغرم - رميت بنظرة - جسم
منعم)، وإذا تمعنا في دلالة كلمة: (أغار)، نجد أنها تطوي في ثناياها استمرار الهوى، وارتفاع
درجة الانفعال الصادر من العوامل الثلاثة: الغريم، الغيور، المنافس.

2- التوتير:

يعد مفهوم التوتير مفهوما يرتبط بالاستهواء، إلا أنه يعرف بكونه: "مشيرا إلى التوجه المنبثق
من حقل التوترات المحسوسة، فهو الرغبة التي تتصف بها الذات أثناء توجيهها لموضوع ما،
فهو إذن "البدايات الأولى التي تقوم عليها أشكال التركيب المسؤولة عن تشكل الأهواء في
انفصال عن الاستهواء، واستنادا إليه في الوقت ذاته، فهو الممر الضروري لولادة التكييفات
(أرغب في ... أعرف ... أستطيع)، فهي الصيغ الأساسية التي تحدد علاقة الذات بعالمها، فتكون
بذلك حركة مكملية للانفعال"²

فالتوتير بهذا المعنى هو المجسد للعلاقة بين العالم والذات، فالرغبة في الشيء تتطلب السعي في
تحصيله، والحصول عليه يتطلب موافقة العالم لتحقيق رغبة الذات، فهو جسر رابط يؤدي إلى
ولادة كل رغبة أو فعل، ومقياس للحكم على العلاقة بين الذات والعالم.
وتمثل رغبة الذات المتكلمة في الشعر العربي مسار توتريا، فالهزاء يحمل رغبة تحقق الغضب
عند المتلقي، فيتلون النص بانفعال توتري، يؤدي إلى تحقق الغاية التي هي التأثير على المتلقي،
تلك هي القيمة الأساسية التي يسعى النص الهجائي إلى تحقيقها، وبوجود التوتير يكون الاستهواء
قابلا للتحقق، بالاعتماد على الجسد الذي هو مرآة الاستهواء، ومما يمثل التوتير في الشعر
العربي، المنطلق من هوى الغيرة قول امرئ القيس:

¹تنسب هذه الأبيات ليزيد بن معاوية، وإن كان أغلب المصدر لا يذكر قائلها.

²مليزة عطا الله، سيميائية الأهواء في رواية 2084 حكاية العربي الأخير "لوسيني الأعرج"، ص: 40

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل¹

منعمة لا يستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب²

فكنية النساء، وعدم التصريح بأسمائهن دلالة على إضمار هوى الغيرة، سواء اتصفت الذات المتكلمة بالحب والعشق، أم أنها اتصفت بالدفاع عن الحريم في جالة ما إذا كان الموضوع أمًا أو أختًا، فالرغبة التي يمثلها التوتير تحققت في هذين البيتين من خلال التكتم على الاسم لفرط القوة الانفعالية لدى الذات مما يعكس هوى الغيرة، نجد ذلك في: (بيضة خدر-منعمة)، فكلاهما وصف يعبر عن انفعال ذي شحنة توترية، ومما يمثل التوتير الهوي قول الشاعر أبي تمام:

بنفسي من أغار عليه مني وأحسد مقلّة نظرت إليه

ولو أنني قدرت طمست عنه عيون الناس من حذري عليه

حبیب بث في جسمي هواه وأمسك مهجتي رهنا لديه

فروحي عنده والجسم خال بلا روح وقلبي في يديه

تمثل أبيات أبي تمام علاقة الذات بالعالم من جهة (مقلّة - عيون الناس) وتعبيرها عن النفس: (نفسي - قدرت - طمست - حذري - جسمي - مهجتي - روحي - قلبي)، فيتجسد التوتير من خلال رغبة الذات في السيطرة على تصرفات الآخرين، كما توضح إحساس الذات بالغيرة، واتصافها بالحب والشوق، فكلمة "أغار" تحمل الشحنة الانفعالية التي يتلون بها التوتير، باعتباره التوجه المنبثق عن التوترات المحسوسة، والتعبير عن هذه التوترات لا يكتمل بدون وصف للغريم، والحديث عن درجة العشق عند الغيور.

إن سيميائية الأهواء بميلها إلى العواطف والأحاسيس، تأخذ على عاتقها توضيح المعنى وتوليد المعاني من خلال تلاقح بين الفعل والعاطفة، فالجمع بينهما يعطينا انفعالا يمثلته الشعر العربي عموما، لأنه مكنم الشعور والإحساس، فالغيرة التي نسعى إلى توضيحها في الشعر العربي من خلال سيميائية الأهواء تكمن في عواطف الغيور لأنه يتصور أن عليه حماية الموضوع، والدفاع عنه، ذلك ما جعله يبالغ في العداء حتى تجاوز حدود القرابة الضيقة، كما تكمن الغيرة في الغريم، باعتباره عدوا يريد الظفر بمحبوب الغير، أما الطرف الثالث فهو الموضوع والعنصر الذي يدور حوله المعنى، وتتقد عاطفة الغيور حبا له وشفقة عليه، وسعيا في المحافظة عليه، فهذه العوامل مجتمعة هي التي جعلت من هوى الغيرة مبحثا سيميائيا فرضته نظرية الأهواء

¹ديوان امرئ القيس، ص: 44

²ديوان علقمة بن عبده، ص: 62

على المباحث النقدية الحديثة، ففيها تقطن العاطفة مزودة بالانفعال والإحساس، فتلون بها المعنى في الشعر العربي، فعبّرت عنه النصوص، وتشكلت منه الأهواء رغم اختلاف الأفكار، وتعدد الأذواق حتى أصبح التوتر السيميائي ظاهر التجلي بحركات الجسم.

3- المآل / المصير:

إن انتقال الذات المتكلمة من مرحلة الاستهواء ومرحلة التوتر يتولد عنهما تجسيد للمعاني وبناء صرحها وتوثيقها خلال الجمل والكلمات، ذلك ما يعنيه المآل في المفهوم السيميائي الهوي في إحدى جوانبه، أما الجانب الخفي لمرحلة المآل فيتمثل في العوامل المضادة التي تمتد الذات بالمعاني، فالنص في بنيته المعنوية ينتقل من مرحلة الشوق والحب والتعلق، وتأثير العالم إلى مرحلة المصير فيجسد تلك الانفعالات ويؤرخ تلك العواطف، لأن الرغبة الحاصلة للذات اتجاه ذات أخرى، تتطلب منها استجابة تؤدي إلى المآل، فغرض الغزل انتقل من مرحلة الرضى، إلى مرحلة الحب، ثم إلى الحنين والشوق، ليتحقق المآل من خلال اللقاء أو ينعدم، ويعد هذا المفهوم مهما لأنه يحدد الرغبة والاستطاعة أو ينفيهما، ولذا يسمى تارة بالمصير.

فالمآل إذن تجسد في الشعر العربي من خلال الأطوار التي مر بها قبل الولادة، ويحيل ذهنياً إلى الأطوار اللاحقة، "فالوليد مثلاً لا ينظر إليه كذلك إلا من خلال إسقاط حالات مستقبلية، تضم الصبا، والشباب، والكهولة، والشيخوخة"، ذلك ما فرض على بعض النقاد تسميته بالمآل، فهو مادة الهوى وامتداده، ويمثل الحديث عنه وصف الهوى في مرحلة ما قبل النص.

وبما أن المنهج السيميائي منهج نصي لا ينظر إلى العالم إلا من خلال النصوص، فإنه بهذه النظرية لا يخرج عن منطلقه بقدر ما يبحث عن التأثير الخارجي في البناء النصي، كما أنه من خلال ذلك يمثل الصراع الحاصل بين الذات والعالم الخارجي من جهة، وتتمسك من خلاله سيميائية الأهواء بسيميائية الفعل التي ترى أن المعنى ليس سوى حصيلة التغيرات التي يمر بها قبل التجسيد الفعلي.

إن انفعال الذات وغيبتها على المحبوبة، وتحمل الدفاع عنها، يجر الغيور إلى الحب المستمر حتى ولو تزوجت المحبوبة، واتخذت غيره قريناً ذلك ما يمثله ذو الرمة بقوله:

بكى زوج مى أن أنيخت قلائص	إلى بيت مى آخر الليل طلح
فمت كمدا يا بعل مى فإنها	قلوب لمى أمنوا الغيب نصح
فلو تركوها والخيار تخيرت	فما مثل مى عند مثلك يصلح

¹سهيلة بعزیز، سيميائية الأهواء في رواية "شوق الدرويش" لمحمود زيادة، ص: 79

أبيت على مي حزيناً، وبعلمها يبيت على مثل النقا يتبطح¹ تجاوزت الذات الاستهواء والتوتير لتصل إلى مرحلة المأل التي أدت إلى البكاء الذي يعد العلامة السيميائية الفعلية للاستهواء، (بكى - كمدا - حزيناً)، يعطي هذا النص صورتين الأولى: حالة نفسية لزوج مي، فيصور غيرته عليها، وحمايته له، فهذه صورة أولى في هوى الغيرة، أما الثانية: فهي حالة الذات الثانية التي تظهر غيرتها من خلال حسد الذات الأولى: (فمت كمدا - تخيرت - عند مثلك يصلح)، فتلونت الذات في النص بالحسرة باستحضار المنافس، مما ولد هوى الكمد، وهوى الحزن، فوقفت الذات عاجزة عن تغيير الواقع، إن الغيرة بمفهومها السيميائي تمثل الصراع القائم بين الذات مما جعلها تحمل كثيراً من الأهواء تتصف بها الذات لتتشكل من خلال ذلك كله الغيرة.

4- النظرير:

اقتبست نظرية الأهواء هذا المصطلح من الكيمياء ويعني عندها عدد الذرات المضافة إلى تركيبة الجسم، ويمكن أن نعتبره قيمة للجسم تشكل من خلالها، ذلك ما جعله مؤدياً للمعنى الذي يريد منه السيميائيون حين أخذوه للتعبير عن "المحددات الانفعالية التي يفرضها الموضوع"² ويمثل النظرير (قيمة القيمة)، وتمثل أغلب المراجع لهذا الإجراء بالمنزل حيث "يدل على قيمتين: قيمة مادية وهي ثمن المنزل، هذا بالنسبة للمعنى السطحي، وقيمة معنوية تتجلى في الذكريات التي مر بها المنزل،³ والتي يبعثها الطلل والرسم في الشعر العربي، فالنظرير بهذا المثال يعني تلك الانفعالات التي يحددها موضوع ما، فمن خلالها تكتسب الأهواء قيمتها ومكانتها داخل موضوع محدد. ويعتبر الشعر العربي حاوياً لذكريات الذات وباعثاً لها في معجمه اللفظي، ومضمونه المعنوي، فالرسم والطلل يبعثان توتراً وانفعالا يكتسب به النص شحنة انفعالية تسعى سيميائية الأهواء إلى إيضاحها،

سَقَى دَارَهَا مُسْتَمَطِرٌ ذُو غَفَارَةٍ
هَزِيمٌ كَانَ الْبُلُقَ مَجْنُونَةً بِهِ
إِذَا مَا اسْتَدْرَتْهُ الصَّبَا أَوْ تَذَاعَبَتْ
وَأِنْ فَارَقَتْهُ فُرْقُ الْمَزْنَشَايَعَتْ
عَدَا النَّأْيَ عَنْ صَيْدَاءَ حِينًا وَقُرْبَهَا
أَجَشٌ تَحَرَّى مُنْشَأً الْعَيْنِ رَائِحُ
يَحَامِينُ أَمَهَارًا فَهَنْ رَوَامِحُ
يَمَانِيَةَ تَمَرِي الذَّهَابَ الْمَنَائِحُ
بِهِمْ رَجَنَاتُ الْغَمَامِ الدَّوَالِحُ
إِلَيْنَا وَلَكِنْ مَا إِلَى ذَاكَ رَابِحُ

¹ديوانذي الرمة، ص: 47

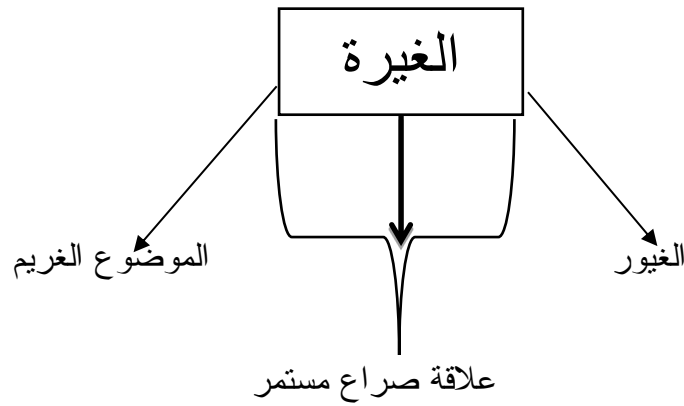
²غريماس/ سيميائية الأهواء، ص: 32-33

³سهيلة عزيز، سيميائية الأهواء، في رواية "شوق الدرويش"، ص: 126

سَوَاءٌ عَلَيْكَ الْيَوْمَ أَنْصَاعَتِ النَّوَى بِصَيْدَاءَ أَمْ أَنْحَى لَكَ السَّيْفَ ذَابِحُ

أَلَا طَالَ مَا سُوتُ الْغَيُورَ وَبَرَّحْتُ بِي الْأَعْيُنُ النُّجْلُ الْمِرَاضُ الصَّحَائِحُ¹

يحمل معجم الطلل في هذا النص معناه العميق من خلال هيجان الحب والشوق لدى الذات، فهي قيمة يبرزها التنظير في سيميائية الأهواء، كما أن معجم رحلة الحب يحمل أيقونات دالة على مستوى الهوى المؤدي إلى الغيرة، من ذلك: (دارها - البلق)، ومعجم الصوت: (هزيم- أجش- المرجحنة)، فهذه المفردات تشكل مجتمعة المعنى السيميائي، فعبرت الذات بعد وصف الطبيعة، وكرم الخيل، والتغلب على بعد المسافة بارتفاع الانفعال، عن هوى الغيرة لكونه خلاصة القول، مما يجعلنا نستنتج علاقات وأبعاد استهوائية يتصف بها الغيور ومنها: الريبة- القلق- والخوف- مما ينعكس سلباً على رغبة المحبوب، فيؤدي ذلك لفقد السيطرة على الموضوع. وما سبق يمكن أن نعمل خطاطة توضح أركان هوى الغيرة، والعلاقة بين عوامله:



إن الغيرة من خلال ما سبق تعد -وفق تصور غريماس وفونتاني- هوى بيذاتي مكملًا لهوى البخل، يتشكل هوى الغيرة من خلال أركانه الثلاثة. ونتحقق سيميائية الأهواء في التنظير الأدبي عموماً من خلال المسار العاطفي الذي يكشف عن واقعية الهوى وخاصة في هوى الغيرة، وسنبرز في الأسطر اللاحقة تجليات المسار العاطفي في الشعر العربي ذي المضمون الهووي.

1- اليقظة العاطفية:

تمثل هذه المرحلة من المسار العاطفي الحالة النفسية التي يتصف بها العامل عموماً، وخاصة الغيور، فالتوتر البطيء نتيجة حالة يأس أو إحباط، يدل على الدخول في هذه الحالة العاطفية،

¹ديوان ذي الرمة، ص: 53

ونوع التوتر الذي يميزها هو: شدة ضعيفة وانتشار كبير في الزمن¹ ومما يدل على الوعي العاطفي ذي الغيرة الهווية قول امرئ القيس:

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى
كذبت لقد أصبي على المرء عرسه
إلى أن يقول:

فأصبحت معشوقا وأصبح بعلمها
يغط غطيظ البكر شد خناقه
أيقتلني والمشرقي مضاجعي
وليس بذى رمح فيقتلني به
أيقتلني أنى شغفت فؤادهما
وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها
وماذا عليه أن ذكرت أو انسا

إن اليقظية العاطفية باعتبارها - كما عرفها فونتاني - هي: "تلك اللحظة التي يتم فيها التحول العاطفي"، نجد في هذا النص أن الذات باستحضارها للمنافس تبدي شجاعتها وقدرتها على الدفاع، حتى يطمئن الموضوع ويثق في الغيور، (أصبي على المرء عرسه - أ منع عرسي أن يزن بها الخالي - والمرء ليس بقتالي)، هذه التراكيب تبين أهمية التحول الذي تشهده الذات من غيرة إلى قتال ودفاع، مما يمكن وصفه هذه المرحلة بمرحلة الاضطراب النفسي الذي يعتبر من أقوى الانفعالات التي يوصل إليها هوى الغيرة، كما أشار النص إلى سيناريوهات الاعتداء ومعجم القتال في تصور الغيور، ذلك ما يقصده غريماس من الوعي العاطفي، وقد مثله النص فيما يلي: (يغط غطيظ البكر - ليقتلي - بقتال - المشرقي - مسنونة زرق - ليس بذى رمح - سيف - بنبال)، هذا التوتر الذي اتصفت به الذات يمثل الوعي بخطورة الغريم، وكما يجعل المنافسة بيئة الأركان قوية.

2- الاستعداد:

يحدد هذا المفهوم بكونه يحدد نوع العاطفة، فهي اللحظة التي تتشكل فيها العاطفة، بمعنى أن الذات تتخيل مشهدا يصور نوع العاطفة، "ففي حالة الغيرة يوفر الشك للغيور قدرة على تخيل

¹سيمائية الأهواء، ص: 248

²ديوان امرئ القيس، ص: 154

مشهد الخيانة" وكذلك في حالة الخوف والغضب وكل أنواع التيمات الاستهوائية، مما يعني أن الاستعداد درجة انفعالية يتلون بها الغيور، فيخطط بعدها لعملية إنقاذ الموضوع من الغريم، فمن ذلك قول امرئ القيس:

صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست بمقلي خلال ولا قال
كأنني لم أركب جوادا للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروي ولم أقل لخيلي كري كرة بعد إجمال
ولم أشهد الخيل المغيرة بالضحي على هيكل عبل الجزارة جوال
إن العاطفة في النص تظهر قدرة الذات على التصرف الهوى، حين تقصر الهوى والحب على الموضوع، ثم الانتقال من هذه الحالة إلى اتصافها بالقبول فتبرهن قدرتها على المحافظة على الموضوع، (لست بمقلي خلال- ولا قال)، أي لست بمبعوض عند الذات الجموعية، فتتخيل الذات تشكيك الجماعة في هذه القدرة وهذا الاستعداد، فتغرق في الوصف الذاتي، المهارة في ركوب الخيل، ثم التمتع بالنساء والقدرة على جلب عواطفهن، والاستعانة على ذلك بالخمير، ثم يختم النص بالقدرة على الكر والفر وقت الضحي.

يستعين الشاعر بهذه الأوصاف يظهر مشاعره اتجاه المحبوبة، ويلبس ذلك بالقدرة على احتمال الشدائد باقتحام غمرات الدفاع عن الموضوع، فتبني الذات بهذه الأوصاف خيال يؤدي للرعب في خيال الغريم.

3- المحور العاطفي:

عبر غريماس وفونتاني في تنظيرهما لسيميائية الأهواء عن مرحلة الصلة (وصل- فصل) بالمحور العاطفي، الذي تنتقل فيه الذات من حالة إلى أخرى فعليا، وتتلون فيه الغيرة بالاضطراب الذي تسببه بعض الأفعال، مما يربط بين حالة الفعل وحالة النفس، يقول جميل بثينة

أمنُ أجُلْ أنْ عَجْنَا قَلِيلًا ولم نقل لليلي كلاما لا أبالك تكلح
فمت كمدا أو عش ذميما فإنها جيوب لليلي تحفظ الغيب نصح
سلوا الواجدين المخبرين عن الهوى وذو البث أحيانا يبوح فيصرح
فوالله ثم الله إني لصادق لذكرك في قلبي ألد وأملح
من النسوة السود اللواتي أمرتني بصرمك إني من ورائك منفح
من خلال النص يظهر أن المحور العاطفي نتيجة لمرحلة اليقظة ومرحلة الاستعداد، حين تكتسب الذات محركا ومهيجا للانفعالات والأحاسيس، فالذات تتفصل عن الذات الأخرى في سبيل

الحفاظ على الموضوع، وتستمد قواها من اتصالها به، فيكون الهوى يدور بين ثنائية الوصل والفصل ليشل مرحلة الحور العاطفي.

يصور النص الغريم بكيدة فتحاول الذات كبته ورده في نحره، بالعبارات التالية: (كمدا-ذميما- النسوة السود-منفج) كل هذه المفردات الهوية تصور عاطفة الغيور وما يتصف به من شوق وحنين. ومن ذلك قوله أيضا:

بكى بعل ليلى أن رأى القوم عرجوا صدور المطايا وهي في السير جنح
ووالله ما أدري أصرم تريده بشينة أم كانت بذلك تمزح
فتعريج القوم وإتيانهم تعبير عن الغيور وإتيانه للموضوع، فأحدث غيرة لدى الذات، مما يمثله عامل البكاء لكون هذه المرحلة تحمل علامة على درجة الانفعال.

4- التحسيس:

إن التحسيس في المنظور السيميائي هو: "النتيجة التي يمكن أن تلاحظ من خلال الهوى والتوتر، حين يظهر عامل الانفعال على الجسد، وقد مثلت النصوص السابقة كثيرا من هذه الحالات، من ذلك بكاء الغريم، واستعداد الغيور للقتال من أجل الموضوع، وارتفاع الشدة في التوتر عموما.

5- التهذيب:

تسمى هذه المرحلة بمرحلة التقويم العاطفي، فحين تظهر العاطفة لدى الذات، وحين تكون ظاهرة للعيان، تمر بمرحلة التهذيب، ليقرأها المجتمع أو يدحضها، فعاطفة الغيرة مع ظهورها كثيرا في النصوص الشعرية تعرضت للانتقاد حين تكون مفرطة وموغة في الاتهام، كما قبلت في الذائقة البشرية حين تسعى إلى الكرامة والحفاظ على الموضوع.

الخاتمة:

نخلص القول إلى أن سيميائية الأهواء مبحث مهم في الدراسة النقدية الحديثة، فبعد ظهوره مطبقا على السرد أردت أن أقود زمامه إلى الشعر العربي، بغية التجربة المنهجية، ويعد هوى الغيرة من أهم الجوانب التي تدخل في التنطير الهوي، وقد طرق الشعر العربي هوى الغيرة رغم اختلاف عصوره وتعدد انفعال الذات المتكلمة، وتتضمن الغيرة انفعالات وأحاسيس زودت الشعر العربي بجماليات العاطفة، مما سهل على الباحث تطبيق العناصر والتجليات الهوية في الشعر العربي، وقد طرقت سيميائية الأهواء كل عنصر من عناصر الغيرة لتبرز مكن الجمال ودرجة الانفعال، وضرورة الدفاع عن الموضوع (المحبوبة).

المصادر والمراجع:

- 1- ذو الرمة، الديوان، شرح الإمام أبي نصر، الباهلي، تقديم: وتحقيق وتعليق: عبد القدوس أبو صالح، ط2، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، 1982.
- 2- سهيلة بعزيز، سيميائية الأهواء في رواية "شوق الدرويش" لمحمود زيادة"، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، 2017- 2018
- 3- غريماس، فوننتيني، سيميائية الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات لنفس، تر: سعيد بنكراد، ط1، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، 2010
- 4- مليزة عطا الله، سيميائية الأهواء في رواية 2084 حكاية العربي الأخير " لواسيني الأعرج"، رسالة ماجستير، جامعة أكلي محمد أولحاج، البويرة، الجزائر، 2015 - 2016.

النفايات الصلبة ودورها في تلوث مدينة نواكشوط

حنان بنت الشيخ

طالبة دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

تشهد مدينة نواكشوط نمواً ديمغرافياً سريعاً نتيجة الهجرة الداخلية والتوسع العمراني، مما أدى إلى زيادة الاستهلاك وارتفاع كميات النفايات الصلبة المنتجة يومياً. ومع غياب نظام فعال لإدارة النفايات، أصبحت المخلفات تتراكم في الشوارع، الأحياء السكنية، والأسواق، مما أدى إلى تلوث البيئة وانتشار الأمراض.

تسبب هذه النفايات أضراراً صحية خطيرة، حيث تؤدي إلى انتشار الحشرات والقوارض التي تنقل الأمراض مثل الملاريا والتيفوئيد، كما أن حرق المخلفات يطلق غازات سامة تسبب أمراض الجهاز التنفسي. أما من الناحية البيئية، فإن تسرب المواد السامة من القمامة يؤدي إلى تلوث التربة والمياه الجوفية، مما يؤثر سلباً على الزراعة وجودة المياه الصالحة للشرب. واجتماعياً، تسهم النفايات في تشويه المظهر الحضري لنواكشوط، مما يقلل من جودة الحياة ويؤثر على راحة السكان. أما اقتصادياً، فإن تراكم القمامة يؤثر سلباً على قطاعي السياحة والاستثمار، حيث ينفر المستثمرون والسياح من البيئات الملوثة، بالإضافة إلى أن عمليات تنظيف المدينة بشكل غير مستدام تكلف الدولة مبالغ طائلة. ومواجهة هذه التحديات تتطلب إدارة فعالة للنفايات، تعزيز ثقافة التدوير، وزيادة الوعي البيئي لضمان بيئة نظيفة ومستدامة.

كلمات مفاتيح: التلوث، النفايات الصلبة، الأضرار البيئية، المدينة.

مقدمة

تعد مدينة نواكشوط عاصمة موريتانيا وأكبر مدنها، حيث شهدت في العقود الأخيرة نمواً سكانياً متسارعاً بسبب الهجرة الداخلية من الأرياف إلى المدن بحثاً عن فرص العمل والخدمات. هذا التوسع العمراني والزيادة السكانية السريعة أدّى إلى ارتفاع معدل الاستهلاك والإنتاج اليومي للنفايات الصلبة، مما جعل إدارة هذه المخلفات تحدياً بيئياً كبيراً.

مع ضعف البنية التحتية لنظام جمع النفايات، أصبح انتشار القمامة في الشوارع والأحياء السكنية ظاهرة مقلقة، تؤدي إلى تلوث التربة والمياه، انتشار الأمراض، والتأثير السلبي على المظهر الحضري للمدينة. كما أن التخلص العشوائي من النفايات وحرقها يفاقم تلوث الهواء ويؤثر على

صحة السكان. ولمواجهة هذه المشكلة، من الضروري تحسين إدارة النفايات، تعزيز الوعي البيئي، وتشجيع إعادة التدوير لضمان بيئة نظيفة ومستدامة تلبي احتياجات العدد المتزايد من السكان في نواكشوط.

تعد النفايات الصلبة من أخطر التحديات البيئية التي تواجه مدينة نواكشوط، حيث تتزايد كمياتها يوماً بعد يوم نتيجة النمو السكاني السريع، زيادة الاستهلاك، وضعف أنظمة إدارة النفايات . يؤدي تراكم هذه النفايات في الشوارع والأسواق والمناطق السكنية إلى تلوث البيئة، مما ينعكس سلباً على صحة السكان وجودة الحياة في المدينة.

يساهم الانتشار العشوائي للنفايات في تلوث التربة والمياه، انتشار الأمراض، والتأثير السلبي على الاقتصاد المحلي. كما أن عمليات الحرق العشوائي لهذه النفايات تؤدي إلى انبعاث غازات سامة تضر بجودة الهواء وتزيد من خطر الاحتباس الحراري.

إن مواجهة هذه المشكلة تتطلب تحسين أنظمة جمع النفايات، تعزيز الوعي البيئي، وتشجيع ثقافة التدوير، لضمان بيئة نظيفة ومستدامة لسكان نواكشوط والأجيال القادمة

المحور الأول: مدينة نواكشوط؛ الخصائص الجغرافية

1- موقع المدينة ومناخها

تحتل مدينة نواكشوط بموقع استراتيجي هام حيث تقع على شاطئ المحيط الأطلسي وذلك ما وفر امتيازات عديدة ساهمت بنموها وتوسعها المجالي خلال العقود الماضية، فالمدينة تقع غرب موريتانيا على شاطئ المحيط الأطلسي، وتحدها ولاية الترارزة من الشمال والشرق والجنوب ويحدها من الغرب المحيط الأطلسي، وتبلغ مساحة المدينة 1300 كلم² أي ما يمثل نسبة 0.26% من مساحة البلاد. وفلكيا تقع نواكشوط على دائرة العرض 17°18' شمالا وخط طول 15°56' غربا¹ وبهذا الموقع تعتبر المدينة منطقة انتقالية ما بين المناخ الصحراوي والساحلي رغم عدم وجود فوارق كبيرة بين هذين النطاقين المناخيين. فهي تتموضع في أقصى غرب مجموعة من الكتيان الرملية القارية على ارتفاع دون 20م وتشمل منخفضات ممتدة في اتجاه شمالي – شرقي وجنوبي – غربي على مرتفع رملي يبعد 5 كلم من المحيط الأطلسي الذي يفصلها عنه شريط رملي ساحلي ومنخفض أرضي (السبخة)²، وهذا الموقع يزيد من احتمال تعرض المدينة

¹فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، 2010-2011.

ص: 15

² وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق 2010 – 2020، ص: 4

في أي وقت لعمليات غمر مياه المحيط كلما وصل هذا الأخير (مياه المحيط) إلى مستوى معين من الارتفاع (4م) بالإضافة إلى تهديدات الغرق هناك أيضا ملوحة التربة وتعدد التحديات البيئية وهذه تعتبر من ضمن سلبيات موقع المدينة. ورغم ذلك يمتاز موقع المدينة ببعض الإيجابيات أهمها أن المدينة تعتبر نقطة مركزية للبلاد، إلى جانب وقوعها بين المناطق التعدينية في الشمال والمناطق الزراعية في الجنوب، وبين مناطق الكثافة السكانية المرتفعة جنوبا والضعيفة شمالا¹

وأما مناخ المدينة، فقد كان معتدلاً في الستينيات والسبعينيات، حيث تميز بنسيم البحر وغطاء نباتي يحمي الكثبان الرملية² ولكن مع مرور الوقت، شهد المناخ تغيراً ملحوظاً، حيث تناقصت الأمطار، تراجع النسيم والندى، وازدادت العواصف الرملية، مما أدى إلى زحف الرمال وتدهور البيئة. ويمكن تصنيف المواسم المناخية في نواكشوط كما يلي:

أ — موسم بارد (أكتوبر — يناير): يتميز بانخفاض درجات الحرارة (متوسط 19°)، وارتفاع التبخر وانخفاض الرطوبة.

ب — موسم حار (فبراير — يونيو): درجات حرارة مرتفعة نهاراً (متوسط 32°)، لكنها تنخفض مساء بسبب نسيم البحر.

ج — موسم معتدل ورطب (يوليو — سبتمبر): يتزامن مع موسم الأمطار، رغم أن معدل التساقط السنوي منخفض جداً (حوالي 100 مم)³

تتميز نواكشوط بمناخ صحراوي دافئ على مدار العام، لكن قربها من المحيط الأطلسي يساعد في تلطيف درجات الحرارة مقارنة بالمناطق الداخلية. كما تتأثر برياح البحر والرياح التجارية التي تهب عليها لفترات طويلة من السنة.

وإضافة لذلك، تتميز منطقة نواكشوط بتربة ملحية ورملية ضعيفة المحتوى الحيوي، مما يجعلها غير صالحة للزراعة. يتشكل سطحها من سباح، رمال دقيقة، وطين، ويتفاوت تكوينه تبعاً لقربه

¹أفاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، مرجع سبق ذكره، ص: 16

²وزارة الثقافة والشباب والرياضة، نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاماً من التحدي، سنة 2006، ص: 115

³ أبو المعالي ولد الحسن، التزود بمياه الشرب في مقاطعة عرفات، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015، ص: 13.

من البحر. المناطق الشرقية تختلف عن الغربية، حيث تتسم مقاطعتي الميناء والسبخة بارتفاع ملحوظة التربة، مما يسبب مشاكل بيئية مثل التلوث وخطر الفيضانات، خاصة في فصل الخريف¹ تغطي التربة الرملية حوالي 50% من أراضي نواكشوط، وهي هشة وفقيرة بالمواد العضوية، بينما تتكون التربة الطينية من رواسب الزمن الرابع، تتميز بتماسكها وقلة نفاذيتها للماء، بسبب الحرارة العالية والتبخر الشديد. هذه العوامل، إلى جانب التدهور الحاد في الغطاء النباتي، تزيد من هشاشة الشريط الساحلي أمام تأثيرات البحر والمناخ الصحراوي الجاف²

2- نشأة المدينة ونموها

لم تكن نواكشوط مدينة قائمة قبل الاستقلال، بل كانت منطقة صحراوية شبه خالية من العمران، تستخدم أحيانا كموقع للتخيم أو كنقطة عبور لقوافل الرحل. وقد وجدت بها محطة عسكرية فرنسية صغيرة في بدايات القرن العشرين³. وقد بدأ التفكير في إنشاء نواكشوط كعاصمة للبلاد أواخر خمسينيات القرن العشرين، عندما أصبح استقلال موريتانيا عن فرنسا وشيكا، إذ كان لا بد من اختيار عاصمة جديدة داخل الأراضي الموريتانية، بدلا من مدينة سانت لويس السنغالية التي كانت مقرا لإدارة شؤون البلاد خلال الحقبة الاستعمارية. وقد وقع الاختيار على موقع نواكشوط سنة 1957، حيث بدأت أعمال التخطيط والبناء بدعم من السلطات الفرنسية⁴، استعدادا لاعتمادها كعاصمة رسمية للبلاد مع إعلان استقلال البلاد في 28 نوفمبر 1960.

وقد كان لاختيار مدينة نواكشوط كعاصمة للبلاد جملة من المبررات، أبرزها موقعها الجغرافي الذي يتوسط الساحل الموريتاني، مما يسهل الربط بين شمال البلاد وجنوبها، إضافة إلى إطلالتها المباشرة على المحيط الأطلسي، الأمر الذي أتاح منفذا بحريا حيويا ومصدرا مهما للثروة السمكية. كما أن تأثرها بتيار كناري البارد ساعد في تلطيف مناخها مقارنة بمناطق الداخل، فضلا عن قربها النسبي من مناطق الثروات المعدنية في الشمال، والموارد الزراعية في

¹ مخطط تنمية، 2013-2017، نواكشوط، بلدية الميناء، ص: 16

² كواد ولد سيدي، النمو السكاني والتوسع العمراني في مدينة نواكشوط منذ عام 1960-2005م (دراسة في جغرافية المدن)، بحث لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا البشرية، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، 2008: ص: 52

³ عبد الودود ولد الشيخ وآخرون، نواكشوط 50 عاما من التحدي، المتحف الوطني في نواكشوط والمركز الثقافي الفرنسي ص: 140.

⁴ باب سعد بوه، تطور المجال الحضري لمدينة نواكشوط، مرجع سبق ذكره، ص: 11

الجنوب¹. وقد زادت أهمية المدينة مع إنشاء طريق الأمل الذي يربطها بالولايات الداخلية، مما جعل منها مركزا إداريا واقتصاديا بارزا.

وعموما فإن كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في نمو نواكشوط السريع بعد الاستقلال، وتحولها من نقطة صحراوية نائية إلى أكبر مدينة في البلاد ومركز سياسي وإداري واقتصادي محوري في موريتانيا.

3- النمو الديمغرافي للمدينة

يعتبر النمو الديمغرافي المتسارع والمفاجئ لأي مدينة له أثر كبير على النمو العمراني والتوسع الحضري للمدينة، مما ينعكس على زيادة حجم المدينة من جهة وظهور مشاكل جديدة على المدينة من جهة ثانية نتيجة الضغط المتزايد على المجال وموارده، وينتج عن هذا الضغط على المجال والاستخدام غير السليم لمؤهلات المنطقة الإخلال بالمنظومة البيئية وتتسبب بكوارث. ومدينة نواكشوط تطورت من بلدة صغيرة² إلى مدينة ذات نمو ديمغرافي متسارع، أنظر الجدول رقم (1).

الجدول رقم 1: تطور سكان مدينة نواكشوط ونسبة زيادتهم خلال فترة 1960 – 2005

السنوات	عدد السكان	نسبة الزيادة الطبيعية %	نسبة الزيادة الكلية %
✓ 1960	✓ 4980	✓ -	✓ 41.67
✓ 1965	✓ 17500	✓ 2.7	✓ 91.89
✓ 1970	✓ 40000	✓ 2.7	✓ 6.73
✓ 1975	✓ 104054	✓ 2.7	✓ 6.45
✓ 1980	✓ 173000	✓ 2.7	✓ 6.89
✓ 1985	✓ 179000	✓ 2.7	✓ 5.92
✓ 1990	✓ 441908	✓ 3	✓ 5.22
✓ 1995	✓ 579130	✓ 3	✓ 4.65
✓ 2000	✓ 658191	✓ 3.5	✓ 4.65
✓ 2005	✓ 717511	✓ 3.5	✓ 4.65

المصدر: لالة منت سيدي الأمين، الجفاف والهجرة وانعكاسهما على آليات نشأة وتطور السكن العشوائي (دراسة حالة نواكشوط)، أطروحة لنيل دكتوراه، مرجع سبق ذكره، ص: 110

¹ زين العابدين ولد سيدات، الأنشطة التجارية والتوسع الحضري والتنظيم المجالي لمدينة نواكشوط، مرجع سابق، ص: 13

² المخطط التوجيهي لمدينة نواكشوط 2010 – 2020، ص 15.

وقد شهدت مدينة نواكشوط نمواً ديموغرافياً سريعاً بعد عام 2005، حيث ارتفع عدد سكانها إلى مليون نسمة بحلول عام 2013، واستمر هذا الارتفاع ليصل إلى مليون ونصف نسمة في عام 2021، مما جعلها أكبر مدينة في موريتانيا من حيث عدد السكان. ويعود هذا النمو إلى الدور الاقتصادي والإداري الذي تلعبه المدينة، حيث أصبحت مركزاً اقتصادياً جاذباً للاستثمارات مقارنة بمدن الداخل، مما ساهم في زيادة التوافد السكاني إليها¹ كما أن موجات الجفاف المتكررة في البلاد دفعت أعداداً كبيرة من السكان إلى الهجرة نحو المدن، وخاصة نواكشوط، بحثاً عن فرص عمل وخدمات أفضل، وهو ما عزز من مكانتها كمركز حضري رئيسي. إدارياً، تنقسم نواكشوط إلى ثلاث ولايات، تضم كل منها ثلاث مقاطعات، ويختلف عدد السكان في كل ولاية حسب إحصاء السكان والمسكن لعام 2023. تابع الجدول رقم(2).

الجدول رقم 2: عدد سكان ولايات نواكشوط الثلاث خلال سنة 2023 ب (ألف نسمة)

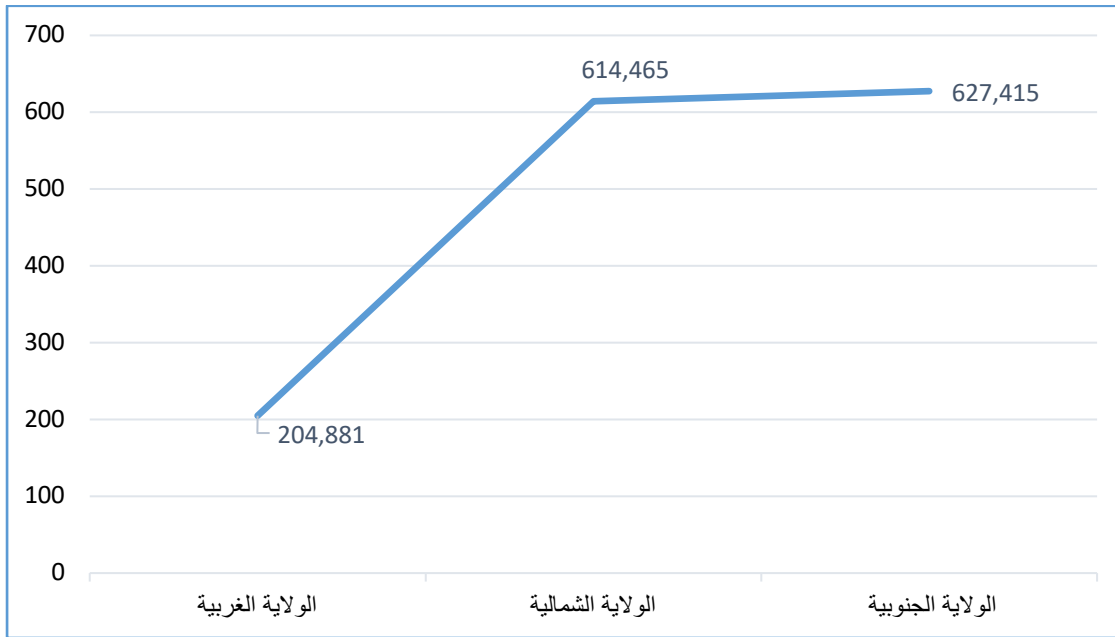
ولاية نواكشوط الغربية			
المقاطعات	✓ الذكور	✓ الإناث	✓ المجموع
لكصر	✓ 29 043	✓ 28 715	✓ 57 758
✓ تفرغ زينة	✓ 38 934	✓ 36 008	✓ 74 942
✓ السبخة	✓ 37 190	✓ 34 991	✓ 72 181
✓ المجموع	✓ 105,167	✓ 99,714	✓ 204,881
ولاية نواكشوط الشمالية			
✓ تيارت	✓ 60 265	✓ 63 393	✓ 123 658
✓ دار النعيم	✓ 94 312	✓ 92 613	✓ 186 925
✓ توجنين	✓ 148 738	✓ 155 144	✓ 303 882
✓ المجموع	✓ 303,315	✓ 311,150	✓ 614,465
ولاية نواكشوط الجنوبية			
✓ الميناء	✓ 94 634	✓ 87 006	✓ 181 640
✓ عرفات	✓ 106 066	✓ 110 853	✓ 216 919
✓ الرياض	✓ 114 456	✓ 114 400	✓ 228 856
✓ المجموع	✓ 315,156	✓ 312,259	✓ 627,415

المصدر: الوكالة الوطنية للسكان والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، إحصاء سنة 2023

¹سيدي عالي محفوظ، تلوث البيئة الحضرية لمدينة نواكشوط "مقاطعة عرفات نموذجاً" مرجع سبق ذكره، ص:

وبشكل عام فإن مجموع سكان نواكشوط أصبح مليون ونص نسمة، موزعة على ولايات العاصمة الثلاث، وتحظى ولاية نواكشوط الجنوبية بالعدد الأكبر من السكان (627 ألف نسمة) وتليها ولاية نواكشوط الشمالية بـ (614 ألف نسمة)، وهما متقاربتان في العدد، على عكس ولاية نواكشوط الغربية التي تقل عنهما كثيرا بعدد سكان يصل إلى (204 ألف نسمة). الشكل التالي يبين ذلك.

الشكل رقم 1: عدد سكان ولايات نواكشوط الثلاث خلال سنة 2023 (ألف النسمة)



المصدر: إعداد الطالبة بالاعتماد على معطيات الوكالة الوطنية للسكان والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، إحصاء 2023

المحور الثاني: النفايات الصلبة في مدينة نواكشوط

1- تعريف التلوث

يصعب تحديد تعريف محدد للتلوث ويرجع ذلك إلى تعدد واختلاف وجهات النظر في تحديد نوعية الملوثات المؤثرة في البيئية والمخلة بالتوازن البيئي، فمعرفة طبيعة التلوث ذاته وتفاصيله وكيفية تأثيره على البيئة تعتبر متاهة كثيرة القنوات ومتنوعة المسالك ومتعددة الأسباب ومتشابهة الآثار تغطي تقريبا كل مجالات الحياة البشرية¹، كما وصفها أحد الكتاب المختصين في مجال البيئة. والتلوث بمعنى أن التلوث ظاهرة بيئية قديمة ولكنها برزت وتأصلت بصورة كبيرة في

¹رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979، ص: 149

النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي نتيجة للتقدم العلمي والتقني الذي عرفه العالم وجعل من هذه الظاهرة مشكلة عالمية تعاني منها الدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء فالتلوث الناتج عن الإدخال الفيزيائي أو الكيماوي في البيئة — من طرف الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة لمواد أو طاقات — تؤدي إلي نتائج من طبيعتها إلحاق الضرر بصحة البشر وتعريضها للخطر، هذا فضلا عن الموارد البيولوجية والمنظومات البيئية أو التي من شأنها إصابة أو تدمير الأماكن التي تحيط بنا، وتعد الغازات والدخان في الهواء والمواد الكيميائية والمواد الأخرى في الماء والنفايات الصلبة على الأرض من أسباب التلوث.

2- تعريف النفايات الصلبة

أ — تعريف النفايات: النفايات هي المواد التي يتم التخلص منها بعد استخدامها، سواء كانت ناتجة عن الأنشطة المنزلية، الصناعية، الزراعية، أو التجارية. تشمل النفايات أنواعا مختلفة مثل النفايات العضوية (بقايا الطعام)، النفايات البلاستيكية، الورقية، المعدنية والإلكترونية. تسبب النفايات التلوث عندما تتراكم دون معالجة صحيحة، حيث تؤدي إلى:

- ✓ تلوث الهواء: نتيجة تحلل النفايات العضوية وإطلاق الغازات السامة مثل الميثان؛
- ✓ تلوث المياه: بسبب تسرب المواد الكيميائية من النفايات إلى الأنهار والبحار، مما يضر بالحياة البحرية؛
- ✓ تلوث التربة: عند تراكم المواد البلاستيكية والمعادن الثقيلة، مما يؤثر على نمو الغطاء النباتي؛

لذلك، فإن إعادة التدوير، تقليل الاستهلاك، والتخلص السليم من النفايات أمور ضرورية لحماية البيئة.

ب — أنواع النفايات: في المدن والمناطق الحضرية، تنتج المجتمعات كميات كبيرة من النفايات نتيجة الأنشطة اليومية مثل الاستهلاك، الصناعة، والخدمات. إذا لم تتم إدارتها بشكل صحيح، يمكن أن تسبب أضرارا بيئية وصحية خطيرة. ويمكن تصنيف النفايات الحضرية إلى نوعين رئيسيين هما النفايات الصلبة والنفايات السائلة، ولكل منهما تأثيراته الخاصة على البيئة والمجتمع. وسنتطرق هنا إلى النفايات الصلبة فقط وهي المخلفات التي تكون في حالة صلبة¹ وتشمل:

- ✓ النفايات العضوية: مثل بقايا الطعام، قشور الفواكه والخضروات، والمخلفات النباتية؛

¹مقال حول التلوث وأنواعه وأسبابه، منشور على منتدى ستار تايمز، على الرابط التالي:

www.startimes.com/?t=29357096 ✓

- ✓ النفايات البلاستيكية: تشمل الأكياس، القوارير، والتغليف البلاستيكي؛
- ✓ النفايات الورقية: مثل الصحف، المجلات، الكرتون، والكتب القديمة؛
- ✓ النفايات المعدنية: مثل علب المشروبات الغازية، قطع الحديد، والأسلاك؛
- ✓ النفايات الزجاجية: مثل الزجاجات المكسورة والنوافذ القديمة؛
- ✓ النفايات الإلكترونية: الأجهزة الإلكترونية القديمة، البطاريات، والمعدات الكهربائية؛
- ✓ النفايات الطبية: مثل الإبر، القفازات الطبية، وبقايا الأدوية؛

3- انتشار النفايات الصلبة في نواكشوط

تعاني مدينة نواكشوط، من مشكلة متزايدة في انتشار النفايات الصلبة، حيث تشهد الشوارع والأسواق والمناطق السكنية تراكماً واضحاً لمخلفات الأنشطة اليومية. ويعود ذلك إلى عدة عوامل، أبرزها النمو السكاني السريع، ضعف البنية التحتية لإدارة النفايات، وقلة الوعي البيئي لدى السكان. وبذلك فإن أسباب انتشار النفايات الصلبة في نواكشوط تعود لعدة عوامل أهمها ما يلي:

- ✓ ضعف أنظمة جمع النفايات: تعاني المدينة من نقص في عدد الحاويات ونقاط التجميع، مما يؤدي إلى تكديس النفايات في الشوارع.
 - ✓ زيادة الاستهلاك والنمو السكاني: مع ازدياد عدد السكان، يزداد إنتاج النفايات الصلبة، خاصة من المنازل والأسواق.
 - ✓ غياب ثقافة التدوير وإعادة الاستخدام: يفتقر الكثير من السكان إلى الوعي بأهمية فرز النفايات وإعادة تدويرها، مما يفاقم المشكلة.
 - ✓ التخلص العشوائي من المخلفات: يلجأ بعض السكان إلى رمي النفايات في الأماكن العامة أو حرقها، مما يزيد من التلوث البيئي.
 - ✓ قلة الموارد والمعدات: نقص سيارات جمع القمامة والعاملين في قطاع النظافة يساهم في انتشار النفايات بشكل غير منظم.
- في الختام، يعد انتشار النفايات الصلبة في نواكشوط أحد أبرز التحديات البيئية التي تؤثر على صحة السكان وجودة الحياة في المدينة. فالتراكم العشوائي لهذه النفايات يؤدي إلى تلوث الهواء، التربة، والمياه، مما يفاقم المخاطر الصحية والبيئية. تابع الصورة التالية.
- لذلك، من الضروري اتخاذ تدابير فعالة مثل تحسين إدارة النفايات، تعزيز ثقافة التدوير، وتوعية المجتمع بأهمية النظافة، لضمان بيئة أكثر صحة واستدامة للجميع.

الصورة رقم 1: النفايات الصلبة في مدينة نواكشوط



المصدر: عدسة الباحثة

المحور الثالث: أضرار التلوث بالنفايات الصلبة في مدينة نواكشوط

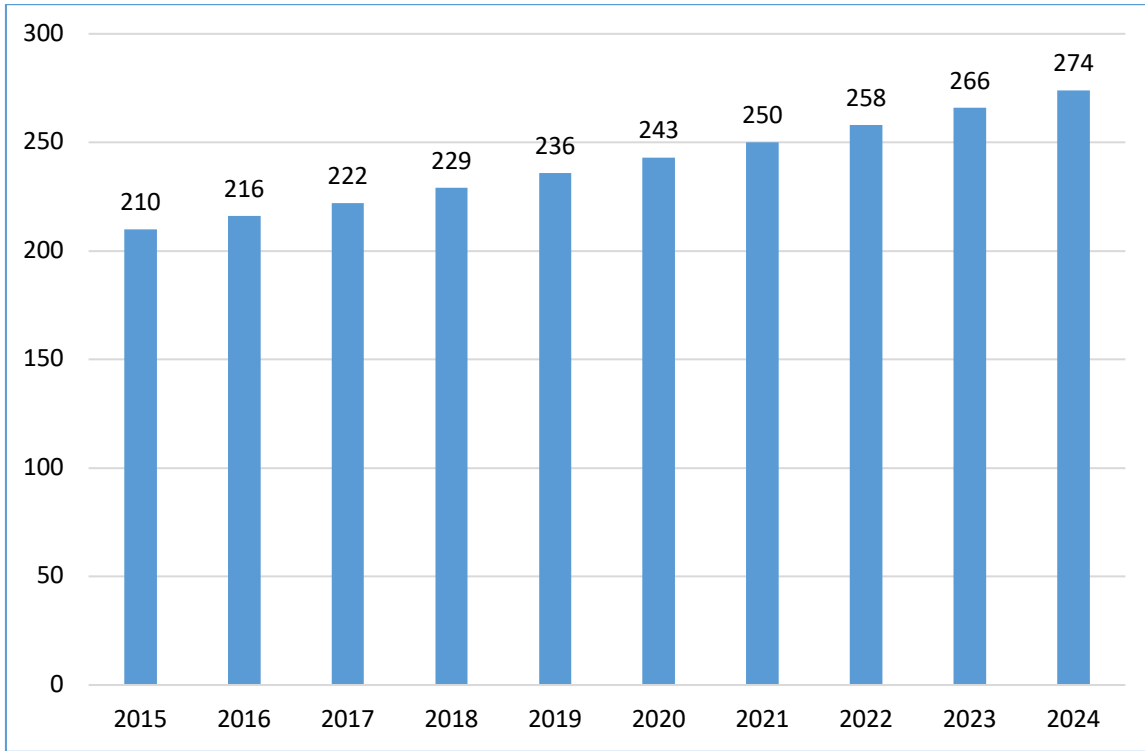
1- حجم النفايات الصلبة في المدينة

تشهد نواكشوط نموا سكانيا متسارعا، مما أدى إلى ارتفاع ملحوظ في حجم النفايات الناتجة عن الأنشطة اليومية للسكان، بما في ذلك النفايات المنزلية، التجارية، والصناعية. وتشير التقديرات إلى أن المدينة تنتج مئات الآلاف من الأطنان من النفايات سنوياً، مع زيادة سنوية متواصلة بسبب التوسع العمراني والاستهلاك المتزايد. ومع غياب نظام فعال لإدارة هذه النفايات، أصبحت بعض المناطق تعاني من تراكم المخلفات في الشوارع والأحياء السكنية، مما يشكل تحدياً بيئياً وصحياً كبيراً.

وفقاً لدراسة حديثة أعدتها وزارة البيئة والتنمية المستدامة الموريتانية خلال الفترة 2021-2022، يقدر متوسط كمية النفايات الصلبة المنتجة سنوياً في مدينة نواكشوط بحوالي 261 ألف طن¹، وقد ازدادت هذه الكمية خلال السنوات الأخيرة، نظراً لعدة عوامل مختلفة أهمها التوسع العمراني والزيادة السكانية، والشكل التالي يبين تطور حجم النفايات الذي شهد تطوراً ملحوظاً منذ سنة 2015 إلى غاية 2024.

¹وزارة البيئة، معطيات سنة 2024.

الشكل رقم 2: تطور تحجم النفايات خلال فترة 2015 – 2024 (بالألف طن)



المصدر: معطيات وزارة البيئة، سنة 2024، (بتصرف)

2- أضرار النفايات الصلبة على المدينة

تعاني مدينة نواكشوط من انتشار النفايات الصلبة بشكل متزايد، مما يشكل خطراً كبيراً على البيئة والصحة العامة. يؤدي تراكم هذه المخلفات إلى تلوث التربة والمياه، انتشار الروائح الكريهة، وتكاثر الحشرات والقوارض، مما يزيد من مخاطر الأمراض ويشوه المظهر الحضري للمدينة. ومع تزايد حجم النفايات، يصبح إيجاد حلول مستدامة ضرورة ملحة للحفاظ على نظافة المدينة وصحة سكانها.

ويمكن تصنيف أضرار النفايات الصلبة على المدينة إلى أضرار بيئية، صحية، واجتماعية اقتصادية، مما يجعل معالجتها ضرورة ملحة للحفاظ على جودة الحياة في المدينة.

أ – الأضرار البيئية: تتمثل في:

- ✓ تلوث التربة والمياه: تتسرب المواد السامة من النفايات إلى التربة والمياه الجوفية، مما يؤثر على جودة الزراعة ومياه الشرب؛
- ✓ تلوث الهواء: يؤدي حرق النفايات إلى انبعاث غازات سامة مثل ثاني أكسيد الكربون والميثان، مما يسبب الاحتباس الحراري؛

✓ عرقلة تصريف مياه الأمطار: تتسبب النفايات المتراكمة في انسداد شبكات الصرف الصحي، مما يؤدي إلى تجمع المياه وحدوث فيضانات؛

ب – الأضرار الصحية: تتمثل في:

✓ انتشار الأمراض والأوبئة: توفر النفايات بيئة مثالية لتكاثر الحشرات والقوارض، مما يساهم في انتشار الملاريا، حمى التيفوئيد، وأمراض الجهاز التنفسي؛

✓ زيادة حالات التسمم: تحتوي بعض النفايات على مواد كيميائية خطيرة، مثل البطاريات التالفة والمبيدات، التي يمكن أن تسبب تسمماً عند تعرض الإنسان لها؛

✓ الأثر النفسي والمعنوي: التلوث البصري والروائح الكريهة يسببان الإحباط والضغط النفسي للسكان، مما يؤثر على جودة الحياة؛

ج – الأضرار الاجتماعية والاقتصادية: تتمثل في:

✓ تشويه المظهر الحضري: تؤدي أكوام النفايات إلى مظهر غير لائق للمدينة، مما يؤثر على جاذبيتها للسكان والزوار؛

✓ تراجع النشاط السياحي والاستثماري: المدن النظيفة تجذب السياح والمستثمرين، لكن تراكم القمامة يحد من الفرص الاقتصادية والسياحية في نواكشوط؛

✓ ارتفاع تكاليف الإدارة البيئية: تتطلب معالجة النفايات استثمارات كبيرة في البنية التحتية والخدمات، مما يزيد العبء على الحكومة؛

✓ تأثير سلبي على سوق العمل: انتشار النفايات قد يؤدي إلى تدهور بعض القطاعات مثل التجارة والمطاعم، بسبب البيئة غير الصحية؛

خاتمة

تمثل النفايات الصلبة أحد أبرز التحديات البيئية التي تواجه مدينة نواكشوط، حيث يؤدي تراكمها العشوائي إلى أضرار خطيرة على البيئة، الصحة، المجتمع، والاقتصاد. فمع الزيادة السكانية والنمو العمراني، تزايدت كمية المخلفات التي لم تتم إدارتها بشكل فعال، مما أدى إلى تلوث التربة والمياه الجوفية نتيجة تسرب المواد السامة، إضافة إلى تلوث الهواء بسبب حرق النفايات، مما يزيد من مخاطر الاحتباس الحراري وأمراض الجهاز التنفسي.

من الناحية الصحية، فإن انتشار القمامة في الأحياء والأسواق يوفر بيئة خصبة لنمو البكتيريا، الحشرات، والقوارض، مما يؤدي إلى تفشي الأمراض مثل الملاريا، التيفوئيد، وأمراض الجهاز التنفسي، كما أن الروائح الكريهة الناتجة عن تراكم النفايات تؤثر سلباً على راحة السكان

وصحتهم النفسية. أما اجتماعياً، فإن تكديس القمامة في الأماكن العامة يشوه المظهر الحضري لنواكشوط، ويؤثر على جودة الحياة ويضعف الشعور بالمسؤولية البيئية لدى السكان. أما من الجانب الاقتصادي، فإن انتشار النفايات يقلل من جاذبية المدينة للاستثمار والسياحة، حيث يفضل المستثمرون والمطورون بيئات نظيفة ومستدامة. كما أن عمليات التنظيف العشوائية وعدم وجود حلول مستدامة يزيدان من تكاليف إدارة النفايات، مما يشكل عبئاً مالياً على السلطات المحلية. لمعالجة هذه المشكلة، لا بد من تحسين أنظمة جمع النفايات، زيادة عدد الحاويات، وتشجيع السكان على المشاركة في جهود إعادة التدوير. كما أن التوعية البيئية تلعب دوراً محورياً في تغيير السلوكيات، وتقليل استهلاك المواد غير القابلة للتحلل، مما يساهم في خلق بيئة أكثر صحة ونظافة لسكان نواكشوط. إن تبني حلول مستدامة في إدارة النفايات لا يقتصر على الحفاظ على نظافة المدينة فحسب، بل يسهم أيضاً في حماية الموارد الطبيعية، تحسين الصحة العامة، وتعزيز التنمية المستدامة للأجيال القادمة.

قائمة المراجع

- ✓ الكتب
- ✓ رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني، البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979.
- ✓ عبد الودود ولد الشيخ وآخرون، نواكشوط 50 عاما من التحدي، المتحف الوطني في نواكشوط والمركز الثقافي الفرنسي.
- ✓ الوثائق والتقارير
- ✓ وكالة التنمية الحضرية، المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق 2010-2020.
- ✓ الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، معطيات سنة 2023.
- ✓ وزارة البيئة، معطيات سنة 2024.
- ✓ مقال حول التلوث وأنواعه وأسبابه، منشور على منتدى ستار تايمز، على الرابط التالي: www.startimes.com/?t=29357096
- ✓ الرسائل الجامعية
- ✓ فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، 2010-2011.

- ✓ الدح ولد كاوي، تحليل ظاهرة السكن الفوضوي وأثرها على النسيج العمراني لمدينة نواكشوط، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا والتهيئة القطرية، جامعة هواري بومدين بالجزائر، كلية علوم الأرض والجغرافيا والتهيئة القطرية، سنة 2008.
- ✓ أبو المعالي ولد الحسن، التزود بمياه الشرب في مقاطعة عرفات، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015.
- ✓ مخطط تنمية، 2013-2017، نواكشوط، بلدية الميناء.
- ✓ كواد ولد سيدي، النمو السكاني والتوسع العمراني في مدينة نواكشوط منذ عام 1960-2005م (دراسة في جغرافية المدن)، بحث لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا البشرية، جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، دمشق، 20

الإنتاج الزراعي المروي في موريتانيا وحجم تغطية الحاجة الوطنية

محمد سالم محمد عبد الله
طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص

هدف هذا المقال إلى إبراز أهمية الإنتاج الزراعي المروي في تلبية وتغطية الحاجة الوطنية من الحبوب وخاصة الأرز الذي يمثل اليوم الغذاء الرئيس في موريتانيا حيث يستهلك الموريتانيون بمختلف طبقاتهم الأرز كوجبة يومية وهو ما جعله المادة الأولى طلبا داخل السوق الغذائية الوطنية وقد سعت الدولة الموريتانية إلى توفير حاجة الوطن من هذه المادة الأساسية من خلال التركيز على الزراعة المروية للأرز في الضفة اليمنى للنهر منذ نهاية الستينات من القرن الماضي حين فرض الجفاف التوجه نحو الزراعة المروية والتركيز عليها لسد الخلل الغذائي الذي سببه الجفاف.

كما تطرق المقال إلى ذكر أبرز العوامل المتحكمة في الإنتاج الزراعي الطبيعية أو بشرية أو اجتماعية ثم أبرز المحاولات التي قامت بها الدولة لتحقيق نجاح في الزراعة المروية يضمن تغطية الحاجة الوطنية وخلص المقال إلى عرض ونقاش الإنتاج الزراعي المروي وتوزيعه ومدى مساهمته في القدرة على تلبية الحاجة الوطنية من الغذاء والتي وإن كانت ممكنة التحقق في مجال الأرز نظرا للجهود الكبيرة المبذولة في سبيل ذلك إلا أنها لا تزال بعيدة التحقق في مجال زراعات أخرى كالقمح وبعض أنواع الحبوب التقليدية مع توفر ظروف الطبيعية التي ينقصها التوظيف والاستغلال الأمثل لتحقيق إنتاج زراعي يفي بحاجة الوطن ويغني عن الاستيراد أو طلب العون الغذائي الذي يتنافى مع السيادة الغذائية.

الكلمات المفتاحية: الزراعة — الحاجة الوطنية — الغذاء — الأرز — ولاية الترارزة

مقدمة

يظل صراع الإنسان مع الطبيعة من أقدم الصراعات التي شهدتها الكرة الأرضية، حيث حاول الإنسان فيه إخضاع الطبيعة وتوجيهها إلى إشباع حاجته من الغذاء بشكل نهائي، ومحققا إنتاجا غذائيا يلبي حاجته ويوفر له الاكتفاء، ويعد الانتصار في هذا الصراع معيارا تقاس به الأمم والشعوب والبلدان من حيث تقدمها وتخلفها فالدول التي أخضعت الطبيعة وطوعتها لإشباع حاجاتها مستعينة بوسائل متقدمة وسط ظروف بشرية وداخلية ملائمة، تعد اليوم دولا ناجحة

تمكنت من تحقيق إنتاج زراعي يفي بحاجة سكانها ويحقق لها أمنا غذائيا يعتمد على توفير الغذاء من الإنتاج الزراعي المحلي حيث يساهم الإنتاج الزراعي في تنوع الاقتصاد وتخفيف وطأة الفقر وتحسين الميزان التجاري ويهتم الكثير من المخططين الزراعيين بضرورة تحقيق الكفاية في الإنتاج الزراعي ويلاحظ أن معدل التزايد الحجمي للاستهلاك الغذائي يتزايد كثيرا في الدول النامية ويمكن تحليل الاستهلاك الغذائي انطلاقا من عوامل النمو الديمغرافي وتطور عوامل الإنتاج الزراعي وتنوعه ويلعب الإنتاج الزراعي المروي دورا كبيرا في الإنتاج الغذائي العالمي حيث تمثل الزراعة المروية 20%¹ من الأراضي الزراعية عبر العالم كما يزيد انتاجها على 40% من الإنتاج الغذائي العالمي وقد شهد قطاع الزراعة في موريتانيا اهتماما متزايدا من طرف الدولة إيمانا منها بأنه السبيل الأمثل لتحقيق تنمية شاملة وذلك نظرا لما تزخر به من موارد متنوعة تعتبر نقاط قوة إذا ما استغلت بطريقة عقلانية. ويكتسي موضوع الإنتاج الزراعي أهمية كبيرة في الاهتمام الحكومي في موريتانيا وكذا في الأوساط العلمية والبحثية لما له من دور في تلبية الحاجة الوطنية من الغذاء وسد الفجوة الغذائية بالاعتماد على الإنتاج الوطني وتمثل الزراعة المروية أهمية كبيرة في السنوات الأخيرة بعد أن خصصت لها برامج وسياسات ودراسات وقد عاد ذلك بنتائج إيجابية حيث ازداد الإنتاج بصفة عامة كما أنها أعادت السكان إلى الأماكن الأصلية ويشكل² الأرز المحصول الرئيسي في هذا النمط وتمثل الزراعة المروية في موريتانيا أحد أهم الأنماط الزراعية إنتاجا حيث يتأثر النمط الزراعي المطري بالظروف المناخية تأثرا كبيرا مما ينعكس على الإنتاج الزراعي في الوقت الذي يرتبط الإنتاج المروي بالنهر وفروعه، وتصنف موريتانيا من بين الدول النامية والدول التي تعاني من الجوع وتحسب في حزام المجاعة، ذلك أنه منذ أن حصلت موريتانيا على الاستقلال واجهت مناخا غير ملائم بحكم قساوته، إذ شهد الوسط تدهورا كبيرا خلال العقود التالية للاستقلال نتيجة تأثير الجفاف والتصحر³، الأمر الذي أدى إلى وجود اقتصاد هش ومتخلف، لذلك بدأت موريتانيا تبحث عن الطرق الكفيلة لتنمية اقتصادها وإنقاذه من ديمومة التخلف، ورغم إدراك الدولة الموريتانية

¹IFPRI : Investir dans l'irrigation pour assurer la sécurité alimentaire dans le futur – Perspective 2050 en Mauritanie : <https://www.ifpri.org/>

² عبد الله ولد محمد لمين، القطاع الفلاحي ودوره في التقليل من التبعية الغذائية، رسالة ماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين الجزائر، 2008، ص 96

³ محمد يسلم سكان، الزراعة في موريتانيا، المجلة الجزائرية للاقتصاد والإدارة، العدد 8، السنة 2016، ص 3

لأهمية الزراعة لسد الحاجة من الغذاء فإن السياسات المرسومة في إطار كل الخطط التنموية لم ترق نتائجها أبداً إلى مستوى الإنتاج المطلوب والتحديات المطروحة¹.

وانطلاقاً من كل ما سبق يركز هذا المقال على الإنتاج الزراعي المروي في موريتانيا خاصة الأرز ومدى قدرته على تلبية الحاجة الوطنية في مجال الحبوب؟ ويطرح لتعميق النقاش حول الموضوع الأسئلة التالية:

❖ ماهي العوامل الأساسية الطبيعية والبشرية المؤثرة في الإنتاج الزراعي المروي؟

❖ ماهي أهم أنواع الحبوب إنتاجاً في الزراعة المروية في موريتانيا؟

❖ هل يمكن للإنتاج الوطني المروي تغطية الحاجة الوطنية حسب المعايير المحددة؟

❖ وإلى أي حد يغطي الإنتاج الزراعي الاستهلاك الوطني من الحبوب؟

وقد اعتمدت في هذا المقال على بيانات استمارة ميدانية وزعت على عينة من مزارعي ولاية الترارزة خلال شهر يوليو 2025 إضافة إلى الوثائق والبيانات الصادرة عن مصالح الإحصاء في وزارة الزراعة والوكالة الوطنية للإحصاء وبعض الكتب والأطاريح ذات الصلة بالموضوع.

العوامل المؤثرة في الإنتاج الزراعي:

كما هو معلوم فإن جغرافية الزراعة تتميز بعلاقة متشابكة مع علوم كثيرة وفروع الجغرافيا الأخرى مما يعني أن المحصول الزراعي هو محصلة لمجموعة من عوامل طبيعية واجتماعية وبشرية متشابكة ومتداخلة مع بعضها، وكل عامل من هذه العوامل² يؤثر في الإنتاج بدرجة مختلفة وتتميز العوامل الطبيعية المؤثرة في الإنتاج بإمكانية قياس مدى تأثيرها في الزراعة بطرق علمية قاطعة، بينما يصعب قياس العوامل البشرية بنفس الأسلوب والدقة وذلك لكثرتها وتداخل بعضها مع البعض، كما أنها تتميز بسرعة تبدلها مما يجعل أثرها في الإنتاج يتغير باستمرار، ومن أهم العوامل الطبيعية ذات التأثير في الإنتاج الزراعي:

الموقع الجغرافي الذي مكن موريتانيا من الاطلالة الكبيرة على أحد أكبر الأنهار الزراعية في إفريقيا "نهر السنغال" مما مكنها من توفير الري للأراضي الزراعية الخصبة والتي طبعاً ساهم النهر بفيضانه المتكرر في تشكيلها، كما أن العوامل الطبيعية الأخرى تبدو مشجعة على الزراعة في ظل توفر الري كدرجات الحرارة المثلى السائدة في المنطقة ونظام الأمطار وإن اتسم بالتذبذب وعدم الانتظام إلا أن تزامن فترة سقوطه مع بداية حملة زراعية خريفية يساعد كثيراً

¹ محمد الأمين محمد المصطفى، التخطيط الزراعي في موريتانيا، رسالة الماجستير في التهيئة الإقليمية، جامعة

هوارى بومدين الجزائر 2005، ص: 128

²<http://www.4geography.com/>

المزارعين في الدخول باكرا في الأجواء الزراعية كل هذا إلى جانب توفر خزان مائي سطحي (بحيرة اركيز وغيرها) إلى جانب توفر الأراضي الزراعية الخصبة، كلها معطيات تغري على التوسع في الزراعة المروية وخاصة زراعة الأرز الذي أصبح مع الوقت الغلة الرئيسة للزراعة المروية في هذه المنطقة.

وللعوامل البشرية أثر كبير في الإنتاج الزراعي فالإنسان هو المنتج وهو المستهلك والموزع وهو صاحب المصلحة في الإنتاج ولما كانت حاجة الإنسان متغيرة تمشيا مع الظروف التي يمر بها كانت العوامل البشرية متغيرة تبعا لها، ولكن هذه العوامل تؤثر في حدود الظروف الطبيعية وطبيعة الموارد المتاحة¹ وقد تكون الظروف الطبيعية بمثابة عقبة أمام الإنتاج الزراعي وفي نفس الوقت قد تكون حافزا لأبناء المجتمع للبحث عن أساليب جديدة أكثر جدوى وعلى الرغم من أن العوامل الطبيعية تساهم في تحديد الإمكانيات الزراعية إلا أن التباين في المستوى الثقافي للشعوب وما يسود في مجتمعاتهم من قيم وعادات وتقاليد وأساليب سلوكية قد تنعكس آثارها على المنتجات الزراعية وطريقة إنتاجها، وتعد حيازة الأرض وحجم الملكية من أهم الظواهر الاجتماعية التي يرتبط بها في كثير من الأحيان اختلاف في طبيعة المنتجات الزراعية وقد يحول نظام الملكية دون زراعة بعض المحاصيل أو تربية أنواع معينة من الحيوانات فهناك العامل الزراعي الذي يعمل في ملكيته ولحسابه الخاص وهناك العامل الذي يعمل بأجر وهناك من يعمل بأرض قد تم تأجيرها لحسابه الخاص ومنهم من يحصل على نسبة معينة من الإنتاج أو ما يعرف بنظام المشاركة وتختلف أنظمة الحيازة وتتباين أحجام الملكيات الزراعية وطرق إدارتها باختلاف الدول كما تختلف من منطقة إلى أخرى ضمن الدولة الواحدة وهكذا يتضح بأن القيم الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تسود في مختلف المجتمعات الزراعية تعد من العوامل الجغرافية بالغة التأثير في الإنتاج الزراعي وتباينه في العالم²، ويقصد بالعوامل البشرية المؤثرة في الزراعة كل ما يتصل بالإنسان ونشاطه في مجال الزراعة ولا تقل أهميته عن تأثير العوامل الطبيعية من حيث الكمية والنوعية، فكلما ازدادت قدرة الإنسان في تغلبه على الظروف الطبيعية وتهيئة الظروف الملائمة لنجاح الزراعة كلما استطاع التقليل من الصعوبات التي تحول دون تحقيق طموحه في استثماره الأمثل للموارد الطبيعية والبشرية المتاحة، وقد خطى الإنسان

¹ - عالي أحمد هارون، جغرافية الزراعة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 2000، ص 107

² - وزارة البيئة والزراعة والمياه، كتاب الزراعة المطرية، نتائج الدراسة التفصيلية بالجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية الرياض، 2020، ص 23 <http://www.4geography.com/>

خطوات كبيرة في رفع القدرة الإنتاجية للمنتجات الزراعية من نباتات وثروات حيوانية من خلال استخدامه الأسمدة والمخصبات الكيماوية لتحسين خواص التربة وتطوير كثير من الصفات الوراثية لسلاسل النبات والهدف من قيام الإنسان بهذه التطورات هو الوصول إلى الحد الأعلى أو تقليل المخاطر والخسائر التي تواجه الإنتاج الزراعي نتيجة الأمراض والآفات الزراعية التي يتعرض إليها الإنتاج الزراعي بصورة مستمرة¹، بالإضافة إلى ذلك تمكن الإنسان من توفير ظروف بيئية ملائمة لإنتاج محاصيل زراعية في مناطق قليلة المياه كالمناطق الصحراوية من خلال تطوير طرق الري وابتكار طرق جديدة ذات كفاءة عالية في الاستخدام الأمثل للموارد المائية كطرق التنقيط والري تحت السطحي والرش وغيرها، فضلاً عن زراعة محاصيل زراعية في فصل نمو قصير وكذلك زراعة المحاصيل في غير مواسم زراعتها من خلال إقامة البيوت البلاستيكية والزراعة المحمية والتي أصبحت من الزراعة الأكثر انتشاراً في العالم².

لعل لجميع العناصر السابقة تأثير مباشر على الانتاج الزراعي ولكنها ذات انعكاسات متباينة فبعضها يدفع الى تكثيف الاستغلال الزراعي وبعضها الآخر يدفع الى تقليصه ومن العوامل التي تدفع باتجاه تكثيف الاستغلال تحقيق الانتاج الزراعي الكافي لاسترجاع التكاليف الزراعية والحصول على عوائد مالية واقتصادية كبيرة مشجعة على الاستثمار في هذا المجال كما أن أهم العوامل الذاتية التي تدفع الى تكثيف الاستغلال الزراعي تشير الى بعض العوامل الضاغطة التي تجبر المستغلين الزراعيين على الاهتمام الكامل بمزارعهم³ وأهمها ارتفاع أسعار المدخلات الزراعية ومتطلبات الانتاج الزراعي بشكل عام وهنا يكون التكثيف الزراعي بغرض تغطية التكلفة المتزايدة للإنتاج وتوفير أرباح بعد ذلك، كما أن من العوامل التي لا تساعد على تكثيف الاستغلال الزراعي تفتت هياكل الملكية الزراعية داخل المزارع وتغييب عدد كبير من المالكين وهذه الخصائص ذات تأثير مباشر على نمط الاستغلال⁴.

¹ - محمد حبيب العكلي: جغرافية الزراعة، دار الوضاح للنشر والتوزيع، 2021، ص 147

² - العبادي كاظم الجاسم، جغرافية الزراعة جمعة الموصل العراق بدون سنة نشر، ص 111

³ - محمد أحمد السيد، الماء والفلحة في الضفة اليمنى المتوسطة لنهر السنغال دراسة في الجغرافيا الريفية،

أطروحة دكتوراه جامعة تونس الأولى، 2013، ص 317

⁴ السيد عيد فرج موسى، التغيرات البنائية والمناخية، وعزوف الفلاحين عن مهنة الزراعة، مجلة بحوث كلية

الآداب — جامعة المنوفية مصر، 2022، ص 602

ومن جهة أخرى فإن ارتفاع أسعار المدخلات الزراعية وندرة اليد العاملة الفلاحية المختصة وارتفاع أجورها قد تدفع أيضا باتجاه إهمال المزارع والحد من كثافة الأشغال الفلاحية فيها وفي هذه الحال فإن القيمة المنخفضة للمستغلات الزراعية أو ضعف الإمكانيات المادية للمستغلين الزراعيين تحول دون استغلالها على الوجه الأفضل وتعرقل الاستفادة من ظروف الإنتاج الجديدة ومن الاستثمارات الباهظة التي توظفها الدولة في هذا المجال¹.

أهمية الإنتاج الزراعي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية:

يلعب الإنتاج الزراعي دورا هاما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لكافة الشعوب باعتباره المصدر الاول الاشباع حاجاتهم الغذائية وأساس التفضيل الغذائي بالنسبة لهم كما أن الإنتاج الزراعي اليوم يعد الضامن الأول لاستقلالية الدول وتحكمها في سياساتها الاقتصادية والخارجية كما يعكس حجم الإنتاج الزراعي وتنوعه مستوى الوعي الوطني بأهمية تحقيق الأمن الغذائي وتتحكم في الإنتاج الزراعي مجموعة من العوامل الطبيعية والبشرية سبق الإشارة إلى أغلبها لكن لا بد من التطرق إلى الظروف الميدانية المساعدة على الإنتاج الزراعي أو تلك التي تحد منه من حيث الخصائص التعليمية للمزارعين وظروف العمل الزراعي وآليات التسويق والمردودية الاقتصادية على المزارعين وعلى السوق الزراعية ومراحل تطور الإنتاج الزراعي خاصة الأرز على مدى السنوات الأخيرة وحجم تغطيته لأهداف الخطة الوطنية للتنمية الزراعية أفق 2025 وكذا تغطية الحاجة الوطنية من الحبوب وخاصة الأرز نظرا لأهميته في الإنتاج المروي حيث تتطلب الانتاجية الزراعية العالية دراسة أدوار واحتياجات المزارعين وكل من يقومون بأدوار مختلفة في الإنتاج الزراعي ولهم متطلبات متباينة في مجالات التعليم والمعارف التكنولوجية الحديثة، والتعامل مع أهمية وضرورة الإرشاد الزراعي، وفهم متطلبات الوعي الوطني الزراعي والحاجة إلى تلبية الطلب الوطني على الغذاء.

أهمية الأرز في الإنتاج الزراعي المروي:

قبل الحديث عن الإنتاج ومراحله وتطوره لا بد من التعريف بهذه الغلة ومتى دخلت إلى المنطقة المدروسة ولماذا التركيز عليها عرف الإنسان محصول زراعة الارز قبل أكثر من 2000 سنة قبل الميلاد حيث استخدم الهنود مائه عند الطبخ في العلاج وغذاء الاطفال ثم انتقلت زراعته إلى دول إفريقيا وأوروبا ثم إلى قارات العالم الجديد وتصل نسبة الهكربوهيدرات في الأرز إلى

¹ نفس المرجع، ص 604

79% والبروتينات إلى 7% والدهون 0.7%¹، وقد عرف سكان منطقة الضفة اليمنى من نهر السنغال الأرز وتعودوا على استهلاكه مع مجيئ الاستعمار نهاية القرن التاسع عشر رغم وجود حضارة قديمة في منطقة اديولا القريبة من المنطقة والتي تتركز كامل الحياة الزراعية فيها على زراعة الأرز وتشكل الدعامة الغذائية لسكان المنطقة² وقد ظل استهلاك الأرز في موريتانيا بداية مقتصرًا على سكان المدن الكبرى ومنذ السبعينات أصبح يشكل الغذاء اليومي للسكان ومن هنا ارتكزت سياسة الدولة الزراعية على زراعته وإقامة مشاريع زراعية كبرى لإنتاج الأرز معتمدة على توفر الماء ودرجة الحرارة الضرورية لإنبات الأرز وقد انتشرت زراعة الأرز في الضفة اليسرى قبل اليمنى من النهر وثمة العديد من الأسباب التي جعلت زراعته تهيمن على الإنتاج الزراعي بالمنطقة والزراعة المروية بشكل عام في منطقة النهر من هذه الأسباب:

- ارتفاع إنتاج الأرز مقارنة مع أي غلة أخرى.
 - تشجيع الدولة للمزارعين من خلال حثهم على زراعته وشراء الفائض بأسعار مربحة.
 - كون الأرز من الغلات الزراعية التي تسمح بحملتين زراعتين.³
- بدأ إنتاج الأرز في موريتانيا عبر إنشاء الدولة لمجموعة من المزارع المؤطرة مثل: مزرعة امبورية في روصو ثم لاحقًا بعد إنشاء الشركة الوطنية للتنمية الريفية ظهرت التعاونيات الزراعية القروية حيث أنشأت أربع تجمعات كبرى في ولاية الترارزة في مناطق: روصو - انتيكان - لكصيبة - كوندي. بمساحة إجمالية بلغت 2100 هكتار لكل منها مرشد ومهندس زراعي ولذلك لم يكن العمل التعاوني من مبادرة السكان⁴ المحليين، لكنه يمثل البداية الفعلية لممارسة المزارعين المحليين لزراعة الأرز ويعكس نوع وحجم الملكية والحيازات العقارية ويعود إنشاء هذه التعاونيات استنادًا إلى مجموعة من القوانين المنظمة للعمل التعاوني من أهمها: القانون رقم 171/67 المتعلقة بإنشاء التعاونيات الزراعية والمغير بالقانون رقم 93/15 بالإضافة إلى مجموعة القوانين الضابطة والمنظمة في هذا المجال حيث أتاح هذا الإطار القانوني للسكان المحليين تشكيل تعاونيات فلاحية تهدف إلى خلق فرص دخل لمنتهسبها عن طريق الزراعة

¹ العبادي كاظم الجاسم، مرجع سابق، ص 179

² محمد أحمد السيد، مرجع سابق، ص 318

³ نفس المرجع، ص 319

⁴ عبد الله سيد محمد ا بنو، دور الزراعة في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالياتوآفاق التنمية المحلية المستدامة في دلتا نهر السنغال أطروحة الدراسات العليا المعقة في الجغرافيا، جامعة ابن طفيل المغرب، 2006، ص

خاصة النساء والسكان المحليين الأقل تعليمًا فتحت الدولة مجال الاستثمار الزراعي الخصوصي بدءًا بقانون الإصلاح العقاري 1983 وتطبيقاته التي صدرت لاحقًا والتي سمحت لأغلب الفاعلين الخصوصيين بالدخول الفعلي في هذا المجال عبر امتلاك الأراضي وشراؤها وكرائها في أحيان كثيرة وبالتالي أصبح منتج الأرز إما أصحاب تعاونيات قروية تقليدية تزرع بغرض المحافظة على أراضيها وحمايتها ثم من أجل ضمان الغذاء لأسرها خاصة في ظروف ضعف المردود وهجرة الرجال بحثًا عن رزق أوسع وهذه الفئة من المزارعين هي الأقل اليوم في المزارع والأقل إنتاجًا، مع وجود مالكين جدد للأراضي أو مؤجرين لها (مستثمرين) وهم أغلب مالكي المزارع اليوم حيث يمثلون أكثر من 94% من مجموع العينة المدروسة (169) أي نسبة 55.62% من مجموع المزارع المدروسة والأكثر إنتاجًا في العينة الدراسية مقارنة بإنتاج المزارع الخصوصية في الولاية.

ويظهر من خلال الدراسة الميدانية أن أغلب التعاونيات قامت على أراضي تتبع للملكية القبلية التقليدية 57.14% وأن 42.86% حصلت على أراضيها بمنح من الدولة وقد عكس صغر الحيازات الزراعية لديها وهو إما منح شبه دائم لدى القرى وإما منح مؤقت كما هو حال التعاونيات في المزارع الكبرى التي أقامتها الدولة في إطار سياستها الزراعية (امبورية على سبيل المثال) ويرجع انتشار التعاونيات ذات الحيازات القبلية إلى أنه بعد إصلاح 1983 سارعت بعض القبائل والمجموعات المحاذية للنهر إلى زراعة أراضيها خوفاً من تطبيق القانون العقاري عليها ثم تزايد اهتمام هذه المجموعات بأراضيها بعد سعي الدولة في تمويل ودعم زراعة الأرز عن طريق تشجيع التجمعات المحلية العاملة في الزراعة وتظهر نتائج العمل الميداني أن متوسط الإنتاج لدى هذه التعاونيات بلغ 4.37 طن للهكتار في مجموع أراضي زراعية بلغ المزارع منها من طرف أعضاء التعاونيات أثناء فترة إعداد الاستمارة 1140 هكتار فيما أجرت هذه التعاونيات من أراضيها 369 هكتار وحصلت منها على عوائد مالية لدعم إنتاجها الزراعي وظلت 131 هكتار بوارا ربما عجز أصحاب التعاونيات عن استصلاحها أو زراعتها وهي أراضي لمشاركين في التعاونيات عجزوا عن دفع رسوم الاشتراك في الحملة الزراعية وبقي نصيبهم دون زراعة، ويظهر متوسط الإنتاج لدى هذه العينة من التعاونيات أنها تحقق إنتاجاً قريباً من المستوى الوطني 4.89 طن للهكتار ويرجع أغلب المستجوبين تدني الإنتاج في هذه المزارع إلى ضعف مستوى التمويل والقدرة على الحصول على المدخلات الزراعية (بذور + أسمدة) وأحياناً العجز عن الحصول على الماكينات الزراعية للتقليب والحصاد، كما أن ضعف المستوى التعليمي لأغلب مسيري هذه التعاونيات وأعضائها يشكل معوقاً لكثافة ونمو الإنتاج الزراعي، وتعكس

الدراسة الميدانية التي أجراها الباحث أن حجم الإنتاج الزراعي أكبر في المزارع التي يديرها أفراد خواص منه لدى المزارع التي يديرها مزارعون ضمن التعاونيات القروية حيث ترتفع نسبة الأميين في مزارع التعاونية إذ أن 9 من مسيري المزارع يعانون الأمية الأبجدية و 27 من هذه المزارع يديرها أفراد لم يتجاوزوا مرحلة تعلم القراءة والكتابة وبمستويات ضعيفة جدا في بعض الأحيان 38 من مسيري هذه المزارع لم يتجاوزوا المرحلة الابتدائية وترفع نسبة من وصلوا إلى مرحلة التعليم الثانوي إلى 41 تظل نسبة من وصلوا مرحلة التعليم العالي هي الأضعف 12 مسير أي نسبة 7% فقط ويظهر هؤلاء في المزارع الخصوصية الكبرى أو في المزارع العامة التي هي تحت وصاية الدولة (امبوريه) وبالرجوع الى نسبة الانتاج التي صرح بها كل هؤلاء نجد تباينا كبيرا بين إنتاج مزارعي التعاونيات الذين مارسوا الزراعة بدافع البحث عن المعاش اليومي قبل أن يتمكنوا من الدراسة هو الأقل 3.5 طن للهكتار وقد يعود ذلك إلى ضعف امكانياتهم في التعاطي مع التكوين والإرشاد الزراعي وإلى ضعف قدرتهم على الاستفادة من الملاحظات والتجارب الميدانية التي يعايشونها يوميا في نفس الوقت نجد أن أعلى إنتاج مصرح به ضمن العينة الدراسية هو 7 طن للهكتار لدى مزارعين خصوصيين لم يستثمروا في الزراعة إلا قبل فترة وجيزة لكن مستوياتهم المعرفية مكنتهم من الاطلاع على كل مستلزمات الرفع من الإنتاج الزراعي في حقولهم وبتكاليف مضمونة الربح وقد يفسر الفارق في الإنتاج بين هؤلاء وأولئك بالقدرة على توفير الاستثمار الكافي للرفع من مستوى الإنتاج الزراعي الذي يتوفر عند أغلب الخصوصيين ولا يتوفر لمزارعي القرى والتعاونيات لكن يظل المستوى التعليمي للمزارعين أداة رئيسة وفاعلة في رفع كفاءتهم وقدرتهم الإنتاجية.

تأثير التمويل على الإنتاج الزراعي:

لقد انعكس ضعف مستوى التمويل الذي تقدمه مؤسسة القرض الزراعي CAM والشروط المحددة للحصول عليه انعكس على إنتاج المزارع القروية التعاونية حيث اتضح من خلال الدراسة الميدانية أن أغلب المستجوبين من أصحاب التعاونيات يفضلون عدم زراعة موسم معين إذا لم يكن لديهم التمويل الذاتي على الاقتراض من البنك بحجة أن الاقتراض من البنك قد يعرضهم في حال عدم السداد إلى فقدان أرضهم وهو أمر يروونه خطيرا ويلجؤون بدلا منه إلى التجار الذين يمولون الحملة بشروطهم الخاصة التي يرى فيها المزارع تمويلا أسهل من التمويل الرسمي وعموما يصرح 88.6% من أصحاب التعاونيات أن سبب ضعف الإنتاج في مزارعهم هو ضعف التمويل الذي يعانون من آثاره في مختلف مراحل الإنتاج الزراعي (تقليب الأرض - جلب الماء - البذور - الأسمدة - نزع الأعشاب الضارة - الحصاد - التسويق) فيما وجد أن نسبة

9.0% من هذه التعاونيات تمتلك أرصدة تجارية ذاتية وتتولى تمويل حملاتها بذاتها ويسدد كل مشترك مبلغا ماليا لتعويض التمويل مع الحصاد فيما حصلت نسبة 2.2% فقط على قروض من القرض الزراعي ولا يعتبرونها كافية لتمويل الإنتاج الزراعي. وعموما يتراجع الإنتاج مع ضعف مستوى التمويل وتوفير متطلبات الإنتاج والعكس صحيح فكلما حصل المزارع على ما يكفي من تمويل كان إنتاجه أعلى مستوى ويعد هذا الأمر المفسر الأول في تفاوت الإنتاج بين المزارع الخصوصية متوسط طن / هكتار والمزارع العامة التعاونية 4.37 طن / هكتار

الإنتاج الزراعي ومستوى الحجم النوعي:

يختلف إنتاج الحبوب وقوة وزن هذا الإنتاج في الإنتاج الوطني من الحبوب حيث يكتسب الإنتاج أهميته من قوة حضوره ووزنه داخل كتلة الإنتاج الوطني ويظهر الجدول التالي توزيع الإنتاج الوطني حسب نوع الحبوب ووزن كل نوع منها في الإنتاج الوطني الزراعي.

جدول (1): توزيع الإنتاج حسب نوع الحبوب الحملة الزراعية 2022/2021

نوع الحبوب	الإنتاج بالطن	النسبة من الإنتاج الوطني
الذرة الرفيعة	50269	10.23%
الدخن	813	0.17%
الذرة	11774	2.40%
القمح والشعير	139	0.03%
الأرز	428400	87.18%
المجموع	491395	100%

المصدر: EMEA 2021/2022, p. 20

من الجدول يتضح أن حجم الانتاج الوطني من الحبوب عرف تزايدا مستمرا وتطورا ملحوظا خلال العشر سنوات الأخيرة وأن الإنتاج الطاعي على الإنتاج الوطني من الحبوب يمثلته الأرز وبنسبة كبيرة تجاوزت 87 % وهو أمر يمكن تفسيره بتركيز الدولة الكبير والدعم الذي قدمته لمزارعي الأرز بعد تبني زراعته والتركيز عليها كما أن كل التسهيلات التي قدمتها الدولة في مجال الإصلاح العقاري والتي شجعت مستثمرين ورجال أعمال وحتى مزارعين بسطاء على زراعة الأرز هو ما أعطى لمنتوج الأرز أهمية كبرى في الإنتاج الوطني من الحبوب، كما أن تراجع الأهمية الغذائية التفضيلية للحبوب التقليدية في السلة الغذائية اليومية للمواطن الموريتاني لصالح الأرز جعلت التركيز الزراعي ينصب على هذه المادة كلها، هذا إضافة إلى ارتباط أغلب الحبوب التقليدية الأخرى بالأمطار وتذبذب معدلاتها وتراجعها الحاد في بعض السنوات على عكس الأرز الذي هو زراعة مروية تعتمد على مياه النهر، الأمر أعطاهم مستوى ونوعا من

الاستمرارية والتحكم أكثر من غيرها ويلاحظ من الجدول الضعف الكبير في إنتاج القمح 0.03% من الإنتاج الوطني وهو ما يجعل الاعتماد في هذه المادة الأساسية لا يزال يركز كثيرا على الاستيراد والعون الخارجي.

جدول (2): توزيع الانتاج الزراعي حسب نوع الحبوب 2025/2024

نوع الحبوب	الإنتاج الخام	النسبة من الإنتاج الوطني
الذرة الرفيعة	114373	20.07%
الدخن	3448	0.61%
الذرة	18470	3.24%
القمح + الشعير	1758	0.31%
الأرز	431692	75.77%
المجموع	569741	100.00%

المصدر: M.A.S.A/ LES RESULTATS DEFINITIFS DE LA SAISON NORMALE IRRIGUE-RIZICULTURE POUR LA CAMPAGNE AGRICOLE 2024/202

تعكس أرقام الإنتاج الوطني من الحبوب للحملة الزراعية 25/24 زيادة معتبرة في الحجم العام للإنتاج الوطني من الحبوب مقارنة بالسنوات السابقة 569741 طن مقابل 542102 طن 23/22 و 491391 طن للعام 2022/2021 أي بزيادة قدرها 10.3% عن السنة الأولى و 5% عن السنة الثانية ويظهر الجدول تراجع نسبة الأرز ضمن الإنتاج الوطني 75.77% وتراجعا كذلك في إنتاج الذرة الرفيعة ولكنه طفيفا جدا وتظهر نسبة إنتاج القمح تحسنا ضعيفا في حجم إنتاج هذه المادة ويرجع البعض تراجع إنتاج الأرز إلى الأضرار التي لحقت بالمزارع بسبب السيول التي شهدتها المنطقة الزراعية خاصة الزراعة المروية (الأرز) والتي قدرت بعض الجهات أنها كانت في حدود 40% من إنتاج الأرز خاصة في ولاية الترازو وتبدو الزيادة الطفيفة في إنتاج القمح والشعير مبشرة وتعكس جزء من الاهتمام الذي بدأت الدولة توليه لشعبة إنتاج القمح مؤخرا إلا أن الإنتاج من القمح لا يزال بعيدا جدا من حجم تغطية الاستهلاك الوطني من هذه المادة والذي يتطلب إنتاج أكثر من 490 ألف طن حسب التعداد الأخير للسكان ويبقى التفاوت كبيرا بين الولايات الزراعية حسب نوع وكمية الإنتاج من الحبوب.

توزيع الإنتاج المروي حسب الولايات:

حسب نتائج الحملة الزراعية 2022/2021 تتصدر ولاية الترازو الزراعية المروية من حيث حجم الإنتاج والنسبة إلى الإنتاج الوطني حيث تمثل قريبا من 91% من الانتاج المروي وتبدو ولاية كيديماغا الأقل إنتاجا في الزراعة المروية وربما يعود هذا الأمر إلى قرب ولاية الترازو

من المدن الكبرى (نواكشوط) حيث مركز النشاط الاستثماري في البلد وبعد ولاية كيديماغا من الأسواق الزراعية والتجارية كما أن تركيز الجهود الاستثمارية للدولة والقطاع الخاص كان موجها في الغالب الى ولاية الترازو وهو ما جعلها تحتل المرتبة الاولى زراعيًا على المستوى الوطني.

الجدول (3): توزيع الإنتاج المروي حسب الولايات 2021

الولاية	الإنتاج الخام	النسبة من الإنتاج الوطني
كوركول	21250	4.95%
لبراكنة	19269	4.5%
كيديماغا	733	0.17%
الترازو	387193	90.38%
المجموع	428400	100%

المصدر: Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire EMEA 2021/2022, opcit, p. 19

تبدو سيطرة ولاية الترازو على القطاع الزراعي المروي بشكل عام مستمرة وبنفس النسب التي أفرزتها نتائج الحملة الزراعية 2022/2021 نسبة 91% والتي أكدتها نتائج الحملة الزراعية 2023/2022 مع محافظة الولايات الزراعية الأخرى على نفس نسبها تقريبا مع تراجع في حجم الإنتاج الزراعي المروي بشكل عام.

الجدول (4): توزيع الانتاج المروي حسب الولايات 2023

الولاية	الإنتاج الخام	النسبة من الإنتاج الوطني %
كوركول	14071	4%
لبراكنة	18296	5%
كيديماغا	946	0%
الترازو	361883	91%
الانتاج الوطني	395196	100%

المصدر: EMEA 2022/2023, op. cit, p. 20. Enquête auprès des Ménages et Exploitants Agricoles

تظهر نتائج الحملة الزراعية 2025/2024 زيادة طفيفة في حجم إنتاج الولايات في الضفة الوسطى من النهر 14170 طن في كوركول و 22824 في لبراكنة إلا أنها في المقابل تظهر زيادة في رقم الإنتاج في ولاية الترازو، مع تراجع طفيف في نسبة الاستحواذ على الإنتاج الوطني

التي انخفضت قليلا إلى نسبة 89.9 % ولكن عموما حسب الجداول مثلت الزراعة المروية النشاط المهيمن على الزراعة في موريتانيا كما مثل إنتاجها المصدر الأول للإنتاج الوطني من الحبوب.

الإنتاج الوطني من الأرز وحجم تلبية الحاجة الوطنية:

تطور إنتاج الأرز: عرف إنتاج الارز تطورا كبيرا بعد الشروع في زراعته رسميا وبدعم من الدولة نتيجة سنوات الجفاف التي ضربت الاقتصاد الريفي بشكل خاص والاقتصاد الوطني بشكل عام حيث انتقل إنتاجه من 200 طن سنة 1963م إلى 55067 طن 1990 لكنه عرف تراجعا إلى 53963 طنا سنة 2001 و 2002 و عموما شهد انتاج الوطن من هذه المادة نسقا مستمرا من الزيادة تأثر كثيرا بالتدخلات التي قامت بها الدولة وواكبتها ثم جهود ومبادرات واستثمارات القطاع الخاص التي جعلت من إنتاج الارز الإنتاج الأول على المستوى الوطني حيث ظل يمثل النسبة الأكبر من إنتاج الحبوب على المستوى الوطني ورسمت الأهداف التنموية للدولة الوصول به إلى نسبة تغطية تزيد على 100% وقد مثلت نسبة الإنتاج الوطني من الأرز حسب الحملة الزراعية 2022/2021 إلى حدود 87 % من الانتاج الوطني من الحبوب.

توزيع إنتاج الأرز حسب الولايات:

يعرف إنتاج الأرز تباينا كبيرا بين الولايات الزراعية حيث يعكس سيطرة كبيرة لولاية الترارزة في الانتاج الوطني من الأرز كما في الجدول التالي:

جدول (4): الإنتاج من الأرز حسب الولايات 2025/2024

الولاية	الإنتاج الخام	النسبة من الإنتاج الوطني
كورك	20658	4.79%
لبراكنة	22824	5.29%
كيد ماغا	36	0.01%
الترارزة	388174	89.92%
المجموع	431692	100%

المصدر Direction Régionale.Agricole Trarza les Resultats Définitifs de la Saison Normale irrigue-Riziculture pour la campagne Agricole 2024/2025:

من الجدول يتضح حجم التباين في الإنتاج الوطني من الأرز بين الولايات النهرية ويرجع ارتفاع الإنتاج في ولاية الترارزة إلى كونها مثلت سوقا زراعية على مقربة كبيرة من الأسواق الاستثمارية الكبرى في نواكشوط ونواذيبو وهو ما شكل فيها فرصة للاستثمار في المجال

الزراعي حيث يمثل مزارعو القطاع الخاص في الولاية 55.61%¹، كما أن قرب المساحات المستصلحة في السنوات الأخيرة (بحيرة اركيز+ جهرة أفطوط الساحلي) من العاصمة وتطور الإنتاج الزراعي للزراعة المروية خاصة الأرز جعل من الولاية قبلة للمزارعين والمستثمرين في هذا المجال مع توفر كل مستلزمات السوق الزراعية في هذه الولاية (الاليات+ أسواق البذور والأسمدة والمبيدات+ الحاصدات+ مصانع التقشير) إضافة إلى قرب المنطقة الزراعية في الولاية من السوق الزراعية على الضفة اليسرى للنهر، وقد ظلت مساهمة ولاية الترازو في الإنتاج الوطني من الأرز مرتفعة وتمثل أكثر من 70% قبل أن ترفع هذه النسبة إلى حدود 90% في السنوات الأخيرة، يلاحظ التطور الكبير في إنتاج الأرز حيث انتقل من 271946 طن سنة 2013/2014 إلى 431692 طن للحملة الزراعية 2025/2024 وهو ما يعكس زيادة بنسبة 37% خلال عشر سنوات تقريبا وقد ظلت ولاية الترازو تحتل النسبة الأكبر من إنتاج الأرز على مدى الفترة الزمنية المذكورة حيث أنه في السنة الحالية 2025/2024 وصلت إلى نسبة 89.8%² من الإنتاج الوطني لهذه المادة كما أن تزايد إنتاج الأرز في هذه الولاية جعل المردودية الإنتاجية للهكتار في تزايد نظرا للخبرات التي اكتسبها المزارعون في هذه الولاية وامكانية الحصول على متطلبات الزراعة الناجحة حيث أن المردودية الإنتاجية تبدو الأعلى من بين الولايات الزراعية وقد وصلت إلى 5.76 طن /هك في الحملة الصيفية الأخيرة 2025/2024 ومن خلال الإجابات المتحصل عليها فيالدراسة الميدانية تصل المردودية الإنتاجية إلى 10.2 طن/هك في حدها الأعلى وإلى 5.4 طن/هك في حدها الأدنى وهو ما يعني أن متوسط الإنتاج للهكتار وصل إلى أكثر من 7طن/ هك وهي إنتاجية كبيرة تفوق المعدل الوطني الذي ظل في حدود 5,2 طن للهكتار وتظل إنتاجية الأرز كذلك الأعلى من بين إنتاج الحبوب المروية حيث لم يتجاوز إنتاج القمح للحملة الزراعية 2025/2024 2.39 طن للهكتار³.

حددت الخطط القطاعية لوزارة الزراعة أهدافا للإنتاج الوطني الزراعي وحجم تغطية الحاجة الوطنية من الإنتاج الزراعي وقد كان الهدف في العام 2015 مع انطلاق الخطة الوطنية للتنمية المرجع الأول للتخطيط التنموي خلال الفترة 2016-2025 (الاستراتيجية الوطنية للنمو المتسارع والرفاه المشترك) هو الوصول بالإنتاج الوطني إلى نسبة تغطية للحاجة الوطنية من الأرز إلى

¹ العمل الميداني بتاريخ 2025/7/18

² الإدارة الجهوية للزراعة في ولاية الترازو النتائج الأولية للحملة الزراعية 2025/2024، ص 3

³ نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

115% بحلول 2025 وهو¹ الهدف الذي تبنته الاستراتيجيات القطاعية للزراعة من خلال استراتيجية تنمية القطاع الريفي أفق 2025 سعيا إلى رفع إنتاج الأرز للوصول إلى هذا المستوى ويتطلب تحقيق هذا الهدف تضافر مجموعة من العوامل الإنتاجية، مع تبني أهداف مرحلية على مدى تطبيق الاستراتيجية التي تبنت هدف رفع إنتاج الأرز الصافي إلى حجم إنتاج يغطي بل ويخلق فائضا انتاجيا يصل إلى حدود 15% من الاستهلاك الوطني من الأرز في أفق 2025 وهو هدف يمكن قياس مدى تحققه الآن، ولا تقصر أهداف الاستراتيجية على الأرز بل يبدو طموحها أكثر بعدا بالنسبة للقمح والحبوب التقليدية حيث تسعى إلى بلوغ هدف تغطية إنتاج القمح للحاجة الوطنية بنسبة 70% بحلول عام 2025 وهو أمر ما زال بعيد المنال نظرا لتدني إنتاجية القمح 2.4 طن/هكت². ولمحدودية المساحة المزروعة قمحا حتى الآن حيث لا يمكن أن يقارن بالأرز الذي أصبح مع الوقت الغلة الزراعية الأولى وطنيا وإقليميا كذلك وتسعى الاستراتيجية إلى رفع إنتاج الحبوب التقليدية إلى تغطية الحاجة الوطنية كاملة وقد لا يتأتى هذا الهدف بسبب تذبذب الإنتاج في الحبوب التقليدية وتأثرها بالأمطار وحسب آخر إحصاء الزراعي 2023 تتفاوت نسبة تغطية الحاجة الوطنية من الحبوب تفاوتا كبيرا لكنها تقل عن 3% في بعض المحاصيل التقليدية³ وهو ما يجعل الهدف المعلن في أفق 2025 يحتاج إلى تركيز أكبر في هذا النمط الزراعي.

الاستهلاك والعجز الغذائي:

لمعرفة حجم الاستهلاك الغذائي الفعلي أمرا صعبا ربما لأهمية ترشيد الإنفاق الاستهلاكي الغذائي وأهمية تسييره التسيير الضامن لاستمرارية توفر الغذاء وقد ورد في القرآن الكريم أهمية حفظ الإنتاج وترشيد استهلاكه وأهمية العلم كذلك بما يتطلبه تسيير قوت الناس ومعاشهم من العلوم والمعرفة اللازمة لذلك قال تعالى عن يوسف عليه السلام: "اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم"⁴. ويرتبط استهلاك المجتمعات بمستوى وعي الأفراد والثقافة

¹ وزارة التنمية الريفية استراتيجية تنمية القطاع الريفي أفق، 2025، ص 48

² -RIM MASA: Rapport Saison Normale CA 2024/2025

³ - Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire Enquête auprès des Ménages et Exploitants Agricoles (EMEA) 2022/2023, p. 28

⁴ - القرآن الكريم سورة يوسف، الآية 55

² -فيان صالح علي، أبعاد اقتصادية في قصة النبي يوسف عليه السلام في ضوء القرآن الكريم، مجلة كلية العلوم الإسلامية جامعة الموصل المجلد السابع العدد الثالث عشر 2013، ص 23

الاجتماعية¹ والعقائد والالتزام ومستوى الدخل والرفاهية وترتكز بعض معايير ترشيد الاستهلاك لدى الأفراد على القناعة والاستهلاك طبقا للإمكانات وبعيدا عن الترويج لمواد الرفاهية مع تقدير احتياجات كل فرد داخل الأسرة واختيار المواد الغذائية الصحية وبدائلها وقد مثل اتساع المساحة في موريتانيا وقلة السكان وفوضوية التقري والترحال وفوارق الدخل الكبيرة وتأثير الانفتاح الاجتماعي عوامل ساعدت على صعوبة ضبط استهلاك الفرد كما أن غياب بيانات إحصائية دقيقة حول استهلاك الفرد والإنتاج والاستيراد الغذائي وانتشار ظاهرة التهريب بحكم اتساع الحدود وقرب بعض الأسواق الدولية زادت من صعوبة تحديد معايير موحدة وقد قدرت اللجنة الدائمة المشتركة لمكا فحة التصحر في الساحل استهلاك الفرد في دولها والتي من ضمنها موريتانيا ب 46 كغ من الأرز للفرد سنويا، وقد حددت مفوضية الأمن الغذائي استهلاك الفرد من الغذائي ب 209 كغ للسنة منها 79 أرزا و113 قمح و17 ذرة² في حين حددت المعايير الرسمية المعتمدة 182 كغ للفرد في السنة من الحبوب منها 46 أرزا و110 كغ قمح و26 حبوب تقليدية، وبالفعل فإن العاملين بمفوضية الأمن الغذائي أقرب إلى واقع المجتمع وربما اعتمدوا في بعض المعطيات على كمية الاستيراد من الحبوب³ والمنتج محليا وهي أسس لا تكفي في المحيط الاجتماعي الاقتصادي الموريتاني لتأمين الدقة، حيث يبقى احتمال مغالطات المستوردين للجمارك واردا كما أن أغلب الموردين يحافظون على تخزين كميات كبيرة من الحبوب وخاصة الأرز والقمح تحسبا لأي طارئ في الأسواق الدولية⁴ وبالتالي تظل بيانات الاستيراد لا تكفي للاعتماد في تحديد كمية الاستهلاك⁵.

3 محمد لمين محمد المصطفى، التخطيط الإقليمي في موريتانيا وانعكاساته على الأمن الغذائي، كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة نواكشوط 2022، ص 226

2 نفس المرجع ونفس الصفحة

3 نفس المرجع ونفس الصفحة

⁴Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire EMEA 2021/2022, p 27

5- محمد الأمين محمد المصطفى، التخطيط الإقليمي، مرجع سابق، ص 227

جدول (5): المعايير الرسمية لاستهلاك الفرد من الحبوب 2021 / 2022

نوع الحبوب	الإنتاج الخام طن/	الإنتاج الصافي طن/	استهلاك الفرد كـ سنة/كـ	الحاجة الوطنية بالطن	نسبة التغطية %
الذرة والذرة الرفيعة والدخن	62856	53427	26	113673	47
القمح والشعير	139	132	110	480924	0
الأرز	428400	233907	58	253578	92
المجموع	591395	287466	194	848175	37

المصدر: EMEA 2021 op cit .p 19

يلاحظ من الجدول اختلاف في معايير الاستهلاك من الحبوب حيث زادت كمية الأرز فيما تراجعت نسبة الاستهلاك من الحبوب التقليدية وقد يفسر ذلك بزيادة الاستهلاك الناتج عن بعض التحولات الاجتماعية حول العادات الغذائية ونوع الوجبات والتفضيل الغذائي كما يعزى إلى العوامل الأخرى المتعلقة بالإرادات الغذائية وحجم الإنتاج الوطني من هذه المادة كما أن تراجع كمية الحاجة من الحبوب التقليدية ربما يعود إلى تراجع حضور هذه الحبوب في النظام الغذائي اليومي للموريتانيين وربما إلى ضعف مستوى إنتاجها المرتبط كثيرا بالظروف المناخية والمعتمد على وسائل إنتاج تقليدية. وقد قدرت الحاجة الوطنية من الحبوب هنا بناء على نتائج توقعات الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي حول عدد السكان سنة 2022 وعموما يعكس الجدول (السابق) تلبية تقدير احتياجات السكان من الحبوب بنسبة 34%¹ (من إجمالي الحبوب) في عام 2022. وتتبع هذه النتيجة المتواضعة والتي لا تمثل الاكتفاء الذاتي من الحبوب، من انخفاض إنتاج القمح والشعير والطلب المرتفع جداً على القمح، من ناحية أخرى، اقتراب الإنتاج الوطني لسنة 2022 من الاكتفاء الذاتي من الأرز، حيث لبي احتياجات الأرز بنسبة تُقدر بنحو 92%، بناءً على متوسط استهلاك يبلغ 58 كجم للفرد². ويظل معدل التغطية للحبوب الأخرى (الذرة الرفيعة والدخن والذرة الصفراء) عند متوسط 47 %، وقد بُنيت هذه النسب بناء على تقديرات الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي بوصول عدد السكان إلى 4372037 نسمة، وإنتاج زراعي من الأرز الخام وصل إلى 428400 طن

¹-Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire. EMEA 2021/2022, op. cit, p 23

²-op. cit, p. 31

وبنسبة تقشير وصلت 54.6% أي 233709 طن من الأرز الأبيض إنتاج صافي عرفت هذه النسب تغيرا في نسب تغطية محصولي الأرز والحبوب التقليدية حيث تراجع الارز بنحو 10 نقاط لسنة 2023 ويعود ذلك الى تراجع إنتاج الارز لسنة 2023 الناتج عن السيول التي أضرت كثير بمحصول الأرز مع الابقاء على معيار الاستهلاك ثابتا ومع زيادة طفيفة في عدد السكان مما جعل نسبة التغطية من الارز تتراجع لتصل إلى 83% في المقابل اقتربت نسبة التغطية بالنسبة للحبوب التقليدية من الهدف المتوقع لأفق 2025 خاصة الذرة الرفيعة لكنها بدت ضعيفة في الدخن 3% والذرة 13% ربما لارتباط الصنفين أكثر بالظروف المناخية وقد عرفت سنة 2023 تراجعا عاما في نسبة تغطية الحاجة الوطنية من الحبوب حيث لم تتجاوز من إجمالي الحبوب 31% مع فوارق في نوع الحبوب حيث غطت الذرة الرفيعة 91% والأرز 83% في حين كانت النسبة في القمح والشعير أقل من 1% وقد استخلصت هذه النسب بناء على توقع من ANSADE بوصول عدد السكان إلى: 4475683 نسمة لسنة 2023.

جدول (6): نسب تغطية الحاجة الوطنية من الحبوب 2023

الحبوب	الإنتاج الخام المفترض/طن	الإنتاج الصافي/طن	إنتاج الحبوب الاستهلاك: طن	السكان 2023	معيـار الاستهلاك بالكلغ	حجم الحاجة الوطنية طن	نسبة تغطية الحاجة الوطنية
الذرة الرفيعة	124607	105916	105916	4475683	26	116368	91%
الدخن	3437	2921	2921		26	116368	3%
الذرة	17896	15212	15212		26	116368	13%
القمح والشعير	1504	1429	1429		110	492325	0%
الأرز	394658	259139	215484		58	259590	83%
المجموع	542142	484617	340961			1101019	31%

المصدر: EMEA.OP CIT 2022/2023 P 25 Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire

من الجدول يتضح أن مستوى تغطية الوطنية من الحبوب يتوقف على مدى نجاعة عوامل لإنتاج الزراعي والتحكم الكامل في الإنتاج فبالنظر إلى الانتاج الوطني الخام من الأرز الغلة الزراعية المروية الرئيسية الذي وصل إلى 431692 طن لسنة 2025/2024 تمثل ولاية الترازة منها نسبة 92% فإنه سيغطي الحاجة الوطنية بسبة 151% لكنه نتاجا خاما تؤدي عمليات الحصاد إلى فقد نسبة 9% منه يجمعها ضعاف العمال ونساء القرى القريبة من المزارع

وهي لا تدخل ضمن حساب الإنتاج الصافي كما أن عمليات التقشير رغم وجود مصانع كبرى تلقت الدعم الكبير من الدولة من أجل تعزيز جودة الأرز إلا أن نسبة التقشير ما زالت دون المستوى العالمي حيث يتراوح بين 55 و60% بينما يصل في بعض بلدان العالم إلى 70% ويظهر أن نسبة تغطية الحاجة الوطنية من الحبوب تراجعت قليلا عن مستواها 2023 حيث لم تتجاوز للحملة الزراعية 25/24 نسبة 29.19% تراجع بمستوى نقطتين، عن المستوى السابق ويفسر هذا الضعف الكبير في مستوى التغطية بضعف إنتاج القمح بشكل عام وحجم حاجة الاستهلاك منه 110 كلف للفرد سنويا حيث تمثل الحاجة الوطنية من القمح 45% من الحاجة الوطنية من الحبوب ولا تزال قدرة زراعة القمح على تغطية هذه الحاجة ضعيفة كما هو مبين في الجدول بينما يعزى تراجع تغطية إنتاج الأرز للحاجة الوطنية إلى تزايد عدد السكان وتحديث معايير الاستهلاك السنوي للفرد حيث توقعت PNDA أنه بمعيار استهلاك 46 كلف للفرد سنويا ونسبة تقشير تصل 64.9% سيغطي إنتاج الأرز الحاجة الوطنية بعدد سكان توقعت أنه سيكون 4909944 عام 2025 بنسبة 119%¹ وإذا طبقنا هذين المعيارين (معيار الاستهلاك و نسبة التقشير) على الإنتاج الوطني من الأرز لسنة 2025/2024 لكن باعتماد توقعات ASNADE لعدد السكان للعام 2024 /4927532 سيكون الإنتاج الوطني من الأرز: 251026 طن وحجم الحاجة الوطنية 226666 طن وستكون نسبة التغطية للحاجة الوطنية من الأرز 110.7% أي بفائض انتاج في حدود 11% وهو أمر يعني تحقيق الاكتفاء الذاتي وحصول الأمن الغذائي في جزء من الحبوب الغذائية الأرز وبفائض إنتاجي يمكن تصديره إلى دول الجوار لكن باعتماد معايير الاستهلاك التي حددت في EMEA 2023/2022 والتي حددت 58 كلف للفرد وباعتبار نسبة التقشير التي حددها المزارعون وملاك المصانع أثناء القيام بالعمل الميداني، ستكون نسبة التغطية من الأرز في حدود 83% فقط 2025/2024 كما في الجدول أدناه، وهو ما يعني عجزا غذائيا في ميزان الأرز يصل إلى نسبة 17 بالمائة أي أنه لتغطية الحاجة الوطنية من الأرز لا بد من استيراد حدود 50 ألف طن هي الفارق تقريبا بين حجم الحاجة الوطنية من الأرز وحجم الإنتاج الوطني منه وقد بلغ حجم الاستيراد المسجل من الأرز حسب المرصد الوطني للأمن الغذائي 2024 /80359 طن من الأرز أي بزيادة حدود 30 ألف طن على الحاجة الوطنية² فيما كان حجم الاستيراد من القمح كبيرا جدا ووصل إلى أكثر من 900 ألف طن وهو ما يعني أن

1-Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire -Plan National de la développement agricole. PNDA. p62

²-مقابلة مع الدكتور مولاي سعيد باب عينينا: مدير المرصد الوطني للأمن الغذائي، بتاريخ: 2025 /8/12

إنتاج القمح يحتاج إلى طفرة زراعية كبيرة بحجم التطور الذي حصل في إنتاج الأرز أو أكثر حتى نستطيع تلبية الحاجة الوطنية ولم يكن حجم المعونة الغذائية كبيراً حيث لم يتجاوز 5000 ألف طن لسنة 2024 وعموماً وصل عجز الميزان التجاري مع الربع الأول من العام 2025 إلى 5418 مليون أوقية مقابل أكثر من 6 آلاف مليون 2024 فيما لم تتجاوز نسبة الواردات الغذائية من إجمالي الواردات 22%¹. في حين وصلت نسبة تغطية الصادرات من الواردات نسبة 89% إلا أن مستوى تغطية الحاجة الوطنية من الاستهلاك الغذائي من الإنتاج الوطني الزراعي ما زالت بعيدة إلى حد ما في حدود 30% فقط وإن كانت قريبة من التغطية بالنسبة للأرز والذرة.

خاتمة:

يظل الهدف الأساسي والاسمي للإنتاج الزراعي هو تغطية احتياجات السكان وتوفير الغذاء لهم أو على الأقل توفير الحد الأدنى مما يسمى الاكتفاء الذاتي وهو هدف وإن بدى صعب التحقق إلا أنه في واقع الدول ليس مستحيلاً ولتحقيق هذا الهدف لا بد من إزاحة كل العراقيل التي تقف في وجه التطور ونجاح التجربة الزراعية، أو التقليل من تأثيرها خاصة في الزراعة المروية التي تعتمد على مورد مائي دائم وأراضي زراعية شاسعة والتي أعطت إلى حد الآن نتائج مشجعة على الاستمرار في التوسع والتكثيف الزراعي، ويمكن توسع وتنويع الإنتاج الزراعي وتحقيق الاكتفاء الذاتي في مجال الحبوب خاصة إذا قامت الدولة باستصلاح المزيد من الأراضي الزراعية والاستثمار في المشاريع ذات الطابع الاستراتيجي كشق قنوات الري الكبرى للوصول بالماء إلى الأراضي الزراعية وبناء السدود وبناء المستودعات، وتملك موريتانيا آفاقاً واعدة إذا تمت إعادة توزيع ملكية الأراضي الزراعية بحيث تتلاءم مع التطور التكنولوجي، كما أن زيادة الوعي بأهمية القطاع ومكانته في الاقتصاد الوطني وتطوير الخبرات لدى الفلاحين حول استخدام المكننة الزراعية ووضع آليات للتسويق سيكون له الأثر الكبير في تطور الزراعة وبلوغ الاكتفاء الذاتي (تغطية الحاجة الوطنية) في مجال الغذاء.

وبشكل عملي يجب تبني قطاع زراعة الأرز كقطاع استراتيجي ورؤيسي في جميع الولايات النهرية مستفيدة من الطفرة الإنتاجية الكبيرة الحاصلة للأرز في ولاية الترارزة، يضاف إلى ذلك إدخال زراعة القمح ودعمها لمكانة المادة في العادات الغذائية للفرد الموريتاني وكذلك تطويرها، وكذا تطوير إنتاجية صغار المزارعين وذلك عبر إعادة التعليم والتأهيل والتدريب

¹ – نفس المرجع السابق

للفلاحين والمشتغلين بالزراعة بشكل دائم ومنظم. وكذا تطوير كفاءة استغلال الموارد الطبيعية وتطوير الكفاءة التسويقية للمنتجات الزراعية وتطوير البنى الأساسية للزراعة.

قائمة المراجع:

أولا الكتب:

1. العبادي كاظم الجاسم، جغرافية الزراعة جامعة الموصل العراق بدون سنة نشر.
2. عالي أحمد هارون، جغرافية الزراعة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى: 2000
3. محمد حبيب العكلي: جغرافية الزراعة، دار الوضاح للنشر والتوزيع 2021

الأطاريح:

1. عبد الله ولد محمد الأمين، القطاع الفلاحي ودوره في التقليل من التبعية الغذائية، رسالة ماجستير في الجغرافيا جامعة هواري بومدين الجزائر— 2008
2. عبد الله سيد محمد أ بنو، دور الزراعة في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية وآفاق التنمية المحلية المستدامة في دلتا نهر السنغال أطروحة الدراسات العليا المعقة في الجغرافيا، جامعة ابن طفيل المغرب 2006
3. محمد أحمد السيد، الماء والفلاحة في الضفة اليمنى المتوسطة لنهر السنغال دراسة في الجغرافيا الريفية أطروحة دكتوراه جامعة تونس الأولى 2013.
4. محمد الأمين محمد المصطفى، التخطيط الزراعي في موريتانيا، رسالة الماجستير في التهيئة الإقليمية جامعة هواري بومدين الجزائر 2005.

المقالات والدراسات والوثائق الرسمية والمقابلات:

1. السيد عيد فرج موسى، التغيرات البنائية والمناخية، وعزوف الفلاحين عن مهنة الزراعة، مجلة بحوث كلية الآداب — جامعة المنوفية مصر 2022.
2. محمد يسلم سكان، الزراعة في موريتانيا، المجلة الجزائرية للاقتصاد والإدارة، العدد 8 السنة 2016.
3. وزارة البيئة والزراعة والمياه، كتاب الزراعة المطرية، نتائج الدراسة التفصيلية بالجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية 2021.
4. وزارة التنمية الريفية استراتيجية تنمية القطاع الريفي أفق 2025.
5. الإدارة الجهوية للزراعة في ولاية الترازو النتائج الأولية للحملة الزراعية 2024/2025.

6. مقابلة مع الدكتور مولاي سعيد باب عينا: مدير المرصد الوطني للأمن الغذائي،

بتاريخ: 2025/8/12.

المراجع باللغة الأجنبية:

1. IFPRI : Investir dans l'irrigation pour assurer la sécurité alimentaire dans le futur – Perspective 2050 en Mauritanie : www.ifpri.org
2. RIM : Ministère De L'Agriculture. -Plan National de la développement agricole. PNDA
3. RIM : Ministère De L'Agriculture Et de la Souveraineté Alimentaire : Rapport Saison Normale CA 2024/2025
4. Ministère De L'Agriculture .Enquête auprès des Ménages et Exploitants Agricoles (EMEA) 2022/2023 <http://www.4geography.com/>

المشاكل البيئية التي تواجه مدينة نواكشوط

زينب بنت سيد أحمد الملقبة شيماء

طالبة دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

خلال السنوات التي عقيبت استقلال البلاد سنة 1960، كانت مدينة نواكشوط عبارة عن مركز حضري صغير مجاليا وقليل ديمغرافيا، ولا يوجد ضغط على الموارد الطبيعية للمدينة ولا تواجه تحديات المشاكل العمرانية المتمثلة في الضغط السكاني، ولكن بعد جفاف السبعينات الذي ضرب البلاد اجتاحت مدينة نواكشوط موجات من الهجرة السكانية على عدة مراحل وخلال سنوات متتالية جعلت المدينة في تحدي مستمر لإيجاد حل للسكن الحضري والامتداد المجالي للمدينة، وساهم ذلك في الضغط المستمر على الخصائص الطبيعية للمدينة وعلى أنشطتها الاقتصادية، مما نجم عنه بالإضافة إلى الموقع الطبيعي للمدينة تحديات بيئية تتمثل في خطر الفيضانات والغمر البحري خاصة في المناطق الغربية القريبة من شاطئ المحيط والمناطق المنخفضة تحت مستوى سطح البحر، هذا بالإضافة إلى مستنقعات المياه الراكدة وزحف الرمال الذي يهدد المدينة من الشمال والشرق، وكل تلك المشاكل تهدد المدينة بشكل مستمر، وتطرح باستمرار فرضية نقل العاصمة من نواكشوط إلى إحدى مدن الوطن.

كلمات مفاتيح: البيئة — التربة — المناخ — التطور السكاني — الكثبان الرملية.

مقدمة

قال تعالى "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ..." صدق الله العظيم، الآية رقم 56 من سورة الأعراف، تتحدث عن حماية البيئة في الشريعة الإسلامية كما أقرها الكتاب الحكيم، فالله سبحانه وتعالى خلق البيئة بمكوناتها الحياتية والمعيشية، والنباتية والحيوانية والجماعية والحيوية، وجعل التوازن في البيئة في قوله تعالى "وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا" صدق الله العظيم، نجد في هذه الآيات القرآنية الكريمة التأكيد على أهمية البيئة في حياة الإنسان وضرورة المحافظة عليها، وقديما كانت البيئة أقل تعرضا للتلوث واستنزافا للموارد الموجودة بها من قبل الساكنة حيث كان الإنسان أقل حاجيات ولكن مع تطور

الإنسان وتزايد حاجياته وانفجار ظاهرة التحضر وظهور المدن بدأت المشكلات البيئية في الظهور.

لقد كانت مدينة نواكشوط بعد أن أخذت صفة عاصمة البلاد الأسرع تطورا وتزايدا بالسكان خصوصا بعد الأحداث الداخلية التي ارتبطت بالظروف المناخية وما انعكس عنها من هجرات نحو هذه المدينة الجديدة (نواكشوط)، وفي فترة نصف قرن تحولت مدينة نواكشوط من مركز سكاني صغير إلى مدينة كبيرة جدا مترامية الأطراف وتوسعت المدينة على كل الجهات في اتجاه البحر والصحراء، وكان نمو المدينة السريع وموقعها الجغرافي من بين الأسباب التي تعرض العاصمة نواكشوط لتحديات بيئية كبيرة لم تكن مطروحة بشدة أثناء اختيار المدينة لتكون عاصمة البلاد سنة 1960، فتدهور الشريط الساحلي بفعل النشاط البشري ووجود السباح يؤدي إلى خطر الغمر البحري وانبثاق البرك إضافة إلى زحف الرمال من الشمال والشمال الشرقي كل تلك تحديات بيئية كبيرة تواجهها العاصمة نواكشوط.

ونتيجة لتطور المدينة أكثر ونموها ديمغرافيا واقتصاديا زادت المشاكل البيئية، وأصبحت المدينة تعاني أكثر من مشاكل بيئية جعلتها في مواجهة دائمة مع تحديات بيئية وحضرية متنوعة، ومن ذلك جاء سبب اختياري لهذا الموضوع ولأهميته الكبيرة في توضيح الصورة عن المشاكل المتسببة في الإخلال بالمنظومة البيئية داخل العاصمة نواكشوط وتحديد أهم المشاكل البيئية التي تعاني منها المدينة، وهذا ما يعتبر الهدف الأساسي لهذا المقال، ولمعالجة ذلك تمت صياغة عدة إشكاليات تمثلت في التساؤلات التالية: ما هو واقع البيئة بمدينة نواكشوط؟ ما هي التحديات البيئية التي تواجهها مدينة نواكشوط؟ ما طبيعة العوامل المساهمة في تفاقم المشاكل البيئية بالمدينة؟، وللإجابة على تلك الإشكاليات تم تناول هذا الموضوع عبر تقسيمه إلى أربعة محاور، وذلك على النحو التالي:

المحور الأول: التعرف على الإطار الطبيعي والبشري لمدينة نواكشوط

1 — الإطار الطبيعي لمدينة نواكشوط

1 — 1 — الموقع والمساحة والحدود

تقع مدينة نواكشوط في أقصى غرب البلاد، تحدها ولاية الترارزة من الشمال والشرق والجنوب، ويحدها من الغرب المحيط الأطلسي وتشغل مساحة 1300 كلم² (أي نسبة 0.26% من

مساحة البلاد)، وتقع فلكيا على دائرة العرض 18° 17° شمالا، وخط طول 56° 15° غربا¹، وبهذا الموقع تعتبر مدينة نواكشوط منطقة انتقالية ما بين المناخ الصحراوي والساحلي. رغم عدم وجود فوارق كبيرة بين هذين النطاقين المناخيين، وفي الواقع فإن نواكشوط تقع بأقصى غرب مجموعة بأقصى مجموعة من الكثبان الرملية القارية على ارتفاع دون 20م وتشمل منخفضات ممتدة في اتجاه شمالي — شرقي وجنوبي — غربي على مرتفع رملي يبعد 5 كلم من المحيط الأطلسي الذي يفصلها عنه شريط رملي ساحلي ومنخفض أرضي (السبخة)²، وهذا الموقع يزيد من احتمال تعرض المدينة وفي أي وقت إلى عمليات غمر مياه المحيط كلما وصل هذا الأخير إلى مستوى معين من الارتفاع (40م)³.

1 — 2 — البنية الجيولوجية والتربة

تقع نواكشوط في حوض ساحل الأطلسي وتتكون من صخور رسوبية. وعلى المستوى الضحل تتكون منطقة نواكشوط من طبقات من الرمل والحجر الجيري التي تشكل الطبقة الأولى للمياه الجوفية، وتقع هذه الطبقة الرقيقة على منسوب حوالي 35 متر تحت مستوى سطح البحر. وتتكون تربة نواكشوط السطحية إما من طبقات المحار المتحجر أو الرمل الناعم باستثناء مناطق السبخات التي تحتوي على طبقة رقيقة من الرمل الطيني⁴، وتشكل سطح تربة نواكشوط، طبقة من الرمل المحاري أو من الرمال الدقيقة باستثناء الطبقة الحثية المتوازية تحت طبقة رقيقة من الرمل الطيني (منخفضات من السباخ).

¹ فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، 2010-2011. ص 15.

² وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق 2010 - 2020، ص 4.

³ فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، مرجع سبق ذكره، ص 16.

⁴ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، الوكالة اليابانية للتعاون الدولي (جايكا)، مشروع تطوير المخطط التوجيهي للتهيئة العمران لمدينة نواكشوط، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، التقرير الفني للمخطط التوجيهي للتهيئة العمران، أكتوبر 2018، ص 5.

ويتميز الإطار الطبيعي للمدينة بوجود كثبان رملية متحركة شيدت عليها أحياء سكنية (توجنين، القطع الأرضية الواقعة على الخط الرابط بين عرفات والرياض)، وتتميز هذه التربة بالملوحة، كما أنها مشبعة ومحدودة الامتصاص خاصة في مقاطعتي السبخة والميناء¹

1 — 3 — تضاريس السطح

تتميز مدينة نواكشوط بتضاريسها الساحلية الخاصة، مقارنة مع باقي مدن البلاد، فهي توجد في منطقة شبه مستوية، يحدها من الغرب شريط ساحلي، بالإضافة إلى سلسلة الأشرطة الرملية الممتدة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي تفصل بينهما منخفضات تمثل الموقع الحالي الذي شيدت عليه المدينة، وقد تطورت النواة الأولى لمدينة نواكشوط (لكصر) على مرتفع رملي يصل متوسط ارتفاعه ما بين 7-8م، وتعتبر المنطقة الواقعة قرب خزان الماء الرئيسي أعلى ارتفاع في المدينة (12م)² ، وعموما فإن تضاريس نواكشوط مستوية وتقريبا دون أي مصادفة تذكر ويقع جزء مهم منها تحت مستوى سطح البحر مما يجعلها في عرضة لفيضانات ذات أضرار بالغة³.

1 — 4 — المناخ

تقع مدينة نواكشوط فلكيا على دائرة العرض 18.7° شمالا، وخط طول 56 15° غربا، وبهذا الموقع تعتبر مدينة نواكشوط منطقة انتقالية ما بين المناخ الصحراوي والساحلي رغم عدم وجود فوارق كبيرة بين هذين النطاقين المناخيين، ونميز في نواكشوط ثلاثة مواسم مناخية هي موسم بارد يبدأ من أكتوبر حتى يناير ويتمتع بدرجات حرارة منخفضة (متوسط الحد الأدنى 19 درجة مئوية) ويتميز بتبخر مهم ورطوبة منخفضة؛ موسم حار يبدأ من فبراير حتى يونيو ويتميز بارتفاع درجات الحرارة خصوصا خلال النهار (متوسط الحد الأقصى 32 درجة مئوية)⁴ ولكن

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق 2010-2020، ص 5.

² فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، مرجع سبق ذكره، ص 19.

³ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 5.

⁴ أبو المعالي ولد الحسن، التزود بمياه الشرب في مقاطعة عرفات، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة لنواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015، ص 13.

هذه الدرجات الحرارية تنخفض في المساء بسبب نسيم البحر؛ موسم معتدل الحرارة ورطب يبدأ من يوليو حتى سبتمبر وهو موسم تساقط الأمطار¹.

2 — الإطار البشري لمدينة نواكشوط

2—1 — التوسع التاريخي للمدينة

تم اختيار موقع نواكشوط سنة 1957 على ساحل المحيط الأطلسي الذي يتميز بالانفتاح على العالم الخارجي من خلال ميناء نواكشوط المستقل، كما يرجع سبب اختيار موقعه أن مناخ المنطقة أقل قساوة بفعل التيارات البحرية التي تطفه في المساء، ولكن هذا الاختيار لنواكشوط قد أهمل العديد من المشاكل كزحف الرمال فالعاصمة الفتية للبلاد تبرز من بين الكثبان الرملية وتنتهي غرب الشريط ساحلي هش (أفطوط الساحلي) وتمتد مدينة نواكشوط على مسافة 28 كلم من الشمال إلى الجنوب و24 كلم من الشرق إلى الغرب وتضم الآن أكثر من ربع الساكنة الوطنية²، وتعتبر نواكشوط هي اختراع جريء من الشعب الموريتاني لا مورث تركه الاستعمار خلافا لمعظم العواصم الإفريقية فقد ولدت نواكشوط متزامنة مع الدولة المستقلة آنذاك وانتقلت من المركز الصغير إلى أكبر مدن البلاد وقد كانت مركز صغير يأوي 8 آلاف نسمة سنة 1970 إلى أن أصبحت سنة 2005 تأوي ما يقارب المليون نسمة وهو دليل على سرعة توسع ونمو المدينة³.

ومنذ حصول البلد على السيادة الدولية في 28 نوفمبر 1960 كانت نواكشوط العاصمة محل برامج استصلاح وتأهيل عمراني فقد تم تصور مخططات عمرانية لكن كان أشهرها البرنامج الاستصلاحية الذي يوزع المدينة إلى جانبين؛ في الجنوب الغربي المدينة الحديثة المسماة "كبيتال" وفي الشمال الشرقي المباني الأصلية التي أصبح يطلق عليها اسم "لكصر" وهذان القطبان تفصلهما مسافة 2 كلم تقريبا.

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق 2010-2020، ص 4.

² وزارة الثقافة والشباب والرياضة، نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاما من التحدي، المتحف الوطني بنواكشوط، المركز الثقافي الفرنسي سينتاكسوبيري، ترجمة محمد المصطفى ول سيد أحمد، دار النشر "سيبيا"، 2006، ص 12.

³ وزارة الثقافة والشباب والرياضة، نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاما من التحدي، نفس المرجع السابق ص:

وهكذا فإن نواكشوط قد تحولت من مركز بسيط إلى مدينة مترامية الأطراف حيث انتقل عدد السكان من 600 نسمة في 1958 إلى أكثر من 800.000 نسمة اليوم في 40 سنة تضاعف عدد سكان المدينة الجديدة 1000 مرة ومن بين أسباب هذا الانفجار الديمغرافي نحو المدينة الجديدة الهجرة الريفية التي نتجت عن سنوات الجفاف الكبير في السبعينيات¹

2 — 1 — التطور السكاني المتسارع للمدينة

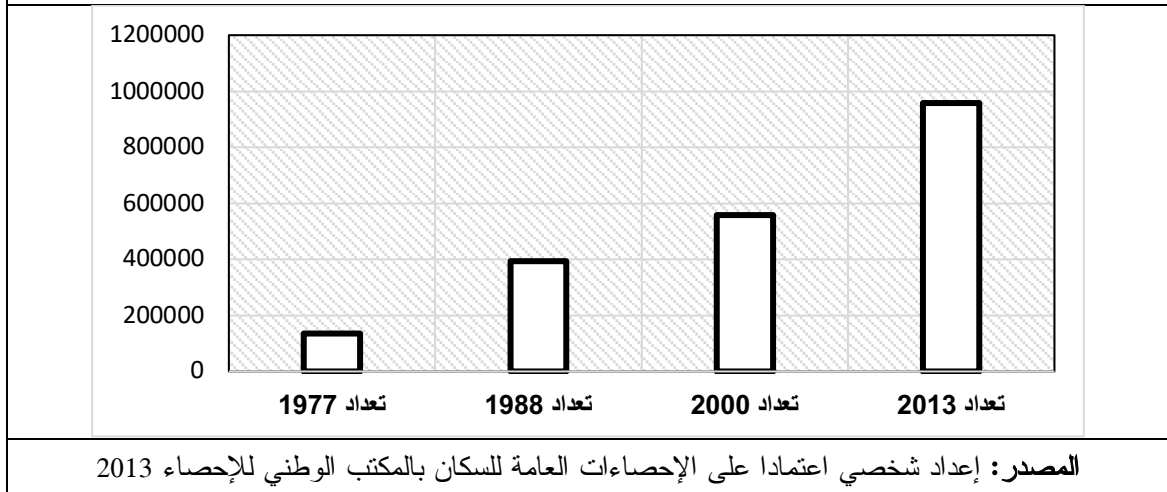
يتضح من خلال الإحصاءات والتعدادات العامة للسكان أن هناك تطورات مهمة على مستوى ساكنة العاصمة نواكشوط التي عرفت تطورات كبيرة في ساكنتها، ففي كل فترة لاحقة كان هناك تطور مهم لعدد السكان بالعاصمة نواكشوط حيث نجد أن عدد السكان بها حسب التعدادات العامة للسكان انتقل من 134704 نسمة بتعداد 1977 إلى ما يقارب المليون خلال آخر تعداد سنة 2013 (958399 نسمة)، وهو ما يشير إلى التطور الكبير لعدد السكان بالعاصمة نواكشوط. فوفق التعداد العام للسكان والمساكن 2013 يبلغ مجموع سكان موريتانيا 3537111 نسمة وعدد سكان مدينة نواكشوط حوالي 958111 نسمة أي 27% من إجمالي عدد السكان الوطني ازداد عدد سكان مدينة نواكشوط بشكل ملحوظ أكثر من سكان موريتانيا إذ بلغ متوسط معدل النمو السنوي لمدينة نواكشوط 4.3% بين تعدادي 2000 و 2013، بينما بلغ متوسط معدل النمو السنوي في موريتانيا 2.7% في نفس الفترة.

حققت البلديات في الجزء الشرقي من المدينة بين تعدادي 2000 و 2013 أعلى معدلات نمو السكان في نواكشوط. حيث وصلت بلدية الرياض إلى 8.1%، تليها توجنين بنسبة 7.5% ودار النعيم بنسبة 6.8%، في حين أن تفرغ زينة ولكصر والسبخة اللاتي تقع في الجزء الغربي من المدينة لديها معدلات نمو لديها معدلات نمو سلبية أو منخفضة تبلغ على التوالي 0.3%، 0.5%، 1.0%²، الشكل رقم (1) يوضح تطور عدد السكان.

¹ مخطط التنمية البلدية 2013-2017، بلدية تيارت، بدعم فني من المجموعة الحضرية في نواكشوط، بدعم فني ومالي من سفارة فرنسا بموريتانيا مشروع الحكم الحضري والضرائب المحلية، ص 10.

² تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 8.

شكل رقم 1: تطور عدد سكان نواكشوط خلال الإحصاءات العامة للسكان (1977-1988-2000-2013)



المحور الثاني: واقع البيئة بمدينة نواكشوط

سنحاول هنا من خلال هذا المحور التعرض إلى أهم الوحدات البيئية المكونة لبيئة مدينة نواكشوط والتي تتمثل في انتشار الكثبان الرملية والسباح كمكون يدخل في تشكيل بيئة مدينة نواكشوط بالإضافة إلى الشريط الساحلي بوصف أن المدينة هي مدينة ساحلية تقع على ساحل المحيط الأطلسي جعل لها شريط ساحلي له خصوصياته البيئية.

1 — الكثبان الرملية

يتميز موقع نواكشوط بسلسلة من الأشرطة الرملية قد يصل ارتفاعها إلى 20م معظمها شديد الحركة مما أدى إلى انفصام النسيج الحضري للمدينة وتشكل هذه الأشرطة عاملا معيقا في تهيئة المدينة وقد أدى توسع الأحياء المحيطة بالمدينة إلى دمج بعض هذه الكثبان تماما في النسيج الحضري رغم ارتفاع تكاليف تشييد البني التحتية الطرق وشبكات المياه.

وبالمقابل على المواطنين حماية منازلهم من زحف الرمال ويمكن القول أن هذه الظاهرة تعاني منها المدينة بشكل عام إلا أن هناك بعض المقاطعات الأكثر تضررا (تيارت، توجنين، تفرغ زينة)¹ لقد سعت السلطات القائمة على التعمير بوسائل مختلفة إلى محاولة التحكم في زحف الرمال حيث قامت بعمليات تشجير حول العاصمة تهدف من بين أمور أخرى إلى تثبيت الكثبان الرملية من خلال تكوين أحزمة خضراء تلف المدينة إلا أن نتائج هذه العمليات كانت محدودة فالمساحة المستصلحة في إطار مشروع الحزام الأخضر أصبحت مهددة بالتلف فقد ضاع ثلث المساحة تحت ضغط الحيوانات السائبة أو تجزئة بعضها ومنحه كقطع أرضية للسكن أو عدم صيانتها.

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)، ص 5-6.

2 — السبخة

توجد مدينة نواكشوط على جزء من الشريط الساحلي الذي يعرف بآفطوط الساحلي، حيث توجد سبخة أندغمشة وهي عبارة عن منخفض متسع يصل عرضه إلى عدة كيلومترات وتقع مباشرة وراء الشريط الرملي الساحلي (في الجانب الغربي من المدينة) وتضم عدة أماكن تحت مستوى سطح البحر ونظرا لارتفاع الطبقة المائية السطحية مما يؤدي إلى حدوث فيضانات عند سقوط الأمطار إضافة إلى الإجتياحات البحرية التي قد تؤدي إلى حدوث فيضانات كما أن المياه المالحة المحتضنة في الطبقة الجوفية أدت إلى تآكل المباني بسرعة فأصبحت لا تصمد في هذا المنخفض إلا البنايات ذات التكاليف الباهظة (أساس مقاوم للملوحة مواد عازلة للملح) وهو ما يعني أن الفئات الأقل دخلا ستعاني من هذا المشكل أكثر من غيرها وتؤثر الطبقة المالحة تأثيرا بالغاً على قنوات المياه وشبكات الصرف الصحي التي يصعب القيام بها في هذه المنطقة فعمليات الحفر تتعرض لقرب الطبقة المائية المالحة من الناحية المورفولوجية فإن هذا المنخفض يمتد منه طرف في اتجاه البحر بمحور جنوبي - غربي شمالي - شرقي. وهو ما يفسر وجود مناطق غمر في أحياء مقاطعة لكصر ودار النعيم فتأثر هذه الطبقة ملحوظ في الجهة الغربية في مقاطعتي السبخة والميناء حيث تآكل أساس العديد من المباني في هذه المنطقة كما أن هاتين المقاطعتين أصبحتا في خطر محتمل خاصة بعد فيضانات 1995 التي وصفت بالكارثة وكلفت الدولة العديد من ملايين الأوقية، بالإضافة إلى ملوحة التربة فإنها مشبعة ومحدودة الامتصاص وبالتالي تتحول إلى مستنقعات حتى في حالة هبوط أمطار خفيفة¹.

3 — الشريط الساحلي

يبلغ طول شاطئ نواكشوط 30 كلم يمتد من شمال مخيم الصيادين الواقع عند الكيلومتر 28 وحتى الكيلومتر 7 شمال فندق صباح ويضم هذا الساحل شواطئ متسعة نسبيا يصاحبها تلال متاخمة يحجب ارتفاعها البالغ 2-6 أمتار آفطوط الساحلي عن السبخة التي تطور في داخلها جزء من مدينة نواكشوط، ويمثل الشريط الساحلي — قليل الغطاء النباتي والبالغ متوسط عرضه 150م السور الواقى للمدينة من غمر البحر².

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)، ص 6.

² وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)، ص 7.

المحور الثالث: المشاكل البيئية التي تواجه مدينة نواكشوط

يشكل الإطار الطبيعي لمدينة نواكشوط وضواحيها جملة من الصعوبات أمام تهيئة المجال، ويمثل قحط الأرض أهم هذه العوائق بالنسبة لحياة الأفراد وتنظيم نشاطهم. يعاني موقع نواكشوط من نقص في المياه السطحية ومن هشاشة الغطاء النباتي وفقر التربة وقوة الرياح كل هذه العوامل تؤثر بقوة على التوسع المجالي للمدينة ويلزم أخذها في الاعتبار عند إعداد وثائق التخطيط¹، ويؤثر نوعان من التهديدات في موقع نواكشوط الأول ذو طبيعة مادية ويتمثل في وجود سبخة ذات أرض مالحة ومخاطر الفيضانات بالإضافة إلى الضغط الهيدروستاتيكي الذي يخضع لها الجزء الغربي من البلدية (ارتفاع منسوب المياه الجوفية إلى السطح)؛ والثاني كان من صنع الإنسان في الطبيعة المرتبط بتأثير من أنشطة الموانئ (تغير التيارات وضعف الشريط الساحلي) ويتدهور الغطاء النباتي باستغلال المحاجر في المحيط الحضري وقد تجلت الآثار الأولى الهامة في عام 1995، عند ما أنشأ المحيط ثغرة في شريط الكثبان الرملية في ما بين المرفأ وفندق الأحمدي، وفيما يلي سنحاول أن نعدد أهم تلك العوامل المرتبطة بهذه التهديدات البيئية لمدينة نواكشوط بما قد يترك بصماته السلبية على مستوى استمرارية الحياة بالمدينة².

1 — زحف الرمال

تتعرض نواكشوط لكميات كبيرة من الحت الصخري التي تتزايد بواسطة ديناميكية الرياح القوية، ولهذا السبب خصصت الحكومة الموريتانية موارد مالية للسيطرة على الحت الصخري كمشاريع الحزام الأخضر وتمثل الدور الرئيسي لهذا المشروع في تثبيت الكثبان الرملية وتعتبر عمليات تثبيت الرمال هي عمليات ميكانيكية وبيولوجية ومع ذلك فإن الأنواع المستخدمة كنبات الغافعسيلي الأزهار والتي تنمو بشكل جيد في البيئة *Prosopis Juliflora* أو القاحلة هي أنواع غازية قد تعكر التوازن البيئي في هذه البيئة³.

2 — مستنقعات المياه الراكدة

يحدث التلف الناجم عن المياه الراكدة عندما تتجاوز كمية الأمطار اليومية الهاطلة 31 ملم مؤدية إلى غمر كامل للطرق والمناطق بالإضافة لذلك وبسبب عدم وجود نظام تصريف حضري فعال

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)، ص 5 .

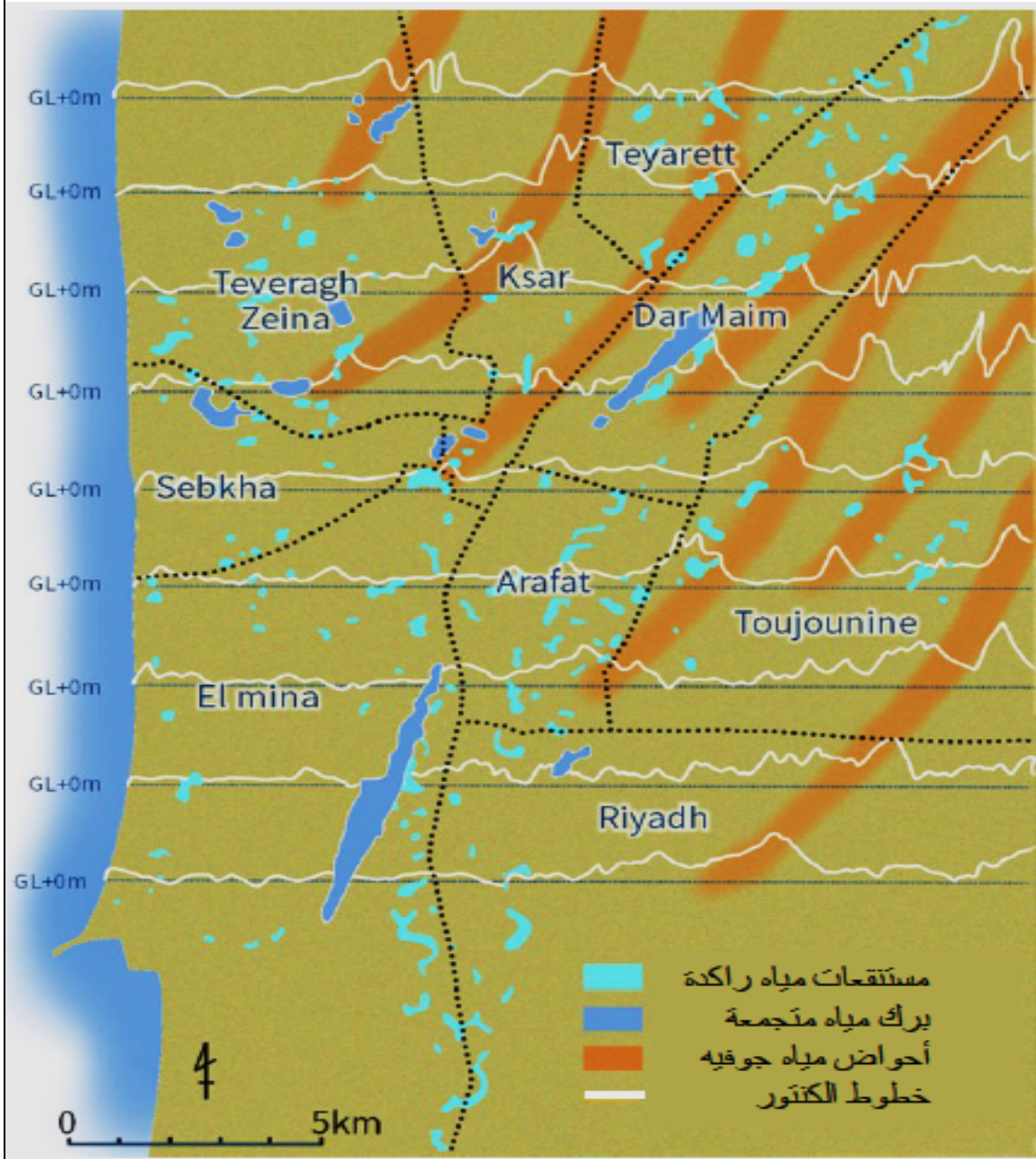
² مخطط التنمية البلدية 2013-2017، بلدية الميناء، مرجع سبق ذكره، ص 16.

³ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 6.

تظل المياه الملوثة ملامسة لطبقة التربة مؤدية إلى تدهور الأوضاع الصحية وفي الخريطة رقم (1) توضح توزيع برك المياه الراكدة في مدينة نواكشوط، بالإضافة إلى الصور رقم (1؛ 2).

صورة رقم 1: حالات غمر بالمياه بوسط نواكشوط	صورة رقم 2: حالات غمر بالمياه ببعض أحياء نواكشوط
	
المصدر: نواكشوط وتحديات المستقبل تكيف وتحول مدينة هشة، ملخص عمل الورشات نواكشوط، موريتانيا 2014، جمعية الورشات، بالتعاون مع مجموعة نواكشوط الحضرية دعم من الاتحاد الأوروبي ووكالة التعاون الألماني والوكالة الفرنسية للتنمية والسفارة الفرنسية، والدعم التقني من قبل مرصد نواكشوط للخدمات والممتلكات الحضرية.	

خريطة رقم 1: توزيع برك المياه الراكدة في نواكشوط



المصدر: تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص

3 — خطر الفيضانات المرتبط بالمنخفضات المالحة (السباح)

السبخة هو تجمع مياه ملحية تشكلت خلال فترة الرياح إذ عزلت الكثبان الرملية الساحلية تدريجياً هذا الخليج عن المحيط فلم تعد تتم تغذية البحيرات ومع الوقت تحولت أدنى المناطق إلى سبخات بفعل التبخر، وتتراوح ارتفاعاتها من (1 إلى 1م) وتكون الأرض طينية ملحية على السطح وتتميز السبخة بنباتات قليلة ومنتشرة فعند مستوى معين من الملح لا تنمو النباتات تاركة التربة عارية السبخة عبارة عن سطح مائي كريحه الرائحة يكون عادة في المناطق الأدنى ويمكن أن يصل إلى عمق 4 أمتار وأثناء هطول الأمطار الغزيرة يؤدي هذا السطح المائي إلى فيضانات كبيرة، ولقد أدى استغلال الطبقة المياه الجوفية في الترانزة إلى حدوث خلل في مستوى المياه المالحة ومن المحتمل أن يؤدي ذلك إلى تملح دائم. تعتبر السبخات أماكن غير صالحة للبناء لأن الملح يهاجم الجدران ويجعل عملية تجهيز الأحياء المبنية عملية صعبة ومكلفة مادياً¹.

تعتبر المنخفضات المالحة (السباح) الواقعة بين المدينة والبحر الأكثر عرضة للفيضانات وتواجه هذه المناطق والمعرضة لخطر امتداد الشريط الشاطئي الفيضانات في حالة هطول الأمطار الغزيرة كما تتعرض للمياه الجوفية المتصاعدة مما يجعل تهيئة تجهيزات الصرف الصحي ومياه الشرب أمراً صعباً، وفي الوقت ذاته من غير المقبول السماح للمدينة بالنمو في المناطق غير المواتية لذلك، تم إعداد دراسة علمية خاصة تستند إلى قراءة صور الأقمار الصناعية الملتقطة بأوقات مختلفة وإلى معرفة جيدة بالديناميكيات المناخية بحيث تتناسب عملية تحديد المناطق الخطرة تحدد الدراسة مستوى ينم بمخاطر الفيضان المستوى الأعلى في السبخات الساحلية والمستوى المتوسط في السهول داخل المدينة².

4 — خطر الغمر البحري وارتفاع مستوى البحر

تسبب الفيضانات الناجمة عن التوغل البحري أضراراً بالسهول الساحلية لاسيما زيادة الملوحة، ولهذا السبب فإن هذه المناطق غير مناسبة للاستخدام الحضري دون اللجوء إلى إجراء استثمارات كبيرة. بالإضافة إلى ذلك تعمل سلاسل لكثبان الرملية كحاجز طبيعياً للأمواج. ولكن في السنوات الأخيرة تدهورت وانخفضت سلامتها لذا يعد الحفاظ على سلاسل الكثبان الرملية أمراً هاماً³.

¹ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 6.

² تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 34.

³ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 6.

وفقاً لتقرير المؤسسة الألمانية للتعاون الدولي GIZ (2015)، سيرتفع مستوى سطح البحر في نواكشوط من 0.2 إلى 1.1 متر خلال المائة عام القادمة، وسيزيد الضرر الناجم عن الفيضانات ومستنقعات المياه الراكدة، وبالإضافة إلى ذلك تشير GIZ إلى أن تآكل الشواطئ الرملية يترافق مع تراجع في الساحل بمعدل 3 إلى 4 أمتار سنوياً خلال الفترة 2004 – 2014، ومع ارتفاع مستوى البحر يمكن توقع المزيد من الفيضانات واستمرار في تآكل السواحل، كذلك تسبب تطور النشاط البشري في تغير التشكيلة في الساحل بالإضافة إلى الترسيب الكبير على الجانب الشمالي من الميناء الصناعي إذ يُشهد انخفاضاً ملحوظاً في خط الساحل على الجانب الجنوبي.

5 — تدهور الغطاء النباتي

أظهرت الدراسات التي أجريت في إطار مشروع التنوع البيولوجي الساحلي الموريتاني أن بلدية نواكشوط ومحيطها يتميز بتدهور قوي للغطاء النباتي وفي هذا الصدد فقد زادت سنوات الجفاف الأخيرة والاستغلال المكثف للموارد من قبل السكان من هذا التدهور للغطاء النباتي¹.

6 — العامل البشري ودوره في تفاقم المشاكل البيئية بالمدينة

يحتل العامل البشري دوراً محورياً في عملية تفاقم المشاكل البيئية من خلال مجموعة الأنشطة التي يمارسها السكان في نمط استغلالهم للمجال الذي يسكنون به، وخاصة إذا كان الضغط السكاني كبير والكثافة السكانية مرتفعة، فهنا نتحدث عن مسألة التلوث التي ترتبط بتلك الأنشطة السكانية، ففي مدينة نواكشوط ونظراً للضغط السكاني الكبير بها بفعل الحمولة البشرية الكبيرة التي تستقطبها هذه المدينة تأخذ مسألة التلوث دورها الكبير ضمن المشاكل البيئية التي تواجه المدينة سواء كان هذا التلوث يتعلق بتلوث الغلاف الجوي والهواء أو تلوث الغلاف الحيوي كالترربة أو الغلاف المائي المعلق بتلوث المياه، ويعتبر تلوث الغلاف الجوي في نواكشوط أمراً هاماً ناجماً عن تراكم ثلاث عوامل: التصريفات القادمة من النشاط الصناعي في الميناء (PANPA) خاصة أعمال الاسمنت لطريق بالقرب من مناطق سكنية محددة) التلوث الناتج عن حركة السيارات (أسطول السيارات المتفاقم) وغبار الرياح الطبيعية لهذه الجسيمات الدقيقة تأثير ضار على صحة الإنسان مسببة العديد من الأمراض المزمنة وظهور أمراض أكثر خطورة تؤثر على كل منطقة إفريقيا الساحلية كالتهاب السحايا المكورات السحائية (فغبار الرياح يهيج الأغشية المخاطية وهو الأمر الذي يهبط دفاعات المناعة ويحفز غزو البكتيري)².

¹ مخطط التنمية البلدية 2013-2017، بلدية الميناء، مرجع سبق ذكره، ص 17.

² تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 7.

أما عن التلوث المرتبط بالغلاف الحيوي والمائي بالمدينة والذي يتأتى بفعل الانتشار الواسع للنفايات وعدم مراقبتها وتسييرها بالشكل اللائق وما يترتب عن ذلك من إنتاج كم هائل من النفايات يصعب التخلص منها مما تسبب في تلويث المياه السطحية والجوفية، تلك المركبات الكيميائية الخطرة على الطبيعة والتي لا تتحلل بسهولة إلى مكوناتها الطبيعية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى هنالك الاستغلال المفرط وغير المعقلن لمكونات البيئة بهذه المدينة والذي نلاحظه على مستوى الشريط الساحلي الذي تعرض منذ سنوات عديدة لجملة من العوامل ساعدت على إضعافه أهما:

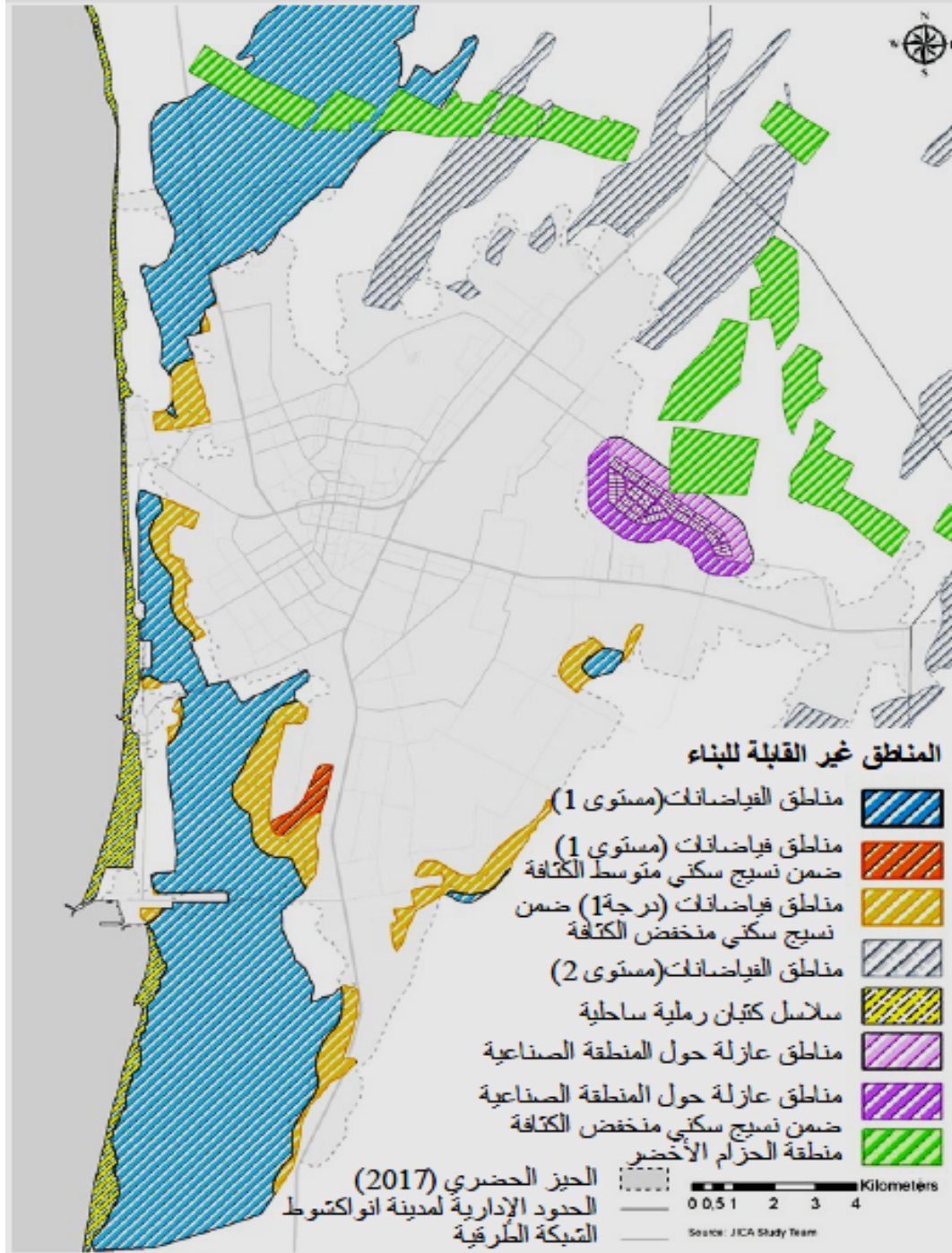
استخراج مواد البناء: إن سهولة استخراج مواد البناء وحاجياته من المقالع التي تقع على عدة كيلومترات من هذا الشريط إلى جانب الطريق المعبد على طول الساحل أدت إلى استغلال مفرط لرمال التلال ساحلي

البناء على الشريط: من المؤكد أن إقامة بناءات ضخمة على التلال ساحل يتسبب في تعريضه مما ساهم في إضعافه فقد منع سوق الأسماك المشيد على مسافة 500م جنوب فندق صباح القمة الساحلية من لعب دورها كاحتياطي رسوبي في المتغيرات الفصلية الجانبية والتوازن الحركي في الشاطئ، كما أن المجمعات السياحية المتمثلة في " تيريجيت فكانص وفندق صباح وفندق الأحمدى التي أقيمت على هذا الشريط ساعدت على إضعافه، الصورة رقم (3) توضح ذلك.

تهديدات التلوث: إن الأنشطة المرفئية والصناعية الممارسة على الشاطئ تتجم عنها أشكال مختلفة من التلوث تصيب البحر والساحل والشريط الرملي والسبخة مصدرها الأساسي هو ما يلقي من نفايات صلبة وسوائل.

كما قد تطور جزء كبير من النواة الحضرية على أراضي لا يتجاوز ارتفاعها 2م كما أن هناك مناطق سكنية عديدة شيدت على أراضي تحت مستوى سطح البحر، وستؤثر هذه المميزات الطبوغرافية في نمو وتسيير المدينة ويعرضه الغمر مياه البحر وصعود الطبقة الجوفية المالحة في حالة حدوث فيضانات مطرية، وتعد في نفس الوقت عمليات تصريف المياه والصرف الصحي، الخريطة رقم (2) تبين العوائق البيئية التي تواجه المدينة.

خريطة رقم 2: عوائق بيئية بمدينة نواكشوط



المصدر: تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص

صورة رقم 2: تدهور الشريط الساحلي بفعل النشاط البشري



المصدر: نواكشوط وتحديات المستقبل تكيف وتحول مدينة هشة، مصدر سبق ذكره

المحور الرابع: التوجهات الإستراتيجية نحو الحد من المشكلات البيئية بمدينة نواكشوط
تقع نواكشوط في وسط بيئي هش نتيجة التغيرات المناخية وعوامل التعرية الهوائية القوية والبحرية أحيانا. هذه العناصر الطبيعية بالإضافة إلى تلك الناجمة عن النشاط البشري يجب أن توجه ويتم التحكم فيها من أجل التنمية المستقبلية للمدينة، كما يلزم القيام بمجهود للتمكن من تحسين معرفة المخاطر والعوائق البيئية لأخذها في الاعتبار عند اتخاذ القرارات في المجال الحضري¹ بالإضافة إلى أن المعرفة الناقصة للآليات الطبيعية تفسر إلى حد كبير المعالجة غير المناسبة للمشاكل المتعلقة بتعرية الشريط الساحلي وتراكم الرمال أو ملوحة الأراضي.

1 — تعزيز الحزام الأخضر كحصن ضد زحف الرمال والتوسع الحضري الفوضوي
للحزام الأخضر الذي يهدف منذ البداية إلى تثبيت الكثبان المتحركة تأثير على البنية الحضرية لمدينة نواكشوط. فهو في الواقع يسمح بوضع حد مادي للمدينة واحتواء التوسع الحضري في داخلها. على هذا النحو ينبغي تشجيع مساعي بناء هذا الحزام الأخضر على المدى الطويل ومع ذلك وعلى الرغم من اتساع الحزام الأخضر بشكل كبير في السنوات الأخيرة إلا أن سلامته مهددة، حيث شهدت بعض المشاريع نوعاً من التجاوزات كمحطة الطاقة الشمسية لذلك يجب أن يُتبع حظر البناء الذي سيتم تبنيه بإرادة سياسية تهدف لعدم الانتقاص من

¹ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)،

مرجع سبق ذكره، ص 35.

هذا الحزام¹، وبعد الانتهاء من إنشاء الطريق الحلقي لابد من بذل المزيد من الجهد لتمديد تجربة الحزام الأخضر لتحقيق حزام أخضر محيطي يتشابه الغرض من هذا الحزام مع أهداف الحزام الأخضر الحالي، وهو حماية المدينة من انجراف التربة والحد من الامتداد الحضري.

2 — حماية المنطقة الساحلية

إن التآكل المتواصل للشريط الرملي يعتبر خطراً على مدينة نواكشوط ولذلك فإن جملة من الإجراءات يلزم اتخاذها لحماية هذا النظام البيئي الهش.

* منع استخراج الرمال من الشريط الساحلي على طول شاطئ نواكشوط أي (10 كلم) جنوب ميناء الصداقة و(10 كلم) شمال فندق صباح، هذه الترتيبات تلزم السلطات العمومية القيام بحملات تنقيب لاكتشاف مقالع رمال جديدة وتهيئة طرق للوصول إليها.

* تشجير التل الساحلي: خاصة أجزاء المتحركة التي يجب تثبيتها ميكانيكياً قبل التثبيت البيولوجي، كما يجب أن تعمم تجربة الحزام حول المنشآت وكذلك تجارب غرس الأشجار المعروفة محلياً، التي أعطت نتائج مشجعة.

* تعزيز التل الساحلي وسد الثغرات ودعم المنخفضات بين فندق "صباح" و"الوورف قديماً"، وذلك عن طريق نقل الرمل البحري من مناطق الترسيب الكبيرة في الشريط الرملي أو استخراجه من الشريط الرملي الساحلي المدفون أو القديم مع مراعاة سمك الحصى لأي تنقل، فيجب ألا تختلف عن الرمال الموجودة في الشريط الساحلي².

* منع تشييد البنية التحتية والمساكن العمرانية في المنطقة الساحلية

3 — إنشاء قناة سبخة — الميناء كعازل بين المدينة ومنطقة السبخات غير القابلة للبناء

السبخات الموجودة بين المدينة الحالية والبحر هي المناطق الأكثر عرضة لخطر الفيضانات، وسيكون من غير المقبول السماح للمدينة بالتطور في هذه المنطقة غير الملائمة، وتشغل هذه المنطقة حيزاً كبيراً نسبياً في الجزء الجنوبي الغربي من نواكشوط لتجنب المزيد من الامتداد الحضري في مناطق السبخة ولترشيد استخدام الأراضي وإعداد المدينة لتغيرات المناخ تمت دراسة العديد من الحلول، وتم من الناحية الفنية تحليل الاقتراح المقدم من قبل ورشة عمل سيرجي لفتح سهول السبخات إلى البحر من أجل تحويل المنطقة بأكملها إلى بحيرة. بالنتيجة

¹ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 24.

² وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 - 2020)،

مرجع سبق ذكره، ص 51 .

سيكون لهذا الاقتراح تأثير سلبي على توازن المياه الجوفية الضحلة، والذي سيجعل نفوذية مياه الأمطار أصعب مما هو عليه حالياً. بالإضافة إلى ذلك يمكن أن تؤدي الفضلات السائلة الصناعية ومياه الصرف المستعملة إلى تلوث مياه البحيرة وخلق مشاكل صحية عامة.

سيكون إنشاء قناة وسد الحلال أفضل لتجنب التوسع الحضري وتوحيد كامل منطقة السبخات بما يؤثر إيجابياً على تدفق المياه ويربط جميع البرك الصغيرة. إن التحجيم المناسب لهذا السد من شأنه أن يمنع كلياً مخاطر التوغل البحري وأن يهيئ المدينة لتغيرات المناخ وخاصة لارتفاع مستوى سطح البحر. كما ستسمح القناة للسكان بالاستمتاع بمكان بارد للاستجمام مفتوح وغير ملوث. إضافة لذلك يمكن استخدام القناة المقترحة للأغراض التعليمية والتربوية بما يخص قضايا البيئة (زيارات مدرسية، سياحة بيئية... إلخ) أو حتى اقتصادية.

4 — إعادة تأهيل برك المياه الراكدة إلى مساحات خضراء

تعتبر برك المياه الراكدة المنتشرة في جميع أنحاء المدينة أماكن غير ملائمة للامتداد الحضري. معظم هذه الأماكن تم هجرها من قبل السكان. يجب إتاحة الفرصة لتغيير استعمال الأراضي من سكني إلى طبيعي أو فراغات خضراء، وتشكل بعض البرك استمرارية خطية بسبب شكل الوديان، ومن المهم الاستفادة منها كروابط خضراء رئيسية في إطار الشبكة الخضراء والزرقاء الداخلية. هذه هي حالة منطقة الأهوار الطويلة الممتدة من الشمال إلى الجنوب بشكل مواز لطريق روصو، إن هذه المنطقة التي تم هجرها بالكامل تقريباً، يمكن أن تصبح متنزهاً بطول 5 كيلومترات مع مسارات للدراجات والمشاة والأنشطة الترفيهية¹.

خاتمة

يبدو واضحاً من التشخيص أن مدينة نواكشوط تواجه العديد من المخاطر الطبيعية التي لها عواقب على السكان والمدينة في المستقبل، ومن أسباب تلك المخاطر البيئية على العاصمة نجد سوء التخطيط في تنفيذ المشاريع وعدم تقييم الآثار البيئية الناجمة عن إقامتها وعدم طرح خطط مستقبلية لمراعاة بيئة العاصمة التي تعرضت لعدة تحديات على رأسها مشكلة الغمر البحري وانتشار السباح الملحية في الجزء الغربي والشمال الغربي من العاصمة نواكشوط بالإضافة إلى البرك والمستنقعات في وسط العاصمة وأجزائها الأخرى باستثناء الجزء الشرقي والشمال الشرقي والجنوب الشرقي من المدينة على اعتبار أن هذه الأخيرة تغطيها هي الأخرى الرمال المتحركة، ومن ذلك نستنتج أن العاصمة نواكشوط تقع تحت رحمة تحديين بيئيين هما زحف

¹ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة العمران نواكشوط SDAU أفق 2040، مرجع سبق ذكره، ص 47-48.

الرمال المتحركة من الشرق وشبح الغمر البحري من الغرب بالإضافة إلى خطر الفيضانات المرتبط بالمنخفضات المالحة (السباح) وكذلك العامل البشري الذي يؤثر على البيئة بشكل كبير مثل أخذ مواد البناء من الشاطئ الساحلي للمدينة وتهديدات التلوث البيئي. وبالموازاة مع تلك المشكلات البيئية التي تشهدها المدينة كانت دائما هناك جهود تركز اهتمامها على هذه المشكلات في سبيل البحث عن الكيفية الملائمة لمعالجتها، وعلى عدة مستويات كانت هذه الجهود حاضرة، فمنها ما ارتبط بالجانب الطبيعي المتعلق بزحف الرمال وخطر التصحر الذي أصبح يجتاح أجزاء كبيرة من العاصمة من خلال آليات التشجير والحزم الأخضر الذي يهدف للحد من هذا الزحف الرملي نحو مناطق التعمير بالمدينة، ومستوى آخر من تلك الجهود كان يركز على المنخفضات المالحة المتمثلة بالسباح وما يرتبط بهذه المناطق المنخفضة من خطر الفيضانات عند هطول التساقطات المطرية، فكانت هناك توجهات استراتيجية نحو معالجة هذه المشكلات المرتبطة بتلك المناطق. ومن جهة أخرى هناك التهديدات المطروحة على مستوى الشريط الساحلي وتراجع دوره كحاجز يحمي من التقدم البحري، فأصبح الغمر البحري من بين المشكلات البيئية المطروحة بشدة على مستوى المدينة، فتوجهت أيضا جهود معالجة المشكلات البيئية نحو هذا المشكل الكبير من خلال تبني نظرة جديدة لحماية هذا الشريط الساحلي.

وكخلاصة عامة فإن ما يرتبط بالمدينة من مشكلات بيئية له علاقة أولا بالموقع الأولي للمدينة بمنطقة منخفضة عن مستوى سطح البحر تنتشر فيها السباح ومن جهة أخرى تستقبل تهديدات الزحف الصحراوي وفوق كل ذلك مشكلات الضغط البشري بالمدينة وما قد يضيف من تفاقم لتلك المشكلات البيئية. كل ذلك يجعل من المهم جدا مضاعفة الجهود والتوجهات نحو البحث عن الحلول المناسبة لكل تلك المشكلات.

قائمة المراجع

1. الكتب

- ✓ إبراهيم بن سليمان الأحيدب، البيئة والإنسان مشكلات وحلول، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، طبعة الأولى، الرياض 2003.
- ✓ أحمد فرغلي حسن، البيئة والتنمية المستدامة، مركز تطوير الدراسات العليا والبحوث في العلوم الهندسية للنشر، الطبعة الأولى، القاهرة 2007.
- ✓ محمد سعيد صباريني، شيد الحمد، البيئة ومشكلاتها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، سنة 1978.

✓ وزارة الثقافة والشباب والرياضة، نواكشوط عاصمة موريتانيا 50 عاما من التحدي، المتحف الوطني بنواكشوط، المركز الثقافي الفرنسي سينت إكسوبيري، ترجمة محمد المصطفى ول سيد أحمد، دار النشر "سيبيا"، 2006.

2. الوثائق والتقارير

✓ المكتب الوطني للإحصاء، الدليل الوطني للإحصاء، نتائج تعداد السكان والمساكن، 2013
✓ وكالة التنمية الحضرية، ملخص المخطط التوجيهي للتهيئة الحضرية لمدينة نواكشوط أفق (2010 – 2020)

✓ مخطط التنمية البلدية 2013-2017، بلدية الميناء، بدعم فني من المجموعة الحضرية في نواكشوط، بدعم فني ومالي من سفارة فرنسا بموريتانيا مشروع الحكم الحضري والضرائب المحلية.

✓ مخطط التنمية البلدية 2013-2017، بلدية تيارت، بدعم فني من المجموعة الحضرية في نواكشوط، بدعم فني ومالي من سفارة فرنسا بموريتانيا مشروع الحكم الحضري والضرائب المحلية.

✓ نواكشوط وتحديات المستقبل تكيف وتحول مدينة هشة، ملخص عمل الورشات نواكشوط، موريتانيا 2014، جمعية الورشات، بالتعاون مع مجموعة نواكشوط الحضرية دعم من الاتحاد الأوروبي ووكالة التعاون الألماني والوكالة الفرنسية للتنمية والسفارة الفرنسية، والدعم التقني من قبل مرصد نواكشوط للخدمات والممتلكات الحضرية.

✓ تقرير تقديم المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران نواكشوط SDAU أفق 2040، الوكالة اليابانية للتعاون الدولي (جايجا)، مشروع تطوير المخطط التوجيهي للتهيئة والعمران لمدينة نواكشوط، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، التقرير الفني للمخطط التوجيهي للتهيئة والعمران، أكتوبر 2018.

3. الرسائل الجامعية

✓ أبو المعالي ولد الحسن، التزود بمياه الشرب في مقاطعة عرفات، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015.

✓ فاطمة الزهراء أبا سعيد، الدينامية الحضرية للعاصمة نواكشوط بين تطورات التهيئة ومشروع التأهيل، بحث لنيل شهادة الماستر، جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم الجغرافيا، بني ملال، 2010-2011.

دور المحميات الطبيعية في تنمية السياحة البيئية في موريتانيا (محمية حوض آرغين نموذجا)

محمد شهاب الدين أبوه

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص:

لقد برزت فكرة إنشاء المحميات الطبيعية في عصرنا اليوم نظرا لما تعرض له التوازن البيئي والتنوع الحيوي من اختلال، وهو ما جعل المناطق المحمية تحتل حوالي 5% من فضاءات الكرة الأرضية، لذلك بدأ الاهتمام بإقامة المحميات الطبيعية من خلال دعوة الدول والمنظمات إلى المحافظة على النظم البيئية والحد من سلوك الإنسان الجائر، الذي أخذ يستخدم أساليب أدت إلى تدهور العديد من الموارد الطبيعية من الكثير من المدن والقرى التي توجد بها مؤهلات لإنشاء محميات طبيعية لتنمية السياحة البيئية. وانطلاقا من ذلك يتناول بحثنا المحميات الطبيعية في موريتانيا وخاصة محمية حوض آرغين، وهو محاولة لدراسة دور المحمية في صيانة وتنمية السياحة والتنوع الحيوي والاستثمار فيها خدمة للبيئة والمجتمع.

الكلمات المفتاحية: سياحة بيئية، محميات طبيعية، استثمار، حوض آرغين، تنمية مستدامة، الإمكانات السياحية.

مقدمة:

شهدت المحميات الطبيعية اهتماما دوليا كبيرا لدورها الإيجابي في حماية البيئة، وإسهامها في خلق واقع بيئي جاذب للسياحة، بما ينعكس على إيرادات الدولة واستفادة الساكنة المحلية للمحميات. ومع تزايد التوجه نحو السياحة البيئية في المناطق المحمية كفضاء جذب سياحي مستدامة، ركزت موريتانيا مؤخرا كغيرها من الدول على هذا النشاط نظرا لإمكاناتها الوفيرة وللدور الذي يمكن أن يقوم به في زيادة مصادر الدخل والتنمية على المستوى المحلي.

وبما أن الاستثمار في المحميات الطبيعية أصبح له دور كبير في الحفاظ على البيئة ورفع النمو الاقتصادي، كان على الدولة تنشيط السياحة البيئية ووضع الخطط والاستراتيجيات الرامية إلى تثمين الموارد الطبيعية وعلى رأسها المحميات، وذلك عبر العمل على تطوير السياحة البيئية بما يتماشى مع مبدأ الاستدامة، ودعم الاستثمار السياحي من خلال الاستغلال الرشيد لموارد

الحظائر الوطنية، وخاصة الحظيرة الوطنية لحوض آرغين موضوع البحث، فهي منطقة مميزة واستراتيجية بتنوعها البيولوجي ونشاط ساكنتها الاقتصادي، ولاحظوا أنها على مقومات سياحية تمكنها من أن تصبح قطبا سياحيا جاذبا.

لذا كان من الضروري تكثيف جهود الفاعلين المحليين والوطنيين من أجل الحفاظ على التنوع البيولوجي الذي تحتويه الحظيرة بوضع ترسانة قانونية تحد من الانتهاكات البيئية وتنشط السياحة البيئية لتحقيق عوائد اقتصادية وخلق فرص عمل، وجعل النشاط السياحي صديقا للبيئة، لتوفير توازن بين السياحة والبيئة والاقتصاد المستدام بما يتماشى مع متطلبات التنمية.

استنادا إلى ما تقدم يمكننا إبراز إشكالية البحث على النحو التالي:

هل يمكن أن يكون للمحميات الطبيعية (محمية حوض آرغين) دور في تنمية السياحة البيئية في موريتانيا؟

وانطلاقا من هذه الإشكالية نطرح التساؤلات الآتية:

✓ — ماهي المحميات الطبيعية؟ وماذا تعني السياحة البيئية؟

✓ — ما واقع التنمية السياحية البيئية المستدامة بالحظيرة الوطنية لحوض آرغين؟

✓ — ما هو دور المحميات في التنمية السياحية البيئية في موريتانيا؟

فرضية البحث:

للمحميات الطبيعية في موريتانيا (محمية حوض آرغين) إمكانيات ودور في تحقيق السياحة البيئية، مما قد يؤدي إلى جعل الحظيرة قطبا سياحيا بيئيا بامتياز.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى لفت الأنظار نحو أهمية وضرورة تطوير وإنشاء المحميات الطبيعية في موريتانيا كمحمية حوض آرغين، وتحويلها إلى مناطق سياحية بيئية، تكون وسيلة جيدة لجذب السائحين والمستثمرين والبعثات العلمية، وتقوم بالمساهمة في نشر ثقافة السياحة البيئية بتوسيع القاعدة الاقتصادية وتحقيق التنمية المستدامة.

مناهج البحث:

تمت هذه الدراسة بالاعتماد على مناهج متعددة كالمنهج الوصفي الذي يعتبر مظلة واسعة تتضمن عددا من المناهج والأساليب، فمن خلاله تم التعرف على المحميات الطبيعية وأهمية البيئة ووصف المظاهر الطبيعية للمحمية الوطنية لحوض آرغين، وكذا المنهج التاريخي من خلال تتبع التطور التاريخي لسكان المحمية وأنشطتهم، كما اعتمدت الدراسة أيضا على المنهج الكمي

التحليلي الذي عن طريقه تم تحليل الأرقام والبيانات الإحصائية، إضافة إلى استخدام وسائل الدراسة الحديثة لنظم المعلومات الجغرافية.

أولاً: المحميات الطبيعية (مفهومها - أنواعها - أهدافها - أهميتها - آليات إقامتها)

1- تعريف المحميات الطبيعية:

تتعدد تعريفات المحميات الطبيعية في الوقت الحاضر والكل يحاول تعريفها من منظوره الخاص، وهي وإن تعددت إلا أنها تلتقي مع بعضها في معان كثيرة، فالالاتحاد الدولي للحفاظ على البيئة والمناطق المحمية يعرفها بأنها: "أي مساحة من الأرض ذات حدود قانونية يُحد فيها من استعمال الإنسان للنباتات والحيوانات والطيور، وتشمل المنتزهات الوطنية ومحميات الصيد والمناطق ذات الاستعمالات المتعددة". وتعرف كذلك بأنها مساحة من الأرض أو المياه الساحلية أو الداخلية تتميز بما تضمه من كائنات حية، نباتية أو حيوانية أو أسماك أو ظواهر طبيعية ذات قيمة ثقافية أو علمية أو سياحية أو جمالية، بهدف تحويل وتغيير السلوك السلبي تجاه البيئة والمحافظة على مكوناتها النادرة¹.

وتسمى المحميات الطبيعية أحياناً بمحميات المحيط الحيوي، والتي يعرفها بعض المختصين بأنها "مناطق محددة الأبعاد الجغرافية تفرض عليها الحماية بموجب قوانين خاصة بهدف حماية محتواها من حيوانات وطيور ونباتات وكافة أشكال الحياة فيها، وذلك من تعديات الإنسان أو التغيرات البيئية". ومنهم من عرفها على أنها "مناطق طبيعية من الأرض أو البحر أو المسطحات المائية ذات حدود معينة تتمتع بالحماية القانونية للمحافظة على تنوعها الإحيائي والنباتي من الاستغلال الجائر أو التغيرات الطبيعية المهلكة". وهناك من عرفها بأنها "وحدة بيئية محمية تعمل على صيانة وحماية الأحياء البرية نباتية وحيوانية وفق إطار متناسق يربط بين التنوع البيئي من ناحية، والتنوع السلالي من ناحية أخرى من خلال إجراء البحوث الميدانية والتعليم والتدريب، إضافة إلى الأخذ بمبدأ مشاركة السكان المحليين في إدارة هذه المحميات ليتحملوا المسؤولية المباشرة تجاهها". وعرفها الاتحاد الدولي لحفظ وصون الطبيعة على أنها "أي منطقة من البر أو البحر التي تعلن لحماية التنوع البيولوجي أو البيئي أو التراثي، وتدار من خلال وسائل قانونية أو أي وسائل أخرى مؤثرة"²

¹ هشام بن صالح بن علي البراك، المحميات الطبيعية وتجريم الاعتداء عليها، بحث للحصول على درجة الماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، 2010م، ص 37.

² أنور عمر قادر، آليات إنشاء المحميات الطبيعية وحمايتها، مطبعة ياد، إقليم كردستان - العراق، 2017م، ص 7.

وافق مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة البشرية الذي عقد في ستوكهولم عام 1992م على تعريف المحمية الحيوية بأنها "وحدة إيكولوجية سواء كانت هذه الوحدة يابسة أو مائية، وتمتلك مجموعة من الخصائص، من هذه الخصائص أن تمثل نموذجاً من الأقاليم الجغرافية الحيوية، أو نظاماً إيكولوجياً منتخبا بعناية أي وحدة إيكولوجية منتخبة".

وقد تبنت منظمة اليونسكو فكرة المحمية الحيوية عام 1970م كوسيلة لحماية التنوع الحيوي (الأحياء النباتية والحيوانية) من خلال برنامج الإنسان والمحيط الحيوي، ومن خلال المؤتمر الذي عقدته الأمم المتحدة للبيئة عام 1972م خرجت بتوجيه إنشاء شبكة عالمية من المحميات الطبيعية والتي تعمل على حماية وصيانة التنوع الحيوي العالمي وانتخاب بعض نماذج النظم الحيوية العالمية التي تتلائم مع حاجات ورغبات الأفراد، بحيث جعل السياحة البيئية في تزايد مستمر من خلال رغبات الأفراد في مصاحبة الطبيعة، مما جعل مناطق المحميات في العالم تحتل حوالي 5% من فضاءات الكرة الأرضية موزعة على 130 دولة، ومن الأمثلة على تلك المحميات الموجودة في قارة أمريكا الجنوبية والتي تمثل مساحة حوالي 100.000 كلم مربع، أما في ألمانيا فقد احتلت 33 محمية مساحة 20.000 كلم، وتمثل محمية Tsavo أقدم محمية في كينيا بحوالي 12.926.706 كلم¹

إن معظم ما ورد في التعريفات للمحميات الطبيعية يدور حول محور رئيس هو افتراض وجود مساحة يابسة أو مائية تتميز بالتنوع البيولوجي وحياة فطرية تتعايش فيما بينها وفق نظام بيئي معين، قد يكون بعض أنواع الحياة فيها مهدد بالانقراض أو معرض للتدهور أو قد يتدهور إذا لم تتمتع بالحماية، وبالتالي تفرض الحماية على الحياة التي تقطنها من أجل الحفاظ على التوازن البيئي وتحديد النشاط الإنساني في المنطقة.

2- أنواع المحميات الطبيعية:

على الرغم من أن مفهوم المحميات الطبيعية ينطوي على منطقة محددة جغرافياً التي تتميز بالتراث الطبيعي والحياة البرية أو المائية، إلا أنها تنقسم على عدة أنواع وتصنيفات اعتماداً على طبيعتها ونوع الحياة فيها وموقعها والغرض منها، ويمكن إجمالها بما يأتي:

¹ - حمزة ناجي، عبد المهدي الجراجرة، المحميات الطبيعية في الأردن ودورها في التنمية السياحية، رسالة الماجستير في الآثار، قسم السياحة، جامعة مؤتة، الأردن، 2014م، ص 16.

2-1 - المحمية الطبيعية البرية:

وهي تشمل النطاق اليابس تنمو وتعيش فيها حياة برية من نباتات وغابات طبيعية وحيوانات وطيور، وقد تتميز ببعض الصفات الطبيعية الخاصة أو معالم جيولوجية أو جيومورفولوجية ذات قيمة تاريخية أو تراثية أو لها جمالية تميزها عن غيرها من المناطق.

2-2 - محمية المحيط الحيوي:

وهي تشمل مساحة من النظام البيئي الطبيعي تعمل على صيانة وحماية فطرية الحياة فيها لغرض الحفاظ على الحياة البرية فيها، والمحافظة على التنوع الجيني الذي يعتمد عليه التطور والحفاظ على العلاقة المتوازنة بين الإنسان والطبيعة وفق إطار متناسق يربط بين التنوع البيئي من جهة والتنوع السلالي من جهة أخرى، وكذلك الأخذ بمبدأ مشاركة السكان المحليين في إدارة المحمية وهم يتحملون المسؤولية تجاهها، وقد سميت بالمحيط الحيوي لأنها تسمح للسكان المستوطنين باستخدام الأرض في إطار المحمية بقدر معلوم¹.

2-3 - المحمية البحرية الشاطئية:

ويتمثل في هذا النوع من المناطق الاهتمام بالبيئة المائية والبحرية في الجزء الممتد داخل الرصيف القاري الأكثر عرضة للخطر البيئي، حيث تكون هذه المحميات ضمن المراقبة الدولية والمحلية وتخضع لقوانين تساعد على صون النظم البحرية، والمحافظة على الشعب المرجانية والكائنات الحية البحرية بشكل مستدام. ومن أهداف هذه المحميات الحفاظ على التنوع الحيوي والبحري، ومنع الاعتداء على الشعب المرجانية، واستدامة الموارد الطبيعية الشاطئية والبحرية، والحفاظ على المقومات الحضارية والتراثية داخل البيئة البحرية واستغلالها سياحياً²

2-4 - محميات المنتزهات والحدائق الوطنية:

وهي منطقة تخصص لحماية الطبيعة والنظام الإيكولوجي، وذلك لإيجاد مساحة متميزة طبيعية تحمي لأهداف ترويجية وترفيهية وتعليمية، ولايسمح باستغلال الموارد والأصول الموجودة فيها إلا بقدر معلوم. والسبب في تسميتها بالمنتزه الوطني كونها تجمع بين الترويج والسياحة وبين الثقافة البيئية والحياة البرية والمائية، ويسمح فيها في نطاق محدود الصيد تحت المراقبة وكذلك إجراء البحوث والدراسات العلمية والتدريب.

¹ - أنور عمر قادر، آليات إنشاء المحميات الطبيعية وحمايتها، مرجع سابق، ص9.

² - حمزة ناجي الجراجرة، المحميات الطبيعية في الأردن، مرجع سابق، ص22.

2-5- محمية الحياة التقليدية:

في هذا النوع من المحميات يشترك الإنسان في النظام البيئي الطبيعي بالعيش مع الحياة البرية، خاصة أولئك الذين يعيشون على طريقة ونمط الحياة البدائية ويتم إدخالهم ضمن منظومة المحمية كعنصر من عناصرها ويسمح لهم باستغلال الموارد الطبيعية في المحمية بصورة تقليدية بدائية دون تدخل الصناعة والتكنولوجيا، وترجع الفكرة إلى أن الموارد الطبيعية الموجودة سابقا في الكون لا تخلو من علامات التدخل الإنساني من الزراعة والتدجين والاستئناس، وبما أنها كانت بقدر معلوم وليس مفرطا فقد كانت ذات تأثير إيجابي على التنوع البيولوجي وأغنته بدلا من الإضرار به، وهذا النوع شبيه إلى حد م مع محمية المحيط الحيوي مع فارق بسيط وهو أن نمط عيش الإنسان في هذا النوع يقترب إلى الحياة الفطرية البرية، بينما في المحيط الحيوي هنالك تطور في نمط الحياة لكن يفرض على السكان استخدام أرض المحمية بقدر معلوم بحيث لا يضر بالمحمية، وبذلك يمكن تطوير الفكرة لاستغلال الموارد الطبيعية بأسلوب تقليدي دون تدميرها.

3 - أهداف المحميات الطبيعية:

قبل البدء بإنشاء المحميات الطبيعية يلزم بيان الهدف من وراء إنشاءها على أن يكون واضحا وملائما لأرض المحمية وأن يتماشى مع خطة البلد أو الإقليم. إن تحديد الأهداف الصحيحة يساعد على نجاح إنشاء المحمية الطبيعية لأنها يتضمن الأساس للإدارة العلمية للمحميات الطبيعية وتنمية المناطق الطبيعية وإنشاء شبكة الحماية لمواردها وتحليلها وتقييمها، والأهداف قد تكون آنية أو بعيدة المدى، ومن أهم أهداف المحميات:

تنمية المجتمعات المحلية من خلال حماية الموارد الطبيعية كالمراعي والغابات والموارد المائية والحيوانات الفطرية ومضاعفة عائداتها وتعزيز إنتاجها بشكل متواصل في المناطق المحمية.

✓ تسعى المحميات إلى توفير موارد الرزق لأبناء المجتمعات المحلية بصورة مستدامة

تضمن الخصائص الثقافية والشعبية وتدعم اقتصاديات الأهالي.

✓ المحافظة على مناطق ذات طبيعة جمالية خاصة يمكن أن تسهم في توفير فرص العمل

لسكان هذه المجتمعات.

✓ صون البيئة والمحافظة على التوازن البيئي.

✓ المحافظة على بيئة الأحياء البرية، وأعشاش الطيور، وجحور الحيوانات، وتأمين الغذاء

لها في الأوقات التي لا تتمكن فيها من تأمين غذائها.

✓ منع صيد الطيور والحيوانات البرية والمائية المهددة بالانقراض والنادرة، وتحريم الصيد في فترة تكاثر الحيوانات، وتحديد الفترات التي يسمح فيها بالصيد، إضافة إلى تحديد عدد الحيوانات المسموح بصيدها وطرائق الصيد، وتحريم المواد المتفجرة في صيد الأسماك أو تجفيف البرك، وتحديد نوعية الشباك.

✓ الحفاظ على أراضي المستنقعات ذات الأهمية باعتبارها موئلا للطيور المائية، وأيضا حماية المراعي الطبيعية والغابات كموئل للتنوع الحيوي¹

✓ 4 - آليات إقامة المحميات الطبيعية:

✓ إن إنشاء وإقامة المحميات الطبيعية يتطلب توفر جملة من المتطلبات، والتي على أساسها يمكن للمحمية أن تقوم وأن تمارس مهامها بشكل صحيح. ومن أهم متطلبات إقامة المحمية ما يلي:

4-1 - اختيار المنطقة:

قبل البدء بأية خطوة يلزم تحديد المنطقة المراد اتخاذها كمحمية طبيعية واختيارها على أساس التنوع الحيوي أو وجود نوع أو أنواع من الحياة البرية والمائية النادرة أو المهددة بالانقراض. إن أي منطقة مؤهلة لاتخاذها كمحمية طبيعية لا بد من تميزها بالخصائص والمواصفات الآتية:

✓ التميز الواضح بمكونات التنوع البيولوجي.

✓ توفر عدد هام من الأنواع المنفردة المتوطنة.

✓ توفر نوع أو أكثر من الأنواع النادرة أو المهددة بخطر الانقراض.

✓ تميز وتفرّد الموائل.

✓ أن تكون المنطقة ذات أهمية للسياحة البيئية

✓ ملائمة المنطقة من الناحية الاجتماعية.

4 - 2 - ترسيم المنطقة وإسقاطها على الخريطة:

وهي ترسيم المنطقة وتحديد المساحة المطلوبة وإسقاطها على الخارطة بالتعاون مع الوزارة المعنية، والخارطة المعدة تصبح أساسا لاتخاذ القرار بإنشاء المحمية وتثبيت الحقوق العينية والمجردة للآخرين على الأراضي داخل المنطقة المختارة وكذلك تركيبة السكان المحليين ونمط حياتهم وتقاليدهم وحرفهم وغيرها من الأمور التي ستصبح أساسا للقرارات اللاحقة.

¹ - هشام بن صالح بن علي البراك، المحميات الطبيعية وتجريم الاعتداء عليها، مرجع سابق، ص 41-42.

4-3- تحديد الأهداف:

توضع الأهداف من أجل تحقيق الغرض الرئيسي من وراء إنشاء المحميات الطبيعية وهو العيش معا بين الإنسان والتنوع البيولوجي من الحياة الفطرية والبرية والمائية.

4-4 - جمع البيانات وتحليلها:

وتقتصر عملية المسح وجمع البيانات على:

✓ حالة وتوزيع الأنواع المائل ذات الأهمية كالحوانات البرية والطيور والنمط النباتي، والنظام البيئي.

✓ فرائس ومفترسات لكل نوع أو صنف من الحياة البرية والمائية، ومدى كفايتها للحفاظ على التنوع البيولوجي.

✓ الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المحلي في الماضي والحاضر.

✓ الموارد المائية نوعية الماء الفيزيائية والكيميائية.

✓ حقوق الساكنة وملكية الأراضي داخل حدود المحمية وأوجه التصرف بها واستعمالها.

✓ معدل زيارات السياح المتوقعة خلال السنة الواحدة.

4-5- تحديد السياسات:

أي إلزام الجهة المعنية ببيان سياساتها لبلوغ أهدافه من التشريعات الضرورية لحماية المحمية وإدارتها والآليات والإجراءات الواجب تنفيذها وبيان الحالة التشاركية بين القطاع الحكومي والمجتمع المحلي، وكيفية الحصول على التمويل والتصرف بإيرادات المحمية وطريقة استفادة الساكنة المحلية من تلك الإيرادات¹

5- أهمية المحميات الطبيعية:

إن الغرض من إنشاء المحميات الطبيعية هو جني فوائدها المتعددة بكونها حافظة البيئة ودعم حياة الإنسان ورفاهيته ولها أهمية بالغة، وتكمن أهمية المحميات فيما يلي:

من الناحية البيئية: يتجلى الاهتمام العالمي المحميات الطبيعية نظرا لأهميتها من الناحية البيئية من خلال المحافظة على النظم البيئية لما لها من تأثير على بقاء الإنسان في مأمن ولتطور حياته وحياة الأجيال القادمة، وكذلك من خلال المحافظة على التنوع الحيوي والجيني للاستمرار في التكاثر الحيواني والنباتي في سبيل المحافظة على هذا التنوع لتحقيق التوازن الطبيعي في بيئتنا الطبيعية والحد من النقص والانقراض للحياة البرية وحماية الأنواع النادرة والمهددة بالانقراض،

¹ - أنور عمر قادر، آليات إنشاء المحميات الطبيعية وحمايتها، مرجع سابق، ص11-12-13.

وبالتالي المحافظة على التنوع الحيوي وكذلك فهي وسيلة للحد من التصحر الذي أصبح من المشكلات المستعصية.

من الناحية الاقتصادية: إن البيئة الطبيعية بحسب النظرة الاقتصادية عبارة عن مجموعة من المصادر والموارد التي توفر أسباب الحياة للإنسان، فهو يحصل من خلالها على مقومات حياته، وتتعدد القيم الاقتصادية للمحميات الطبيعية من خلال العوائد المباشرة وغير المباشرة المتأتية منها من الاستثمار السياحي، لأن المحميات الطبيعية دعامة قوية لوجود السياحة في أي بلد، فضلا عن ذلك يمكن من خلال الحياة البرية في محمية تحسين سلالات الحيوانات والنباتات، ويمكن إيجاد سبيل العيش للسكان المستوطنين بالقرب منها من خلال العمل في المحمية أو في النشاطات السياحية أو في الاستغلال المعقول لموارد المحمية ، فعلى سبيل المثال فإن 1,2 مليار فرد في العالم يعتمدون في عيشهم على الغابات الطبيعية لوحدها.

من الناحية الاجتماعية: تؤمن المحميات الطبيعية فرص العمل للسكان في المنطقة وتعمل كذلك على تنمية العلاقات الاجتماعية، فضلا عن الزيارات المستمرة للسياح والآخرين إلى المنطقة تؤدي إلى نقل المجتمعات المنعزلة إلى مجتمعات مفتوحة مع تغير سلوك الأفراد تجاه بيئتهم، كما أن للمحميات بعد اجتماعي آخر فمشاركة المجتمع في إدارة المحميات الطبيعية وحمايتها كسب الرزق من عملهم فيها ستكون نقطة تحول لتغيير سلوكهم تجاه البيئة من السلوك الموروث إلى السلوك الإيجابي تجاه بيئتهم الطبيعية.

من الناحية التراثية: عن طريق المحميات الطبيعية يمكن الاحتفاظ بالتراث الشعبي والقومي سواء بالاحتفاظ بالآثار في البلد أو الاحتفاظ بالحيوانات والنباتات الأصلية فيه، يحث يعتبر البعض منها لدى بعض الشعوب محل فخر واعتزاز لهم، فضلا عن أن بعض عناصر المحميات الطبيعية مثل الحيوانات أو الطيور أو النباتات قد تكون هدية ثمينة تقدمها بعض الحكومات للدول الصديقة لتوطيد العلاقات الودية بينهما.

من الناحية العلمية: تعد المحميات الطبيعية ميدانا علميا للباحثين وطلاب العلم في شتى الميادين كإجراء البحوث والتجارب¹.

¹ حمزة ناجي الجراجرة، المحميات الطبيعية في الأردن، مرجع سابق، ص 17-18-19.

ثانيا: السياحة البيئية (تعريفها- الإمكانيات والمقومات - مستقبلها)

1- تعريف السياحة البيئية:

تعرف بأنها السفر الهادف إلى المناطق الجديدة غير الملوثة بقصد الدراسة والتمتع بمناظرها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها البرية، وكذلك أي مظاهر حضارية قائمة.

كما تعرف بأنها: السياحة القائمة على التمتع بالمناطق الطبيعية ومشاهدة الطبيعة، دون تأثير كبير على البيئة، وتساهم بفعالية للنهوض بالدولة اجتماعيا واقتصاديا¹

وتم تعريفها أيضا بأنها: السفر لزيارة المواقع الطبيعية من أجل الاستمتاع بالطبيعة وما ي صاحبها من معالم ثقافية، بروح من المسؤولية البيئية التي تضمن المحافظة على المواقع الطبيعية وعدم المساس بها، وتقلل من التأثيرات السلبية للزيارة، ويوفر فرصا للمشاركة الاقتصادية والاجتماعية للسكان المحليين²

ووفقا لإعلان "كوبيك" فإن السياحة البيئية تتضمن جملة من مبادئ السياحة المستدامة مع التمييز لبعض الأمور التي تقع ضمن دائرة السياحة البيئية مثل:

✓ — المحافظة على المواقع الطبيعية والتراثية.

✓ — المساهمة في دمج المجتمعات المحلية في التخطيط للمشاريع المقامة لتطوير بيئتهم وعمل ذلك بالتعاون معهم.

✓ — تقديم وعرض المنتج الطبيعي والتراثي للزائر على نحو ملائم.

ثالثا: المحميات الطبيعية في موريتانيا وواقع التنمية السياحية (محمية حوض آرकिन)

1- جهود إنشاء محميات ومناطق طبيعية:

لقد توجت جهود الدولة الموريتانية في حماية البيئة وتسييرها والمحافظة على تنوعها واستدامتها، بإقرار إنشاء مجموعة من المحميات والمناطق الطبيعية، مع توفير الوسائل المادية والبشرية الضرورية لتسييرها والقيام بدورها البيئي المتميز. وفيما يلي أهم وأبرز المحميات الطبيعية التي قامت الدولة بإنشائها:

¹ - حاتم عبد المنعم أحمد، وآخرون، التقويم الاجتماعي والبيئي لمشروعات السياحة البيئية "دراسة مقارنة بين محافظتي مطروح والفيوم"، مجلة علوم البيئة، المجلد 39، ج1، سبتمبر 2017م، ص180.

² - زياد عبد الرواضية، السياحة البيئية: المفاهيم والأسس والمقومات، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، 2013م، ص18.

1-1 الحظيرة الوطنية لحوض جاولينغ:

الحظيرة الوطنية لجاولينغ مؤسسة عمومية ذات طابع إداري، أنشئت بموجب المرسوم رقم 91-005 بتاريخ 14 يناير 1991م. ومن أهم الأهداف التي أوكلت للحظيرة: المحافظة والاستخدام المستديم لعينة من النظام البيئي للدلتا السفلي لنهر السنغال — التنمية المنسجمة والدائمة للنشاطات التقليدية للسكان المحليين — تنسيق النشاطات الرعوية وتلك المتعلقة بالأسماك التي تمارس على أرضها.

مكنت الاتفاقيات المبرمة مع شركائها من تنفيذ الأهداف الكبرى لمخططها التسييري في مجالات تقويم الكفاءات وإعادة التنوع الحيوي ودعم السكان. كما تمكنت الحظيرة الوطنية لجاولينغ وبحكم أهميتها بالنسبة لاستقبال طيور الماء من الانضمام سنة 1994م إلى قائمة اتفاقية RAMSAR للمناطق الرطبة ذات الأهمية العالمية. وتستقبل الحظيرة آلاف الطيور المهاجرة من غرب القطب الشمالي والطيور الإفريقية المداري، ففي سنة 2003م استقبلت الحظيرة 50323 طيرا مائيا وسنة 2004 62305 فردا موزعين على 90 نوعا. وقد أثبتت الحظيرة الوطنية لحوض جاولينغ بفعل انجازاتها وبطرق مثلى أن حماية البيئة ضرورة في نطاق تنمية مستدامة¹.

الصورة رقم1: تظهر التنوع في المحمية الوطنية لجاولينغ



المصدر: خطة تسيير المحمية الوطنية لجاولينغ 2022م، ص 12.

¹ - الساحل الموريتاني تراث وطني وانفتاح على العالم، وزارة الصيد والاقتصاد البحري، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، 2004م، ص 17- 27.

1-2 الحظيرة الوطنية لأوليكات:

يمثل تحدي تغير المناخ مصدر قلق كبير لموريتانيا ستؤثر هذه التغيرات بالتأكيد على الموارد الطبيعية الموجودة بالفعل في حالة من عدم الاستقرار المتقدم. وفي هذا السياق خصصت الحكومة الموريتانية كجزء من استراتيجيتها للتخفيف من آثار تغير المناخ والعدوانية البشرية على البيئة، الأموال اللازمة لإنشاء محمية تسمى "الحظيرة الوطنية لأوليكات"، وهي خطوة ضرورية لضمان الحفاظ على الأنواع المنقرضة أو المهددة بالانقراض و/أو إعادة إدخالها في المستقبل.

كانت الحظيرة الوطنية لأوليكات في البداية مشروع حديقة حيوانات في "إديني" تم إنشاؤه بموجب مرسوم رقم 0406 في 18 مارس 2015م على مساحة 400 هكتار، وبموجب المرسوم رقم 0178 الصادر بتاريخ 05 أكتوبر 2016م أصبحت مؤسسة إدارية عامة تسمى منتزه أوليكات الوطني بمساحة 1600 هكتار. إن الحظيرة الوطنية لأوليكات مجهزة بالفعل بالبنية الأساسية الضرورية والوسائل اللوجستية مثل: سياج خارجي بطول 16 كلم بما في ذلك 1.5متر في الهندسة المدنية و 3 متر في منطقة تكييف، وشبكة سلكية 107 هكتار و 06 بئر مجهزة و 03 محطات كهربائية، ومسار بطول 7 كلم و 4 كلم من الطرق الداخلية، و 2 كلم من الإضاءة في الموقع.

الصورة رقم 2: بعض الزرافات المحمية في الحظيرة الوطنية لأوليكات



المصدر: مشروع تطوير الحظيرة الوطنية لأوليكات 2023م، ص 23.

تسعى حظيرة أوليكات إلى تحقيق أهداف رئيسية من بينها:

- ✓ إنشاء مجمع نباتي وحيواني وسياحي بيئي.
- ✓ الحفاظ والدراسة العلمية والتربية خارج الموضع الطبيعي لأنواع الحياة البرية
- ✓ تثقيف الجمهور وتواصله وإذكاء وعيه بأهمية الحفاظ على الأنواع المهددة بالانقراض أو المنقرضة بالفعل من الحيوانات البرية في موريتانيا.
- ✓ توفير الحلول المناسبة لأسباب اختفاء الحياة البرية لضمان إعادة إدخالها بشكل أفضل في بيئاتها الطبيعية.
- ✓ إنشاء مكان للاسترخاء والترفيه والتسلية للجمهور وتعزيز السياحة البيئية.
- ✓ المساهمة في التنمية الاجتماعية الاقتصادية للحواضر المجاورة للمنتزه¹

1- 3 - محمية الرأس الأبيض وعجل البحر:

تعتمد محمية الرأس الأبيض للأقمار الصناعية، وهي إحدى المناطق الطبيعية الرئيسية في موريتانيا تعتمد على منتزه الحظيرة الوطنية لحوض آرغين، وقد تم إنشاءها عام 1986م من أجل حماية عجول البحر وتقع في شبه جزيرة الرأس الأبيض، وتبلغ مساحتها حوالي 2 كلم² وفي عام 2000م وخلال إحدى دورات المجلس العلمي للدول الأعضاء في خطة الأطلسي لحماية عجول البحر (موريتانيا والمغرب وإسبانيا والبرتغال) وبعد ملاحظة نمو العجول في شبه جزيرة الرأس الأبيض قرر المجلس توسيع مجال الحماية فأنشئت محمية ملحقة في خليج النجمة بانواذيبو، وتسير المحميتان من طرف منظمة النجاح الموريتانية ومنظمة سي بي دي آبيتا الإسبانية، وبالتنسيق مع الحظيرة الوطنية لحوض آرغين³.

¹ www.environnement.gov.mr/ar/parc-national-dawleigat.pna

² - www.msgg.gov.mr/ar/pnba

³ - [www/google.com/amp/www/skynewsarabia.com/amp/varieties](http://www.google.com/amp/www/skynewsarabia.com/amp/varieties).

الصورة رقم 3: مشهد من بعض الفقمات في محمية الرأس الأبيض



المصدر: هبة سيد الخير، عجائب وطرائف حيوانات موريتانيا، مقال منشور في موقع Mouriactu.info/ar بتاريخ (29-02-2016م).

1- 4 — محمية حوض آركوين (الموقع- الظروف المناخية والبشرية- الإمكانيات السياحية)

1- 4 — 1 الموقع والحدود والنشأة:

تقع المحمية الوطنية لحوض آرغين جنوب منطقة الرأس الأبيض في أقصى شمال الساحل الموريتاني على المحيط الأطلسي، وتمتد على مسافة 150 كلم بين رأس تيميريس شمال انواكشوط والرأس الأبيض عند انواذيبو، وتشكل امتدادا للصحراء الرملية الكبرى في عمق شاطئ المحيط الأطلسي.

تبلغ مساحة المحمية 12000 كلومتر مربع، وتغطي المحمية ثلث مساحة الساحل الموريتاني، وهي واحدة من أكبر الحدائق الوطنية في غرب إفريقيا، وتضم المحمية 6300 كلم مربع في المجال البحري و5700 كلم مربع في المجال البري بها كثبان رملية ومياه ومستنقعات ساحلية ضحلة وسهول طينية ومياه ضحلة وأعشاب بحرية على مساحات شاطئية واسعة، ويضم الحوض 15 جزيرة كبيرة المساحة نسبيا مثل (تندرا، وكيجي، ونيرومي...)، إضافة لعشرات الجزر الصغيرة الرملية التي تكاد تعلو عن سطح الماء، وعندما ينخفض مستوى البحر تبدو للعيان ممتدة على مساحات واسعة تغطيها الأعشاب كأنها مروج خضراء عائمة فوق الماء.

تأسست محمية حوض آرغين بفضل جهود الباحث الفرنسي "ثيودور مونو" وذلك في مطلع سبعينات القرن الماضي باعتبارها محمية طبيعية للطيور المهاجرة وبيئة ذات خصائص جغرافية

ومناخية فريدة، وقد تبنت الحكومة الموريتانية سنة 1976م هذه الفكرة، وأنشأت "مؤسسة الحظيرة الوطنية لحوض آرغين" لحماية التنوع البيئي وللحفاظ على البيئة الطبيعية والتنمية المستدامة للسكان. وقد جاء إنشاؤها للقيام بدور رئيسي في الحفاظ على التنوع البيولوجي البحري وحماية النظام البيئي في خليج آرغين وللإسهام في الحفاظ على موارد صيد الأسماك في جميع أنحاء المنطقة الاقتصادية في موريتانيا، وكذلك للقيام بدور إقليمي أوسع في هذا المجال بغرب إفريقيا.

وقد تم إنشاء المحمية الوطنية في منطقة خليج آرغين البحرية في عام 1976م، بدعم أوروبي-ألماني، وتولت الوكالة الألمانية للتعاون التقني (gtz) تقديم خدمات استشارية في مجال إدارة الثروات الطبيعية في المحمية. وقد أدرجت المحمية الوطنية لحوض آرغين كموقع للتراث الطبيعي العالمي لليونسكو في عام 1989م، حيث حافظت المحمية على مقوماتها البيئية وثرواتها الطبيعية الأصلية، وهي حقل مهم للبحث العلمي، إذ يقوم خبراء موريتانيون من المعهد الوطني للبحث في مجال الصيد بتنسيق البحوث التي تشارك فيها فرق فرنسية وبريطانية وهولندية. وبذلك أصبحت المحمية قبلة للسياح والباحثين المهتمين بالمواضيع الطبيعية والبيئية وتأثيراتها المحتملة على الطيور المهاجرة والحيوانات والحياة النباتية البحرية والبرية وعلى ظروف السكان¹.

¹-<http://www.alamarabi.com>

الخريطة (1) : منطقة الدراسة



المصدر: إعداد الباحث بالاعتماد على: خطة التسيير للحظيرة الوطنية 2010-2014م، ص23.

1 - 4 - 2 العوامل المناخية:

تقع موريتانيا ضمن مناخ مداري يمتد بين دائرتي عرض (14.30 و 27.24 شمالا) وبين خطي طول (4.4 و 17.4 غربا)، مما جعلها تتلقى نصيبا من الإشعاع الشمسي، حيث تتعادم أشعة الشمس على الأراضي الموريتانية مرتين في السنة، ويزيد من فاعلية هذا الإشعاع الشمسي خلو السماء غالبا من السحب وندرة الغطاء النباتي مما يزيد من ارتفاع درجات الحرارة، ويزيد من معدلات التبخر ويقلل من القيمة الفعلية للتساقط. وتساهم الصحراء من خلال الضغط المرتفع الصحراوي في زيادة قساوة المناخ، حيث أنه مصدر رياح الهريتان الحارة الجافة المحملة

بالغبار والأتربة، كما تساهم هذه الرياح في زيادة التصحر، وتستفيد المنطقة الساحلية من إطلالها على المحيط الأطلسي مما يجعلها مميزة في مناخها عن بقية المناطق الأخرى¹

1 - 4 - 2 - 1 درجة الحرارة:

إن المناخ وخاصة درجة الحرارة في منطقة حوض آرकिन هي من أكثر المناطق اعتدالا، بسبب وقوعها على الساحل وتأثرها بالرياح القادمة منه، والتي تكون باردة في فترة الشتاء الممتد من منتصف نوفمبر تقريبا حتى نهاية شهر فبراير، وتبدأ بالاعتدال من شهر مارس حتى نهاية شهر مايو، وبعدها تبدأ الحرارة بالارتفاع نسبيا حتى نهاية أكتوبر، ويرجع هذا المناخ إلى الموقع الجغرافي المتميز الذي تتمتع به المحمية التي تمتد على مساحة 12000 كلم مربع²

إن متوسط الحرارة واعتدالها غالبا في المحمية يظهر جليا عند النظر في متوسطات الحرارة في انواذيبو ومحطة إيويك.

الجدول(1): المتوسط السنوي لدرجات الحرارة القصوى والدنيا بمحطتي نواذيبو وإيويك ما بين 2010 و 2013م

✓ السنوات	✓ أنواذيبو		✓ إيويك	
	✓ القصوى	✓ الدنيا	✓ القصوى	✓ الدنيا
✓ 2010	✓ 34,06	✓ 21,35	✓ 34,2	✓ 15,3
✓ 2011	✓ 33,42	✓ 19,82	✓ 32,4	✓ 18,1
✓ 2012	✓ 32,74	✓ 20,74	✓ 33,5	✓ 19,5
✓ 2013	✓ 34,02	✓ 20,67	✓ 33,8	✓ 22,1

✓ المصدر: الهيئة الوطنية للأرصاد الجوية.

1 - 4 - 2 - 2 الأمطار:

تقع منطقة حوض آرकिन في الشمال الغربي لموريتانيا، وهو ما جعلها ضمن شمال خط المطر 50ملم سنويا، أي من المناطق ذات النقص الشديد للأمطار. إن الظروف المناخية السائدة في المنطقة الساحلية لا تساعد على تهطل الأمطار بالمنطقة، فالأمطار بوجه عام قليلة ومتذبذبة من سنة لأخرى (أنظر الجدول 2) وذلك راجع إلى أن الرياح التجارية البحرية المحملة ببخار الماء

¹ -منة منت عبد القادر، التحديات البيئية لمحمية حوض آرغين، رسالة ماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، 2013-2014م، ص22.

² - الحظيرة الوطنية لحوض آرغين، بين الصحراء والأطلسي، موريتانيا، 2004م، ص15.

لا تسقط أمطارا بسبب ازدياد درجة حرارتها فور مرورها باليابسة، إذ تقل نسبة تشبعها فيضعف احتمال حدوث تكاثف.

ومن العوامل التي لا تساعد على سقوط الأمطار أيضا بالمنطقة هو عدم وجود مرتفعات تساعد على سقوط الأمطار تضاريسيا، ولعل أهم مصدر للأمطار بالمنطقة هو الرياح الموسمية التي تتركز أمطارها في شهري أغسطس وسبتمبر مع أن كمياتها ليست منتظمة. وتتميز الأمطار في موريتانيا عموما بالقلة وتتركز في فترة قليلة من السنة والقسم الأكبر الذي يتساقط منها يعود إلى الأمطار الصيفية التي تحملها الرياح الموسمية، وقد تسقط أمطار شتوية خفيفة لكنها نادرة، وتتناقص الأمطار الصيفية كلما اتجهنا شمالا بينما تتناقص الأمطار الشتوية كلما اتجهنا جنوبا¹ ورغم أن هذا هو الثابت إلا أنه تحدثت بعض الطفرات المطرية في بعض السنوات، كما حدث في خريف 2022م الذي زادت فيه معدلات الأمطار في المنطقة على 100 ملم، لكنه يبقى استثناء ويرجع البعض إلى التغير المناخي.

1 - 2 - 3 - الرياح:

في منطقة حوض آرغين تهب ثلاث أنواع من الرياح، تختلف من حيث الخصائص والاتجاه وهي:

✓ - الرياح الموسمية:

وهي رياح تغير اتجاهها عند مرورها من خط الاستواء، وهي رياح غير مستقرة، ذات اتجاه جنوبي غربي خاصة في الفترة ما بين شهري يوليو وأغسطس، وهي الفترة التي تصل بها الجبهة البيومدارية أقصى حدودها الشمالية. ولا تتأثر كثيرا منطقة حوض آرغين بهذه الرياح حيث بالكاد تصل إليها قادمة من جهة أنواكشوط ضعيفة وشبه فارغة من الأمطار ولا تصل حتى إلى منطقة أنواذيبو، وهو ما يمكن أن يفسر جفاف المنطقة وقلة الغطاء النباتي فيها²

✓ - الرياح التجارية البحرية:

تهب هذه الرياح على حوض آرغين وعلى الساحل طوال العام وهي رطبة وباردة واتجاهها شمالي وشمالي غربي، وتكون قوية بعد الظهيرة بسبب نسيم البحر، كما تكون في بعض الأحيان

¹ -منة منت عبد القادر، التحديات البيئية لمحمية حوض آرغين، مرجع سبق ذكره، ص 26.

² - تسرو بنت مامين، منطقة رأس تيمريس، رسالة ماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة أنواكشوط، 2014م، ص 34.

قادرة على تكوين الكثبان الرملية على الساحل، وتزداد حرارة هذه الرياح عندما تتوغل في المناطق الداخلية في غير فصل الشتاء بسبب جفافها.

✓ — الرياح التجارية القارية:

هي الرياح السائدة في المنطقة وتتجه من الشمال نحو الجنوب، ففي فترة الأشهر الستة الأولى من السنة تغلب رياح تكون ضعيفة، بينما تكون متذبذبة من شهر أغسطس إلى أكتوبر حيث تصل أقصى سرعتها في هذه الفترة 35 كلم في الساعة، أما الفترة من نوفمبر إلى يناير فيغلب عليها الاتجاه الشمالي الشرقي وبسرعة تصل 20 كلم في الساعة.

1 — 4 — 3 — السكان في المحمية الوطنية لحوض آرकिन:

تعتبر مجموعة إيمراغن الساكنة الرئيسية لمحمية حوض آرकिन، وهي تقطن في تجمعات سكنية قليلة العدد على شاطئ المحيط الأطلسي في غرب موريتانيا، في شكل أكواخ وأعرشة من الخشب والحشيش، وهي تتمسك بأسلوب حياتها التقليدية، وتعيش على صيد الأسماك بالطرق البدائية، ابتداء من شبكة الصيد وحتى الزورق الخشبي مروراً بباقي الأدوات التي يحتاجونها في حياتهم اليومية. ويعرف الرجل في إيمراغن باسم "أمريغ" والمرأة باسم "تامرغيت"، ولهم طقوسهم الخاصة في الصيد وعاداتهم التي يصرون عليها ويعتبرون أنها تجلب لهم الحظ، هذا فضلاً عن درايتهم الكبيرة بمواسم صيد كل نوع من السمك وأماكن تكاثره وطرق اصطياده. ولم يأت موقع هذه القرى بصفة عشوائية (أنظر الخريطة 2)، بل حددت نشاطات الصيد مواقعها. حيث تقع معظم قرى إيمراغن على الرؤوس الصخرية كما هو الحال في مامغارو الركيبية وإيويك، إذ أن أسراب الأسماك لا تتبع في سيرها خط الساحل بل تنتقل في خط شبه مستقيم بين الرؤوس مما يهيئ فرصة أفضل للصيد حول الرؤوس خاصة إذا كانت المياه المجاورة لها ضحلة مما يسمح بالصيد سيرا على الأقدام في مساحات مائية مهمة كما هو الحال حول تيدرقت وتعلول ورأس آرغين¹.

¹ — منة منت عبد القادر، التحديات البيئية لمحمية حوض آرغين، رسالة ماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، 2013-2014م، ص 28-29-54.

خريطة (2): مواقع قرى إيمراغن في الحظيرة



المصدر: منة عبد القادر، مرجع سابق. ص55

1- 5 — إمكانات ودور الحظيرة الوطنية لحوض آرغين في تنمية السياحة البيئية

1- 5- 1 الدور والإمكانات:

تشكل السياحة في مناطق الحظيرة الوطنية لحوض آرغين خاصة نشاطا اقتصاديا في أوج نموه وله عدة جوانب ملائمة لتطوره، حيث توجد على مستوى العديد من قرى إيمراغن مخيمات ضربت فيها خيام بدوية تقليدية لاستقبال الزوار، ويتسنى لهؤلاء الذهاب لاستكشاف الجزر والأحواض الوحلية على متن مراكب الصيادين ذات الأشرعة لمشاهدة الطيور والدلافين والتي من بينها الدلفين ذو الحذبة، أو الذهاب أيضا في الصحراء للالتقاء بالمنمين الرحل وتعرف على نمط عيشهم الباهر¹.

الصورة(4) : زوارا أجانب مع مرشدين سياحيين في قوارب شراعية في مياه الحظيرة



المصدر: بين الصحراء والأطلسي، مرجع سابق، ص 63.

الصورة(5): الدولفين النادر ذو الحذبة الذي يجذب السياح لمشاهدته في الحظيرة



المصدر: الساحل الموريتاني، مرجع سابق، ص 47

¹ - وزارة الصيد والاقتصاد البحري، الساحل الموريتاني: تراث وطني وانفتاح على العالم، موريتانيا، 2004، ص 46.

لقد عملت إدارة الحظيرة منذ سنة 2000م على تطوير السياحة البيئية على امتداد تراب الحظيرة، ويعتبر الهدف الأساسي من إدخال هذا النشاط هو المساهمة في تثمين واكتشاف وحماية هذا التراث المعرفي العالمي من جهة، وعدم النشاطات الاقتصادية الموازية لنشاط الصيد وذلك لتخفيف الضغط على الثروات البحرية ولتشجيع النشاطات التي تساهم في توفير فرص وزيادة مداخيل مجموعة إيمراغن خصوصا النساء.

كما قامت الحظيرة بتقنين وتنظيم وضعية المخيمات السياحية على مستوى القرى (أنظر الصورة 3)، سواء كانت هذه المخيمات للمجموعة أو للأفراد، وتتولى النساء تسيير المخيمات السياحية وتقسم العائدات المالية بين التعاونية والنساء العاملات في هذا النشاط. ويقتصر المنتج السياحي والخدمات التي توفرها المخيمات السياحية في الحظيرة على تأجير الخيام والخروج في نزهة على متن السفن الشراعية وممارسة الصيد الرياضي، وبعض المنتجات الصناعية التقليدية.

الصورة(6): جانب من البنية التحتية للسياحة البيئية في الحظيرة آرغين



المصدر: الساحل الموريتاني، مرجع سابق، ص 47.

لدخول الحظيرة الوطنية لحوض آرغين يدفع الزائر الواحد ضريبة دخول تصل حاليا حوالي 2000 أوقية قديمة في الليلة الواحدة، ويتم الإيواء فقط داخل المخيمات الجماعية أو الخصوصية، وتمتد الحملة السياحية في الحظيرة خاصة من شهر أكتوبر إلى شهر إبريل، إلا أن المخيمات

تبقى مفتوحة ويرتادها الزوار على مدار السنة. وعموما يبقى عدد الزوار الحظيرة المسجلين سنويا ضعيفا نسبيا أي حوالي 2000 زائر في العام¹

إن حظيرة أرغين يمكن إلى جانب الصيد أن تلعب دورا في تنمية السياحة البيئية في موريتانيا، هذا النشاط الجديد يشكل بديلا اقتصاديا لتناقص الكميات التي يصطاده إيمراغن مقللا في نفس الوقت من الضغط على الموارد، ولا تنقص الحظيرة ميزات خاصة بفضل الحركة الاقتصادية للقرى، وكرم ضيافة سكانها المتكفين مع الظروف الصحراوية، وانفتاحهم على الخارج، ومناظرها الطبيعية وطيورها الحاضرة بشكل شبه دائم، كلها ميزات وعوامل تثبت الاعتقاد بأن السياحة البيئية تتوفر على إمكانات هامة، ستصل قمته إن تطورت البيئة التحتية الطرقية وتوفرت المياه العذبة والطاقة في قرى الحظيرة.

إلا أن تطوير هذا النشاط يشترط فيه أن يكون مدارا إدارة جيدة، فكل تدهور للحظيرة سيكون له أثر سلبي على النشاط، كما يعتمد ذلك التطور على المقدرة الاستيعابية للوسط وللجماعات المحلية، مع التركيز على ضرورة وجود نتائج اقتصادية مباشرة أكثر مايمكن لصالح هذه الجماعات، مع مراعاة روح هذا النشاط أو ما اتفق على تسميته بالسياحة البيئية²

لكن سواء تم تطوير السياحة البيئية في الصحراء أو في الساحل فإنه ينبغي أخذ احتياطات في الاعتبار بسبب هشاشة هذين الوسطين الطبيعيين اللذين يشكلان الأركان الحقيقية لنشاط السياحة البيئية. ومن المهم في هذا السياق أن نعرف أن السائح يستهلك ما يقرب من 200 لتر من الماء يوميا، وتتولد عنه كميات هامة من النفايات والمياه الوسخة، فإذا كان أثر السياحة على المستوى الاقتصادي مفيدا للتنمية، إلا أن تأثيرها على المستوى البيئي والاجتماعي والثقافي قد يكون سلبيا إن لم يكن السكان المحليين مهئين لهذا الاحتكاك، حيث يعتقد بعض السياح أنهم بالنقود يستطيعون الحصول على كل شيء³

وبصفة أكثر عمومية فإن الحظيرة الوطنية لحوض أرغين تلعب دور مختبر تنمية مستدامة، فهي مرغمة على إدارة حذرة لحيزها وموارده وتقديم تصور بشكل دائم للتوفيق بين المحافظة على البيئة والخصائص البيولوجية للمنطقة ومتطلبات التنمية والحاجات الاقتصادية والاجتماعية

¹ - الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول المكلفة بالبيئة والتنمية المستدامة، خطة الاستصلاح والتسيير 2010-2014، مرجع سابق، ص13.

² - الحظيرة الوطنية لحوض أرغين، بين الصحراء والأطلسي، مرجع سابق، ص109

³ - الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول المكلفة بالبيئة والتنمية المستدامة، خطة الاستصلاح والتسيير 2010-2014،

مرجع سابق، ص13

لسكان إيمراغن، التي تتطلب تلبية إدماجهم أثناء تحديد أهداف التنمية للتأكد من انخراطهم في طور إنجاز المشاريع.

1- 5- 2- مستقبل السياحة البيئية:

تتوطد دعائم السياحة يوما بعد يوم وعام بعد عام سواء من حيث الوعي بها أو من حيث الإدراك لمفهومها والإحساس بجوانبها المختلفة وأهميتها المتعددة الجوانب وتأثيرها على تشكيل الوعي البيئي والإدراك العقلي بقضاياها المتجددة، وتزداد روابط السياحة البيئية حتى أصبح هناك تكامل بين السياحة البيئية وباقي الأنشطة التي رسمها الإنسان بصفة عامة. لقد أصبحت السياحة البيئية أسرع أنواع الأنشطة نمواً، ولقد أثبتت الوقائع العلمية الفعلية أن السياحة البيئية هي السياحة المثلى لتنمية المناطق السياحية ومن خلال ذلك تؤثر في كافة مجالات الحياة.

بدا الاهتمام بدراسات المستقبل في العمل السياحي بصفة عامة وبالسياحة البيئية بصفة خاصة من خلال الخوف على نضوب الموارد ومن خلال دراسة الخطر والتهديد الذي يمثله التلوث البيئي على كوكب الأرض.

إن البيئة السليمة هي المناخ الملائم لتحقيق التنمية السياحية المستدامة، والسياحة البيئية هي ربط الاستغلال والاستثمار (للمواقع البيئية والمشاريع الإنتاجية للمجتمع المحلي) مع تطبيق إجراءات حماية البيئة والتنوع الحيوي والثقافي للمناطق السياحية وفق معادلة تنموية واحد عن طريق إعداد خطط وبرامج سياحية تعتمد على توجيه السياحة نحو المواقع المتميزة بيئياً، مع التأكيد على ضوابط وإرشادات عدم المساس بنوعية البيئة أو التأثير عليها. إن السياحة البيئية كنشاط إنساني يمارسه الإنسان بجانبه المادي والمعنوي، سواء على مستوى المشروع السياحي أو على مستوى المقصد السياحي أو على مستوى الدولة السياحية ككل، حيث إن السياحة البيئية في المحميات الطبيعية ستظل وسيلة للحياة من خلال ارتباطها ارتباطاً قوياً بالبيئة من خلال ثلاثة جوانب هي: اهتمام السائح بالمكان، ارتباط المشروع بالبيئة، التزام المجتمع تجاه البيئة¹

خاتمة:

يظهر من خلال البحث أن للمحميات الطبيعية دوراً مهماً في تنمية السياحة البيئية، حيث تبين أن مكانة حظيرة أركين بين المحميات مكانة خاصة ومميزة، نظراً لموقعها وتنوعها لبيولوجي. لذا

¹ - حنان حسين دريول، استثمار المحميات الطبيعية لتنمية السياحة البيئية والاستدامة الحضرية في محافظة كربلاء، مجلة أريد الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثاني، العدد الخاص، آب 2020م، ص 82.

كان من الضروري جعلها قطبا سياحيا بيئيا دون الإضرار بالحظيرة، ووضع ترسانة قانونية لحمايتها واستغلال إمكاناتها البيئية والسياحية، مع زيادة الوعي البيئي لدى كل الفاعلين بأهمية السياحة البيئية، وذلك من خلال الملتقيات وتنظيم الدورات التكوينية للسكان المحليين للحفاظ على المحمية واستدامتها.

✓ ومن خلال ما تقدم يمكن الخروج بالنتائج التالية من البحث:

✓ تساهم السياحة البيئية للحظيرة في تعزيز الاستدامة البيئية للموارد الطبيعية والتنمية الاقتصادية.

✓ تعتبر المحميات الطبيعية وسيلة فعالة لتحقيق التنمية السياحية البيئية، بما يتلائم مع متطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية المستدامة في موريتانيا.

يمكن أن تكون السياحة البيئية في الحظيرة الوطنية لحوض آرकिन مصدر دخل محليا ووطنيا، وبديلا وموردا اقتصاديا يمكن الاعتماد عليه في حال سخرت الإمكانات البشرية والمادية والطبيعية الموجودة، حيث تحتاج الحظيرة إلى تهيئة لجذب السياح بشكل أكبر، كتسهيل حركة السياح وتوفير المرشدين السياحيين وتنمية قرى الحظيرة وإقامة بنية تحية للراحة والاستجمام داخل الحظيرة.

✓ توصيات:

✓ انطلاقا من نتائج البحث بالإمكان وضع التوصيات التالية:

✓ ضرورة زيادة التمويل الموجه للحظيرة وللمحميات بشكل عام وتشجيع الاستثمار البيئي فيها.

✓ نشر الوعي البيئي والسياحي بين الفاعلين البيئيين والسكان المحليين.

✓ تنشيط السياحة الثقافية.

✓ توفير البنية التحتية الملائمة للسياح داخل المحميات.

✓ وضع استراتيجيات وطنية للسياحة البيئية للمحميات الطبيعية، وتشجيع البحث العلمي.

✓ إعطاء الأولوية للسكان المحليين وإشراكهم في تسيير وحماية الحظيرة والنهوض بالسياحة البيئية فيها.

✓ قائمة المراجع:

1- أنور عمر قادر، آليات إنشاء المحميات الطبيعية وحمايتها، مطبعة ياد، إقليم كردستان - العراق، 2017م.

- 2- تسرو بنت مامين، منطقة رأس تيمريس، رسالة ماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، 2014م.
- 3- حمزة ناجي، عبد المهدي الجراجرة، المحميات الطبيعية في الأردن ودورها في التنمية السياحية، رسالة الماجستير في الآثار، قسم السياحة، جامعة مؤتة، الأردن، 2014م.
- 4- حاتم عبد المنعم أحمد، وآخرون، التقويم الاجتماعي والبيئي لمشروعات السياحة البيئية "دراسة مقارنة بين محافظتي مطروح والفيوم"، مجلة علوم البيئة، المجلد 39، ج1، سبتمبر 2017م.
- 5- حنان حسين دريول، استثمار المحميات الطبيعية لتنمية السياحة البيئية والاستدامة الحضرية في محافظة كربلاء، مجلة أريد الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثاني، العدد الخاص، أب 2020م.
- 6- الحظيرة الوطنية لحوض آرغين، بين الصحراء والأطلسي، موريتانيا، 2004م.
- 7- زياد عبد الرواضية، السياحة البيئية: المفاهيم والأسس والمقومات، دائرة المكتبة الوطنية، عمان، الأردن، 2013م.
- 8- منة منت عبد القادر، التحديات البيئية لمحمية حوض آرغين، رسالة ماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة انواكشوط، 2013-2014م.
- 9- الساحل الموريتاني تراث وطني وانفتاح على العالم، وزارة الصيد والاقتصاد البحري، الجمهورية الإسلامية الموريتانية، 2004م.
- 10- هشام بن صالح بن علي البراك، المحميات الطبيعية وتجريم الاعتداء عليها، بحث للحصول على درجة الماجستير، كلية الدراسات العليا، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية، 2010م.
- 11- الوزارة المنتدبة لدى الوزير الأول المكلفة بالبيئة والتنمية المستدامة، خطة الاستصلاح والتسيير 2010-2014.
- 12- وزارة الصيد والاقتصاد البحري، الساحل الموريتاني: تراث وطني وانفتاح على العالم، موريتانيا، 2004م.

- ✓ www.environnement.gov.mr/ar/parc-national-dawleigat.pna
- ✓ www.msgg.gov.mr/ar/pnba
- ✓ [www/google.com/amp/www/skynewsarabia.com/amp/varieties](http://www.google.com/amp/www/skynewsarabia.com/amp/varieties)
- ✓ <http://www.alamarabi.com>

الثروة السمكية في موريتانيا

العالية عيبيبة بنت عالي
طالبة دكتوراه: مكونة الجغرافيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة نواكشوط

الملخص:

تمثل الثروة السمكية في موريتانيا أحد أهم الموارد الاقتصادية، حيث تمتلك البلاد واحدة من أغنى المصايد البحرية في العالم، بفضل موقعها على المحيط الأطلسي وتنوعها البيئي. يساهم قطاع الصيد بشكل كبير في الاقتصاد الوطني، إذ يوفر آلاف فرص العمل، ويمثل مصدر دخل رئيسي للعديد من الأسر الساحلية. كما تعد المنتجات السمكية من أهم الصادرات، حيث تدر عائدات كبيرة من العملات الصعبة، مما يعزز ميزان المدفوعات. إلى جانب ذلك، يلعب القطاع دوراً مهماً في الأمن الغذائي، من خلال توفير مصدر بروتيني عالي الجودة للسكان. كما تدعم الاستثمارات في هذا المجال التنمية المحلية من خلال البنية التحتية والموانئ وتعزيز الصناعات المرتبطة به، مما يساهم في تحقيق نمو اقتصادي مستدام. إضافةً إلى ذلك، يساهم قطاع الصيد في تعزيز الشراكات الاقتصادية مع الدول الأخرى، من خلال اتفاقيات الصيد والتبادل التجاري. كما يوفر فرصاً للنهوض بالصناعات التحويلية، مثل تعليب الأسماك وتصنيع المنتجات البحرية، مما يزيد من القيمة المضافة لهذا المورد الطبيعي ويعزز التنمية المستدامة في البلاد.

كلمات مفاتيح: الصيد البحري، المصايد البحرية، الإنتاج السمكي، المنتجات البحرية.

مقدمة

تعد الثروة السمكية من أهم الموارد الطبيعية التي تزخر بها موريتانيا، حيث تمتد سواحلها على المحيط الأطلسي لمسافة تزيد على 750 كيلومتراً، مما يجعلها من أغنى المناطق البحرية بالأسماك على المستوى الإقليمي والدولي. وتتميز المياه الإقليمية الموريتانية بتنوع بيولوجي هائل، بفضل التيارات البحرية الباردة، مثل تيار الكناري، الذي يوفر بيئة مثالية لازدهار العديد من الأنواع السمكية ذات القيمة الاقتصادية العالية. وقد ساهم هذا التنوع في جعل قطاع الصيد البحري ركيزة أساسية للاقتصاد الوطني، سواء من حيث توفير فرص العمل أو تحقيق عائدات هامة من الصادرات إلى الأسواق العالمية.

وتلعب المصايد البحرية في موريتانيا دورا محوريا في دعم النشاط الاقتصادي، حيث توفر بيئة غنية بالمخزون السمكي، مما يتيح فرصاً كبيرة لممارسة الصيد التقليدي والصناعي على حد سواء. وبفضل هذا المورد الطبيعي، أصبحت موريتانيا وجهة استثمارية واعدة في قطاع الصيد البحري، حيث تُبرم العديد من الاتفاقيات مع الدول والشركات الأجنبية للاستفادة من إمكانياتها البحرية. وعلى الرغم من هذه الإمكانيات الهائلة، يواجه القطاع تحديات عدة، أبرزها الصيد الجائر، وضرورة تعزيز الممارسات المستدامة لضمان الحفاظ على المخزون السمكي للأجيال القادمة.

أما على مستوى الإنتاج السمكي، فتعد موريتانيا واحدة من أكبر الدول المصدرة للأسماك في إفريقيا، حيث تتمتع بإنتاج وفير من الأسماك السطحية، مثل السردين والتونة، والأسماك القاعية، مثل الجمبري والأخطبوط، التي تحظى بطلب عالمي متزايد. ومع ذلك، لا تزال هناك حاجة لتطوير البنية التحتية للصيد، وتعزيز الصناعات التحويلية المرتبطة به، مثل التبريد والتعليب، لرفع القيمة المضافة لهذا القطاع الحيوي. كما أن تحقيق الاستغلال الأمثل للثروة السمكية يتطلب سياسات فعالة لمكافحة الصيد العشوائي وضمان استدامة الإنتاج.

وفي هذا السياق، يتناول هذا المقال محورين أساسيين، حيث يركز المحور الأول على المصايد البحرية في موريتانيا، مسلطا الضوء على طبيعتها وأهميتها الاقتصادية، بينما يناقش المحور الثاني الإنتاج السمكي، مستعرضا أنواعه وأهم تحدياته وآفاق تطويره في المستقبل.

المحور الأول: المصايد البحرية في موريتانيا

تعد المصايد البحرية في موريتانيا من أهم القطاعات الاقتصادية، حيث تمتلك البلاد واحدة من أغنى المناطق البحرية في العالم بفضل تيار الكناري البارد الذي يعزز وفرة الأسماك. يساهم هذا القطاع بشكل كبير في الاقتصاد الوطني من خلال توفير فرص العمل، وجلب العملة الصعبة عبر الصادرات، ودعم الأمن الغذائي. وتعمل الحكومة على تنظيم واستدامة استغلال الثروة السمكية من خلال اتفاقيات الصيد، والمراقبة البيئية، وتعزيز الصيد المحلي لتحقيق تنمية مستدامة لهذا المورد الحيوي.

1 — طبيعة المصايد البحرية بالبلاد

تتمتع موريتانيا بثروة سمكية هائلة تجعلها واحدة من أغنى الدول في المنطقة من حيث الموارد البحرية. ويعود ذلك إلى موقعها الجغرافي الاستراتيجي على الساحل الغربي لإفريقيا، حيث تمتد مياهها الإقليمية لمسافة تزيد على 750 كيلومترا بمحاذاة المحيط الأطلسي. وتعد هذه المنطقة من

أغنى مصايد الأسماك في العالم بفضل تيار الكناري البارد، الذي يخلق بيئة بحرية غنية بالمواد المغذية، مما يسهم في تكاثر أنواع عديدة من الأسماك والقشريات ذات الأهمية الاقتصادية. تقع أهم المصايد البحرية الموريتانية في عدة مناطق رئيسية، من بينها منطقة الرأس الأبيض، وخليج نواذيبو، والشواطئ الممتدة جنوباً باتجاه نهر السنغال. وتمتاز هذه المناطق بتنوع بيولوجي واسع، حيث تضم مخزوناً وفيراً من الأسماك السطحية مثل السردين والماكريل، والأسماك القاعية مثل الجمبري والأخطبوط، إضافة إلى أنواع أخرى كالتونة وأسماك القرش. كما تعد هذه المصايد موطناً لكائنات بحرية نادرة، مما يعزز من أهميتها البيئية والاقتصادية. وتتميز المصايد الموريتانية بعدة خصائص تجعلها من بين الأكثر إنتاجية على مستوى القارة الإفريقية، فهي تخضع لتغيرات بيئية موسمية، حيث تؤثر التيارات البحرية والرياح الموسمية على توزيع الأسماك ووفرتها. كما أنها توفر فرصاً متعددة لأنواع مختلفة من الصيد، إذ يمارس فيها الصيد التقليدي باستخدام القوارب الصغيرة، إلى جانب الصيد الصناعي الذي يعتمد على سفن كبيرة مجهزة بتقنيات حديثة لاستغلال الموارد البحرية بكفاءة أكبر¹. وبالرغم من هذه الثروة الطبيعية، تواجه المصايد البحرية تحديات مثل الصيد الجائر والتغيرات المناخية، مما يستدعي جهوداً مستمرة للحفاظ على استدامة الموارد البحرية وضمان استغلالها بشكل مسؤول.

2 – أنواع السمك بالمصايد البحرية

تمتلك موريتانيا مصايد بحرية غنية بالأسماك، ويمكن تقسيم المصايد الموريتانية من حيث طبيعتها إلى نوعين: مصايد عميقة ومصايد سطحية، حيث تتوفر تلك المصايد على إمكانيات هائلة تقدر بـ 1.6 مليون طن من الأسماك، إضافة إلى ثروات هامة غير مستغلة جيداً كالمحاريات في المحيط الأطلسي وأسماك المياه العذبة على مستوى نهر السنغال وبحيرة اركيز وسد فم لكليت. وتتمثل أهم أنواع المصايد فيما يلي:

2 – 1 – المصايد العميقة

تشمل هذه المصايد أنواع الأسماك التي تعيش بالقرب من قاع المحيط، إلا أنه من الصعب وضع تعريف دقيق للمصايد البحرية العميقة. وقد خلص مؤتمر البحار العميقة، الذي انعقد في نيوزيلندا عام 2003، إلى أن أسماك القاع لا تعيش في المياه القريبة من السطح. وبدورها، حددت مجموعة العمل المعنية بمصايد المياه العميقة، التابعة للمجلس الدولي لاستكشاف البحار، نطاق

¹سيد أحمد ولد أحمد، حماية المصايد البحرية من التدهور دراسة حالة موريتانيا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومديد للعلوم والتكنولوجيا بالجزائر، سنة 2007، ص: 54

العمق بين 400 و500 متر كتعريف للمياه العميقة. ومع ذلك، فإن طبيعة العديد من الأسماك في هذه البيئة تجعل وضع تعريف دقيق أمراً معقداً، حيث تقوم بعض الأنواع بهجرات عمودية يومية¹، متنقلة بين المناطق شبه العميقة والمناطق السطحية. ويمكن تصنيف الأسماك التي تعيش بالقرب من قاع المحيط إلى مجموعتين رئيسيتين تختلفان في نمط حياتهما.

أ – الأسماك المفطحة: تمكنت هذه الأسماك، التي تمضي معظم حياتها فوق القاع البحري مباشرة، من التكيف مع بيئتها من خلال تحولات بنيوية في شكلها لتلائم ظروف القاع. فقد أصبح جسمها مفطحاً ليشبه ورقة الشجرة، كما انتقلت عيناها لتموضعا على جانب واحد من الرأس، مما يساعدها على التأقلم مع طبيعة الحياة القاعية. ويعد سمك البليس من أبرز الأمثلة على هذا النوع من الأسماك²

ب – الأسماك المستديرة: تتنوع أسماك المصايد العميقة، لكن الأكثر أهمية تجارياً هي أسماك البكلا (القد) والهادوك، إلى جانب بعض الأسماك القاعية مثل الرخويات والقشريات. وتغطي البيئات البحرية التي تعيش فيها هذه الكائنات أكثر من 50% من مساحة الأرض، إلا أن ديناميكيات المحيطات والنظم البيئية في هذه المناطق لا تزال غير مفهومة بالكامل. وخلال العقود الأخيرة، أُجريت دراسات حول هذه البيئات التي تتميز بتنوعها الجيولوجي، حيث تتراوح بين القيعان الطينية المسطحة والمرتفعات البحرية والوديان. وتعد الشعاب المرجانية الباردة من أبرز الكائنات البحرية في هذه الأعماق، حيث يمكن أن يتجاوز عمرها 10,000 عام، لكنها معرضة للتدمير بسبب عمليات الجر البحري.

وفي موريتانيا، تتأثر أسماك المصايد العميقة بعدة عوامل بيئية تحدد توزيعها في ثلاث مجموعات رئيسية تعيش ضمن نطاقات شبه ثابتة على الرصيف القاري. وتمتد هذه النطاقات بمحاذاة الساحل، حيث تؤثر عوامل مثل طبيعة القاع، والمواد العضوية، ودرجة الحرارة، والضغط، ومستوى الأكسجين على توزيعها. وفيما يلي أهم مجموعات الأسماك العميقة في المياه الموريتانية والعوامل المؤثرة فيها.

ج – المجموعة الساحلية: تعيش هذه الأسماك قرب الساحل، خاصة فوق القيعان الرملية، على أعماق تصل إلى 10 أمتار. وهي مرتبطة بالمياه الدافئة، حيث تقترب من الشاطئ خلال الفصل الحار، بينما تتركز في مصبات الأنهار جنوباً خلال الفصل البارد. في شهر يونيو، تهاجر شمالاً

¹ منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة FAO استعراض حالة الموارد السمكية وتربية الأحياء المائية في العالم، ص 91.

² سيد أحمد ولد أحمد، حماية المصايد البحرية من التدهور دراسة حالة موريتانيا، مرجع سبق ذكره، ص: 61

نحو الرأس الأبيض للتكاثر، مستفيدة من الجبهة الحرارية التي تفصل بين المياه الدافئة والباردة. ومع انخفاض درجات الحرارة في الشتاء، تعود إلى الجنوب حيث تجد بيئة أكثر ملاءمة. ويتسم هذا النطاق الساحلي بتغيرات سريعة في الخصائص الفيزيائية والكيميائية للمياه، خاصة عند مصب نهر السنغال، مما يجعل الأسماك عرضة لتقلبات الملوحة. ومع ذلك، فهو غني بالإنتاجية البيولوجية، حيث تتغذى الصغار على المادة العضوية العالقة، بينما تعتمد الأسماك البالغة على الحيوانات القاعية في المياه الضحلة.

د — مجموعة الوسط: تعيش هذه الأسماك في النطاق الأوسط من الرصيف القاري، حيث تخضع لظروف بيئية مميزة تجمع بين التغيرات الفصلية في الحرارة والملوحة، لكنها أقل حدة من المجموعة الساحلية. تتراوح درجات الحرارة في بيئتها بين 16 و 17 درجة مئوية، ولا تتجاوز 17 درجة حتى في أشد الشهور حرارة، بينما تتميز مياهها بملوحة مرتفعة. وترتبط معظم أصناف هذه المجموعة بالمياه الباردة، ويتحدد انتشارها وفقاً لتذبذبات الحرارة وتحركات الكتل المائية. خلال الفصل الحار، تتحرك نحو الشمال للحفاظ على بيئة مناسبة، بينما في الفصل البارد تقترب من الساحل على أعماق بين 70 و 80 متر¹ وتتوزع هذه الأسماك فوق ثلاثة أنواع من القيعان: الغرينية، الرملية، والصلبة، وتشغل مساحة تقارب 8000 كم² من الرصيف القاري. وتوضح دراسات توزيعها أن النظام البيئي الموريتاني يجمع بين نوعين رئيسيين من الأسماك: أحدهما مرتبط بالمياه الدافئة القادمة من الجنوب، والآخر بالمياه الباردة القادمة من الشمال.

هـ — مجموعة المنحدر القاري: تعيش أسماك هذه المجموعة فوق حافة المنحدر القاري حيث تكون الظروف البيئية مستقرة، مع تغيرات طفيفة في الحرارة والملوحة، إذ تظل درجة الحرارة حوالي 15 درجة مئوية طوال العام وملوحة المياه حوالي 35.5 في الألف. القيعان هنا مغطاة بالغرين والرمل الغريني، وتحتوي على نسبة منخفضة من المواد العضوية. ولا تقوم أسماك هذه المجموعة بهجرات فصلية مثل المجموعات الأخرى، بسبب استقرار الوسط الذي تعيش فيه²، لكن بعض الأنواع مثل الجراد البحري تتحرك شمالاً وجنوباً. تغطي هذه المجموعة مساحة

¹سيد أحمد ولد أحمد، الأسماك السطحية الصغيرة وأثرها على التنمية في مدينة نواذيبو، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكونة الأرض والمجال والسكان، السنة الجامعية

2018 — 2019، ص: 94

²سيد أحمد ولد أحمد، أثر الظروف الجغرافية في استغلال الثروة السمكية في موريتانيا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ص: 68

تصل إلى 5300 كم²، وتعيش على أعماق بين 100-120 متراً، حيث توجد الصغار في الأعماق الضحلة، تصل أحياناً إلى 20 متراً في الفصل البارد.

وقد شهدت مصايد المياه العميقة في موريتانيا استغلالاً مكثفاً وعلى نطاق واسع مما جعلها عرضة للاستنزاف، حيث أوشكت بعض أحيائها على الانقراض خاصة الأنواع المستغلة تجارياً، مما يستدعي من الآن فصاعداً اتخاذ كل الإجراءات والتدابير اللازمة للحد من المخاطر التي تتعرض لها هذه المصايد.

2 - 2 - المصايد السطحية

تتكون مصايد المياه السطحية من الأسماك العائمة أو السابحة، التي تعيش بين القاع البحري والسطح، حيث تقضي جزءاً من حياتها بالقرب من القاع، لكنها تبقى غالباً قرب السطح. تشتهر هذه الأسماك بتنوعها وسرعة حركتها، وأبرزها عائلة الرنجة التي تشكل الجزء الأكبر من مخزون الأسماك في موريتانيا، حيث تمثل 38% من صادرات القطاع و8% من الإنتاج.

تشمل أسماك هذه المصايد أنواعاً مثل الماكريل والسردين والأنشوجة، وتتميز بكثرتها ووفرتها مما يقلل من خطر نقص الإنتاج في المستقبل القريب. السباحة الجماعية هي سمة بارزة لهذه الأسماك، حيث تتجمع في أسراب أثناء وضع البيض وتنتشر أثناء البحث عن الغذاء. تغذي هذه الأسماك على الزوبلانكتون، ولا تتغذى على صغارها أو على الأسماك الأخرى.

تعيش هذه الأسماك في المياه الساحلية التي تشهد عمليات انبثاق، مما يزودها بالغذاء، وتشكل الأنواع الأربعة الرئيسية حوالي 85% من مصيد المنطقة. وتؤثر الظروف المناخية والخصائص الهيدرولوجية على توزيعها وهجراتها. تتوزع بعض الأنواع في المياه الضحلة بالقرب من الساحل، مثل أسماك البوري والقنبر، وتقوم بهجرات فصلية عبر السواحل الموريتانية.

أ - أسماك الشيميات: تعتبر الأسماك الساحلية السطحية من الأنواع الأكثر أهمية في المياه الموريتانية من حيث الكمية والقيمة التجارية، وقد زادت أهميتها في السنوات الأخيرة خاصة للتصدير إلى دول أوروبا الشرقية. وتتواجد ثلاث مجموعات رئيسية من هذه الأسماك في المياه الموريتانية:

— المجموعة الأولى: توجد بين الصحراء الغربية والسنغال، حيث تقل أعدادها في الاتجاه نحو الجنوب. تتمركز مناطق صيدها شمال رأس الأبيض، وتتكاثر على مرحلتين، المرحلة الأولى في ديسمبر ويناير عند رأس الأبيض، والثانية من يناير إلى مارس جنوب رأس تيمرس.

— المجموعة الثانية: تتوزع على مساحة أوسع تشمل مياه على أعماق تصل إلى 300 متر، مع تراجع أعدادها تدريجياً نحو الشمال. أهم مناطق صيدها بين رأس الأبيض ورأس تيمرس، وتتكاثر من ديسمبر إلى مايو.

— المجموعة الثالثة: تتركز في مياه الرصيف القاري، وتتواجد بشكل رئيسي عند حدود المنحدر القاري. تتكاثر بين أبريل ويونيو في المياه السنغالية ثم الموريتانية، وتنمو صغارها بسرعة. تتركز صيدها في مناطق التكاثر.

ب — أسماك السردين: تعتبر أسماك السردين من الأنواع الثانية في الأهمية، وأبرزها نوع (السردين روندس) الذي يعيش بشكل رئيسي في مياه الرصيف القاري ومنطقة تأرجح الانبثاق الفصلية الممتدة من الرأس الأبيض إلى سيراليون. تتميز أسماك السردين بتحركات فصلية واسعة على طول السواحل، مشابهة لتحركات أسماك الشيميات، حيث توجد جنوب الرأس الأخضر من فبراير إلى مايو، ثم تتحرك بسرعة نحو الشمال ابتداءً من مايو. يحدث التكاثر بين أعماق 25-50 متر، ويبقى صغار هذه الأسماك في مياه السواحل لمدة سنة قبل أن تبتعد عن السواحل وتنضم إلى المجموعة الأكبر¹. أما السردين الشائع (السردين بيلشاردس) فيتواجد بكثرة شمال الرأس الأبيض وعلى السواحل المغربية والصحراوية.

المحوري الثاني: الإنتاج السمكي في موريتانيا

يعد قطاع الصيد البحري من أهم دعائم الاقتصاد في موريتانيا، حيث تحتل البلاد مرتبة متقدمة في إنتاج الأسماك على المستوى الإفريقي. تساهم الثروة السمكية بشكل كبير في الصادرات الوطنية، إذ تُقدّر كمية الإنتاج السنوي بمئات الآلاف من الأطنان، وتُصدر نسبة كبيرة منه إلى الأسواق العالمية، مما يوفر مصدراً رئيسياً للعملة الصعبة وفرص عمل واسعة. ومع توفر سواحل غنية بالأسماك وبنية تحتية مينائية متطورة، يمتلك القطاع فرصاً واعدة للنمو والتطوير.

1 — كمية الإنتاج السمكي

يصل الحد المسموح باصطياده حسب كل مصيدة أو عينة يصل خلال سنة 2022 إلى 1,874,633 طن موزعة على تسعة مصايد وتهيمن العينات الثلاث الأساسية بنسبة 79% من الحد المسموح باصطياده أو يتعلق الأمر بعينات الأسماك السطحية الصغرى بنسبة 72% أي ما يمثل

¹ خديجة بنت إبراهيم، محمية حوض آرकिन على الساحل الموريتاني التوازنات البيئية — مظاهر التدهور — آفاق الحماية، أطروحة لنيل دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، أكاد — المغرب، 2009، ص: 84

1,353,000 طن، ثم مخزون الأسماك القاعية بنسبة 5% أي مل يمثل كمية 32 700 طن¹ فيما تمثل العينات الأخرى التونه، النازلي، الجمبري، كالمار، السيش، سرطان البحر وجراد البحر الوردي أقل من 3% أي ما يقارب 52 000 طن ويخضع استغلال الحصص إلى حق ولوج للثروة يتضمن حق ولوج مباشر، وحق جزافي، ضريبة الاستغلال التي تأخذ في الاعتبار قيمة المنتج. الجدول التالي يبين الإنتاج السمكي في المصايد والحد المسموح باصطياده.

الجدول رقم 1: الإنتاج السمكي في المصايد والحد المسموح باصطياده خلال سنة 2022

المصايد	الحد المسموح باصطياده	الإنتاج (طن)	نسبة الإنتاج (%)
راسيات الرجل	42700	45 603	107%
الجمبري	7 200	2 720	38%
الأسماك القاعية	87 000	45 356	52%
النازلي	10 093	9 504	94%
الأسماك السطحية	1 353 000	903 650	67%
سرطان البحر	400	221	55%
جراد البحر	240	407	170%
المجموعة (طن)	1 500 633	1 007 462	64%

وزارة الصيد والاقتصاد البحري، المرصد الاقتصادي والاجتماعي للصيد، التقرير السنوي لإحصائيات الصيد في موريتانيا، سنة 2022، ص: 10

يتم الحصول على الكميات المصطادة حسب أنواع الصيد البحري عن الطريق مصدرين إما عن طرق دفاتر متن سفن الصيد غي اعلي البحار أو صيد الشاطئي أو مقدره عن طريق نظام متابعة الصيد التقليدي (SSP) بالعهد الموريتاني لبحوث المحطات والصيد، ففي سنة 2022 تقدر الكميات المصطادة الإجمالية بـ 4620071 طن ما يقارب نفس مستوى الإنتاج خلال سنة 2021 ويتبع المنحنى العام لسلسلة الكميات المصطادة (2013— 2022) شكل الجرس، حيث عرف تزايداً حتى سنة 2018 ثم انخفاضاً بعد ذلك ويعود هذا التراجع أساساً إلى هبوط الكميات المصطادة لسفن الصيد في أعالي البحار وسفن الصيد الشاطئي ويرتبط هذا التراجع الكبير الملاحظ في الفترة 2020 — 2022 بتأثيرات أزمة كوفيد 19 والحظر،... سنة 2020. أما بالنسبة لسنة 2021، فقد تميزت بفرض توقف بيولوجي لمدة 3 أشهر وبأبعاد أسطول، والجدول التالي يبين الكميات المصطادة سنوياً خلال فترة 2013 — 2022.

¹ وزارة الصيد والاقتصاد البحري، المرصد الاقتصادي والاجتماعي للصيد، التقرير السنوي لإحصائيات الصيد في موريتانيا، سنة 2022، ص: 8

الجدول رقم 2: إجمالي الكميات المصطادة السنوية حسب نوع الصيد (طن)

السنة	الصيد أعالي البحار والصيد الشاطئي	الصيد التقليدي والزورقي	المجموع (طن)	عمر صيد التقليدي والزورقي (%)
2013	285 117	251 427	536 544	47%
2014	606 746	301 539	908 285	33%
2015	480 315	357 351	837 666	43%
2016	617 833	485 717	1 103 550	44%
2017	843 542	347 908	1 191 450	29%
2018	1 262 525	270 706	1 533 231	18%
2019	1 067 664	289 138	1 356 802	21%
2020	956 519	316 347	1 272 866	25%
2021	661 504	308 186	969 690	32%
2022	649 777	357 685	1 007 462	36%

المصدر: التقرير السنوي، وزارة الصيد والاقتصاد البحري، سنة 2022.

يلاحظ بالنسبة للصيد في أعالي البحار والصيد التقليدي توجهها معاكسا ما بين 2017 و 2022 فكلما زادت الكميات المصطادة في إطار الصيد في أعالي البحار، تتراجع الكميات المصطادة في نفس الوقت والعكس، هو ما يمكن تفسيره باستغلال مخزون واحد للأسماك السطحية الصغيرة من طرف نوعي الصيد.

كما يلاحظ بشكل خاص أن الصيد التقليدي استهدف بشكل كبير راسيات الأرجل خلال سنة 2022 بسنة 65% كما يتقاسم فئة لأسماك القاعية مع أنواع الصيد الأخرى، في المقابل تم اصطياد مصيدتي الأسماك السطحية والقشريات بشكل خاص في إطار الصيد الشاطئي والصيد في أعالي البحار بنسبتي 96% و 94%. وأما الصيد السطحي فقد وصل إلى أكثر من 80 ميلا أثناء فترة التوقف إضافة إلى زيادة أسعار المحروقات أما بنسبة لسنة 2022، فقد تأثر الإنتاج بالتطبيق الصارم لإجراءات الحصول على حصص، وتطبيق حق منح الثروات الجديدة بالنسبة لأسماك السطح الصغيرة إضافة إلى الإجراءات الارمية إلى توجيه الأسماك السطحية نحو الاستهلاك البشري.

الجدول رقم 3: توزيع الكمية المصطادة حسب نوعية الصيد خلال سنة 2022

نوعية الصيد	الصيد أعالي البحار والصيد الشاطئي	الصيد التقليدي زورقي	المجموع (طن)	الصيد التقليدي وزورقي (%)
الأسماك القاعية	30 412	23 912	54 324	44%
راسية الرجل	15 823	29 780	45 603	65%
القشريات	3 655	231	886	6%
السمك السطحية	599 888	303 762	903 650	34%
المجموع (طن)	649 777	357 685	1 007 462	36%

المصدر: التقرير السنوي، وزارة الصيد والاقتصاد البحري، سنة 2022.

وعموما، فقد بلغت الكميات المصطادة في إطار الصيد التقليدي والزورقي باستثناء سفن اتفاقية موريتانيا والسنغال 357 684 طن سنة 2022 أي ما يمثل زيادة بنسبة 8% مقارنة بسنة 2021، ويتم تفريغ هذه الكميات في نواذيبو، ونواكشوط وتأنيت وفي مناطق الصيد الرخصة. وبالنسبة لسفن الصيد التقليدي التي تستخدم آليات الشباك) تظهر إحصائيات الكميات المصطادة لسنة 2022 أن راسيات الأرجل والقشريات ارتفعت بسبة 7% مقارنة بسنة 2021 فيما سجلت الأسماك القاعية تراجعا بنسبة 14%. فيما يتعلق بالصيد الشاطئي الزورقي الذي تستخدم فيه الشباك الدوارة، فعرفت كمياته من الأسماك السطحية خلال سنة 2022 تزايدا بنسبة 13% مقارنة بسنة 2021.

الجدول رقم 4: إنتاج قطاع الصيد من يناير إلى ديسمبر خلال سنة 2022

النظام الوطني				النظام الأجنبي		
نوع الصيد	الصيد التقليدي	الصيد لشاطئي	صيد أعالي البحار	المجموع	صيد أعالي البحار	المجموع
راسيات الأجل	29 780	236	14 208	44 225	149	44 374
الأسماك القاعية	23 912	3 712	11 533	39 177	14 124	53 301
الأسماك السطحية	303 762	338 736	1 670	644 169	249 664	893 833
القشريات	277	415	431	1 073	2 491	3 564
المجموع	357 681	343 099	27 863	728 643	266 429	995 072

وزارة الصيد والاقتصاد البحري، المرصد الاقتصادي والاجتماعي للصيد، التقرير السنوي لإحصائيات الصيد في موريتانيا، سنة 2022، ص: 13

2 – قيمة صادرات المنتجات البحرية

لقد بلغت قيمة صادرات المنتجات السمكية قرابة 37,59 مليار أوقية جديدة خلال سنة 2022، وهو ما يمثل زيادة بنسبة 24% مقارنة بسنة 2021، وترجع هذه الزيادة أساساً إلى منتج "رأسيات الأرجل" التي ارتفعت قيمتها بنسبة 43% والجمبري بنسبة 47% والأسماك السطحية بنسبة 38%، وفي المقابل تراجعت قيمة منتج "مجمدات مختلفة" و"المنتجات الطازجة" على التوالي بحدود 39% و58% مقارنة بسنة 2021.

الجدول رقم 5: مساهمة المنتجات السمكية المصدرة في القيمة الإجمالية

المنتج السمكي المصدر	2021	2022
رأسيات الأرجل	43%	49%
أسماك السطح	22%	24%
دقيق السمك	14%	12%
منتجات مجمدة	11%	5%
زيوت السمك	3%	2%
أسماك طازجة	2%	1%
الجمبري	2%	2%
سرطان البحر	1%	0%
منتجات أخرى	2%	3%

وزارة الصيد والاقتصاد البحري، المرصد الاقتصادي والاجتماعي للصيد، التقرير السنوي لإحصائيات الصيد في موريتانيا، سنة 2022، ص: 22

خاتمة

ختاماً، يمثل قطاع الصيد البحري في موريتانيا أحد الركائز الأساسية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية، حيث تتميز البلاد بثروة سمكية هائلة تعزز مكانتها كواحدة من أهم الدول الإفريقية المنتجة للأسماك. فبفضل موقعها الجغرافي المطل على المحيط الأطلسي، تمتلك موريتانيا مصايد بحرية غنية ومتنوعة، تمتد عبر الرصيف القاري والمنحدر القاري، مما يتيح فرصاً واسعة للصيد السطحي والقاعي. وتساهم هذه المصايد في دعم الاقتصاد الوطني من خلال تعزيز الصادرات، إذ توجه نسبة كبيرة من الإنتاج إلى الأسواق الدولية، خاصة الأوروبية والآسيوية، مما يوفر مصدراً مستداماً للعملة الصعبة.

ولا تقتصر أهمية القطاع على دوره الاقتصادي فحسب، بل يلعب دوراً حيوياً في التنمية الاجتماعية، حيث يوفر آلاف فرص العمل المباشرة وغير المباشرة، سواء في مجال الصيد أو

في الصناعات التحويلية المرتبطة به، مثل تعليب الأسماك وصناعة الثلج والنقل البحري. كما يساهم في الأمن الغذائي الوطني من خلال توفير مصدر بروتيني مهم، يدعم التغذية المحلية ويعزز من قدرة البلاد على تحقيق الاكتفاء الذاتي.

ورغم هذه الإمكانيات الواعدة، يواجه القطاع تحديات تتطلب استراتيجيات مستدامة للحفاظ على هذه الثروة وضمان استمراريتهما للأجيال القادمة. ومن أبرز هذه التحديات الإفراط في الاستغلال، وتأثيرات التغير المناخي، والحاجة إلى تعزيز البنية التحتية للصيد ومعالجة المنتجات السمكية. لذا، فإن تبني سياسات فعالة لإدارة المصايد، وتطوير تقنيات الصيد المستدام، وتعزيز المراقبة البحرية، يُعد أمراً ضرورياً لضمان استدامة هذا القطاع الحيوي.

وبناء على ذلك، تظل آفاق تطوير الإنتاج السمكي في موريتانيا واعدة، خاصة مع تزايد الاهتمام بالاستثمارات في مجال الصيد، وتطوير أساليب الاستغلال المستدام، وتحسين القيمة المضافة للمنتجات البحرية. إن تعزيز هذا القطاع، من خلال نهج متكامل يجمع بين الاستغلال الرشيد والحفاظ على البيئة البحرية، سيمكن موريتانيا من الاستفادة القصوى من ثروتها السمكية، ويعزز من مساهمتها في الاقتصاد العالمي، مع تحقيق تنمية مستدامة تعود بالنفع على المجتمع ككل.

قائمة المراجع

1 — الوثائق والتقارير

وزارة الصيد والاقتصاد البحري المرصد الاقتصادي والاجتماعي للصيد التقرير السنوي لإحصائيات الصيد في موريتانيا، سنة 2022.

المصدر: التقرير السنوي، وزارة الصيد والاقتصاد البحري، سنة 2022.

منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة FAO استعراض حالة الموارد السمكية وتربية الأحياء المائية في العالم.

2 — الرسائل الجامعية

سيد أحمد ولد أحمد، حماية المصايد البحرية من التدهور دراسة حالة موريتانيا، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا بالجزائر، سنة 2007.

سيد أحمد ول أحمد، الأسماك السطحية الصغيرة وأثرها على التنمية في مدينة نواذيبو، أطروحة دكتوراه في الجغرافيا، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكونة الأرض والمجال والسكان، السنة الجامعية 2018 — 2019.

سيد أحمد ولد أحمد، أثر الظروف الجغرافية في استغلال الثروة السمكية في موريتانيا، بحث
مقدم لنيل شهادة الماجستير في الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك سعود.
خديجة بنت إبراهيم، محمية حوض آركين على الساحل الموريتاني التوازنات البيئية — مظاهر
التدهور — أفاق الحماية، أطروحة لنيل دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط، آكдал — المغرب، 2009.

السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة وعلاقته بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة

تسرو مامين محمد فاضل

طالبة دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

تشهد مقاطعة تفرغ زينة، إحدى أكثر مناطق العاصمة نواكشوط أهمية ونمو، ظاهرة متصاعدة في انتشار المساكن العشوائية على الرغم من طابعها العمراني الراقى في بعض أجزائها، فهي تشكل جزء من العاصمة نواكشوط التي تعتبر قبلة لأفواج المهاجرين الداخلين الذين لم يجد بعضهم بدا من بناء مساكن غير حضرية (خيام – أعرشة – أكواخ)، وكان ذلك مطلع السبعينات من القرن العشرين عندما استقبلت المدينة عشرات آلاف المهاجرين الذين يبحثون عن فرص العمل وعن توفر الخدمات، وما زالت حتى الآن تستقبلهم، حيث تمتلك أحياء تفرغ زينة نصيبها منهم، وذلك نتيجة توفر فرص العمل التي يبحث عنها هؤلاء المهاجرون الذين يقوم معظمهم بنشاطات أو مشاريع اقتصادية صغيرة ومدرّة للدخل.

يهدف هذا المقال إلى دراسة وتحليل العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية التي أسهمت في ظهور توسع هذه الظاهرة، وقد اعتمدنا في تحليلنا على منهج وصفي تحليلي مدعم ببيانات ميدانية ودراسات سابقة، من أجل فهم أعمق للدوافع الكامنة وراء انتشار هذه الظاهرة وعلاقتها بالأنشطة الاقتصادية الصغيرة الممارسة، إضافة إلى تقديم توصيات علمية للحد من تفاقم المشكلة.

الكلمات المفتاحية: السكن العشوائي، الهجرة الداخلية، النمو العمراني، الأحياء الراقية، المشاريع الاقتصادية الصغيرة.

مقدمة:

تعد المساكن العشوائية إحدى أبرز مظاهر التوسع الحضري غير المنظم، وقد باتت تشكل تحديا كبيرا للتخطيط العمراني في المدن النامية، التي تعد عاصمة نواكشوط من ضمنها، ورغم أن مقاطعة تفرغ زينة توصف عادة بأنها من الأحياء الحضرية المنظمة، إلا أنها تشهد تفاقم ظاهرة السكن العشوائي مما يشوه الوجه الحضري للمقاطعة الأرقى في العاصمة.

هذه المفارقة العمرانية مرتبطة بعوامل اقتصادية واجتماعية، وهو ما يطرح العديد من التساؤلات حول الدوافع الأساسية التي تقف خلف هذه الظاهرة، إذ استوجب ذلك طرح التساؤل

التالي: ما هي العوامل الأساسية التي ساهمت في انتشار السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة؟، وهل له علاقة مباشرة مع الأنشطة الاقتصادية الصغيرة الموجودة في منطقة الدراسة؟ ومن خلال هذا التساؤل نطرح الفرضيات التالية:

- أن الفقر وغلاء العقار من أبرز المحفزات على السكن العشوائي.
- أن ضعف الرقابة الإدارية والتخطيط الحضري شجعا على الاستيطان غير المنظم.
- أن للهجرة الداخلية دورا حاسما في هذا الانتشار.
- أن البحث عن أماكن لإقامة مشاريع اقتصادية صغيرة ومدرّة للدخل (الحراسة، النظافة، والحرف البسيطة ... إلخ).

أولا: السياق الحضري والديمقراطي لمقاطعة تفرغ زينة:

تعد تفرغ زينة من أبرز مقاطعات نواكشوط من حيث الموقع الجغرافي والأهمية الإدارية والاقتصادية، فهي تضم العديد من المرافق الحكومية والبعثات الدبلوماسية والمؤسسات الخاصة، وتتمتع ببنية تحتية متقدمة نسبيا مقارنة بباقي مقاطعات العاصمة إلا أن هذا الوجه الحضري لا يعكس بالضرورة واقعها الكامل، إذ تحتوي المقاطعة على مناطق هامشية شهدت توسعا عشوائيا ملحوظا خلال العقد الأخيرين.

1. الموقع الجغرافي لبلدية تفرغ زينة:

تقع منطقة الدراسة (تفرغ زينة) في العاصمة نواكشوط وتتدرج ضمن ولاية نواكشوط الغربية التي تشكلت عام 2014م إلى جانب بلديتي لكصر والسبخة، وتعتبر مقر ولاية نواكشوط الغربية، وتقع فلكيا عند خط العرض 18,11° شمالا وخط طول 15,99° غربا، وتبلغ مساحتها 83 كلم مربع منها ما يقارب 40 كلم مربع مطلة على المحيط الأطلسي وهو ما يمنحها واجهة ساحلية استثنائية ضمن نواكشوط¹، وتوضح الخريطة رقم (01) موقع منطقة الدراسة.

2. النمو الديمغرافي السريع:

شهدت تفرغ زينة مثل غيرها من مقاطعات العاصمة نموا سكانيا كبيرا نتيجة الهجرة الداخلية المتزايدة من المناطق الريفية والولايات الشرقية والجنوبية، حيث يقدر عدد سكانها بحوالي 46336 نسمة حسب إحصاء 2013م، بينما تشير بيانات أخرى إلى عدد أكبر 61893 نسمة وفق المكتب الوطني للإحصاء 2021م، وحسب إحصاء 2023 بلغت حوالي 74942 نسمة، هذا النمو لم تقابله في الغالب خطط إسكان مناسبة، ما دفع العديد من السكان ذوي الدخل

¹ — بلدية تفرغ زينة (2020م)، تقرير حول وضعية التوسع العمراني في المقاطعة، ص9.

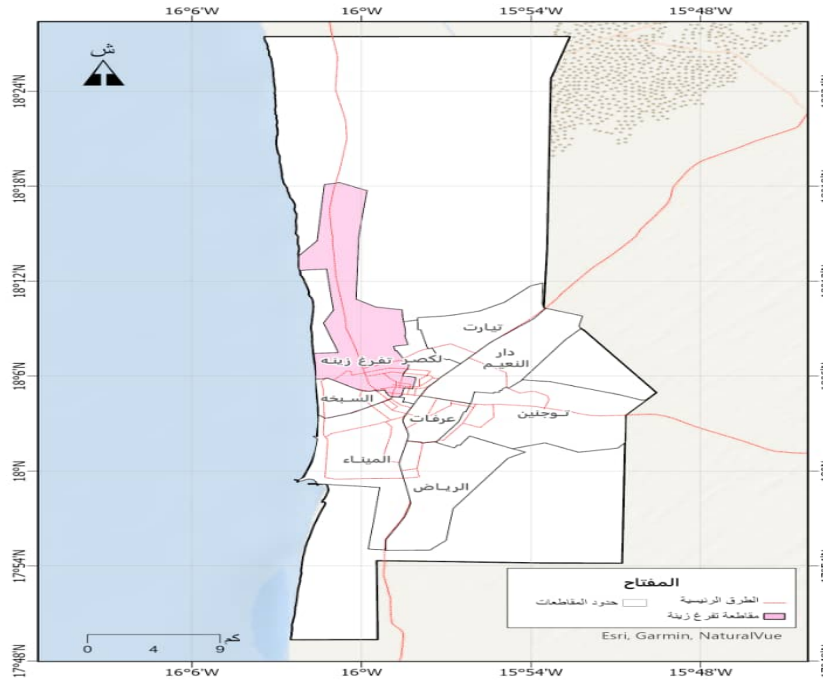
المحدود إلى لاستقرار في مناطق غير معهودة للسكن مثل الساحات العمومية أو بجوار المساكن المشرعة، وذلك ببناء أعرشة ومساكن مشوهة للمظهر الحضري¹.

الجدول: يبين عدد سكان تفرغ زينة حسب إحصاء 2013 و2023م

السنة	عدد السكان
2013	46336
2023	74942

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي

الخريطة رقم (01): توضح موقع مقاطعة تفرغ زينة من موريتانيا ومن مدينة نواكشوط



المصدر: وزارة الإسكان، مصلحة الخرائط، بتصرف

3. التفاوت المجالي داخل المقاطعة:

تظهر المقاطعة تباينا واضحا بين الأحياء ذات الطابع العصري مثل حي السفارات، وبين الأحياء ذات السكن المتهالك نتيجة عوامل معينة مثل ارتفاع الملوحة وغزو ارتفاع منسوب المياه، وبين الأحياء حديثة النشأة والتي ما زالت معظم البنايات فيها في طور النشأة وهذه

¹ — الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، التعداد السكاني سنة 2013 و2024.

الأخيرة تعد من أكثر المناطق تأثراً بظاهرة السكن العشوائي، فمعظم المساكن العشوائية في تلك المنطقة نشأت نتيجة حراسة تلك المساكن.

4. ضعف التخطيط الحضري:

رغم ما شهدته العاصمة من مشاريع لتأهيل الأحياء العشوائية، فإن تفرغ زينة لم تحظى ببرامج تأهيل متكاملة في جميع مناطقها، كما أن غياب سياسة عمرانية فعالة لاستيعاب النمو السكاني أدى إلى ظهور وحدات سكنية غير قانونية أقيمت دون احترام للمخططات الحضرية المعتمدة.

ثانياً الدوافع الأساسية لانتشار السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة:

إن انتشار السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة لم يكن وليد الصدفة، بل هو نتيجة تراكم مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية، وفيما يلي تحليل لأبرز هذه الدوافع.

1. الدوافع الاقتصادية:

تتميز هذه الأحياء الراقية ببنية تحتية متطورة نسبية وخدمات حضرية جيدة، ما يجعلها نقطة جذب للسكان الباحثين عن فرص عمل وخدمات قريبة، ومن أهم الدوافع الاقتصادية ما يلي:

أ. ضعف القدرة الشرائية:

يعاني غالبية السكان ذوي الدخل المحدود من صعوبة في الحصول على سكن لائق ضمن السوق العقارية الرسمية في تفرغ زينة حيث تشهد أسوار الأراضى والمنازل ارتفاعاً مضطرباً لا يتناسب مع مستويات الدخل، هذه الهوة بين العرض الرسمي والطلب الشعبي أدت إلى لجوء شريحة واسعة من السكان إلى بناء مساكن هامشية بدون تراخيص بجوار المساكن الراقية المرخصة.

ب. البطالة وغياب مصادر الدخل الثابت:

يرتبط الانتشار العشوائي للسكن بظاهرة البطالة، إذ يصعب على الأسر التي لا تمتلك دخلاً ثابتاً الحصول على سكن في الأحياء المنظمة، ما يجعل السكن العشوائي هو الخيار الوحيد المتاح، فارتفاع البطالة خاصة بين الشباب يساهم في عزهم عن الحصول على سكن رسمي وبالتالي يسكنون في بيوت أو أكواخ صغيرة محاذية للمساكن في تلك الأحياء الراقية بهدف إقامة

مشاريع صغيرة مدرة للدخل، أو الحصول على عمل عند أصحاب تلك البيوت، توضح الصورة رقم(01) محل صغير مصنوع من الخشب لبيع السمك والخضروات¹.

الصورة رقم (01): توضح صورة محل من الخشب لبيع السمك والخضروات



عدسة الباحثة، 2024/06/12م

ج. غياب سياسات إسكان اجتماعي فعالة:

لم تواكب السياسات الحكومية في مجال الإسكان الصلب المتزايد على السكن الاجتماعي منخفض التكلفة، هذا الفراغ سمح بتوسع العشوائيات حتى داخل أحياء يفترض أنها راقية ومخططة، وفي هذه الحالة غالبا يتخذ السكان من الساحات العمومية مكانا لتجمع المساكن العشوائية التي في الغالب تنشأ نتيجة البحث عن العمل خاصة في المجال الخدمي لدى أصحاب تلك المساكن الراقية².

2. الدوافع الاجتماعية:

توجد العديد من الدوافع الاجتماعية نذكر منها:

أ. الهجرة الداخلية:

تعد تفرغ زينة وجهة مفضلة للوافدين من الداخل الموريتاني، خاصة من الولايات الفقيرة أو المناطق المتأثرة بالجفاف، هذه الهجرة المستمرة ساهمت في زيادة الضغط على

¹ — الدراسة الميدانية، 2024/06/12.

² — وزارة الإسكان (2019 – 2020)، UN – Habitat، ص 8.

العقار، وأسهمت في تمدد الأحياء غير الرسمية في مدينة نواكشوط بشكل عام وانتشار السكن العشوائي في تفرغ زينة بشكل خاص.

ب. الروابط الاجتماعية والمجتمعية:

في كثير من الحالات تبنى المساكن العشوائية على أراضي يتم توزيعها بشكل عرفي بين أفراد القبيلة أو الأسرة الممتدة، أما في مجال تفرغ زينة فإن المساكن العشوائية تكون غالباً عبارة عن مسكن تم بناؤه من أجل حراسة إحدى الدور الراقية أو من أجل إقامة مشروع صغير مدر للدخل (بيع الخضروات مثلاً)، ليشكل فيما بعد مسكناً غير قانوني مستقر في إحدى الساحات العمومية أو إحدى الأراضي التي لم يتم بناؤها بعد، بعد ذلك يأتي أقارب هذه الأسرة لتتكون نواة تمثل مجموعة من المساكن العشوائية، ويحدث عادة هذا النوع من التوسع دون تدخل من السلطات لمنعه، وغالباً يكون تحت غطاء التضامن الاجتماعي.

3. الدوافع السياسية والإدارية:

هنالك دوافع سياسية وإدارية، كان لها الدور الفعال في تكاثف ظاهرة السكن العشوائي نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

أ. غياب التخطيط الحضري المحكم:

تعاني المقاطعة من ضعف في تطبيق المخططات العمرانية وتحديثها، ما يفتح المجال أمام التوسع العشوائي لتلك المساكن وخاصة في المناطق الطرفية التي ما زالت بعض الأراضي فيها غير مبنية والبعض الآخر في طور البناء¹.

ب. ضعف الرقابة والردع:

يلاحظ تراخي الجهات البلدية أحياناً في مراقبة عمليات التشييد العشوائي وغياب آليات فعالة لردع المخالفين أو تقنين أوضاعهم بما يتماشى مع المصلحة العامة.

4. عوامل ظرفية أخرى:

من أهم تلك العوامل الظرفية النزوح المؤقت للسكان نتيجة الكوارث البيئية، فقد شكلت موجات الجفاف التي ضربت البلاد في سبعينات القرن الماضي، مما يدفع بعض الأسر للاستقرار مؤقتاً في أراضي مفتوحة داخل المقاطعة، ثم تتحول هذه الأراضي إلى مساكن دائمة بمرور الوقت.

¹ — وزارة الإسكان وال عمران والاستصلاح الترابي، (2019م)، خطة الحكومة لإعادة تأهيل الأحياء العشوائية في نواكشوط، منشورات رسمية.

ثالثاً: نتائج وتبعات انتشار السكن العشوائي في تفرغ زينة:

يشكل السكن العشوائي في مقاطعة تفرغ زينة تحدياً حقيقياً للتنمية الحضرية المتوازنة، وقد أسفر عن جملة من الآثار السلبية على مستويات عدة، سواء من حيث البيئة العمرانية أو البنية التحتية أو النسيج الاجتماعي¹، وفيما يلي أبرز هذه النتائج:

1. الضغط على البنية التحتية والخدمات:

تؤدي الكثافة السكانية الناتجة عن السكن العشوائي إلى ضغط متزايد على شبكات المياه والكهرباء والصرف الصحي التي لم تصمم في الأصل لاستيعاب هذا العدد الكبير من السكان، ففي المناطق الواقعة في الطرف الجنوبي من المقاطعة تعاني الأسر من نقص حاد في هذه الخدمات مثل الماء والكهرباء، وبالتالي تلجأ إلى اقتناء أسلاك كهربائية غير مرخصة، إضافة إلى التزود بالماء عن طريق الصهاريج أو ملأ البراميل من بعيد².

2. تفاقم التفاوت الاجتماعي والمكاني:

تؤدي الفجوة بين الأحياء المنتظمة مثل حي السفارات وشارع المختار بن داداه من جهة والأحياء العشوائية مثل كزرقة وسوسيم من جهة أخرى، إلى شعور سكان هذه الأخيرة بالتهميش والتمييز، ونفس الشيء بالنسبة للمساكن الراقية المرخصة والمساكن العشوائية غير الشرعية، وهو ما ينعكس على اندماجهم في النسيج المجتمعي العام في تلك المنطقة.

3. صعوبة التمكين الإداري القانوني:

غالباً ما تفتقر هذه المساكن العشوائية إلى الاعتراف القانوني مما يصعب على ساكنيها الحصول على قروض أو خدمات حكومية أساسية، ويضعهم في دائرة السكن الآمن³.

4. تحديات أمنية واجتماعية:

نظراً لطبيعتها غير المنتظمة، ووجودها بموازاة الساكنة المتمكنة مادياً، فإنها تشكل بؤراً محتملة للجريمة والانحراف في ظل غياب التواجد الأمني والخدمات الاجتماعية، مما يزيد من هشاشة الوضع الأمني في المقاطعة.

¹ د: عبد الرحيم قاسم قناوي، كتاب العشوائيات مشاكل وحلول، 2013م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 225.

² الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، ورقة تقريرية عن البنية التحتية والضغط على الخدمات، 2021.

³ د: جلييلة القاضي "ترجمة منحة البطراوي"، التحضر العشوائي، دار النشر— دار العين، 2009م، ص 187.

5. تشويه المشهد الحضري:

يظهر التناقض البصري والمعماري بشكل صارخ بين البنايات الفاخرة والأكوخ والأعرشة الهشة، مما يشوه المظهر الحضري للمدينة¹، وتبين الصورة رقم (02) ذلك.

الصورة رقم (02): توضح سكن عشوائي في تفرغ زينة



عدسة الباحثة 2024/06/12

رابعاً: علاقة السكن العشوائي في تفرغ زينة بالمشاريع الاقتصادية الصغيرة:

للمشاريع الاقتصادية الصغيرة دور أساسي في تواجد السكن العشوائي في منطقة الدراسة، وذلك لكونه السبب الأساسي في خلق العديد من فرص العيش وبقاء السكان داخل تلك المساكن غير المرخصة، فأغلب سكانها يعتمد على مشاريع صغيرة مثل: البقالات والأكشاك لبيع الرصيد والمطاعم الشعبية وخدمات النقل (خدمة التوصيل) والحرف البسيطة، مثال ذلك الصورة رقم (03).

¹ — تقرير بلدية تفرغ زينة عن المساكن الهشة 2020، ص 10.

الصورة رقم (03): توضيح صورة مشروع حرفي صغير في منطقة الدراسة



عدسة الباحثة 2024/06/12م

هذه المشاريع لا تحتاج إلى رأس مال كبير، لكنها توفر دخلا يوميا يساعد على تغطية أساسيات المعيشة، ووجود هذه الأنشطة قرب أو وسط الأحياء الراقية يتيح لسكان العشوائيات الاستفادة من الطلب المتزايد على الخدمات الرخيصة.

تمثل هذه المشاريع الصغيرة عامل جذب واستقرار لهؤلاء السكان في المساكن العشوائية، لأنها تشكل بالنسبة لهم موردا اقتصاديا يجعلهم يتمسكون بالبقاء فيها رغم ضيق وظروف السكن غير الملائمة، فهي تشكل أيضا نقطة التقاء بين ساكني العشوائيات وساكني الأحياء الراقية حيث يقدم الفقراء خدمات أساسية للأغنياء، كما أنها تعتبر مصدر عيش لعدد كبير من الأسر¹.

ولهذه الظاهرة أبعاد إيجابية وأخرى سلبية: فمن إيجابياتها:

- خلق فرص عمل للفئات الهشة.
- تعزيز روح المبادرة الفردية.
- سد ثغرات في الخدمات بأسعار مناسبة.
- ومن سلبياتها:
- تعميق الطابع غير الرسمي للاقتصاد.

¹ — برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية، (UN – Habitat) Cities Report. (2020). State of African. Nairopi.

— تعزيز بقاء وانتشار السكن غير اللائق.

— ضعف البنية التحتية والخدمات العامة نتيجة التوسع غير المنتظم.

خامسا: مقترحات وتوصيات لمعالجة ظاهرة السكن العشوائي في تفرغ زينة:

بناء على ما تقدم من تحليل للدوافع والتبعات، يتضح أن ظاهرة السكن العشوائي في تفرغ زينة تتطلب تدخلا متكاملا متعدد الأبعاد يجمع بين التخطيط الحضري والسياسات الاجتماعية والحلول الاقتصادية، وفيما يلي مجموعة من التوصيات التي يمكن أن تساهم في الحد من نقشي الظاهرة والبدء في معالجتها بشكل مستدام:

- تشجيع دمج المشاريع الصغيرة في الاقتصاد الرسمي عبر تسهيلات ضريبية وتنظيمية.
- تطوير برامج التمويل الأصغر موجهة لسكان العشوائيات لخلق بدائل اقتصادية أكثر استدامة.
- إعداد مخطط عمراني يراعي النمو السكاني المتوقع ويدمج تلك المساكن العشوائية تدريجيا في النسيج الحضري مع احترام المعايير الهندسية والبيئية.
- ينبغي للدولة بالتعاون مع الشركاء الدوليين والمحليين، تشجيع بناء وحدات سكنية اجتماعية مخفضة التكلفة موجهة خصيصا لذوي الدخل المحدود في مواقع مدروسة تتيح سهولة الوصول إلى فرص العمل والخدمات.
- ربط سياسات الإسكان ببرامج دعم الأنشطة الاقتصادية الصغيرة لضمان حلول متوازنة بين البعد الاجتماعي والبعد العمراني.

خاتمة:

يتضح من خلال هذه الدراسة أن وجود السكن العشوائي في الأحياء الراقية بمقاطعة تفرغ زينة يرتبط بشكل مباشر بعوامل اقتصادية على رأسها ارتفاع أسعار العقار، وضعف القدرة الشرائية وانتشار البطالة، إن معالجة هذه الظاهرة تتطلب مقاربة اقتصادية واجتماعية متكاملة تشمل توفير بدائل سكنية ميسرة التكلفة، إضافة إلى ضبط سوق العقار، مع تعزيز سياسات الإسكان الاجتماعي.

كما أنه يجب التنويه إلى أن أصحاب تلك المساكن المخالفة لقوانين الإسكان والمشوهة للمظهر الحضري لم يسكنوا تلك المساكن شغفا بها وإنما سعيا وراء لقمة العيش التي يحصلون عليها عن طريق الأنشطة والحرف التي يمارسونها في تلك الأحياء الراقية، لذلك ربما إذا تم تبني خطط لبناء مجمعات سكنية تتلاءم مع القدرة الشرائية لديهم وتضفي في نفس الوقت على المنطقة طابعا حضريا.

قائمة المراجع:

1. د: عبد الرحيم قاسم قناوي، كتاب العشوائيات مشاكل وحلول، 2013م، مكتبة الأنجلو المصرية.
2. د: جلييلة القاضي "ترجمة منحة البطرأوي"، التحضر العشوائي، دار النشر - دار العين، 2009م.
3. بلدية تفرغ زينة (2020م)، تقرير حول وضعية التوسع العمراني في المقاطعة.
4. الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، التعداد السكاني سنة 2013 و2024.
5. وزارة الإسكان (2019 - 2020)، UN - Habitat.
6. وزارة الإسكان والعمران والاستصلاح الترابي، (2019م)، خطة الحكومة لإعادة تأهيل الأحياء العشوائية في نواكشوط، منشورات رسمية.
7. الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي، ورقة تقريرية عن البنية التحتية والضغط على الخدمات، 2021.
8. تقرير بلدية تفرغ زينة عن المساكن الهشة 2020.
9. برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية، (UN - Habitat). (2020). State of African Cities Report. Nairopi.
10. الدراسة الميدانية (الفترة ما بين 2024 /06/12 و 2024/08/10).

الدينامية الساحلية بمدينة نواكشوط، العوامل المؤثرة والتغيرات الجيومورفولوجية

أحمد ولد محمد عبد الله

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص

تخضع السواحل لديناميات طبيعية وبشرية متعددة تزيد من سرعة تغير المجال وتنتج مشاهد مختلفة وبتزايد الموانئ الساحلية تتسارع حركة تلك الديناميات ويقوي تأثيرها لأن الموانئ مجال حركة وتبادل نشط وقد تكون مجالا صناعيا في أغلب الأحيان لارتباط الصناعة والصيد البحري بالنقل والتصدير، مما نتجت عنه تحديات بيئية متعددة تمس كل الأغلفة الساحلية كالمياه والترربة والأحياء والهواء وتحتاج تلك التحديات إلى معالجة ومواجهة عبر تدبير محكم بواسطة خطط يتم إعدادها وتقييمها ومتابعتها بشكل مستمر يضمن استدامة الموارد والمحافظة على المجال الجغرافي والساحلي الهش بشكل خاص.

مع بناء الدولة الحديثة في موريتانيا ظهرت تحولات مجالية مختلفة من استخراج للحديد وتطوير لصيد الأسماك وظهور الصيد الصناعي وتطور التجارة في ظل العولمة ومن هنا برزت أهمية الموانئ كضرورة تنموية مهمة خاصة في اقتصاد يعتمد على التصدير والإيراد أكثر من الإنتاج والتصنيع، إلا أن ذلك مع مرور الوقت بدأ يطرح بعض التحديات مع تطور مفهوم التنمية التي بدأت تسعى للاستدامة في ظل اهتمام الجغرافيين بالبيئة وتوازنها وتزايد الحديث عن الموانئ الخضراء الصديقة للبيئة.

الكلمات المفتاحية: الدينامية، الساحل، التعرية، الغمر البحري، الكثبان، السباح، نواكشوط

Résumé

Les littoraux sont soumis à des dynamiques naturelles et humaines multiples qui accélèrent la transformation de l'espace et produisent des paysages variés. Avec la multiplication des ports côtiers, ces dynamiques s'intensifient et leur impact se renforce, car les ports sont des espaces de circulation et d'échanges actifs. Ils sont souvent des zones industrielles en raison du lien entre l'industrie, la pêche maritime, le transport et l'exportation. Cela engendre de nombreux défis environnementaux touchant tous les milieux côtiers : l'eau, le sol, la faune, la flore et l'air. Ces défis nécessitent une gestion rigoureuse à travers des plans élaborés, évalués et suivis de manière continue afin d'assurer la durabilité des ressources et la préservation de l'espace géographique et côtier, particulièrement fragile.

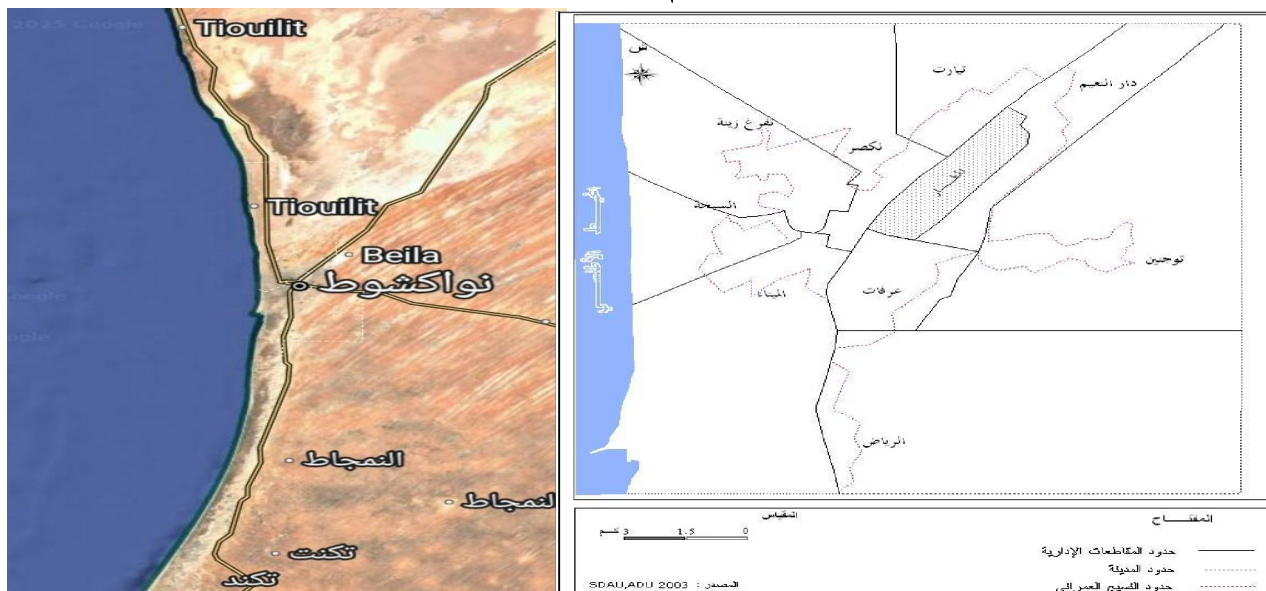
مدخل عام

الدينامية الساحلية تشير إلى مجموعة العمليات الطبيعية والجغرافية التي تؤثر على السواحل وتؤدي إلى تغير مستمر في شكل ومكونات الشريط الساحلي يفعل عناصر متعددة أهمها: الأمواج، التيارات البحرية، المد والجزر، الرياح والعوامل البشرية الأخرى وما تؤدي إليه من تغيير في المورفولوجية والنظام البيئي الساحلي.

ويمكن تعريف الدينامية الساحلية بأنها: هي كل التغيرات التي تطرأ على السواحل والشواطئ نتيجة لتأثير القوى البحرية والمناخية وما يرافقها من عمليات تعرية من نحت ونقل وترسيب وما ينتج عن ذلك من تضاريس ومورفولوجية جديدة كالخلجان والرؤوس والسباح والكتبان الرملية والنباك¹، وتأخذ دراسة المناطق الساحلية بعدا هاما نظرا لموقع موريتانيا على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي بسواحل يزيد طولها قليلا عن 700 كلم وتتركز بها أو ترتبط أهم الموارد الاقتصادية المعدنية والتجارية.

شهد الساحل الموريتاني تحولات كبيرة بعد تغيير مسارات وطرق التجارة العالمية وكانت نشأة مدينة نواكشوط بداية لديناميكية بشرية جديدة إذ تسارعت تيارات الهجرة نحو المدينة الساحلية الناشئة وبدأت النشاطات الاقتصادية تعرف تطورا مهما مما خلق تحديات كبيرة للبيئة الساحلية الهشة بمدينة نواكشوط.

الخريطة رقم 1 ساحل مدينة نواكشوط



¹ حسنين جودة، معالم سطح الأرض، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1980، ص: 143

المحور الأول: الدينامية الطبيعية بساحل مدينة نواكشوط

لا تختلف الخصائص الطبيعية لمنطقة الدراسة عن الخصائص الطبيعية لموريتانيا بشكل عام وللمنطقة الساحلية بشكل خاص من حيث المؤثرات التكوينية الجيولوجية والتضاريسية والمناخية والبحرية وتأثير كل من هذه العناصر.

1. الخصائص الجيولوجية

يشكل ساحل مدينة نواكشوط جزءا من الحافة الغربية للصحراء الكبرى التي يعود تكوينها الجيولوجي إلى فترات قديمة تصل ما قبل الكاميري والزمن الجيولوجي الأول، إلا أن هذا الساحل تأثر بشكل كبير بالزمن الجيولوجي الرابع وتكوين الحوض الموريتاني السنغالي الذي تعتبر منطقة الدراسة جزءا منه.

تتكون جيولوجية الحوض الرسوبي الموريتاني- السنغالي من صنفين من التكوينات الرسوبية: قارية ثلاثية في الشرق، وبحرية رباعية غربا، تنتظم تدريجيا بموازاة مع الشاطئ¹. يتكون الحوض الساحلي من نوعين من التكوينات الرسوبية البروزات الثلاثية، والقاري النهائي داخل التكوينات الرسوبية البحرية.

2. مظاهر السطح:

لقد أثبتت الأبحاث والدراسات التي أجريت حول منطقة نواكشوط أن سطح المنطقة عبارة عن سهل منخفض المنسوب قليل التضرس وخفيف الانحدار، تغطي هذا السهل مجموعة من الكتبان الرملية والسباح²

تتوسط منطقة الدراسة الساحل الغربي الموريتاني بين الهوامش الجنوبية الغربية لكتبان أمكرز شمالا وإقيدي جنوبا، حيث تمثل هذه الكتبان أقصى الحدود الشمالية الغربية لعرق اترارزة الكبير(العروق الرملية الكبرى في موريتانيا الساحلية هي من الشمال نحو الجنوب: عرق أزال، عرق أكشار، وعرق اترارزة الذي تقع منطقة نواكشوط على حدوده الجنوبية الغربية)، ومنطقة الدراسة هذه عبارة عن منخفض طبوغرافي تتراوح ارتفاعاته ما بين 2- م تحت مستوى البحر إلى حدود 16م فوق مستوى البحر في أقصى الشمال الشرقي والشرق، لذا يمكن اعتبارها منطقة سهلية، ولا غرابة في ذلك فموريتانيا عموما عبارة عن مجال منبسطة قلما

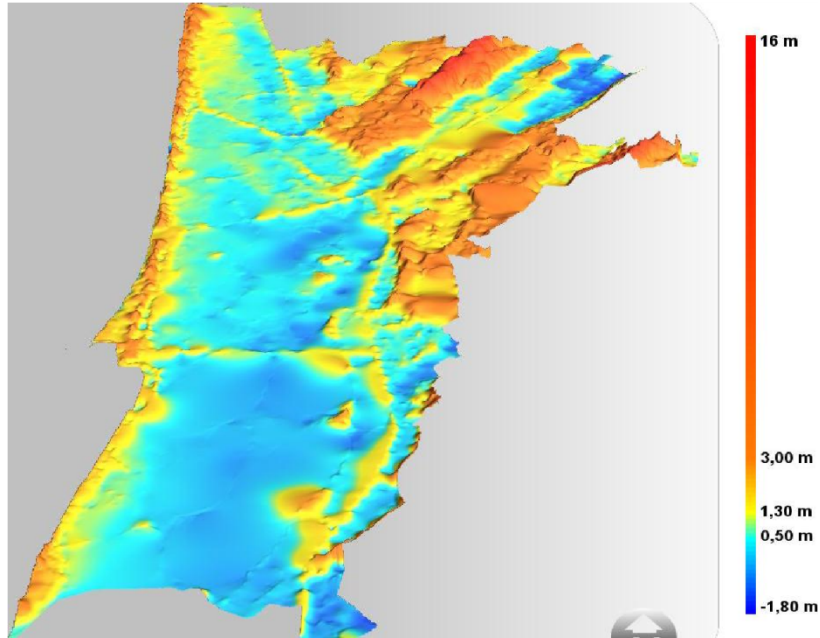
¹OULD EL MOUSTAPHA (A.), 2000. – *Influence d'un ouvrage portuaire sur l'équilibre d'un littoral soumis à un fort transit sédimentaire. L'exemple du port de Nouakchott (Mauritanie)*, Caen, thèse de doctorat d'université, Université de Caen/Basse Normandie, p 55

²صيدم كمال إبراهيم، الرياح وزحف الرمال في إقليم نواكشوط، أطروحة دكتوراه دولة في الجغرافية، تخصص استصلاح إقليمي جامعة هوارى بومدين للعلوم والتكنولوجيا، 2001، ص 27

تتعدى الارتفاعات المطلقة فيه 600م فوق مستوى سطح البحر، إذا ما استثنينا كدية الجل في أقصى الشمال الموريتاني حيث يصل ارتفاعها إلى 917م، أما بقية البلاد الأخرى فتتزل الارتفاعات المطلقة فيها عن 300م وأحيانا أخرى عن 50م، أما الارتفاعات النسبية فهي كذلك ضعيفة، ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى شدة الانبساط وانعدام الفوارق الطبوغرافية وقلة المجاري المائية أحيانا وانعدامها أحيانا أخرى.

يتميز المجال القاري السهلي بأشكال متموجة والدليل على ذلك التدرج الملحوظ نحو الساحل 30 – 2م، فهناك توجه للتضاريس من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي يتمثل في أشكال كثبان كبرى خاصة كثبان أمكرز واطرارزة، التي تأخذ اتجاهها جنوبيا شرقيا الى شمالي غربي، يحصران بينهما منخفضات تعرف بممرات التذرية، تحد هذه الكثبان سبخة تندغمشة شمال نواكشوط، امتداداتها المجالية تصل 30كلم طولا وعرضها يتراوح ما بين 20 – 40كلم. أما المجال الساحلي فينحصر حسب الخريطة الطبوغرافية بالتحديد بين تويويلت في الشمال والكيلومتر 28 في الجنوب، ويكون خط الساحل عموما خط طولي باتجاه الجنوب، يظهر على شكل سواحل رملية، خاصة ما بين تويويلت ومشارف ميناء الصداقة، أما باقي الساحل والممتد ما بين ميناء الصداقة والكيلومتر 28 فقد عمل نشاط التعرية على انحناء خط الساحل.

الصورة رقم 1: طبغرافية نواكشوط



المصدر: أحمد المصطفي السنهوري 2014

يتضح من خلال الخريطة تباين طبوغرافية نواكشوط إذ تغلب المنخفضات على المنطقة في الغرب بينما تدخل السنة رملية تمتد من الشمال الغربي باتجاه الجنوب الغربي وتتخلها سباح ملحية وممرات تدرية بسبب التعرية الريحية المستمرة أو الدائمة، كما يظهر شريط كثيف ساحلي يمتد باتجاه الجنوب والشمال ويختلف عرضه بشكل واضح فكلما اتجهنا شمالا كلما زاد عرضه والعكس يحدث باتجاه الجنوب.

3. **المعطيات المناخية:** وجود أي مشهد ساحلي هو في الغالب نتيجة لعمل متكامل قامت به العناصر المناخية في ظرف زمني معين، قد يكون بضع ثوان أو خلال عصور زمنية قديمة) هذا مع عدم إغفال العوامل الأخرى كالبنائية¹.

يتأثر مناخ نواكشوط بعوامل بحرية وعوامل قارية فالموقع الجغرافي للمدينة الساحلية جعلها بين تأثيرين مختلفين من حيث الطبيعة إلا أنهما يتفقان في عامل الجفاف وسنحاول تتبع العناصر المناخية الفاعلة في التشكيل الجيومورفولوجي خاصة الرياح والأمطار لما لهما من دور مهم في التأثير على مدينة نواكشوط وعلى سكانها دون أن ننسى دور الحرارة التي لها الدور الأكبر في تحديد طبيعة المناخ

3-1 الرياح:

الرياح ظاهرة عالمية جدا تنتشر في كل أرجاء الأرض لكنها لا تصبح عاملا مشكلا لسطح الأرض إلا حيث يسود الجفاف فالغطاء النباتي يكسر حدة احتكاك الرياح ويحمي الأرض من تأثيرها. وتبعاً لذلك فإن المناطق الفقيرة في نباتها تتعرض لفعل الرياح بقوة كعامل تعرية. ففي تلك المناطق تكثر المواد التي فتتها فعل التجوية فيسهل على الرياح التقاطها وحملها أو رفعها واكتساحها وتعمل ذرات الماء على تماسك حبيبات التربة، يتأثر الساحل الموريتاني حسب مراكز الضغط بنوعين من الرياح هما الرياح التجارية والرياح الموسمية

أ- **الرياح التجارية:** يرجع مصدر الكتلة الهوائية التي تتحرك على الساحل الموريتاني، إما إلى الرياح التجارية القارية أو الرياح التجارية البحرية، التي تتحرك خلال السنة ذات اتجاه شمالي شرقي خلال أشهر نوفمبر، ديسمبر، يناير وفبراير. تتراوح سرعتها ما بين 3-7 م/ث²، لكن

¹ جودة حسنين جودة مرجع سبق ذكره ص: 171، ومروان اشنوني، 2011 (ساحل آسفي) ما بين رأس لبدوزة وجرف ليهودي (الدينامية المورفورسائية وأثر التهئية، الماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الانسانية،

جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب، ص 50

² محمد محمود ولد أباه، مرجع سبق ذكره، ص 20.

يمكن أن تصل 10-11م/ث في بعض الفترات وتتعاقب هذه الرياح التجارية البحرية مع رياح تجارية قارية ذات اتجاه شرقي، هذه الأخيرة لها نفس سرعة سابقتها.

ب-الرياح الموسمية: في الصيف يحدث تغير في مراكز الضغوط حيث يتصل ضغط منخفض من أصل حراري بالمنخفض الصحراوي. يتمركز الجميع على مدار السرطان فترسل نواة سينت هيلن تيارات في اتجاه هذا المنخفض المتمركز على مدار السرطان وتزاح الجبهة البيمدارية التي يصل أقصى تأثيرها على السطح شمال نواذيبو، بعد ذلك تتحرك رياح موسمية لطيفة: وهذه الرياح الموسمية ليست سوى رياح تجارية جنوبية تغير اتجاهها عند مرورها عند خط الاستواء وهي رياح غير مستقرة ذات اتجاه جنوبي غربي جنوبي(يونيو - يوليو - أغسطس) يصل متوسط سرعتها 3-

6م/ث¹، فهي إذن ضعيفة بالمقارنة مع التيارات التي تهب في الشتاء.

ج- الهرمتان*: رياح حارة تسود معظم مناطق البلاد، وقد استطاعت بفعل قوتها تغيير الخريطة الطبيعية للبلاد، ساعدها في ذلك الانسان، تهب من الشمال الشرقي أو من الشرق وهي رياح جافة تعمل على نقل الرمال، يبدأ هبوبها مع بداية فصل الصيف من شهر مارس الى يونيو، أصلها القاري يقلص تأثيرها على الأوساط الساحلية.

الجدول (1): اتجاهات الرياح وسرعتها: م/ث بمحطة نواكشوط للفترة الممتدة ما بين 1981 - 2021

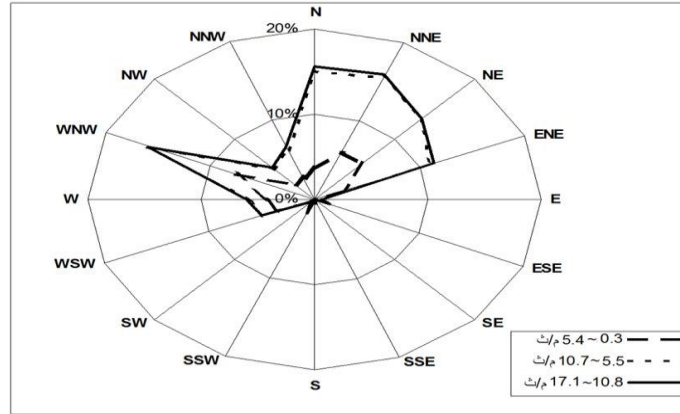
الاتجاه													السرعة م/ث
الجميع	أخرى	NNW	NW	W	WSW	SSW	ESE	ENE	NE	NNE	NNE	N	
42.1	1.3	2.7	2.3	4.3	.36	1.8	0.0	2.9	5.9	6.1	6.1	3.6	0.3-5.4
55.6	0.5	3.4	2.7	1.4	1.4	0.0	1.4	8.1	7.4	9.4	9.4	11.5	5.5-10.7
2.3	0.0	0.5	0.2	0.2	0.0	0.0	0.0	0.4	0.2	0.4	0.4	0.5	10.8-17.1
100	1.8	6.6	5.2	5.9	5.0	1.8	1.4	11.4	13.5	15.9	15.9	15.6	المجموع

المصدر: المرصد الوطني للأرصاد الجوية، نواكشوط 2021.

¹ خديجة بنت إبراهيم، 2009، محمية حوض آرकिन على الساحل الموريتاني التوازنات البيئية -مظاهر التدهور- أفاق الحماية، أطروحة لنيل دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الانسانية الرباط - أكادال-، ص78.

*الهرمتان: رياح شمالية شرقية حارة تعرف محليا ب اريفي بالحسانية.

الشكل 1: اتجاهات هبوب الرياح

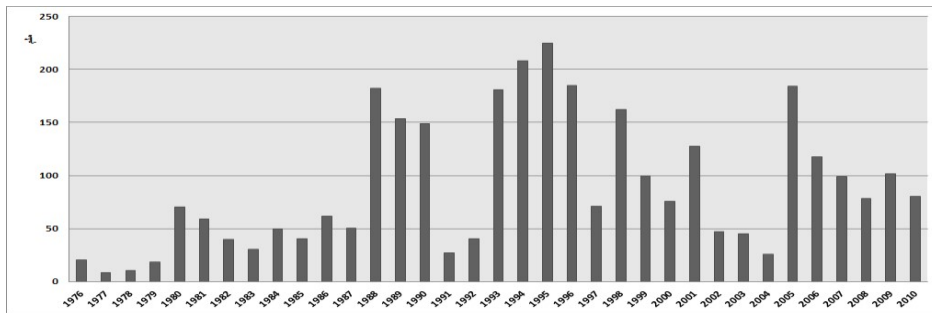


وبخصوص سرعتها فتتراوح ما بين 1 و 38 كلم/س، ونجد بها اختلافات يومية وشهرية وفصلية، فعلى المستوى اليومي تزداد سرعة الرياح من الصباح نحو المساء، حيث أن أقل سرعة تسجل عند الساعة السادسة صباحاً، وتزداد في الزوال لتصل أقصاها في المساء عند الغروب (3 - 5.6 كم/الثانية). وتؤثر سرعة الرياح على التربة بشكل مباشر فكلما زادت سرعتها كلما كانت أكثر قدرة على الحمل والتشكيل وكانت عاملاً مؤثراً في كل عناصر البيئة

2-3 التساقطات المطرية

تلعب الأمطار دوراً مهماً في تشكيل سطح الأرض عبر مجموعة من العمليات الطبيعية التي تحدث بشكل مستمر وعلى مدى زمني طويل، وأبرز هذه العمليات هي التعرية المائية من نحت ونقل للرواسب ولها كذلك دور مهم في عمليات التجوية خاصة الكيميائية، وإن كانت كميات الأمطار التي تصل منطقة الدراسة قليلة فإن لها دوراً مهماً في التأثير على المنطقة خاصة ما تحدثه من مستنقعات يساعد على بقائها سوء التصريف أو الطبغرافية الطبيعية للمنطقة.

الشكل معدل التساقطات السنوية بمحطة نواكشوط خلال سنوات 1976 - 2010



المصدر: الهيئة الوطنية للأرصاد الجوية

يتضح من خلال الشكل البياني مستوى التذبذب السنوي لكميات الأمطار التي تعرفها منطقة نواكشوط، حيث شهدت الفترة الممتدة من سنة 1976 حتى سنة 1988 فترة جفاف حاد لم تتجاوز

فيه كمية الامطار السنوية 50 ملم خلال السنة إلا قليلا، ويكون دور الرياح هو المشكل الأساسي للمورفولوجية العامة، أما الفترة الممتدة من سنة 1988 حتى سنة 2000 فهي الأكثر غزارة إذ تجاوزت كمية الأمطار 200 ملم وقاربته في أغلب السنوات وكان لذلك تأثيره على المدينة الناشئة حيث أدت هذه الأمطار إلى غمر عدة أحياء وترحيل أحياء أخرى.

الصورة رقم (2): نواكشوط بعد الأمطار الغزيرة 2013



المصدر: محمد المصطفى السنهوري 2013.

3-3 الحرارة:

تؤدي الحرارة دورا مهما في تشكيل سطح الأرض من خلال تأثيرها في العمليات الفيزيائية والكيميائية التي تؤدي إلى جفاف الصخور وتفتيتها لتكون جاهزة لعمليات النحت الريحي والمائي وكذا النقل والترسيب في أماكن أخرى، وبحكم الموقع المداري لمنطقة الدراسة فإن دور الحرارة يعتبر أساسيا وبشكل كبير في منطقة يتسع فيها المدى الحراري بين الدرجات الدنيا خلال الليل والقصى في أوقات الذروة، بل وحتى الاختلاف الشديد بين فصول السنة.

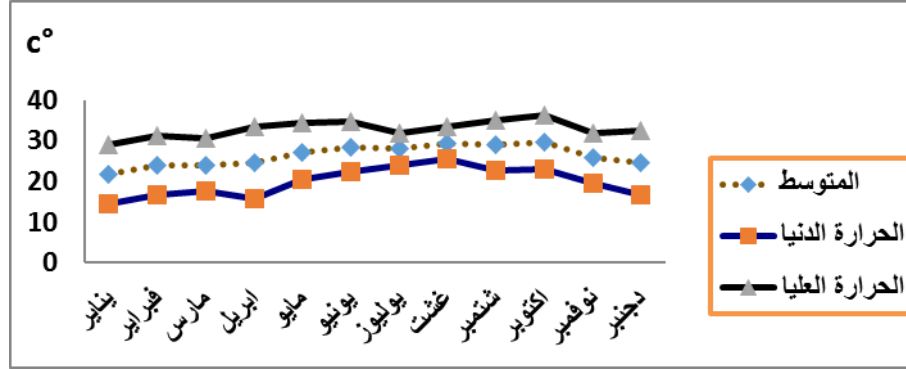
الجدول (2): متوسط الحرارة القصوى بمحطة نواكشوط حسب الفصول

المتوسط	الخريف	الشتاء	الربيع	الصيف	المعدل السنوي
القصوى	30.4	19.8	24.6	27.7	25.62
الدنيا	25.7	15.3	20.1	25.8	21.72
المتوسط	28.05	17.55	22.35	26.75	23.67

المصدر: المرصد الوطني للأرصاد الجوية، نواكشوط 2022.

يتبين من خلال الجدول (3) أن الفروقات الحرارية بين الفصول تبقى غير ذات أهمية، بحيث أن أقصى الفروقات بين فصلي الشتاء والصيف لا تتعدى 2.9° ويرجع ذلك إلى قرب المنطقة من المؤثرات البحرية، وبالتالي التقليل من التباينات الحرارية بين الفصول.

الشكل(1): متوسط الحرارة الشهرية بمحطة نواكشوط



المصدر: المرصد الوطني للأرصاد الجوية، نواكشوط 2020.

انطلاقاً من الشكل يمكن ملاحظة أن الشهور الباردة نسبياً تضم الشهور التالية: نوفمبر، دجنبر، يناير، فبراير، وتتراوح المتوسطات الحرارية لهذه الشهور بين 74.25° و 83.21°، وهذه الشهور تسجل المتوسطات الحرارية الدنيا التي تصل إلى 04.24°، أما شهور ابريل، ماي، ويونيو فتسجل متوسطات حرارية تتراوح ما بين 55.28° و 65.24° بمتوسط يصل إلى 82.26°، ويمكن اعتبارها شهور معتدلة نسبياً، وتشمل الشهور الساخنة كل من يوليو، أغسطس، وسبتمبر، وتسجل بها الحرارة العليا وأقصى هذه الحرارة تسجل بشهر أكتوبر حيث وصلت إلى 79.29° كأقصى متوسط، أما المتوسط الأدنى لشهور الفترة الساخنة لم ينزل عن 79.28° وسجل بشهر شتبر، وتساهم الرياح في توزيع ونقل الحرارة.

كما حاولنا رصد الدينامية الساحلية الطبيعية من خلال إبراز دور البنية الجيولوجية والتاريخ الجيولوجي للمنطقة ودور كل فترة جيولوجية في خلق مظاهر تضاريسية تختص بها وتعرضنا لأهم المظاهر التضاريسية بساحل مدينة نواكشوط الذي يتسم بالرتابة عموماً والانخفاض إذا ما استثنينا العروق الرملية الممتدة بالمنطقة ذات التكوين القاري والبحري.

ولم نغفل دور العناصر المناخية المختلفة خاصة الرياح التي تلعب دوراً مهماً في رسم المورفولوجية العامة للمنطقة التي تتسم بضعف الغطاء النباتي كانعكاس لضعف كميات الأمطار وكذا غياب المرتفعات الصخرية التي تحد من قوة عوامل التعرية وتساعد على خلق الظروف المناسبة للتساقط، الأمر الذي يفسر قلة التساقطات المطرية في منطقة ساحلية تتسم بدرجات حرارة مرتفعة تنتج عنها كميات كبيرة من التبخر تتحول إلى ندى يتحرك بحركة نسيم البحر.

المحور الثاني: الدينامية البشرية والساحلية

شهد الساحل الموريتاني تحولات كبيرة بعد تغير مسارات وطرق التجارة العالمية وكانت نشأة مدينة نواكشوط بداية لديناميكية بشرية جديدة إذ تسارعت تيارات الهجرة نحو المدينة الساحلية الناشئة وبدأت النشاطات الاقتصادية تعرف تطوراً مهماً مما خلق تحديات كبيرة للبيئة الساحلية الهشة بمدينة نواكشوط.

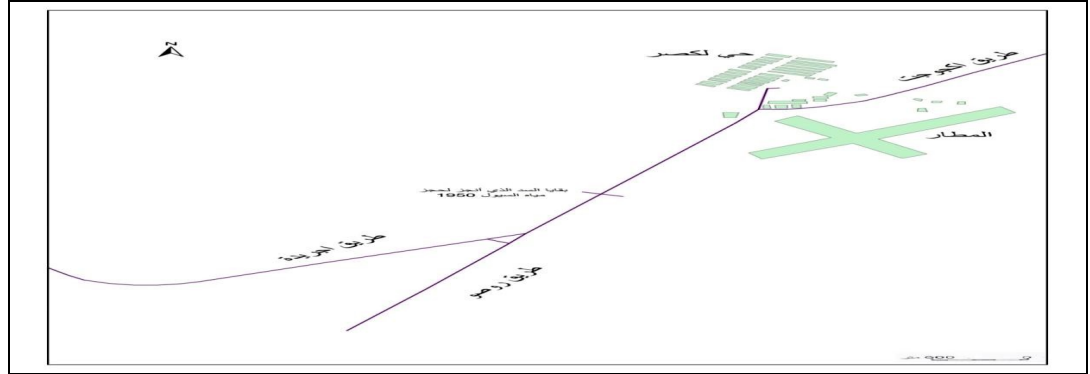
تعد مدينة نواكشوط، عاصمة الجمهورية الإسلامية الموريتانية، من أبرز المراكز الحضرية في البلاد، حيث شهدت خلال العقود الأخيرة نمواً سكانياً متسارعاً وتحولات ديمغرافية واقتصادية كبيرة. يعود ذلك إلى عوامل متعددة، من بينها التوسع العمراني، والهجرة الداخلية من المناطق الريفية والجافة، بحثاً عن فرص العمل والخدمات الأساسية. وقد ساهم هذا التزايد السكاني في بروز تحديات تتعلق بالتخطيط العمراني، وتوفير البنية التحتية، وضمان استقرار السكان في بيئة حضرية مناسبة.

1- نشأة مدينة نواكشوط وتطورها

ارتبط إنشاء مدينة نواكشوط ووجودها كمركز عمراي بدافع سياسي، نتيجة لقرار يجعل نواكشوط عاصمة لموريتانيا المستعمرة، بدلا من "سان لويس" في السنغال التي كانت تدار منها إفريقيا الغربية الفرنسية، وتضمن القرار شغل نواكشوط هذه الوظيفة بعد الاستقلال مباشرة، في 1960/11/28.

وقد ظهر أول اهتمام بموقع نواكشوط والتفكير في جعله مركزا حضريا في مطلع القرن الماضي في 8 نوفمبر 1903 عندما مر بالموقع القائد الفرنسي كزافيي كبولاني وهو يومئذ خال من السكان المستقرين، ولاحظ مدى ملائمة موضعه لإقامة مركز عسكري يمكن من مراقبة السواحل الموريتانية وطريق القوافل الرابط بين تيندوف في الجزائر وداكار في السنغال، غير أن هذا الموقع ما لبث أن فقد قيمته تحت تأثير المقاومة الوطنية للاستعمار، فتحوّلت الأنظار نحو قرية المذرذرة التي تبعد بـ 140 كلم في الجنوب الشرقي.

الخريطة(3): نشأة مدينة نواكشوط 1957



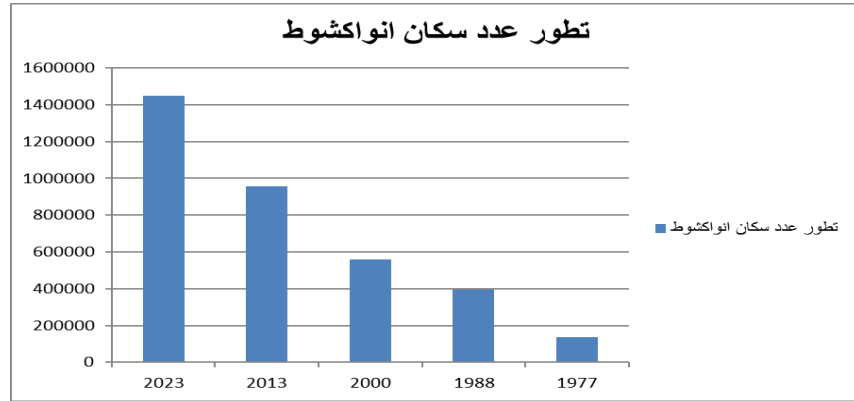
المصدر: محمد بياه محمد ناصر 2008

الجدول(2) نمو سكان الحضر خلال التعدادات 1977 - 1988 - 2000 - 2013 - 2024

السنة	عدد السكان	نسبة الزيادة%
1977	134704	10 %
1988	393325	20 %
2000	558195	22.2 %
2013	958399	28 %
2023	1446761	31 %

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديمغرافي والاقتصادي ANSADE

يبدو جليا من خلال الجدول أن النمو الحضري في موريتانيا كان من نصيب المدن الساحلية، فقد عرفت هذه المدن ارتفاعا سكانيا أذهل السلطات الموريتانية وفاق توقعات الخطط التنموية. وقد كان لمدينة نواكشوط نصيب الأسد من هذا النمو، الذي انعكس على بنية المدينة وخلق ما يعرف بظاهرة الأحياء الفوضوية، التي طوقت المدينة خاصة على محاور الطرق الرئيسية. ويوضح الجدول السابق هذا التباين في النمو إلى جانب النمو العام لسكان الحضر على المستوى الوطني.



المصدر: إعداد الطالب اعتمادا على معطيات الجدول السابق

2- الأنشطة المينائية

تتمثل الأنشطة المينائية والصناعية في الموانئ البحرية والمنشآت الصناعية ذات الارتباط بالشاطئ والتي تشكل مقوما أساسيا من مقومات التنمية المستدامة في حالة مراعاتها للجوانب والنظم البيئية الموصي بها، فالموانئ هي بوابة البلاد التجارية ونقاط ربطها بالعالم الخارجي وتشكل إحدى الركائز البنية الاقتصادية للبلاد لما توفره من دور في مجال المبادلات التجارية بين الدولة وبقية بلدان العالم وتتوفر البلاد على الموانئ التالية:

أ- ميناء نواكشوط المستقل

انطلقت أعمال تشييده سنة 1981 بالتعاون بين الحكومة الموريتانية وحكومة الصين الشعبية، وتم استغلاله فعليا سنة 1987 وهو أكبر ميناء في موريتانيا في الوقت الراهن وهو بوابة البلاد الخارجية منه تستقبل جل وارداتها، وكما أن الواردات المتوجه لدولة مالي تأتي عبره نظرا لكونه لا تملك منفذا بحريا، وقد عرف هذا الميناء توسعة جديدة بموجب اتفاقية بين الحكومة والصين سنة 2008 بتكلفة مالية وصلت 288.5 مليون دولار حيث ستبلغ السعة الإجمالية لهذا الميناء مليون طن.

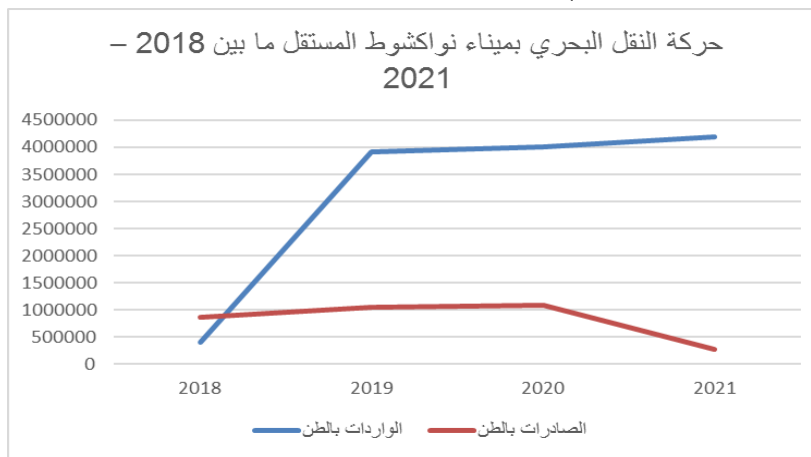
ورغم الأهمية الاقتصادية لهذا الميناء ودوره في التنمية إلا أن ذلك سينعكس سلبا في المستقبل نظرا لما يشكله موقع الميناء من خطورة على البيئة حيث انه يحتجز حركة الرمال على شاطئ المحيط الأطلسي ونتيجة لذلك تجمعت كتبان رملية شمال الميناء وفي المقابل إلى الجنوب منه تشكلت حفر كبيرة، ونعرض لتطور حركة التجارة البحرية بالجدول التالي:

الجدول(4): حركة النقل البحري بميناء نواكشوط المستقل ما بين 2018 - 2021

السنوات	2018	2019	2020	2021
الصادرات بالأطنان	867251	1044334	1081436	2768600
الواردات بالأطنان	4141190	3923006	4016067	4189786

المصدر: الإحصاءات السنوية لميناء الصداقة

الشكل(2): حركة النقل البحري بميناء نواكشوط المستقل ما بين 2018 - 2021



المصدر: بيانات الجدول(10)

يمكن ملاحظة أن الواردات تشكل الغالبية الكبرى من حركة النقل في هذا الميناء، كما نلاحظ أيضا أن حركة الصادرات ضعيفة مقارنة بعملية الاستيراد، وتشكل الأسماك معظم صادرات هذا الميناء، إضافة إلى كميات النحاس التي تشكل العنصر الثاني في أهم الصادرات.

ب- ميناء الصيد التقليدي بنواكشوط:

يعتبر إحدى أهم منشآت الصيد التقليدي بالبلاد، حيث يحتضن هذا الميناء أكثر من 1200 زورق¹، وتسهيلا لتفريغ منتج الصيد وتحويله وتسويقه في هذا المكان، تم تشييد منشآت في عين المكان كأماكن للبيع بالمزاد العلني، ومحلات العرض، وغرف تبريد ومصانع تحويلية، إضافة إلى أمكنة لتجفيف ومعالجة السمك ... الخ، ويشهد هذا الميناء نشاطا دائما من الصباح

¹ ولد أحمد سيد أحمد، 2009، حماية المصايد البحرية من التدهور، دراسة حالة موريتانيا، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين، الجزائر، ص 103

حتى المساء، تتخلله حركة فوضوية لكنها تخضع في الواقع لقواعد محددة يعرف كل من بها دوره ووظيفته.

يقع هذا المرفأ على بعد 5 كلم شمال ميناء نواكشوط المستقل، وقد تم انشاؤه سنة 1966، ويوجد به مرسى للبواخر بطول 136م، وقد تم تشييده لتسهيل عمليات الشحن والتفريغ وراء الحاجز الرملي، إلا أنه غير محمي من الأمواج ورسوي السفن، وقد ظل يشكل البوابة الوحيدة لنواكشوط على العالم الخارجي.

لقد شكل تطور الأنشطة المينائية على ساحل مدينة نواكشوط عامل جذب واستقرار لسكان المدينة الذين هاجروا من الأرياف تحت وطأة الجفاف من ناحية وصوب بريق المدينة الناشئة من جهة أخرى، مما زاد من الضغط على ساحل المدينة الناشئة التي بدأت تعرف تحديات جديدة لم تعرفها أو لم يعرفها الساحل من قبل مثل الاعتماد عليه في مواد البناء فأصبح مكانا لمقالع المحار والتربة الرملية كما بدأ يتعرض للتلوث وانتشار النفايات حول الأسواق والموانئ وحتى في المناطق المفتوحة.

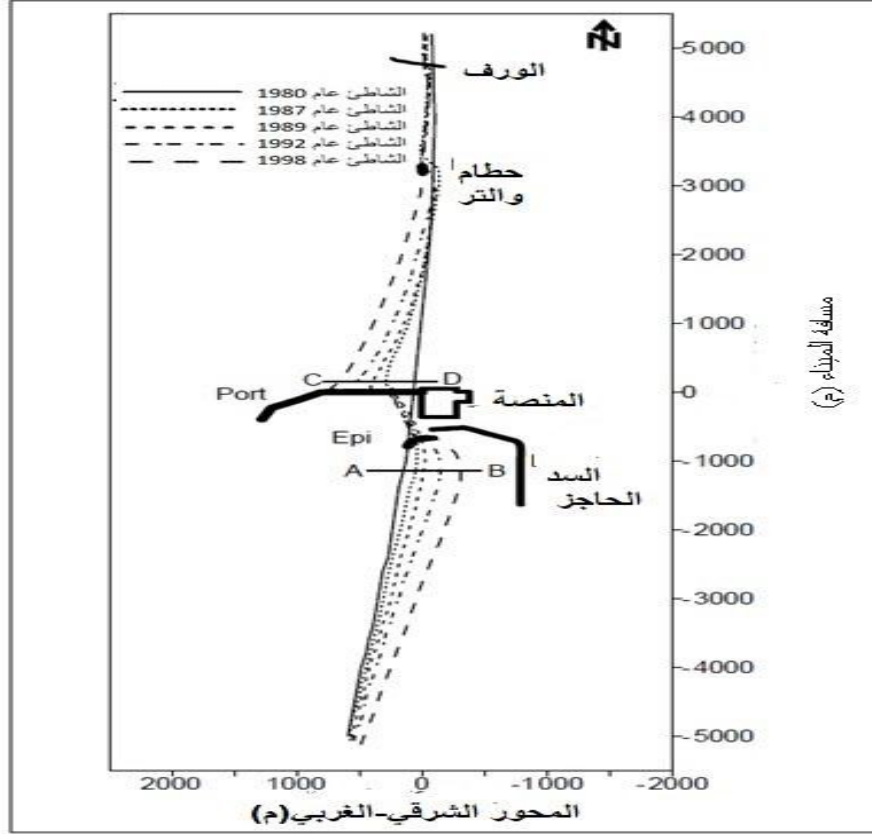
3-التطور التاريخي لخط الساحل

الهدف الأول من دراسات التطور التاريخي للخط الساحلي هو تحديد الاتجاهات طويلة الأجل لتطور الخط الساحلي. استخدمت في البداية لغرض "نظري" بحث، من نهاية الثمانينيات فصاعداً، وشهدت المزيد والمزيد من التطبيقات العملية، لا سيما لتقييم آثار أعمال الهندسة الساحلية، وتحديد أحجام الرمال اللازمة للتغذية الاصطناعية للشواطئ وتقدير التغيرات المستقبلية على الخط الساحلي وقد أصبحت عنصراً أساسياً في تحديد سياسات التنمية الساحلية. بالنسبة لمنطقة نواكشوط، أعيد بناء التطور التاريخي للخط الساحلي بين عامي 1980 و1998 باستخدام ثلاثة أنواع من الوثائق: خريطة IGN1980، وصور الأقمار الصناعية لأعوام 1987 و1989 و1992 ونتائج القياسات المتعلقة بموقع الخط الساحلي التي أجريت في المقياس الفرعي DGPS في عام 1998.

بين عامي 1980 و1998، تطور تراكم رملي على الفور إلى الشمال من الهيكل، مما ساهم في تقدم الساحل بنحو 670متراً، أو أكثر من 35متراً/سنة ولوحظ التآكل الذي وصل إلى 460متراً في 18عاماً، جنوب الميناء، وهو ما يقابل انخفاضاً سنوياً متوسطه أكثر من 20متراً يمكن اعتبار هذا التطور بمثابة دراسة حالة بسبب بساطة الإطار الترسبي المائي، الذي يهيمن عليه انجراف ساحلي قوي بين الشمال والجنوب، والتطورات التي حدثت في المنطقة الواقعة بين الميناء والحاجز، والتي تضم البنية التحتية البرية للميناء، يبدو أن الساحل كان مستقراً منذ بناء

الحاجز. ومع ذلك، يبدو أن هجوم الأمواج على الحاجز، الذي لوحظ منذ عام 1996، يؤدي إلى مرحلة تآكل جديدة في هذه المنطقة.

الشكل (3): حركة الخط الساحلي بين عامي 1980 و1998 شمال جسر الميناء



المصدر: أحمد المصطفى السنهوري دراسة مخاطر الغمر بمدينة نواكشوط 2014.

يساهم وجود البنى التحتية في الجزء العلوي من حدود الكثبان الرملية مثل سوق الأسماك والوحدات الصناعية والبنى التحتية السياحية بشكل كبير في إضعاف طوق الكثبان الرملية من خلال تركيز الأنشطة التي تتسبب في تدهور البيئة الساحلية.

يؤثر التآكل البحري على 70% من السواحل المنخفضة المتكونة من صخور صلصالية أو رمل أو حصى (Niang, 1995) قد ينتج عن عمل العوامل الهيدروديناميكية أو عن نقص إمدادات الرواسب. في حالة نواكشوط، فإن التآكل الذي لوحظ جنوب ميناء الصداقة هو نتيجة لاعتراض كامل للعبور الرسوبي من قبل حاجز الميناء.⁹

أدى بناء حاجز ميناء الصداقة في نواكشوط، الذي يبلغ طوله حوالي 1300 متر، إلى تعطيل التشغيل الترسبي للموقع وتطور الساحل تماماً. وبذلك تبين ما يلي:

- ترسيب قوي على الساحل شمال الميناء؛

- تآكل كبير إلى الجنوب من المرافق الحالية بعد أن تطلبت بالفعل تنفيذ تدابير الحماية (تدعيم، الحاجز)
- ونتيجة لهذا التطور السريع للساحل، هناك تهديد قصير الأجل لما يلي:
- الوصول إلى ميناء نواكشوط، فإن تقدم الساحل إلى الشمال من الأعمال سيؤدي إلى تجاوز الرمال في فتحات التشغيل على المدى القصير مما يؤدي إلى انسداد يضر بتشغيل الميناء
- الساحل جنوب الميناء، الذي يتعرض لتآكل متزايد بسبب نقص الرواسب. ستختفي الكثبان الرملية الساحلية التي تحمي بشكل طبيعي المنخفض الخلفي.
- تهديد الإنشاءات الموجودة في المنخفض الخلفي (أفطوط الساحلي) الذي يشمل جزءاً كبيراً من مدينة نواكشوط بسبب مخاطر الغمر خلال أمطار غزيرة تدمر الكثبان الرملية الساحلية التي تحمي المنخفض بشكل طبيعي.
- ونظراً للتطور المستمر لحركة خط الساحل والتآكل الواقع جنوب ميناء الصداقة وتعرض ما تبقى من الشريط الرمل على الساحلي للتآكل الريحية وتهديد مياه نهر السنغال الذي تساعد فيه التضاريس والميل فإن كل هذه العوامل تجعل حماية مدينة نواكشوط وتهيئة ساحلها أمر ضروري من منظور تنموي مستديم.

المراجع

- حسنين جودة، معالم سطح الأرض، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، 1980
- صيدم كمال إبراهيم، الرياح وزحف الرمال في إقليم نواكشوط، أطروحة دكتوراه دولة في الجغرافية تخصص استصلاح إقليمي جامعة هواري بومدين للعلوم والتكنولوجيا، 2001
- ولد أحمد سيد أحمد، حماية المصايد البحرية من التدهور، دراسة حالة موريتانيا، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الجغرافيا، جامعة هواري بومدين، الجزائر، 2009
- خديجة بنت إبراهيم، محمية حوض آرकिन على الساحل الموريتاني التوازنات البيئية -مظاهر التدهور- آفاق الحماية، أطروحة لنيل دكتوراه في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - أكادال، 2009
- مروان اشنوني، ساحل آسفي ما بين رأس لبدوزة وجرف ليهودي (الدينامية المورفوسايبية وأثر التهيئة)، الماستر في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة، المغرب، 2011
- زكرياء أحمد بوعبيد، مساهمة في دراسة جومورفولوجية الساحل الموريتاني، تونس، 2013

- محمد ناصر محمد بباه، من أزمة البادية إلى التحضر الفوضوي في موريتانيا" نواكشوط نموذجاً"، أطروحة دكتوراه دولة في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس-أكdal، 2008
- ولد اباه محمد محمود، نواكشوط دراسة جيومورفولوجية، دبلوم الدراسات العليا المعمقة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995
- أحمد المصطفى السنهوري، دراسة مخاطر الغمر بمدينة نواكشوط، 2013
- NIANG D. I. (1995) - L'érosion côtière de la petite côte du Sénégal à partir de l'exemple de Rufisque, thèse de doctorat de l'université d'Angers,
- OULD EL MOUSTAPHA (A.), 2000. – *Influence d'un ouvrage portuaire sur l'équilibre d'un littoral soumis à un fort transit sédimentaire. L'exemple du port de Nouakchott (Mauritanie)*, Caen, thèse de doctorat d'université, Université de Caen/Basse Normandie

الآثار الاقتصادية والاجتماعية لاستغلال مناجم الحديد في موريتانيا

شيخنا محمد الأمين

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

الملخص:

إن لاستغلال مناجم الحديد في موريتانيا دورا هاما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ويتجلى ذلك من خلال مساهمته في الميزانية العامة للدولة والتشغيل والمشاريع التنموية الكبرى، وتمثل صادراته نسبة لا يستهان بها في تغطية المدفوعات، كما يساهم بفعالية في التنمية المحلية. فالحديد يعتبر ذا أهمية اقتصادية كبيرة نظرا لما يجلبه من العملة الصعبة وما يساهم به في الناتج الداخلي الخام، وفي الحد من البطالة، وقد كان للشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) منذ توليها استغلال وتصدير خامات الحديد الموريتاني سنة 1974 دورا كبيرا في دعم السياسة الاقتصادية للبلاد، تجلى في مساهمتها في ميزانية الدولة وكذا العائدات الضريبية، كما أن لها مساهمة كبيرة في التشغيل والتكوين، بالإضافة إلى الدور الاقتصادي للقطار والميناء المعدنيين. وفي الجانب الاجتماعي لعبت الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم (سنيم) دورا كبيرا من خلال تدخلات مؤسسة خيرية سنيم، وما تقدمه من مساهمات في توفير الخدمات الضرورية لسكان مناطق الاستغلال ورواق السكة الحديدية، في مجالات التعليم والصحة والمياه والطاقة ... إلخ، كان لها الأثر الإيجابي على حياة السكان وظروفهم المعيشية.

الكلمات المفتاحية: الآثار الاقتصادية-الآثار الاجتماعية-خيرية سنيم

مقدمة

عُرف الحديد في موريتانيا منذ القرن الحادي عشر، كما أشار إلى ذلك البكري سنة (1067م)، حين وصف موقعها على أنه جبل من الحديد يبرز وسط الصحراء بين درعة وغانة. إلا أن اكتشافه بشكل دقيق لم يظهر إلا منذ بداية ثلاثينيات القرن العشرين، حيث أكدت عمليات المسح الجوي الأولى بوجود خامات من الحديد في تازيازت وتلال تيرس زمور. ولم يبدأ التفكير في استغلاله إلا سنة 1957 حينما كانت احتياجات العالم من هذه المادة مرتفعة جدا، لا سيما في الولايات المتحدة وبريطانيا وباقي المجموعة الأوروبية، وقد دفعت هذه الوضعية تلك الدول إلى الاهتمام بخامات حديد موريتانيا، نظرا لجودتها العالية، وتكلفتها

المناسبة بسبب انخفاض تكاليف النقل البحري، ووجود يد عاملة رخيصة، وهي كلها عوامل شجعت رأس المال الأجنبي على الاستثمار في مجال الاستغلال المنجمي في موريتانيا. ويعتبر استغلال مناجم الحديد في موريتانيا نشاطا حيويا عرفتة البلاد غداة استقلالها، حيث عرف ازدهارا كبيرا مع بدايات استغلاله من طرف شركة حديد موريتانيا(ميفرما)، التابعة لمكتب الأبحاث الجيولوجية والمعدنية، بالاشتراك مع شركات بريطانية وألمانية، وقد حصلت على هذا الامتياز من قبل السلطات الفرنسية التي كانت تسيطر على البلاد في ذلك الحين، وقد صدرت أولى شحناتها من تلك الخامات سنة 1963، وقد شكل هذا حدثا متميزا في تاريخ البلد، الذي حصل للتو على استقلاله في ظل ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية غاية في الصعوبة، حيث وصلت نسبة مساهمته في الناتج المحلي الإجمالي حوالي 39% سنة 1969، إلا أن هذه المساهمة سرعان ما انخفضت نتيجة عوامل دولية (انخفاض أسعار الحديد في العالم)، وعوامل داخلية (منها حرب الصحراء) لتصل إلى حدود 23% سنة 1974.

بعد ذلك تحول هذا الامتياز، حيث تم تأمين شركة ميفرما، وحلول الشركة الوطنية للصناعة والمناجم "سنيم" محلها، لتبدأ مرحلة جديدة من استغلال مناجم الحديد في موريتانيا، كان لها دور كبير في تجاوز بعض الصعوبات التي تطرحها التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلد. وللتطرق لذلك، سيركز هذا المقال على الآثار الاقتصادية لاستغلال مناجم الحديد، من خلال مساهمته في الميزانية العامة للدولة، وفي سياسة التشغيل والتكوين، والدور الاقتصادي للقطار والميناء المعدنيين.

أما الآثار الاجتماعية فسيتم التطرق لها من خلال تدخلات مؤسسة خيرية سنيم في مجالات التعليم والصحة والمياه والطاقة ..إلخ.

المحور الأول: الآثار الاقتصادية لاستغلال مناجم الحديد في موريتانيا

يلعب استغلال مناجم الحديد دورا محوريا في النشاط الاقتصادي في موريتانيا، ويتجلى ذلك من خلال الدور الذي تقوم به الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) منذ توليها استغلال مناجم الحديد، في السياسات الاقتصادية والتشغيلية للدولة، من خلال مساهماتها التي نذكر منها:

1. مساهمة الشركة الوطنية للصناعة والمناجم في ميزانية الدولة:

يعتبر استخراج الحديد من أهم الأنشطة الاقتصادية لموريتانيا، إذ يساهم في الناتج الداخلي الخام، وتتكون هذه المساهمة من عائدات ضريبية وغير ضريبية مدفوعة للدولة تحت عنوان "مساهمة الدولة في رأس مال الشركة"، وظلت هذه المساهمة بمعدل سنوي يقدر ب 12% خلال الفترة

1995 - 2003، وانطلاقاً من 1996 عرفت هذه المساهمة اتجاهاً متزايداً بسبب رجوع الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) إلى النظام المشترك للضريبة على رقم الأعمال. وتعد الشركة ركيزة أساسية للصادرات الوطنية ومصدراً هاماً لموارد ميزانية الدولة، كما تعكس مساهمتها في الناتج المحلي الإجمالي أهمية خام الحديد في الاقتصاد الوطني.

الجدول (01): مساهمة إيرادات سنيم في الاقتصاد الوطني 2017 - 2022

السنوات	2017	2018	2019	2020	2021	2022
المساهمات في إيرادات ميزانية الدولة	6%	4%	6%	10%	17%	22%
المساهمة في الناتج المحلي الإجمالي	6%	5%	8%	11%	15%	9%
المساهمة في الصادرات	30%	28%	33%	43%	58%	32%

المصدر: الشركة الوطنية للصناعة والمناجم، التقرير السنوي 2022، ص 32. حسب ما يبين الجدول فإن مساهمة سنيم في إيرادات ميزانية الدولة ارتفعت خلال السنوات الست الماضية من 6% إلى 22%، وتشمل هذه المساهمة بشكل رئيسي الضريبة الموحدة والأرباح الموزعة، وترجع الزيادة منذ عام 2020 إلى الإيرادات الناتجة عن توزيع الأرباح.

الجدول (02): حصة الدولة الموريتانية في توزيع الأرباح 2019 - 2022

السنة	2019	2020	2021	2022
المبلغ بمليون أوقية جديدة	1651,6	5011	12389	5478

المصدر: الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم، التقرير السنوي 2022، ص 32. إذا استثنينا عامي 2020 و 2021، الذين بلغت مساهمة صادرات سنيم فيهما على التوالي 43% و 58% من إجمالي الصادرات الوطنية، اتسمت مساهمة الشركة في الصادرات باستقرار نسبي حول متوسط 32% من إجمالي الصادرات الوطنية.

وقد نحت حصة أنشطة سنيم في الناتج المحلي الإجمالي نفس المنحى، حيث شهدت هذه الحصة خلال الفترة 2017 - 2019، نمواً معتدلاً في مساهمة الشركة في تكوين الثروة الوطنية، إذ ارتفعت من 6% إلى 8%، وشهد هذا المؤشر ارتفاعاً ملحوظاً في عامي 2020 و 2021، ليصل على التوالي إلى 11% و 15%، قبل أن يتراجع إلى 9% عام 2022.

2. العائدات الضريبية للشركة الوطنية للصناعة والمناجم:

تلعب الضريبة دوراً مهماً في تمويل الخزينة العامة خاصة في اقتصاديات الدول النامية، وفي هذا الصدد فإن الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) تدفع مبالغ لا يستهان بها في هذا المجال، حيث أنها كانت تدفع مبلغ يتراوح ما بين 600 - 800 مليون أوقية قديمة سنوياً، إلا أن

الاتفاقية التي تم عقدها في يناير 1995 بين الدولة الموريتانية والشركة نصت أن " الشركة تخضع لضريبة عن الأرباح الصافية تقدر ب 40% "، كما تدفع الشركة ضريبة 80 أوقية قديمة عن كل طن من الحديد مصدر إلى الخارج، مع الاستمرار في دفع المبلغ السنوي المقطوع كضريبة على المنافع العينية التي يتمتع بها الموظفون بواقع 50 أوقية قديمة، وقد نص التعديل على أن لا يتعدى مجموع الضرائب السنوية التي تدفعها الشركة نسبة 10% من المبيعات السنوية للحديد الخام للسنة المعنية، كما تخضع الشركة لضريبة على رواتب وأجور الموظفين، وأخرى على المبيعات والبنود.

وبلغت الضرائب في مجملها في العام 1996 ما يناهز 4 مليارات أوقية قديمة، ولم تدم هذه الاتفاقية طويلا حيث تم استبدالها سنة 1998، وتضمن الاتفاقية الجديدة للشركة حرية التصرف في أعمالها، كما تعفي الشركة من جميع الرسوم الجمركية والضرائب المماثلة ومن كل الضرائب والرسوم والإثلاث بكافة أنواعها.

وبالمقابل تدفع الشركة للدولة إتاوة سنوية تقدر ب 10% من رقم الأعمال المنجزة عن تصدير خامات الحديد، وتساهم الشركة حاليا ب 14% من الناتج الداخلي الخام، و 45% من حجم التحويلات، بالإضافة إلى 15% من ميزانية الدولة¹.

3. مساهمة الشركة الوطنية للصناعة والمناجم في التشغيل والتكوين:

شهد عدد المشتغلين في صناعة استخراج الحديد تطورا ملحوظا، ففي سنة 1974 بعد تأميم الشركة، أوكلت إدارة أعمال المناجم إلى مؤسسة كومينور، والتي كانت تستخدم 4402 موظفا من بينهم 78% من الموريتانيين، لا تتجاوز نسبة الكوادر منهم 5%، وفي ميناء نواذيبو المنجمي كان يعمل في سنة 1975 نحو 3698 عاملا، كان من بينهم ثلاثة كوادر موريتانيين، و 511 من المهن الفنية.

وقد تطور عدد المشتغلين في سنة 1977، حيث وصل 7300 عامل، إلا أن هذا العدد شهد انخفاضا ملحوظا في الفترة ما بين 1977 - 1980، ليصل 5700 عامل، وهو ما يمثل تقريبا نسبة 22% من مجموع العمال، ويعود هذا التراجع بالدرجة الأولى إلى تراجع الإنتاج الاستخراجي.

¹ المختار ولد محمد عبد الله، الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لتصدير الحديد في موريتانيا "حالة ولاية داخلت نواذيبو كنموذج"، بحث لاستكمال متطلبات الماستر، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015، ص 72.

بعد ذلك شهدت صناعة استخراج الحديد انتعاشة بعد تدشين مصنع قلب الغين 1984، ليرتفع عدد العاملين في الشركة إلى 6095 عامل، يبلغ عدد الموريتانيين منهم 5980 عامل، وهو ما يمثل قرابة 98% من مجموع عمال الشركة في تلك الفترة.

وتعتبر الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) أكبر مشغل بعد الوظيفة العمومية، حيث توفر حاليا 6794 وظيفة مباشرة، تمثل نسبة العمال البسطاء والمتوسطين منها 93%، ويعمل في ازويرات 68% من هؤلاء العمال¹، ويمثل النساء نسبة 7,5% من عمال سنيم سنة 2022.

وتتوفر سنيم على مركز للتكوين التقني في مدينة ازويرات- تم بناءه سنة 2011 - مجهز بمختلف الأجهزة الضرورية وتقدر طاقته الاستيعابية ب 300 طالب، ويتولى هذا المركز عمليات تكوين العمال في مختلف الاختصاصات (الكهرباء- الميكانيك...)، كما يسمح التكوين لعمال الشركة باكتساب خبرات جديدة، تمكنهم من مسايرة التقدم العلمي والتكنولوجي في إطار ما يعرف بإعادة تأهيل عمال سنيم²، ويستقبل هذا المركز الطلاب الحاصلين على شهادة ختم الدروس الإعدادية، ويتم تكوينهم للحصول على شهادة الكفاءة المهنية (CAP)، أو شهادة التقني العالي (BTS).

4. القطار المنجمي ودوره الاقتصادي:

تمتلك شركة سنيم قطارا منجميا خاصا بها يربط المناجم في ازويرات بالميناء المعدني في نواذيبو على طول 700 كم، وتمر على السكة الحديدية يوميا 6 قطارات (ثلاثة فارغة وثلاثة مشحونة)، ورغم الظروف المناخية القاسية لمنطقة السكة الحديدية، تضمن الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم (سنيم) صيانة وسائل النقل المستخدمة عليها (العربات، القاطرات، ... إلخ)، حيث تتم مراقبة حركة مرور القطارات بشكل آني عبر محطة المراقبة المتواجدة في مدينة نواذيبو. وبفضل الاستثمارات المنجزة في إطار برنامج تكوير وتحديث الشركة، لاسيما الاستثمار المتعلق بتشغيل محطة جديدة بنواذيبو لتفريغ العربات، بلغت كمية الخام المنقول 12,79 مليون طن عام 2022، مقابل 12,61 مليون طن عام 2021.

¹ لالة بنت محمد عبد الله، دور النشاط المعدني في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقتي الزويرات ونواذيبو وظهيرهما، بحث لاستكمال متطلبات الماستر، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015، ص 103.

² محجوبة بنت محمد، النشاط التعديني وأثره على تركيز السكان في ولاية تيرس زمور، بحث لاستكمال متطلبات الماستر، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015، ص 86.

الجدول (03): تطور كمية المعدن المنقولة عبر السكة الحديدية

السنة	الحمولة بالطن
2018	10.710.343
2019	12.196.499
2020	12.515.312
2021	12.617.808
2022	12.790.213

المصدر: الشركة الوطنية للصناعة والمناجم، التقرير السنوي 2022، ص 24.

ويعتبر القطار المنجمي وسيلة مهمة لدعم الاقتصاديات المحلية لسكانة القرى الواقعة على خط السكة الحديدية الرابط بين مدينتي ازويرات ونواذيبو، حيث لا يختلف اثنان من ساكنة هذه القرى على الدور الكبير الذي يلعبه القطار المنجمي في إنعاش الاقتصاد المحلي، من نقل للبضائع والمسافرين من وإلى هذه المناطق، كما يساهم في انتعاش التجارة ونقل المواشي، وذلك في ظل غياب أي وسيلة للنقل بين هذه المناطق، وإن وجدت فهي بحسب الساكنة لا تلبي كل الاحتياجات، كما لا يمكن أن تقارن بالقطار لا على صعيد الحمولة، أو التكلفة التي تعد بالمجان في أغلب الأحيان، ولقد اتضح ذلك جليا في ظل الأزمة التي وقعت بين الشركة وعمالها في الأشهر الأولى من سنة 2015.

5. الميناء المعدني:

يقع الميناء المعدني في منطقة كانصادو بمدينة نواذيبو، ويتميز بتوفير بنية تحتية ومنشآت خاصة بمعالجة المعادن وخاصة خامات الحديد القادمة من مناجم ازويرات عبر السكة الحديدية. ومع مطلع سنة 2014، قامت الشركة الوطنية للصناعة والمناجم سنيم، بافتتاح ميناء معدني جديد بالقرب من الميناء المعدني القديم بمنطقة كانصادو، حيث يعتبر أكبر ميناء معدني في البلاد، وقد بلغت تكلفة إنشائه حوالي 210 مليون دولار، تولت شركة سنيم نسبة 43% من تكلفته، والمستثمرون الأجانب النسبة المتبقية، ويتوفر الميناء الجديد على جسر بطول 800م، ورصيف طوله 403م¹، ويتضمن كذلك شاحنا يمكن أن ينقل عشرة آلاف طن من خامات الحديد في ساعة واحدة للسفن الراسية بالميناء، ويعتبر حلقة مهمة في سلسلة القيمة لشركة سنيم، حيث يتم انطلاقا من هذا الميناء شحن جميع الإنتاج التجاري للشركة نحو العملاء، ويتم نقل الكميات المصدرة من

⁽¹⁾ أبو المعالي الحسن ديدي، منطقة نواذيبو الحرة وانعكاسها على مدينة نواذيبو، أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الدكتوراه في الجغرافيا الحضرية، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2023-2024، ص 123.

الحديد عبر الميناء المعدني على دفعات يحدد عدد السفن المخصصة لها تبعا لحجم الكميات المراد نقلها للخارج، حيث بلغ عدد السفن 82 سنة 2018، والتي بلغ حجم كميات الحديد المصدرة فيها حوالي 11,270 مليون طن، ليبدأ بعد ذلك عدد السفن في التزايد تبعا لزيادة الكميات المصدرة، حيث بلغ عددها 102 سفينة سنة 2021.

ومنذ يناير 2022، أصبح ميناء سنيم الحالي قادرا على شحن البواخر بـ 230 ألف طن، بفضل أعمال التجريف في قناة الوصول الخاصة به، وتتماشى الزيادة في قدرة الميناء المعدني مع الأهداف التطويرية لشركة سنيم والتزاماتها البيئية (الحد من البصمة الكربونية والحفاظ على التنوع البيولوجي البحري).

وتعزيزا للسياسة التي تنتهجها الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم (سنيم)، تم تدشين خط شحن معدني جديد للسفن بالميناء المعدني بنواذيبو، ويتكون هذا الانجاز من جرافة دورانية بسعة 6000 طن للساعة، وسلسلة من الأشرطة المعدنية الناقلة بطول 1200 متر، إضافة إلى مجموعة من أبراج التحويل بتكلفة إجمالية تبلغ 15,6 مليون يورو، بتمويل ذاتي كامل من شركة سنيم، ويهدف هذا المشروع إلى مضاعفة وتيرة شحن البواخر، ودعم تأمين ومرونة عمليات الشحن، بالإضافة إلى المساهمة في تهيئة منشآت الشركة لزيادة الإنتاج المرتقبة.

الجدول (04): تطور مبيعات الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) 2018-2022

السنة	الحمولة بالطن	عدد السفن الناقلة
2018	11.269.527	82
2019	12.017.745	97
2020	12.501.089	100
2021	12.701.205	102
2022	13.349.180	99

المصدر: الشركة الوطنية لصناعة والمناجم، التقرير السنوي 2022، ص 25.
وتتأقلم السياسة التجارية لشركة سنيم باستمرار مع التغيرات في أسواق خام الحديد، فبعد عقود من العلاقات الوثيقة مع الزبناء على مستوى سوقها التقليدي، تمكنت سنيم من تعزيز موقعها في أسواق البلدان الناشئة في آسيا وأستراليا وشمال إفريقيا.

المحور الثاني: الآثار الاجتماعية لاستغلال مناجم الحديد في موريتانيا

يلعب استغلال مناجم الحديد دورا كبيرا في الحياة الاجتماعية في موريتانيا، ونظرا للأهمية التي توليها الشركة الوطنية للصناعة والمناجم لهذا الجانب، فقد أنشأت مؤسسة خاصة بتدخلاتها في الجانب الاجتماعي تسمى " مؤسسة خيرية سنيم ".

1) مؤسسة خيرية سنيم:

تعتبر مؤسسة سنيم الخيرية من أبرز المؤسسات التي تقوم بمساهمات كبيرة في مجال التنمية على مستوى التراب الوطني، على الرغم من أنها أنشئت من أجل تنمية قرى وبلدات رواق السكة الحديدية للشركة.

وقد أنشأت طبقا للمادتين 6 و 10 من دستور 20 يوليو 1991، الذي يكرس حرية تكوين الجمعيات، وقد حصلت على وصل وزارة الداخلية رقم 200 بتاريخ 11 ابريل 2007، وذلك من أجل مزاولة أنشطتها ذات الطابع العمومي.

وتم بموجب المرسوم الوزاري رقم 2012 - 151 الصادر بتاريخ 31 مايو 2012، إعلانها كجمعية عمومية ذات نفع عام، مما يمكنها من الاستفادة من المساعدة والدعم من السلطات الإدارية وفقا للنصوص التنظيمية الخاصة بالجمعيات المعترف بها ذات نفع عام. وتسعى الخيرية لأن تكون أداة حقيقية لخدمة التنمية المستدامة على المستوى المحلي (مناطق استغلال مناجم الحديد) والوطني من خلال نهج متكامل يحدد فرص الاستثمار، ويسلط الضوء على الإمكانات المحلية للنمو الاقتصادي.

وقد امتدت تدخلات خيرية سنيم لتشمل مناطق وطنية أخرى بعيدة عن مجال تدخلاتها في أقصى جنوب البلاد وشرقها (النعمة، لعيون، كيفه، تجكجة، أطار ...)، وعلى الرغم من ذلك فإن الاهتمام الأكبر يبقى لصالح المناطق الواقعة في رواق السكة الحديدية، حيث ارتفعت الميزانية المخصصة لمختلف تدخلات الخيرية في الممر المعدني من 361 مليون أوقية قديمة عام 2010 إلى 495 مليون أوقية قديمة عام 2011، بزيادة قدرها 37%¹.

2) مساهمة خيرية سنيم في توفير الخدمات:

تشكل هيئة سنيم الخيرية الذراع الاجتماعي للشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم)، وتعتبر اليوم أحد الفاعلين الأساسيين في مجال التنمية الاجتماعية والاقتصادية في موريتانيا، خاصة في

¹ خيرية سنيم، التقرير السنوي 2011، ص 6.

ازويرات ونواذيبو، حيث تساعد السكان المحليين الذين يعيشون على طول ممر السكة الحديدية وعلى المستوى الوطني في الولوج إلى الخدمات الأساسية. تعمل في تناغم وتكامل وانسجام مع السلطات المحلية، التي تعتبر الشريك الأول للخيرية والوكيل المباشر للمواطنين، والمعبر الرسمي عن حاجاتهم وأولوياتهم في إطار الاستراتيجيات الوطنية لمحاربة الفقر والجهل والمرض المعتمدة من طرف الدولة. كما تسعى من خلال ما تتجزه إلى ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، من خلال إنجاز مشاريع تنمية مفيدة تمس حياة الساكنة بشكل مباشر، وقد ساهمت خيرية سنيم منذ إنشائها في توفير الكثير من الخدمات في المجالات التالية:

2 - 1. خدمات التعليم:

بما أن التعليم هو رافعة المجتمعات وممكن تقدمها وتطويرها، فإن قطاع التعليم يحتل جزءا كبيرا من الميزانيات المخصصة من طرف خيرية سنيم، وقد أدى دعم قطاع التعليم إلى إنشاء وتوسعة وتجديد العديد من المؤسسات التعليمية ورياض الأطفال، بما يمثل 57% من النفقات المخصصة لهذا القطاع سنة 2023 أي ما يعادل 52,3 مليون أوقية. وفي هذا الإطار فقد أنشأت الخيرية ورمت مدارس وإعداديات وثانويات في جميع أحياء نواذيبو (ثانوية نواذيبو رقم (1)، ثانوية نواذيبو رقم (2)، ثانوية الوفاء بالترحيل، علاوة على ذلك قامت الخيرية ببناء وترميم المركز الثقافي والإعدادية في بولنوار. ويبين الجدول التالي تطور أعداد مدارس التعليم الأساسي في ولاية داخلت نواذيبو في الفترة من 2018 حتى 2022، وقد لعبت خيرية سنيم دورا كبيرا في رسم هذا التطور من خلال جهودها في دعم التعليم بصورة عامة، والأساسي بشكل خاص.

الجدول (05): تطور مدارس التعليم الأساسي في نواذيبو 2018 - 2022

	2017 - 2018	2018 - 2019	2019 - 2020	2020 - 2021	2021 - 2022
المدارس	38	38	38	39	40
المدارس المكتملة	35	35	35	35	36
الفصول الدراسية	251	253	343	341	371

المصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديموغرافي والاقتصادي، داخلت نواذيبو بالأرقام، 2018-2022، ص 19.

أما على مستوى التعليم الثانوي في داخل نواذيبو، فقد تطور عدد الفصول الدراسية من 133 فصل دراسي سنة 2018 إلى 172 فصل دراسي سنة 2022، وقد لعبت خيرية سنيم دورا كبيرا في هذا التطور من خلال إعادة تأهيل الفصول الدراسية في الثانوية رقم 2 في مدينة نواذيبو، وإعادة تأهيل 8 فصول دراسية لصالح الثانوية رقم 3 في نفس المدينة، بالإضافة إلى بناء فصول دراسية في إعدادية بولنوار.

وفي إطار دعمها وانسجاما مع الأولوية التي تعطيها سلطات البلد للتعليم من خلال الإعلان عن المدرسة الجمهورية، قامت خيرية سنيم بتوفير 1500 طاولة مدرسية لصالح الإدارة الجهوية للتعليم بولاية داخل نواذيبو، كما قامت الخيرية في نفس الفترة بتوزيع 10.000 بدلة من الزي المدرسي.

أما على مستوى تدخلاتها في مجال التعليم على مستوى ولاية تيرس زمور، فقد لعبت تدخلات خيرية سنيم دورا مهما في تعزيز ودعم المنظومة التعليمية في الولاية، متمثلا ذلك في إعادة تأهيل وتجهيز الثانوية الفنية في بلدية ازويرات، وتوسعة وإعادة تأهيل المدرسة رقم (5).

وفي إطار الجهود التي تبذلها الخيرية لمساعدة تلاميذ المدارس وزعت في دجمبر 2021 قرابة 1944 حقيبة مدرسية على المدارس الابتدائية في ولاية تيرس زمور، كان نصيب مدينة ازويرات منها 1350 حقيبة مدرسية، وقد بلغ مجموع تدخلات خيرية سنيم في توفير خدمات التعليم 423,87 مليون أوقية جديدة خلال الفترة 2007-2023¹.

إذا نظرنا إلى تدخلات خيرية سنيم في مجال التعليم على مستوى منطقتي تيرس زمور وداخل نواذيبو، فنلاحظ أن الخيرية قد قدمت جهودا جبارة بغية تحسين خدمات التعليم في المنطقتين، من خلال المنشآت التعليمية والمراكز الثقافية التي تم تجهيزها بالمعدات والوسائل الضرورية، والعناية التي تم منحها للمتمدرسين من أبناء الأسر الأكثر هشاشة في المنطقتين، من خلال توفير الزي والحقائب المدرسية، إلا أن هذه الجهود ما زال سكان هذه المناطق يتطلعون إلى زيادتها في المستقبل.

2 - 2. خدمات المياه:

منذ بداية استخراجها لخامات الحديد من كدية الجل وبعض القلابة الأخرى، قامت شركة حديد موريتانيا (ميفرما) بالبحث عن المياه من أجل توفيرها للعمال والمصانع، واقتصر البحث في البداية على المناطق القريبة من حيز العمل، ثم في الأودية المحيطة به، وبعد الحصول على

¹ (التقرير السنوي لخيرية سنيم، 2023، ص 18)

المياه تم وضع شبكات تربط هذه الآبار الآلية بمناطق استهلاك الماء المختلفة، ومنذ سنة 1957 وحتى 1962 ظل الاستهلاك الإجمالي للمياه متوازنا ومتكافئا مع ما تنتجه هذه الآبار، إلا أنه مع بداية سنة 1963 شهد الإنتاج المحلي تراجعاً أما الاستهلاك الإجمالي، مما دفع بشركة حديد موريتانيا (ميفرما) أن تستخدم الصهاريج لجلب المياه من منطقة بئر أم اكرين، وكذلك بحيرة بولنوار عن طريق القطار لتغذية مدينة ازويرات بمياه الشرب، ومع تطور عدد السكان في المدينة اضطرت شركة (ميفرما) حينها وشركة (سنيم) بعدها إلى إنشاء شبكة مياه التوزيع عن طريق آبار تم اكتشافها في ضواحي مدينة ازويرات.

ومع مرور الوقت وزيادة الطاقة الاستهلاكية للمياه قامت شركة (سنيم) بالبحث عن مناطق أخرى لتعزيز طاقتها الإنتاجية من المياه، الشيء الذي تمثل في اكتشاف مناطق للإنتاج نذكر منها:

- ✓ **منطقة واد اللقاح:** يقع هذا الوادي جنوب شرق كدية الجل، وقد بدأ استغلاله سنة 1973¹، وهو يشكل مع الحافة الشمالية للكدية المصادر المحلية للتموين بالمياه العذبة في مدينة ازويرات، وتقدر طاقة إنتاجه بحوالي 1500 طن لليوم.
- ✓ **منطقة لخريزة:** توجد بهذه المنطقة 6 آبار، وهذه الآبار تدفع الماء باتجاه محطة الضخ المكونة من خزان حديدي بسعة تساوي 600م³، وثلاث مولدات للضخ.
- ✓ **منطقة واد تازاديت:** تكون هذا الوادي نتيجة اتحاد مجموعة من الروافد الصغيرة، تسير عبر خنادق تازاديت لتصب في منخفض محلي معروف باسم "إكرارتازاديت"، ويتم استغلال عدد من آبار تازاديت في مناطق إنتاج المعدن.
- وتوفر هذه المناطق الثلاثة الإنتاج اليومي من المياه الذي يصل غالبا إلى 3000م³ من المياه الصالحة للشرب، يتم توزيعها عن طريق شبكة توزيع داخل المدينة بالنسبة لأحياء الشركة التي ترتبط بهذه الشبكة، وعن طريق الصهاريج بالنسبة للأحياء الشعبية التي لا تتوفر على ربط بالشبكة، وتدار هذه الصهاريج من طرف بلدية ازويرات.
- ✓ **منطقة طارف اسره:** تقع هذه المنطقة على بعد 45 كم شمال مدينة ازويرات، وقد بدأت عملية حفر الآبار الآلية بها منذ 1979 إلى 1980، لتزويد مشروع قلب الغين بالمياه، وتنتمي هذه المنطقة لحوض تاودني، وترتبط بمناطق الصدوع في تغذية طبقاتها الخازنة

¹ محمد باب إبراهيم، المياه في مدينة ازويرات "المشاكل والحلول"، بحث لاستكمال متطلبات الماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط العصرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015-2016، ص 64.

للمياه ومخزون هذه الطبقة يقدر ب 9.000.000 م³، وهي كمية تقل عن متطلبات قلب الغين المقدرة بحوالي 15.000.000 م³.

ولأن الوصول للمياه يعتبر أولوية ضمن برامج الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم (سنيم)، نظرا لأن الوصول إليها يساهم في استقرار السكان في المناطق التي تعاني انخفاضاً ديموغرافياً، قامت شركة (سنيم)، بتزويد مدينة افديرك بالمياه الصالحة للشرب بشكلائم ومجاني.

كما أدى البرنامج الذي تم إطلاقه في 2022، لتحديد الحفر القابلة للاستغلال إلى إنجاز 34 بئراً تعمل بالطاقة الشمسية في نهاية 2023 مزودة بسبعة خزانات كبيرة كان لها الأثر الكبير في تلبية احتياجات السكان بشكل فعال، خاصة في فترات ارتفاع درجة الحرارة.

وتوفر هذه الإنجازات نقاط أساسية لسقاية الإبل والحيوانات الأخرى، من أجل تأمين الانتاج بعيداً عن السكة الحديدية، كما ساهمت في خفض الضغط على القطار الذي كان يجلب المياه من بولنوار لسقاية هذه المواشي، وسيتواصل هذا المشروع حتى الوصول إلى بير أم اكرين¹.

وبفضل هذا البرنامج تم إنتاج 522.899 م³ من المياه سنة 2023 دون احتساب إنتاج محطة التحلية في ازويرات التي بلغت طاقتها الإنتاجية 1.080.000 م³.

كان لهذا البرنامج كبير الفضل في تخفيف الضغط على صهاريج شركة سنيم التي تزود المناطق على طول السكة الحديدية بالمياه، وإدخال الزراعة المكثفة كمكون جديد في نشاطات خيرية سنيم.

وتجدر الإشارة إلى أن 39,86% من الميزانية السنوية المخصصة للوصول إلى المياه تم رصدتها لحفر آبار جديدة، وتوسعة قدرات محطة معالجة المياه في ازويرات، فيما خصصت 10,54% من الميزانية للبحث عن نقاط مياه جديدة، وفي هذا الإطار بالذات فقد عملت خيرية سنيم وإدارة البحث الجيولوجي في شركة سنيم على تكثيف جهود التنقيب عن المياه، حيث تمكنت من توفير المياه لجميع التجمعات السكانية والمنمين على طول رواق السكة الحديدية، وذلك بإنجاز 40 بئراً مائياً إلى حد الآن، بعضها في منطقة اتميمشات (أدكار 15 كم شمال بلدية تميمشات)، ومنطقة بنعميرة ومنطقة (قلب عيشة)، وكل هذه الانجازات حسب القائمين عليها تمت في مناطق تفتقر للمياه السطحية وحتى الجوفية².

¹ محمد محمود سيدينا، المدير العام لهيئة سنيم الخيرية، مقابلة مع قناة الموريتانية، 2023/07/23

www.fondationsnim.com

² محمد المختار حسني عباده، المدير العام لهيئة سنيم الخيرية، خلال حفل تدشين 6 آبار ارتوازية باتميمشيات، 2025/05/23.

ويعول على تدخلات خيرية سنيم في مجال المياه الرعوية في إبقاء الرعاة ومواشيهم في مأمن من السكة الحديدية، حيث عبر المنمون في منطقة آجواييط، وقلب عيشة، وبنعمرة، عن اعتزازهم بهذه المنشآت وتمينهم لها، لما وفرته عليهم من جهد التنقل بمواشيهم إلى السكة من أجل الحصول على المياه التي توفرها لهم الشركة عن طريق القطار، مستحضرين أنهم لم يكونوا يتصورون وجود أي منهل مياه في المنطقة¹، وقد بلغ حجم تدخلات الخيرية في توفير خدمات المياه 651,51 مليون أوقية جديدة خلال الفترة 2007-2023.

2 - 3. الخدمات الصحية:

تبذل الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) جهودا كبيرة في المجال الصحي، حيث تتوفر على مركز صحي مجهز بما يلزم من معدات، ومستودع صيدلي في الحي العمالي بمدينة ازويرات، يقدم هذا المركز خدماته الطبية من كشف ومعالجة وجراحة ... إلخ، لعمال الشركة وساكنة تيرس زمور بشكل عام، بشكل مجاني أو بأسعار رمزية. وقد أنشأت الشركة أكبر مستشفى في مدينة نواذيبو فيما يعرف محليا ب (طب كوبا)، كما قامت بترميم المركز الصحي لمقاطعة نواذيبو، وبتريم وتأهيل المركز الصحي للأم والطفل (الحنفية) (5) لصالح البلدية.

ونفذت الشركة الوطنية للصناعة والمناجم عن طريق خيرية سنيم تدخلات في القرى والتجمعات المحلية الواقعة على طول السكة الحديدية، حيث قامت بترميم وتأهيل المركز الصحي في بولنوار، وتزويده بمعدات وسيارتي إسعاف.

وقد بلغ حجم تدخلات خيرية سنيم في القطاع الصحي 975,99 مليون أوقية جديدة في الفترة من 2007 وحتى 2023، أي ما يمثل 26,87% من مجموع التدخلات خلال هذه الفترة.

2 - 4. خدمات الطاقة:

تعمل الشركة الوطنية للصناعة والمناجم عن طريق قطاع الطاقة، وبتنفيذ من مصلحة الكهرباء، بتوفير وتوزيع الكهرباء على مختلف أحياء مدن ازويرات وفديرك في تيرس زمور.

وتستفيد مدينتا ازويرات و فديرك من خدمات الكهرباء عن طريق الشبكة العامة ذات التوتر المتوسط 5500 فولت، وخدمات الجهد المنخفض 380-220 فولت للمنازل، شأنها في ذلك شأن أحياء الشركة المتواجدة في مدينتي ازويرات و نواذيبو، وكان ذلك مع بداية نشأة الشركة، ومع

على الرابط www.fondationsnim.com

¹ (مقابلة مع: الكوري دريوج، منمي بمنطقة آجواييط، بلدية اتميمشات، 2025/04/25). على الرابط

www.fondationsnim.com

تقدم عمليات الإنتاج في الشركة وزيادة القدرة الاستهلاكية من محطة الطاقة الكهربائية الحرارية الوحيدة، ومع نمو وتوسع مدينة ازويرات، عمدت الشركة إلى إنشاء محطة كهربائية في قلب الغين لزيادة الطاقة الإنتاجية من الكهرباء وسد العجز الحاصل على مستوى التوزيع، وكان ذلك مع بداية التسعينات، إلا أن الزيادة على الطلب في الطاقة أجبر الشركة على توسيع وتقوية مجاري إنتاجها للطاقة متمثلة في محطة الكهرباء الحديثة الموجودة حاليا في الخدمة.

ويعد استخدام الطاقات البديلة حلا لأزمة الطاقة في المناطق الصحراوية، حيث تتوفر الطاقات البديلة بكميات هائلة في موريتانيا، مما يوفر حلا مستداما لاحتياجات الساكنة المحلية من الطاقة المعزولة عن الشبكات الكهربائية، ومن هذا المنطلق أطلقت خيرية سنيم مبادرة لتوزيع معدات الإنارة بالطاقة الشمسية على الأسر المعزولة عن السكة الحديدية، حيث تمكن بالإضافة إلى إنارة المنازل من تشغيل أجهزة التلفزيون وشحن الهواتف المحمولة، وقد خصصت ميزانية قدرها 728.000 أوقية جديدة، لتوفير الطاقة الشمسية في قرى بنعميرة، شوم، اتواجيل، وبعض قرى مقاطعة بير أم اكرين، وقد بلغ مجموع تدخلات خيرية سنيم في توفير خدمات الطاقة ما مجموعه 105,53 مليون أوقية جديدة من مجموع التدخلات خلال الفترة 2007 - 2023.

وبإنجاز مجمع لتوليد الطاقة المنتجة بقدرة 4,4 ميغاوات بنواذيبو، ومجمع للطاقة الشمسية بقدرة 3 ميغاوات في ازويرات، تكرر الشركة الموريتانية للصناعة والمناجم (سنيم)، دمج الطاقات المتجددة في مزيج الطاقة كاختيار استراتيجي، وقد بلغت نسبة الطاقة المتجددة سنة 2022 (3,6%) من مجموعة الطاقة المنتجة من طرف سنيم¹.

وتبقى خدمات الطاقة إلى جانب خدمات التعليم والصحة والمياه، من الخدمات ذات الأهمية لدى سكان مناطق استغلال مناجم الحديد، باعتبار الطلب المتزايد عليها، وهو ما جعل الشركة تعمل على توفير مصادر طاقة بديلة، مساهمة في التخفيف من الضغط على محطات الطاقة الكهربائية، من خلال دمج الطاقات المتجددة في مزيج الطاقة، وجعله من بين استراتيجياتها المستقبلية.

2 - 5. خدمات المواصلات والنقل والشبكة الطرقية:

تعتبر السكة الحديدية الشريان الوحيد الذي يربط بين مناطق الإنتاج والتسويق (ازويرات - نواذيبو)، ويمر على هذه السكة ثلاث قطارات يوميا محملة بالمعدن متوجهة إلى مدينة نواذيبو، وثلاثة قطارات فارغة في طريق عودتها إلى مدينة ازويرات، وتوفر هذه القطارات خدمة النقل

¹ الشركة الوطنية للصناعة والمناجم، تقرير المسؤولية الاجتماعية، 2022، ص 52.

المجاني للسكان وبضائعهم في تيرس زمور والمناطق الواقعة على طول السكة من ولايتي آدرار وداخلت نواذيبو¹.

وفي إطار شبكات الطرق قامت الشركة الوطنية للصناعة والمناجم بإنشاء العديد من الطرق المعبدة داخل ولاية تيرس زمور وخاصة داخل مدينة ازويرات، ويعتبر الطريق الرابط بين مدينتي ازويرات وفديرك أحد أبرز هذه الطرق، بالإضافة إلى الطرق الرابطة بين مواقع الإنتاج (ازويرات- قلب الغين 25 كم، ازويرات- لمهودات 55 كم، ازويرات- To14 (15 كم)).

وفي جانب خدمات النقل الجوي، فقد قامت شركة سنيم منذ بداية 2012 بتوقيع اتفاقية مع الدولة بدراسة وتمويل وتنفيذ إعادة هيكلة مطار ازويرات، حيث أشرفت على بناء محطة لنقل الركاب بمواصفات فنية حديثة تتوفر على قاعة للمغادرة وأخرى للاستقبال، إضافة لنقاط للمراقبة الأمنية وشبكة معلوماتية... إلخ.

كما قامت أيضا بتأهيل المدرج وإنشاء موقف للسيارات، وربط المطار بشبكة طرق المدينة، ولا شك أن هذا المطار بعد اكتماله سيفتح بوابة ازدهار لمدينة ازويرات والولاية بشكل عام عن طريق ربطها بالعالم الخارجي.

2 - 6. الخدمات السكنية:

تتوفر الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) على أحياء سكنية لعمالها في مدينتي ازويرات (اديار البيظ، حي كوريا، M4 - M5 - M6) ونواذيبو (حي كانصادو)، وقد قامت الشركة في السنوات الماضية بإنشاء 300 وحدة سكنية لتطوير البنية العمرانية لمدينة ازويرات، بالإضافة إلى توفير السكن لعمالها، وإلى جانب هذه الوحدات قامت الدولة بإنشاء نفس العدد من الوحدات السكنية لإقامة موظفي الدولة، مما أكسب هذا الحي السكني تسميته المحلية (Six cent logements).

خاتمة

يتضح مما سبق الأثر الكبير لاستغلال مناجم الحديد في التنمية الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا،

حيث أولت الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) الموكلة باستغلال وتصدير خامات الحديد، أهمية كبيرة للجانب الاقتصادي والاجتماعي في سياساتها واستراتيجياتها، ويبرز دورها الاقتصادي في مساهمتها الكبيرة في الاقتصاد الوطني، حيث بلغت مساهمتها في الناتج المحلي

¹ (المرجع نفسه، ص 95).

الإجمالي 9% سنة 2022، وكذلك مساهمتها في ميزانية الدولة من خلال حصتها في توزيع الأرباح والتي بلغت 5478 مليون أوقية جديدة سنة 2022، في حين بلغت مساهمتها في الصادرات 32% سنة 2022.

كما تتجلى الآثار الاقتصادية لاستغلال مناجم الحديد كذلك في دعم سياسة الدولة في التكوين والتشغيل مساهمة في محاربة البطالة، حيث تعتبر الشركة الوطنية للصناعة والمناجم (سنيم) أكبر مشغل بعد الوظيفة العمومية، حيث توفر 6794 وظيفة مباشرة، إضافة إلى الدور الكبير الذي يقدمه القطار المعدني والمتمثل في دعم الاقتصاديات المحلية لسكان مناطق رواق السكة الحديدية.

أما الآثار الاجتماعية لاستغلال مناجم الحديد فتبرز من خلال سياسات الشركة في الجانب الاجتماعي، حيث أنشأت هيئة سنيم الخيرية لتدخلاتها في المجالات الاجتماعية، ودعم سياسة الدولة في هذا الجانب، من خلال توفير الخدمات لسكان مناطق الاستغلال ورواق السكة الحديدية، في مجالات التعليم والصحة والمياه والطاقة...إلخ.

وقد بلغت حصيلة التدخلات العامة لخيرية سنيم خلال الفترة 2007 - 2023 ما مجموعه 3663 مليون أوقية جديدة، كان النصيب الأكبر منها لتوفير خدمات المياه والتعليم والصحة بنسبة 17,93% و 11,67% و 26,87% على التوالي خلال نفس الفترة، مكنت منتحسين ولوج سكان مناطق الاستغلال إلى هذه الخدمات الحيوية.

قائمة المراجع

1. الأطاريح والرسائل الجامعية:

✍ ولد الحسن ديدي أبو المعالي، منطقة نواذيبو الحرة وانعكاسها على مدينة نواذيبو، أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الدكتوراه في الجغرافيا الحضرية، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2023-2024.

✍ بنت محمد عبد الله لالة، دور النشاط المعدني في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لمنطقتي الزويرات ونواذيبو وظهيرهما، بحث لاستكمال متطلبات الماستر، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015.

✍ بنت محمد محجوبة، النشاط التعديني وأثره على تركيز السكان في ولاية تيرس زمور، بحث لاستكمال متطلبات الماستر، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015.

✍ ولد محمد عبد الله المختار، الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لتصدير الحديد في موريتانيا"حالة ولاية داخلت نواذيبو كنموذج"، بحث لاستكمال متطلبات الماجستير، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2014-2015.

✍ إبراهيم محمد باب، المياه في مدينة ازويرات" المشاكل والحلول"، بحث لاستكمال متطلبات الماجستير في الجغرافيا، جامعة نواكشوط العصرية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2015 - 2016.

2. الوثائق والتقارير الإدارية:

- ✍ خيرية سنيم، التقرير السنوي 2011.
- ✍ الشركة الوطنية للصناعة والمناجم، تقرير المسؤولية الاجتماعية، 2022.
- ✍ التقرير السنوي لخيرية سنيم، 2023.
- ✍ الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديموغرافي والاقتصادي، داخلت نواذيبو بالأرقام، 2018 - 2022.

3. المقابلات الإعلامية:

- ❖ محمد محمود سيدينا، المدير العام لهيئة سنيم الخيرية، مقابلة مع قناة الموريتانية، 2023/07/23 www.fondationsnim.com.
- ❖ محمد المختار حسني عبداوه، المدير العام لهيئة سنيم الخيرية، خلال حفل تدشين 6 آبار ارتوازية باتميميشات، 2025/05/23. على الرابط www.fondationsnim.com

قراءة في عمق تحضر الساحل الإفريقي واستغلال مواردها الطبيعية

مختار عبد الله ميغا

طالب دكتوراه: مكونة الجغرافيا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة نواكشوط

ملخص

يعتبر الإنسان عالم مختلف تماما انفصل عن المنظومة البيئية منذ اكتشاف تميزه عن بقية الكائنات الحية، واكتشف الوعي الكامن في كيانه وبدأ باستخدامه وتوظيفه للخروج من أسر الطبيعة، ليصبح متمردا يقف في مواجهتها بشكل عدائي، رغبة في تطويعها، وتسخيرها لخدمته.

فبدأ يصنع لنفسه بيئة أخرى من خلال عمليات الانتقال من مكانه الأصلي إليآخر وتزداد مع الزمن بعدا عن البيئة الطبيعية موظفا في ذلك ما توصل إليه من تقدم في العلوم والمعارف على مختلف الأصعدة ذلك ما نسميه التحضر.

فالتبيعة توفر للإنسان الموارد الأولية فقط وليس غير، فهي لا تطهو له طعاما ولا تعقم له مياهها، ولا تزوده بوسيلة انتقال أسرع من الحصان، ولا تخطط له الملابس ولا تقيم له حفلات وهو في سياق انفصاله عن الطبيعة والابتعاد عن هيمنة إيقاعاتها، أسرف في التفریط والهدر لمواردها، وأسرف كذلك في إلحاقأضرار لا حصر لها بالمنظومة البيئية¹

إن جميع الأنشطة التي نمارسها في حياتنا اليومية أفرادا ومجتمعات لها في النهاية المطاف مردودات على كمية الموارد الطبيعية المتوافرة وعلى جودتها في هذا الكوكب الزيادة السكانية والتوسع في التصنيع وزيادة الطلب على الموارد الخام، تسلط ضغوطا شديدا على هذه الموارد، وتسلط كذلك ضغوطا شديدة على الوضع البيئي².

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين وبعد، عرفت العديد من مدن العالم خلا القرنين الماضيين والقرن الحالي تحولات وتغيرات هامة مست مختلف جوانب

¹ مختار عبد الله، تسيير الموارد الطبيعية على الحدود الموريتانية المالية، ماستر في الجغرافيا، جامعة

نواكشوط 2015-2016، ص 81

² نفس المرجع السابق، ص 82

الحياة الاقتصادية، السياسية، الثقافية، والاجتماعية منها، وقد اهتم الباحثون وعلماء الاجتماع خصوصا فرع علم الاجتماع الحضري بدراسة هذه التحولات والتغيرات باعتبار أن المدينة وحدة اجتماعية تتقاطع داخلها كل الظواهر.

إشكالية البحث:

تتمحور الإشكالية أساسا هنا من يعيق عمليات التطور في البلدان الافريقية عموما ومنطقة الساحل الافريقي على وجه الخصوص؟

هي بلدان تتوفر على موارد هامة من شأنها أن تساهم في تغيير الواجهة لهذه المنطقة الصحراوية الجافة على مر العصور ومع ذلك مازالت عجلة النمو متوقفة لماذا؟ فمن المسؤول المباشر وغير مباشر؟

الفرضيات:

تفترض هذه الدراسة الحصول على اليات من شأنها تغيير الأوضاع وانتزاع المشكلة من جذورها

تفترض هذه الدراسة ان كل مكون من مكونات المجتمع ذكرا كان او انثى يمكن ان يساهم في البناء والتطوير باعتبار ان التحضر مسؤولية الجميع.

أهمية الموضوع:

هذا الموضوع يستمد أهميته لأنه يدعو لخلق نوع من عامل جذب للمدن في منطقة الساحل من خلال استخدام موارد المنطقة في بناء الوطن، وقد انصب اهتمام هذه الدراسة لكونها تركز على المدينة لاعتبارات تتعلق بالتوسع السريع الذي تمثل في الهجرة من الريف الى المناطق الحضرية. ولهذا عمد هذا التقرير على تقسيم الدراسة ذات المنهجية الوصفية والتحليلية إلى ثلاثة محاور رئيسية وهي:

المحور الأول: المفاهيم الأساسية للتحضر والخصائص التنموية في منطقة الساحل

المحور الثاني: التعريف بمنطقة الساحل والامارات والحدود الجغرافية واصل التسمية وكذلك التحولات الأمنية وإشكاليات الحفاظ على المكاسب

المحور الثالث: مدخل إلى الموارد الطبيعية

ويسعى هذا التقرير إلى الإثبات أن التحضر مسألة مبدا وإيمان راسخ في الذهن يتطلب الالتزام بسلوك نمط حياة معين الرامي الى التغيير الجاد والانتقال من مكان إلى مكان آخر.

المحور الأول: المفاهيم الأساسية للتحضر ومدخل إلى الدول الساحل الإفريقي

مفهوم التحضر:

تشير كلمة التمدن أو التحضر إلى التحول السكاني من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية والزيادة التدريجية في نسبة السكان القاطنين في المناطق الحضرية، والوسائل التي تتكيف بها كل مجتمع مع هذا التغيير، وهي العملية التي يغلب عليها طابع تشكيل المدن والبلدات وغدوها أكبر حجما جراء بدئ المزيد من أشخاص في العيش في المناطق المركزية والعمل فيها رغم استخدام المفهومين أحيانا بالترادف. ورد في لسان العرب المحيط أن لفظ حضر من الحضور نقيض المغيب، والحضر خلاف البدوي، ويشق من الحضر "الحاضر" أي المقيم سواء في المدن أو القرى في مقابل "البادي" أي القيم في البادية.

والتحضر كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Urbas وهي مصطلح كان الرومان يستخدمونه قديما للدلالة على المدينة، وخاصة مدينة روما، أما دائرة المعارف البريطانية فقد حددت مصطلح التحضر باعتباره العملية التي يتركز خلالها السكان في المدن أو المناطق الحضرية، تتم هذه العملية بطريقتين متباينتين هما: من خلال زيادة عدد المدن أو الأوساط الحضرية.

من خلال زيادة عدد السكان المقيمين في المناطق الحضرية. ويعرف التحضر بالعملية التي يتم بموجبها إعادة توزيع السكان نتيجة الانتقال الكلي للمجتمع من الأنشطة الأولية إلى الأنشطة الثانوية وما يترتب عن هذا الانتقال من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية، وعملية التحضر مرتبطة أو ملتصقة دوما بعملية التصنيع، فيها عمليتان مستقلتان عن بعضهما البعض فقد نجده في بعض البلدان ولكن لا يوجد بها تصنيع، وقد ظهرت المدن قديما في أوروبا قبل قيام الثورة الصناعية.

وقد حدد جولدن تشايلدن مظاهر التحضر المبكرة في سبعة عناصر هي:

- 1 — الإقامة الدائمة في تجمعات سكانية كثيفة.
- 2 — السكن في المباني ضخمة.
- 3 — العمل في مهن غير الزراعة.
- 4 — فرض الضرائب وتراكم رؤوس الاموال.
- 5 — تطور فنون الكتابة والحساب والهندسة والفلك.

6 — ظهور طبقة حاكمة مهيمنة.

7 — اكتساب القدرة على التعبير الفنية.

8 — نمو التجارة.

أما لويس ورت لا يرى انه يوجد نمط واحد للتحضر، إنما للتحضر سمات تختلف من مدينة لأخرى، وأن تطور المدينة ليس تطورا مفاجئا إنما هو تطور تراكمي تدريجي. وقد حدد ثلاثة خصائص للمدينة هي:

1- تزايد عدد السكان.

2- الكثافة السكانية العالية

3- عدم التجانس بين سكان المدينة.¹

التحضر في منطقة الساحل:

يمكن القول إن دول الساحل تختلف فيما بينها نسبيا فمثلا في موريتانيا تسمى مدن الصفيح بالكرزات سكانها يستخدمون أسماء جميلة لتخفيف الفقر وانتظار وتشريع أحيائهم مع تجاهل من الإدارة العامة المحلية مثل الانتظار "والحي الساكن" لتعزيز الأمل ورفع معنوياتهم في ظروفهم الصعبة.

المحور الثاني: على التعريف بمنطقة الساحل والإمارات والحدود الجغرافية وأصل التسمية

الساحل بشكل عام هو الساحل أو شاطئ البحر ويقصد به المنطقة التي تتلقى فيها الأرض ببحر أو محيط أو الخط الذي يشكل الحدود بين اليابسة ومحيط أو بحيرة. لا يمكن تحديد خط دقيق يمكن تسميته بخط الساحل بسبب وجود مفارقات مصطلح منطقة ساحلية، والذي يشير إلى المنطقة التي يحدث فيها تفاعل العمليات بين البحر والبر. أما الساحل الذي يدور محور الدراسة حوله فهو مفهوم بيئي ومناخي بالامتياز حيث هو منطقة شبه قاحلة في غرب وشمال وسط إفريقيا تمتد من السنغال شرقا إلى السودان. تشكل منطقة انتقالية بين الصحراء القاحلة شمالا وحزام الصحراء الرطبة.

¹ بسام أبو عليان، محاضرة بقسم علم الاجتماع، جامعة الأقصى

تعريف منطقة الساحل:

منطقة الساحل حزام جغرافي يمتد على طول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ويمتد عبر عدد من الدول الإفريقية من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر في الشرق وهي منطقة انتقالية جغرافية، حيث تقع بين المناطق الصحراوية في الشمال والمناطق الاستوائية أو شبه الاستوائية. وتعد منطقة الساحل واحدة من أكثر المناطق تنوعاً واستراتيجياً في القارة الإفريقية.

1 — الإمارات في الساحل:

ضمت منطقة الساحل الإمبراطوريات الإسلامية وقد دمرتها حملات الاستعمار الفرنسي في القرن التاسع عشر، وكذلك إمبراطورية غانا التي ظهرت في القرن الثالث أو الرابع الميلادي ومملكة مالي في منتصف القرن السابع الهجري 13 ميلادي، وإمبراطورية سونغاي في القرن الحادي عشر في محافظة غاو.

أولاً: الساحل الإفريقي في عصور ما قبل التاريخ وبدايات الاستقرار

تشير الأدلة الأركيولوجية إلى أن المجال الساحلي لم يكن دائماً بيئة شبه جافة كما هو اليوم، بل عرف خلال الفترات المطيرة في العصر الهلنستي انتشاراً أوسع للمياه والغطاء النباتي، مما أتاح قيام تجمعات بشرية رعوية وزراعية مبكرة.¹

ومع تزايد الجفاف التدريجي منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، تحولت أنماط العيش نحو الرعي المتنقل والانتشار حول الواحات ومجاري الأودية الموسمية.²

وقد أسهم هذا التحول البيئي في نشوء شبكات تنقل وتبادل مبكرة مهدت لاحقاً لطرق التجارة العابرة للصحراء، التي ستصبح العنصر الحاسم في تاريخ الساحل الاقتصادي والحضاري.³

ثانياً: طرق التجارة العابرة للصحراء ودورها في تشكّل المجال الحضري

ابتداءً من الألفية الأولى للميلاد، تطورت طرق القوافل التي ربطت شمال إفريقيا المتوسطي ببلدان السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى، ناقلةً الذهب والملح والعاج والعبيد مقابل السلع المتوسطية والمعرفة الدينية والثقافية.⁴ وقد أدى هذا التبادل إلى: نشوء مراكز حضرية تجارية على الحافة الجنوبية للصحراء.

¹ McIntosh, S, (2005), Ancient Middle Niger, pp, 42.

² المصدر نفسه، ص: 57

³ Bovill, E (1995). The Golden trade of the Moors, p. 23

⁴ Levtzion, N., & Hopkins, J (2000). Corpus of Early Arabic Sources, p. 11

انتشار الإسلام واللغة العربية وأنماط التنظيم السياسي الجديدة في الساحل.¹
ومن أبرز هذه المدن التاريخية: تمبكتو، وجني، وغاو، وولاتة، التي شكّلت عقداً رئيسية في شبكة التجارة والثقافة الإسلامية في غرب إفريقيا.²
ثالثاً: الممالك والإمبراطوريات الساحلية الكبرى

1. إمبراطورية غانا (القرنان 8-11م)

تعدّ غانا أول كيان سياسي كبير في الساحل الغربي، وقد سيطرت على تجارة الذهب عبر الصحراء، مما وفّر لها ثروة ونفوذاً إقليمياً واسعاً.³ ورغم تراجعها في القرن الحادي عشر، فإنها أرسّت الأسس الاقتصادية-التجارية التي ستبني عليها الإمبراطوريات اللاحقة.⁴

2. إمبراطورية مالي (القرنان 13-15م)

بلغ الساحل ذروة ازدهاره مع قيام إمبراطورية مالي، خاصة في عهد منسا موسى، حيث تحولت تمبكتو إلى مركز علمي وتجاري عالمي يضم مدارس ومكتبات ومؤسسات دينية مزدهرة.⁵
وقد عزز الحج الشهير لمنسا موسى إلى مكة مكانة الإمبراطورية في العالم الإسلامي ووسّع شبكاتها الاقتصادية والثقافية.⁶

3. إمبراطورية سونغاي (القرنان 15-16م)

ورثت سونغاي المجال السياسي والتجاري لمالي، واتخذت من غاو عاصمةً لها، وبلغت أقصى اتساعها في عهد أسكيا محمد قبل سقوطها بعد الغزو المغربي سنة 1591م.⁷
ويمثّل انهيارها نقطة تحول نحو تفكك سياسي وهيمنة شبكات محلية أصغر في الساحل.⁸

رابعاً: الساحل في العصور الحديثة والاستعمار الأوروبي

ابتداءً من القرن التاسع عشر، خضع الساحل للتوسع الاستعماري الأوروبي، خاصة الفرنسي، الذي أعاد تشكيل الحدود السياسية والاقتصادية للإقليم وفق المصالح الاستعمارية.⁹
ومن نتائج المرحلة الاستعمارية:
دمج اقتصاد الساحل في النظام الرأسمالي العالمي كمصدر للمواد الأولية.

¹Insoll, T. (2003). The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa, p. 76

²Conrad, D, (1994). Empires of Medieval West Africa, p. 34

³نفس المصدر، ص: 41

⁴Hunwick, j. (1999). Timbuktu and the Songhay Empire, p. 15.

⁵نفس المصدر، ص: 28

⁶Hunwick, (1999). P. 102

⁷Hunwick, (1999). P. 102

⁸Conrad, 1994, p. 97

⁹Suret-Canal, J. (1971) French Colonialism in Tropical Africa, p. 205.

إضعاف البنى التجارية التقليدية العابرة للصحراء.

رسم حدود سياسية ما زالت تؤثر في عدم الاستقرار الإقليمي حتى اليوم.¹
ومع الاستقلال في ستينيات القرن العشرين، واجهت دول الساحل تحديات بناء الدولة والتنمية في بيئة طبيعية هشة ومتقلبة مناخياً.²

خامساً: التحولات التاريخية المعاصرة

شهد الساحل منذ أواخر القرن العشرين تحولات عميقة تمثلت في:
موجات الجفاف والتصحر وتأثيرها على الاقتصاد الريفي.
تزايد الهجرة الداخلية والخارجية.

تصاعد التوترات الأمنية والصراعات المسلحة في بعض مناطق.
وترتبط هذه التحولات بعوامل تاريخية متراكمة تشمل الإرث الاستعماري، والهشاشة البيئية، وضعف التنمية الاقتصادية، مما يجعل فهم التاريخ شرطاً أساسياً لتحليل واقع الساحل الراهن.³

2 – التسمية:

تعود هذه التسمية حسب المتداول إلى تاريخ قديم قبل مئات السنين حيث تشير الروايات إلى هذه الأراضي أطلقوا عليها تسمية الساحل كدلالة على ساحل الصحراء وليس ساحل البحر، حيث تبدأ جغرافية منطقة الساحل الإفريقي من الشمال مع نهاية جغرافية الصحراء الكبرى وتتوغل جنوباً حتى بداية كم منطقة سفانا العشبية الخضراء. وبالتالي منطقة الساحل الإفريقي هي الفاصلة بين الصحراء الكبرى في الشمال وأراضي السافانا في الجنوب.

3 – جغرافية الساحل:

يمتد الساحل على 5900 كيلومتر {3670 ميل} من المحيط الأطلسي في الغرب إلى البحر الأحمر في الشرق، في حزام يتراوح عرضه من مئات إلى ألف كيلو متر {حوالي 600 ميل}، ويغطي مساحة 3.53.200 كيلومتر مربع {1.178.850 ميل} وهي منطقة بيئية الأراضي العشبية شبه قاحلة والسافانا والسهول والشجيرات الشائكة الواقعة بين السافانا السودانية المشجرة في الجنوب والصحراء الكبرى في الشمال.

¹ نفس المصدر، ص: 233

² Cooper, F. (2009). Africa, Since 1940. P. 78

³ Motimore, M. (2009). Dryland Opportunities, p. 134

وتتضمن دول الساحل الإفريقيو الصحراء عددا من الدول مالي وموريتانيا وبوركينا فاسو والنيجر وتشاد وجنوب السودان واريتريا ونيجيريا وأفريقيا الوسطى والكاميرون وغينيا وأثيوبيا.

3 – التضاريس:

منطقة الساحل منبسطة في الغالب، تقع معظم المنطقة بين 200 و 400 متر {660 و 1.310 قدم} في الارتفاع توجد العديد من الهضاب والسلاسل الجبلية المعزولة في منطقة الساحل، ولكن يتم تصنيفها على أنها مناطق بيئية منفصلة لأن نباتاتها وحيواناتها تختلف عن الأراضي المنخفضة المحيطة.

أما التساقطات المطرية فإنها تتراوح بين 500 و 800 ملم سنويا جنوبا، أما في الشمال فتتراوح ما بين 100 و 200 ملم سنويا.¹

وهناك نوعين من دول الساحل الافريقي حسب التقسيم الجغرافي إلى:

1 - دول الساحل العمق الجغرافي:

جمهورية مالي:

تعتبر دولة مالي من الدول العمق في الساحل الافريقي نظر الموقع الاستراتيجي لا تتوفر على منفذ بحري ومساحتها 1.241231 كلم مربعا وعدد سكانها حسب تعداد 2022 هو 24.478595 مليون نسمة.

ونجد إقليم الشمال الذي يحتوي على كيدال غاو وتمبكتو وإقليم الوسط حيث توجد مناطق موبتسيغو وكوليكورو وإقليم الجنوب الحيوي المشتهر بالزراعة ويضم العاصمة باماكو سيكاسو إضافة إلى منطقة كاييس.

تمتلك مالي واحدا من أكبر مناجم الذهب في إفريقيا مثل منجم ساديو لاومورديلا وتعد صناعة الذهب أحد أهم قطاعات الاقتصاد المالي حيث تشكل حوالي 70% من إجمالي صادرات البلاد. تعتمد مالي على الشركات الدولية لاستخراج الذهب ولكن أيضا توجد عمليات تعدين صغيرة يقوم بها السكان المحليون.²

¹ مادة البحث، صفحة الساحل {إفريقيا} GeoNamesID

² - رجال بوبريك، الجماعات الجهادية ببلاد الساحل بين الولاء الإيديولوجي والانتماء الإثني 2022، ص: 138-151.

2 - دول الحواف الساحلي:

الجمهورية الإسلامية الموريتانية:

تقع موريتانيا غرب إفريقيا ومساحتها 1030700 كلم² بتعداد سكاني يبلغ 4.927.532 مليون نسمة حسب تعداد 2023م¹. كما تعد هذه الدولة جزءاً مهماً من الصحراء الكبرى وتحمل جزءاً كبيراً من الحدود مع دولة مالي والصحراء الغربية، وأهم مواردها الحديد والثروة السمكية ومؤخراً تمت اكتشافات مهمة في المخزون النفطي. مما انعكس على المنظومة الإنتاجية بشكل عام وعلى خلق فرص العمل بشكل خاص وعلى الرغم من امتلاك موارد طبيعية كبيرة إلا أن استغلال الموارد لا يزال دون المستوى بكثير بفعل نقص الموارد البشرية المؤهلة.

فموريتانيا رسمياً (الجمهورية الإسلامية الموريتانية)، هي دولة ذات سيادة تقع في شمال غرب أفريقيا، يحدها المحيط الأطلسي من الغرب الصحراء الغربية من الشمال والشمال الغربي، والجزائر من الشمال الشرقي، ومالي من الشرق والجنوب الشرقي، والسنغال من الجنوب الغربي. تحتل موريتانيا من حيث المساحة المرتبة الحادية عشرة في أفريقيا والثامنة والعشرين في العالم، وتقع 90% من أراضيها في الصحراء. يعيش معظم سكانها في المناطق المعتدلة جنوب البلاد، ويتركز ثلثهم تقريباً في العاصمة وأكبر مدنها نواكشوط الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي².

دول الساحل العمق الجغرافي:

جمهورية نيجر:

تقع النيجر في وسط إفريقيا ويحدها من الجنوب نيجيريا وبنين ومن الغرب بوركينا فاسو ومالي ومن الشمال كلاً من الجزائر وليبيا، فيما تحدها تشاد من جهة الشرق. يبلغ إجمالي مساحة النيجر حوالي 1,270,000 كم²، مما يجعلها أكبر الدول في منطقة غرب أفريقيا من حيث المساحة، كما يبلغ إجمالي عدد السكان قرابة 25,370,000 نسمة في 2023. يتركز معظمهم في أقصى جنوب وغرب البلاد. وعاصمتها هي مدينة نيامي وهي أكبر مدن النيجر التي تقع أغلبها على الضفة الشرقية لنهر النيجر في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد. تعد نيجر أحد أفقر دول

¹ - مصدر: الوكالة الوطنية للإحصاء والتحليل الديموغرافي والاقتصادي في موريتانيا 2023، ص 2.

² - نسخة محفوظة الوكالة الموريتانية للأبواب، 25 أكتوبر 2017. على موقع واي باك مشين

العالم وأقلها نمواً على الإطلاق إذ تغطي الصحراء الكبرى ما يقارب من 80 بالمائة من اجمالي مساحة البلاد في حين تتهدد الأجزاء الباقية مشكلات مناخية أخرى مثل الجفاف والتصحر. ويعتمد اقتصاد البلاد بشكل شبه كلي على تصدير بعض المنتجات الزراعية والتي تتركز في الجزء الجنوبي الخصب من البلاد.

تعتبر هي أيضاً من دول العمق الساحلي باعتبارها دولة غير ساحلية وهي البلدان الأقل نمواً وبلدان العجز الغذائي المنخفضة الدخل، بالرغم مما تحتويه من ثروات باطنية غير مستغلة مثل اليورانيوم والفحم والحديد إلا أنها تصنف كأفقر دولة منخفضة الدخل. يشكل سكانها من أغلبية مسلمة وهو ما جعلها تتخبط لمنظمة المؤتمر العالمي الإسلامي.¹

إن النيجر هي سابع أكبر منتج لليورانيوم في العالم يتم استخراجه بشكل رئيسي من مناجم "أوليت" و"إيمورارين" التي تديرها شركات دولية مثل شركة أورانو الفرنسية (Corano) يسهم اليورانيوم في جزء كبير من إيرادات البلاد ولكنه يثير أيضاً جدلاً حول الاستغلال البيئي والاجتماعي.

التنمية في منطقة الساحل الأفريقي:

وإذا دققنا النظر في منطقة الساحل نجد أن البعد الجغرافي لعب دوراً كبيراً في أهميته المنطقة كونها تمثل منطقة إلتقاء بالنسبة لمجموعة من العوالم الحضارية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية وحتى السياسية وخط فاصل بين أفريقيا السوداء والبيضاء وبين الحضارة الإسلامية الأفريقية. وبالتالي يمكن القول بأن الساحل الأفريقي نقطة إلتقاء الحضارات الإنسانية والانتماءات العرقية والدينية، حيث تمثل شريطاً استراتيجياً يربط بين أمريكا اللاتينية والقارة الآسيوية عبر البحر الأحمر والخليج العربي فبالحسابات الجغرافية تعتبر مطقة الساحل الأفريقي من أهم الروابط الجغرافية والاقتصادية.²

¹"Population du Niger". National of Statistique (INS) (fr-FR). 18 Jun 2020. Archived from the original on 2012. PP. 06-30.

²د. قلاع الضروس سمير، منطقة الساحل الأفريقي وأهميتها الاستراتيجية في أفريقيا، دراسة جيوسياسية، المجلد 06، العدد 02، تاريخ النشر (2020)

المحور الثالث: مدخل الى الموارد الطبيعية في منطقة الساحل (المفاهيم والاستخدامات)

— أولاً: مفهوم الموارد الطبيعية:

الموارد مفهوم واسع للغاية ويمكن تعريفها على أنها تساهم في قيمة المجتمع والحياة، لذلك يمكن اعتبارها مثل الماء والغذاء والحيوانات والنباتات والمعادن وغيرها. تختلف قيمة كل مورد من الموارد وفقاً لمساهمة في الحضارة البشرية، لذلك يمكننا تقسيم الموارد بشكل أساسي إلى قسمين هما:

— الموارد الطبيعية

— الموارد البشرية

هناك اختلاف بين هذين النوعين فالموارد الطبيعية هي جزء من العالم العضوي، فهي الأشياء الموجودة في البيئة التي لم يصنعها الإنسان والتي نستخدمها بشكل يومي في حين أن الموارد البشرية عبارة عن الأفراد والأشخاص والأشياء التي تكون من الإنسان، ويمكن أن تشير إلى القدرات والمواهب والوظائف البشرية.

والموارد الطبيعية هي كل ما توفره الطبيعة من مخزونات طبيعية يستلزمها بقاء الإنسان أو يستخدمها لبناء حضارته تتراجع الموارد الطبيعية نتيجة الاستغلال المفرط وهي تتمثل الطاقة وعلى رأسها النفط والمعادن كالفوسفات والحديد الخام وهي متوفرة في موريتانيا ...

ومجموعة من الموارد الطبيعية الحية تتضمن كلا من النباتات الطبيعية من غابات وحشائش ونباتات صحراوية والحيوانات البرية سواء أكلة العشب (مثل الغزال والزرافة وغيرها) أو أكلة اللحوم (مثل الأسود والذئاب وغيرها) كما تتضمن هذه المجموعة الأحياء المائية (النباتية والحيوانية) مثل الطحالب والأسماك والمحار وتنقسم الطبيعية إلى:

1 — موارد غير متجددة: تتضمن الموارد الموجودة في البيئة على هيئة رصيد ثابت وما يؤخذ منه لا يعوض ومن ثم فهي موارد معرضة لخطر النضوب والنفاد مثل الفحم والنفط والغاز الطبيعي والمعادن المشعة.

2 — موارد متجددة: تتضمن الموارد التي تجدد ذاتياً مجموعة من مختلف مصادر الطاقة فمن أمثلتها المصادر النباتية والحيوانية وهي موارد لا تتعرض للنضوب إذا استغلها الإنسان بأسلوب معتدل راشد بعيداً عن الإسراف.

تعد منطقة الساحل الأفريقي واحدة من أكبر المناطق التي تواجه تحديات كبيرة فيما يتعلق بإدارة واستغلال الموارد الطبيعية ومن أبرز هذه الموارد مصادر المياه وتشمل هذه المصادر الأنهار الرئيسية مثل نهر النيجر.

نهر النيجر:

وسماه العرب قديماً نيل السودان و«نهر الأنهر» هو النهر الرئيسي في غرب أفريقيا وطوله 4180 كم ويمر عبر غينيا ومالي والنيجر وبنين ونيجيريا ليصب في دلتا النيجر في خليج غينيا على المحيط الأطلسي. ويرجح أن أصل الاسم من لغة الطوارق الذين يسمونه «إجرونيجرون» بكسر الجيم الراء والواو في الكلمة الأخيرة، ويلقب في مختلف لغات المنطقة بما يعني «النهر الكبير» أو «نهر الأنهار» واتجاهه من الغرب إلى الشرق مروراً بمدن عديدة ابتداءً بمنطقة في دولة غينيا ثم باماكو عاصمة مالي وجينييه وتمبكتو وغاو ونيامي عاصمة النيجر ومالاندو فيل على حدود بنين ثم يخترق نيجيريا مروراً بمدن لوكوجا وأونييتشا حتى مصبه في بورت هاركورت وقد كان المكتشف الاسكتلندي مونجو بارك أول أوروبي يكتشف مجرى نهر النيجر¹.

نهر السنغال:

هو نهر يجري في أقصى غرب قارة أفريقيا، وهو يحتل مرتبة مميزة في قائمة أطول الأنهار الأفريقية وأشهرها وكان يعرف قديماً عند المؤرخين العرب والمسلمين بنهر صنهاجة.

يمتد حوض النهر الذي ينبع من هضبة فوته جالوفي غينيا عبر 4 دول أفريقية، وهي بالترتيب غينيا، مالي، السنغال وموريتانيا ثم يصب في نهاية رحلته بالقرب من مدينة سانت لويس في المحيط الأطلسي قاطعاً خلالها مسافة تقدر بحوالي 1790 كيلومتر، وهي مقدار الطول الإجمالي للنهر، بينما تبلغ مساحة حوضه حوالي 340 ألف كيلومتر مربع.

تعد موريتانيا والسنغال الدولتين الأكثر اعتماداً على مياه النهر، حيث أتاح لهما إمكانية زراعة محاصيل في السنة، هذا فضلاً على المراعي الطبيعية التي نمت على ضفاف

¹ الجزيرة نت نسخة محفوظة 2016/04 على موقع /واي باك مشين مالي.. الوجه الآخر لأفريقيا –

النهر الموجودة في كلتا الدولتين التي ساعدت على ازدهار حرفة الرعي في هذه المناطق.

يشكل النهر حدودا طبيعية بين الدولتين، ومع ذلك لا يعد حاجزا بينهما بل مثل لهما وعلى مر التاريخ نقطة إلتقاء في كثير من نواحي الحياة، فالسكان القاطنون على ضفتي النهر في كلا البلدين ينتمون لأجناس عربية وزنجية تتلاقى بشكل كثيف، بل وأحيانا تشكل نفس العائلات التي انشطرت إلى نصفين أحدهما موريتاني والآخر سنغالي، هذا بالإضافة لتشابه أنماط وأساليب الإنتاج بين الجماعات القاطنة ضفاف النهر، فنجدهم يزرعون نفس المحاصيل، ويمارسون نفس الحرف والأنشطة الاقتصادية، ويعد النهر الوحيد الذي يجري في الأراضي الموريتانية¹.

الأمطار الموسمية:

تلعب الأمطار الموسمية دورا كبيرا في توفير المياه في منطقة الساحل وخاصة في المناطق التي تعتمد على الأنهار الرئيسية.

تأثيرات الأمطار على الزراعة:

وفي المناطق غير المتصلة بنهر النيجر تعتمد الزراعة بشكل كامل على الأمطار الموسمية وهذا أمر يعد تحديا كبيرا نظرا لتقلبات المناخ.

تأثير التغير المناخي:

خلال العقود الأخيرة شهدت منطقة الساحل تغيرات كبيرة في أنماط هطول الأمطار حيث أصبحت الأمطار أقل انتظاما ما زاد من صعوبة التنبؤ الفصول الزراعية هذا التغير أثر على القدرة الإنتاجية للأراضي الزراعية ما جعل الأمن الغذائي في المنطقة قضية هامة للغاية.

التحديات المتعلقة بمصادر المياه في الساحل:

تعاني منطقة الساحل من نقص حاد في الموارد المائية الصالحة للشرب والاستخدامات الزراعية بسبب التغيرات المناخية والجفاف المستمر.

¹ مؤرشف من الأصل في 2019/12 "Nd info" معلومات عن نهر السنغال على موقع

تدهور البيئة المائية:

تساهم الأنشطة غير المستدامة مثل الزراعة المكثفة والوعي الجائر والتعدين غير المنتظم في تدهور البيئة المحيطة بمصادر المياه حيث يزيد من تلوث الأنهار والمياه الجوفية¹

إدارة المياه والتعاون الإقليمي:

نظرا لأن نهر النيجر يمر عبر عدة دول فإن إدارة مياهه تحتاج تعاوننا إقليميا قويا بين الدول الشاطئية، وقد تم إنشاء هيئات إقليمية مثل هيئة حوض نهر النيجر لتعزيز التعاون بين الدول من أجل الاستخدام لمياه النهر ومنع النزاعات المتعلقة بتقاسم الموارد المائية².

الموارد المعدنية في منطقة الساحل:

تعد منطقة الساحل الأفريقي من أغنى المناطق بالموارد المعدنية التي تساهم بشكل كبير في اقتصاديات الدول الساحلية مثل مالي وموريتانيا بوركينا فاسو والنيجر وتشاد، ويمكن تلخيص هذه الموارد المعدنية على النحو التالي:

الذهب:

يعتبر الذهب من أهم الموارد المعدنية في دول الساحل وخاصة من دول مثل مالي وبوركينا فاسو تساهم عمليات استخراج الذهب بشكل رئيسي في اقتصاديات هذه الدول حيث تعد مالي ثالث أكبر منتج للذهب في إفريقيا بعد جنوب إفريقيا وغانا.

اليورانيوم:

تعد النيجر واحدة من أكبر منتج اليورانيوم في العالم، حيث تحتل مكانة هامة في توريد هذه المادة الحيوية المستخدمة في إنتاج الطاقة النووية، ويمنح النيجر أهمية استراتيجية في السوق العالمية.

¹ - مزارة زهرة، الاستراتيجية الأمنية للدول الإقليمية تجاه منطقة الساحل الأفريقي، دكتوراه 2018، ص 244، وجمال محمود عدي أو أحمد، الأبعاد السياسية للمنظمات الإرهابية في أفريقيا، 2024، ص 242.

² - سعد حداد صوفيا، الأمن الأوروبي في إقليم الصحراء الكبرى، دكتوراه، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، سنة 2016، ص 245.

1. الاعتماد على الموارد المعدنية

أ. المعادن الأساسية: يُعتبر الذهب من أهم الموارد المعدنية في المنطقة في مالي، حيث يُعد المصدر الرئيسي للإيرادات، وساهم في حوالي 25% من الناتج المحلي الإجمالي (GDP) لعام 2021. مالي هي ثالث أكبر منتج للذهب في إفريقيا بعد جنوب إفريقيا وغانا¹.

أ- النمو الاقتصادي في الساحل:

يساهم الاعتماد على الموارد المعدنية والزراعية في تعزيز النمو الاقتصادي، ولكنه يجعل الاقتصاديات عرضة للصدمات الخارجية. على سبيل المثال، في حال انخفاض أسعار المعادن أو المحاصيل الزراعية، يمكن أن يؤدي ذلك إلى تقلبات اقتصادية كبيرة.

ب- الفقر والبطالة:

يُعاني العديد من السكان في هذه الدول من الفقر، حيث إن الاعتماد على الموارد الأساسية قد لا يضمن وظائف مستقرة. غالباً ما تكون فرص العمل في الزراعة غير كافية لتلبية احتياجات السكان المتزايدة، مما يؤدي إلى ارتفاع معدلات البطالة والفقر.

ب - التنمية المستدامة:

يحتاج الوضع إلى تغيير جذري لتحقيق التنمية المستدامة. يجب على حكومات هذه الدول العمل على تطوير استراتيجيات للتنمية المستدامة، تشمل تنويع الاقتصاد وتحسين إدارة الموارد الطبيعية.

تعتمد الاقتصاديات الوطنية في دول الساحل (مالي، موريتانيا، بوركينا فاسو، النيجر، تشاد) بشكل كبير على الموارد المعدنية والزراعية، مما يساهم في النمو الاقتصادي ولكنه أيضاً يعرضها لتحديات كبيرة. يتطلب الأمر جهوداً مستمرة لضمان الاستدامة وتجنب الأزمات الاقتصادية الناجمة عن الاعتماد المفرط على هذه الموارد.

ج - حضارة الساحل:

تقليدياً، كان معظم الناس في منطقة الساحل شبه بدو رحل، يربون الماشية بنظام الترحال، وربما تكون تلك الطريقة الأكثر استدامة في منطقة الساحل. يتم الانتقال بالفرق بين الشمال الجاف الذي يحتوي على مستويات أعلى من مغذيات التربة

¹ Thomas Pierre and Decroix, Christophe. "G5 Sahel: Outcome of Operation Barkhane." RTL, Feb 16, 2021.

والجنوب الأكثر رطوبة مع المزيد من الغطاء النباتي، من خلال جعل القطعان ترعى على أعلاف عالية الجودة في الشمال خلال موسم الأمطار، والقيام برحلات لعدة مئات من الكيلومترات إلى الجنوب للرعي على علف أكثر وفرة ولكن أقل تغذية خلال فترة الجفاف¹.

د - دينامية العلاقة بين الساحل والصحراء

لا يمثل الحد بين الساحل والصحراء خطاً ثابتاً بل نطاقاً انتقالياً متحركاً يتقدم جنوباً خلال فترات الجفاف ويتراجع خلال الفترات الرطبة. وقد أظهرت صور الأقمار الصناعية تغيرات ملحوظة في الغطاء النباتي بالساحل خلال العقود الأخيرة، ما يعكس تعقيد التفاعلات المناخية في المنطقة².

ترتبط هذه الدينامية بتغيرات واسعة النطاق في النظام المناخي الأفريقي، وهو ما يجعل الساحل مجالاً أساسياً لدراسات التغير المناخي العالمية³

قائمة المراجع العربية:

- 1- مختار عبد الله / تسيير الموارد الطبيعية على الحدود الموريتانية المالية، ماستر في الجغرافيا، جامعة نواكشوط 2015 – 2016
- 2- بسام أبو عليان، محاضر بقسم علم الاجتماع، جامعة الأقصى
- 3- د. قلاع الضروس سمير، منطقة الساحل الإفريقي وأهميتها الإستراتيجية في إفريقيا، دراسة جيوسياسية، المجلد 06، العدد 02، تاريخ النشر (2020)
- 4- مزارة زهرة الإستراتيجية الأمنية للدول الإقليمية تجاه منطقة الساحل الإفريقي، دكتوراه 2018
- 5- جلال محمود عبدي أو أحمد، الأبعاد السياسية للمنظمات الإرهابية في إفريقيا، 2024
- 6- سعد حداد صوفيا، الأمن الأوروبي في إقليم الصحراء الكبرى، دكتوراه، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، سنة 2016
- 7- رجال بوبريك، الجماعات الجهادية ببلاد الساحل بين الولاء الإيديولوجي والانتماء الاثني 2022

¹ في 02-11-2021 مؤرشف من الأصل www.unicef.org. "UNICEF West and Central Africa".

² NASA Earth Observatory. (2007). Vegetation and Rainfall in the Sahel.

³ IPCC 2022, p. 1290

1986

المراجع الأجنبية

- 9- Thomas Pierre and Decroix, Christophe. "G5 Sahel:Outcome of Operation Barkhane." RTL, Feb 16, 2021
- 10- Gatanazi, Etienne. "Le narcoterrorisme, une nouvelle source de déstabilisation en Afrique de l'Ouest?" Deutsche Welle, March 2, 2022.
- 11- Revue africaine des sciences humaines et sociales ،(3)2022
- 12- "Population du Niger". National of Statistique (INS) (ف-فر). 2020. Archived from the original on 2012-
- 13- "UNICEF West and Central Africa". www.unicef.org. 2021.
- 14- Bovill, E. (1995). *The Golden Trade of the Moors*. Markus Wiener
- 15- Brooks, N. (2006). *Cultural responses to aridity*
- 16- Conrad, D. (1994). *Empires of Medieval West Africa*
- 17- Cooper, F. (2002). *Africa Since 1940*. Cambridge University Press
- 18- Hunwick, J. (1999). *Timbuktu and the Songhay Empire*. Brill
- 19- Insoll, T. (2003). *The Archaeology of Islam in Sub-Saharan Africa*
- 20- Levtzion, N., & Hopkins, J. (2000). *Corpus of Early Arabic Sources*
- 21- McIntosh, S. (2005). *Ancient Middle Niger*
- 22- Mortimore, M. (2009). *Dryland Opportunities*
- 23- Suret-Canale, J. (1971). *French Colonialism in Tropical Africa*
- 24- IPCC. (2022). *Climate Change 2022 – Africa*

حركة السفر والرحلات من المنظور العلمي والقيمي

دراسة في الجغرافية السياحية

د/ جعفر محمد مصطفى أبو زيد
جامعة الزعيم الأزهري

الملخص:

يكمن السفر والترحال في ارتباطه بتداول العلم والمعرفة والثقافة والحضارة بلا قيود ولا حدود في جميع مساراته البرية والمائية والجوية بوسائل النقل من لدن النقل التقليدي حتى عصر الرقمنة والعولمة والقرب والجوار الجغرافي الإلكتروني وقصر المسافات وقصر الخارطة العالم في القرية الصغيرة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، فتقلصت المساحات وقربت الأطوال ويتشارك السفر في الحركة مع الهجرة والبعوث والرحلات والإرساليات والبريد والبرق والحراك الإنساني والفكري والتجاري والحضاري والعلمي.

تدرج السفر من كونه انتقال من مكان لآخر لأغراض متعددة إلى مساحات من الفنون والأدب والدراسات والبحوث والأوراق العلمية، لأنه أصل سيل العلوم والمعارف والاحتكاك الحضاري وتوثيق الحياة العالمية وجذب الرواد والمسافرين في المحطات الدولية والمطارات والموانئ المائية والبرية ولسان حال الشعوب، لهذا كان لا بد من التطرق إلى أصله ومسنده وقيمه ودواعيه وجواذبه ومسوداته في منهجية الجغرافية السياحية والإرشاد وتقصي أخبار البلدان والكشوفات المعرفية، من أجل تحديد مساراته العلمية والمسالك والممالك والمواقع ودوافع التنقل والسفر ومبادئه العلمية ومحفزاته.

رفعت حركة السفر من أسهم محطاتها ومطاراتها وشعوبها وسواحلها وشواطئها ومواقعها واقتصاديتها المحلية والدولية، فأصبحت معيار للتنمية المستدامة وشركات ومنظمات للسفر والسياحة وانتقلت أدبياتها من حركه إلى دراسات وبحوث وتخصصات علمية ومنهجية تدرس في الجامعات والمعاهد العليا باسم السياحة والفنادق والسفر، وارتبطت بها الاقتصاديات العالمية لذلك لابد من نبش غباره وتلمس أصوله ومبادئه ودوافعه وفوائده وجواذبه ورسمه لخارطة الحضارة العالمية مع الهجرات الطوعية في المفهوم والمصطلح والعوائد على المجتمعات وحث الإسلام على السفر والتنقل من باب الدعوة والمعرفة والعبادة والتربية والصحة والتعليم وتجديد النشاط والحيوية والتحلي بالرشد والحكمة والفراسة وتطور التجارة وبناء الأمم والشعوب رغم غربة الأوطان.

Abstract. Travel and travel lies in its association with the circulation of science, knowledge and civilization without restrictions or limits in all its wild, water and air paths, respectively, from traditional means of transport to the era of the hero, science, proximity, electronic geographical neighborhood, short distances, and the siege of the global map in the small village through social media, the spaces decreased, the length Sensors, mail, lightning, humanitarian, clear, commercial, civilization and scientific movement. Travel is included from being a transition from one place to another for multiple purposes to spaces of arts, literature, studies, research and scientific papers because it is the origin of the torrent of science, knowledge, civilization, documentation of global life and attracting pioneers and travelers in stations, airports, water and land ports, and the tongue Tourist geographic methodology, tourist guidance, investigating news and knowledge statements in order to define its scientific paths, paths, kingdoms, sites, travel and movement motives, its scientific principles and incentives. The movement of travel has raised the shares of its stations, airports, peoples, coasts, beaches, locations and local and international economies, and it became a standard for sustainable development, companies and organizations for travel and tourism, and its literature moved from its movement to studies, research and scientific and methodological specialties taught in universities and higher institutes in the name of tourism and hotels and travel and associated with the global economies so that it is necessary Exhausting dust and touching its origins, principles, motives, benefits, phases, and drawing of the global siege map with voluntary migrations in the concept, term and returns on societies, and urged Islam to travel and move as a matter of calling, knowledge, worship, education, health, education, renewal of activity, vitality, adults, ruling, governing, and the development of trade, The homelands.

المقدمة: يعد السفر والرحلات من الموضوعات المهمة في الحياه الإنسانية وذات صلة بالعوائد من السفر والترحال والتنقل وقد يظن البعض أن الفائدة من السفر والرحلات هو تغيير الجو وتحسين النفسية كما يقولون، ولا يعلم الكثيرون أن للسفر فوائد ومنافع أخرى تنعكس على شخصية الفرد وثقافته وتجعله يحب السفر والترحال كثيراً، وفوائد السفر والرحلات زيادة الثقافة حيث إن الاهتمام بالجغرافيا وبعادات الشعوب وطريقة حياتهم يجعل الشخص ملماً بجغرافية البلاد بشكل كبير ولديه معلومات ثابتة وصحيحة في ذهنه عن تلك البلاد والتعرف على البلدان. وكما أن ذلك يمنحه خبرة في طريقة التعامل مع شعوب تلك البلدان وعاداتهم ومعرفة المزيد عن حياتهم وعن ثقافتهم، كما أن السفر ينمي القدرة على التخطيط ودراسة أي موضوع أو مشروع قبل تنفيذه. إرضاء الفضول والاكتشافات والفضول بحد ذاته يجعل صاحبه يتعمق ويبحث في الأمور التي تثير اهتمامه وتفيد حياته. والحصول على المال عندما يسافر الشخص يكون حريصاً قدر الإمكان على ماله؛ لأنه في غربة وإن لم يجد ويحسن إدارة مصروفه وتدبيره لن يجد وسيلة للحصول على المال ليعود إلى بلده، وهذا مفيد له في طريقة تحديد ووضع أولوياته وإنفاق المال حسب الأهمية لها. وتنمية قدرات الشخص قد يتعرض الشخص أثناء سفره

للعديد من المواقف الصعبة التي لم تكن في الحسبان فيضطر لمواجهةها دون مساعدة أحد. ويقول ابن خلدون في مقدمته: "حين كان المسلمون يحسبون موعد ومكان الكسوف بكل دقة، كان الأوروبيون أثناء الكسوف يصرخون في الشوارع ويختبئون في منازلهم اعتقادا منهم أن غولاً قد ابتلع الشمس". واستمع المسلمون إلى القرآن الكريم فوجدوه يدفعهم نحو السعي في الأرض والمشي في مناكبها، ورأوه يحدثهم عن بسط الرزق وضرورة الخروج لطلبه في أرض الله الواسعة، وحثهم على الهجرة إذا ضاقت أمانهم أو طانهم أو ضيق عليهم في عقائدهم وشعائيرهم، كما عد القرآن حمل بني آدم في البر والبحر من أسباب التكريم والارتقاء، لما يحققه ذلك من وفرة في العيش ورافد للعقل وزاد للروح.

السفر في القرآن الكريم: الآيات التي ورد فيها سفر في القرآن الكريم والباحث القرآني كلمة سفر في القرآن الكريم وعدد الآيات: 10 آية هي:

- سورة البقرة آية 184: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

- سورة البقرة آية 185: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

- سورة البقرة آية 283: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

- سورة النساء آية 43: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

- سورة المائدة آية 6: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنْبًا فَاطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

- سورة التوبة آية 42: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾
- سورة الكهف الآية 62: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾
TRAVEL مصطلح السفر:

قطع المسافة، والجمع الأسفار، قال أهل اللغة: تركيب هذه الحروف للظهور والكشف، وسمي السفر سفرا، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال، أي يكشف وسمي بذلك لأن الناس ينكشفون عن أماكنتهم. والسفر أو الضرب في الأرض بالتعبير القرآني⁽¹⁾، أناط الله به أحكاما تتعلق بالعبادات مثل: التقصير في الصلاة، والفطر في رمضان، وأناط به أيضا أحكاما تتعلق بالمعاملات مثل: الرهن في السفر. ولما كان السفر مضنة للمشقة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من وعاء السفر، يعني: مشقته، ومما يترتب عن السفر من المخاطر والأحزان التي قد تصيب الإنسان، هل السفر شفاء للروح؟ والسفر يعد وسيلة رائعة للترفيه عن النفس وتحسين الصحة النفسية يقدم السفر علاجاً نفسياً للتعب والإرهاق والتوتر⁽²⁾.

السفر لقصد شرعي: وكل ما سبق إنما يتضمن السفر للسياحة والنزهة والتفرج، أما إذا كان هناك مسوغ شرعي للسفر، كما لو كان للتجارة مثلا، أو كان للتعلم والفائدة بحيث لا توجد هذه العلوم عند المسلمين، أو كان المقصود العلاج الطبي ونحو ذلك، فإن الشريعة الإسلامية قد أباحتها، ولكن بضوابط ويمكن من تتبع كلام العلماء أن نجمل تلك الضوابط والشروط فيما يلي⁽³⁾:
1- أن يكون للإنسان علم يدفع به من الشبهات . 2- أن يكون عند الإنسان دين يحصنه من الشبهات والمحرمات. 3- أن يكون الإنسان محتاج إلى السفر إلى تلك البلاد إما لعلاج أو علم أو دعوة. 4- القدرة على إظهار الدين وعدم مولاة المشركين. ولا يجوز السفر لبلاد أهل الشرك إلا لمسوغ شرعي وليس قصد الفسحة مسوغاً للسفر، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين" رواه أبو داود. ولذلك ننصحك بعدم الذهاب لتلك البلاد ونحوها للغرض المذكور لما في ذلك من التعرض للفتن والإقامة بين أظهر الكفار⁽⁴⁾.

ووردت عنه أدعية في السفر ففي حديثه عليه السلام أنه كان إذا سافر سفراً قال: ((اللهم إنا نعوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنقلب والخور بعد الكور وسوء المنظر في الأهل والمال)) وأنه كان صلى الله عليه وسلم إذا استوى على بعيره خارجا في سفره كبر ثلاثا، وقال: (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون){الزخرف: 13-14} اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، والعمل بما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا واطو عنا بعده، اللهم أنت

الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل والمال⁽⁵⁾، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال ". وإذا رجع، قال: «آيئون تائبون لربنا حامدون».

الرحلات والبعوث في القرآن الكريم:

تعددت الرحلات التي ذكرها الله تبارك، وتعالى في كتابه. إلا إن لفظ الرحلة جاء مرة واحدة في سورة قريش، فقد ذكر الله تعالى تلك الرحلة ممتناً ومذكراً لقريش بتلك النعمة العظيمة وهي رحلة الشتاء والصيف قال تعالى: ﴿لِيَلْأَيِّفَ قُرَيْشٌ ۖ لِّيَلْأَيِّفَ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ سورة قريش آية (1-2) و"قال كثير من المفسرين: إن الجار، والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها، أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام؛ لأجل التجارة والمكاسب".

و" قال الفراء: أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش. وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يغار عليها ولا تقرب في الجاهلية يقولون هم أهل بيت الله جل وعز؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها⁽⁶⁾، فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته، أي فجعل الله ذلك ﴿لِيَلْأَيِّفَ قُرَيْشٌ﴾ أي ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم "إن ذلك جعل القبائل تحترم قريشا وتهابها⁽⁷⁾، فاجتمع لها أمور لا تجتمع لأمة إلا وسادت، فجودة التخطيط، والعلم والخبرة، والسيطرة على الاقتصاد، ومعرفة سياسة التجارة، وكسر شوكة العدو، وحصول الأمن الغذائي، وأمن الأعداء، كل ذلك جعل من قريش دولة". وعلى ضوء ذلك تمتعت مكة المكرمة بمكانة عظيمة، وتقاطر الناس عليها استجابة لدعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام⁽⁸⁾.

لقد حوت هذه السورة القصيرة في آياتها العظيمة في معانيها، ودلالاتها أعظم ركائز العزة التي تنتشدها أمة الإسلام، وهي أحوج ما تكون إليه اليوم، إذ إن العزة التي تبدأ بالإطعام والأمن تبدأ من توحيد الله جل وعلا وعبادة رب هذا البيت؛ وعندها سيطعمهم، ويؤمنهم من كل المخاوف. "إن المطلع على السورة الكريمة يعلم أنها اشتملت على أسس العزة والسؤدد، تلك الأسس التي من أحكمها ملك العزة، ومن أهملها غشيتة الذلة، وكان عالة على غيره، تحت رحمته، وهذه هي الذلة بعينها"⁽⁹⁾. وأما ما يختص بالرحلات التي جاءت في كتاب الله دون ورود لفظ الرحلة فيها⁽¹⁰⁾.

1- رحلة الإسراء والمعراج: وهي رحلة طيبة مباركة امتن الله بها على نبيه ﷺ؛ ليريه الله فيها من عجائب آياته، وبديع مخلوقاته. إنها رحلة الإسراء الأرضية التي انتقل فيها ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم عرج به في رحلة سماوية إلى سدرة المنتهى ثم العودة إلى المسجد

الحرام قال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ سورة الإسراء، آية (1). "ينزه تعالى نفسه المقدسة، ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمنن الجسيمة، التي من جملتها أنه ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾. فأسرى به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته. وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة، وثباتاً، وفرقانا. وهذا من اعتنائه تعالى به، ولطفه، حيث يسره لليسرى، في جميع أموره، وخوله نعماً، فاق بها الأولين والآخرين" (11). وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۖ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۚ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾. سورة النجم آية (13-18).

"أي: إن كنتم تجدون رؤيته في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها إذ رآه في العالم العلوي مصاحباً، فهذا من الترقى في بيان مراتب الوحي، والعطف عطف قصة على قصة ابتدئ بالأضعف وعقب بالأقوى. سدرة المنتهى اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة" (12)، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج من الصحاح عن جمع من الصحابة.

2. رحلة سيدنا نوح عليه السلام وأتباعه المؤمنين في السفينة: هيمن الرحلات التي قصها الله تبارك وتعالى علينا في كتابه رحلة سفينة نوح عليه السلام قال تعالى: بعد أن ذكر قصة دعوته في قومه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدَسَّرَ ۖ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرًا ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدَسَّرَ﴾ سورة القمر، من الآيات: 13-15. "أي: ونجيناً عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح الدسر أي: المسامير التي قد سمرت بها ألواحها وشُدَّ بها أسرها ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ "أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق، وهو نعم الحافظ الوكيل، ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يردده عنه راد، ولا صده عنه صاد" (13).

3. رحلة سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته: الرحلات التي ورد ذكرها في القرآن الكريم رحلة يوسف عليه السلام وإخوته، وهي رحلات متعاقبة بين أرض كنعان، ومصر. رحلات بدأت بيوسف عليه السلام مع السيارة ثم رحلة إخوته بسبب ما أصاب ديارهم من الجذب والمجاعة. وهكذا توالى الرحلات حتى استقرت بوصول أهلهم لمصر ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ سورة يوسف، آية (100).

وشهدت هذه الرحلات تحولات وعظات هي كما قال عنها الله تبارك وتعالى في ختام السورة: ﴿عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ "سورة يوسف، آية: 111." إن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التقلبات، من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها، ووضحها وبينها" (14).

والهدى الذي في القصص: العبر الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة ما جاء من الأدلة في أثناء القصص، على أن المتصرف هو الله تعالى، وعلى أن التقوى هي أساس الخير في الدنيا والآخرة، وكذلك الرحمة فإن في قصص أهل الفضل دلالة على رحمة الله لهم وعنايته بهم، وذلك رحمة للمؤمنين لأنهم باعتبارهم بها يأتون ويدرون، فتصلح أحوالهم ويكونون في اطمئنان بال (15)، وذلك رحمة من الله بهم في حياتهم وسبب لرحمته إياهم في الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ "سورة النحل آية (97).

4. رحلة سيدنا موسى عليه السلام لطلب العلم: ومن الآيات التي جاءت في ذلك رحلة موسى عليه الصلاة والسلام فقد ذكر الله تبارك وتعالى تلك الرحلة في سورة الكهف قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سورة الكهف آية (60). "في هذه القصة العجيبة الجليلة، من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير، ... فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل؛ لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر؛ لزيادة العلم على ذلك" (16). وفي معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبَعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ سورة الكهف آية (66). أي: أن تعلمني علماً ذا رشد، وهذه القصة قد حرصت على الرحلة في طلب العلم، وإتباع المفضول للفاضل طلباً للفضل، وحثت على الأدب والتواضع للمصحوب" (17).

5. رحلة الحج : من الرحلات التي ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه رحلة الحج قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ سورة الحج آية (27). ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ﴾ أي: أعلم وناد في الناس، ﴿بِالْحَجِّ﴾ فقال إبراهيم: وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذان وعلي البلاغ. فقام إبراهيم على المقام فارتفع المقام حتى صار كأطول الجبال فأدخل أصبعيه في أذنيه وأقبل بوجهه يمينا، وشمالاً، وشرقاً، وغرباً، وقال: يا أيها الناس ألا إن

ربكم قد بنى بيتنا، وكتب عليكم الحج إلى البيت فأجيبوا ربكم فأجابه كل من كان يحج من أصلاب الآباء، وأرحام الأمهات: لبيك اللهم لبيك ... قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مشاة على أرجلهم جمع راجل مثل قائم، وقيام، وصائم، وصيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي ركبنا على كل ضامر، والضامر البعير المهزول ﴿يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل طريق بعيد⁽¹⁸⁾. إن فريضة الحج رحلة باتجاه قراءة التاريخ، والوقوف على أسرار السيرة النبوية من أجل العودة الصادقة إلى المنابع الأصلية لهذه العقيدة الإسلامية، التي استطاعت أن تقيم صرح الحضارة العربية الإسلامية.

6. الرحلة من أجل الفرار بالدين من أرض الشرك: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولُهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سورة النساء، آية (100)

“هذا في بيان الحث على الهجرة والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن من هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مرافاً في الأرض وسعة، فالمراف مشتمل على مصالح الدين، والسعة على مصالح الدنيا⁽¹⁹⁾. ومن أشهر الرحلات في ذلك هجرة المسلمين الأولى، والثانية إلى الحبشة ثم هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، فأما هجرة الحبشة ففي أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة حيث بدأت الاضطهادات، ثم لم تنزل في ازدياد حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة، وفي هذا الوقت العصيب نزلت سورة الكهف ردوداً على أسئلة طرحها المشركون على النبي ﷺ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين. فقصة أهل الكهف ترشد المؤمن إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين، متوكلاً على الله: ﴿وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ سورة الكهف آية (16)، ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ سورة الزمر، آية 10.

وفي هذه الظروف كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة، فراراً بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان وعندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية. وكانت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بسبب الابتلاء، والاضطهاد حيث ظل ﷺ يدعو في مكة ثلاث عشرة سنة تخلل ذلك رحلته الدعوية للطائف، فلما استعصت عليه مكة هاجر إلى المدينة، ومما

يدل على أن الاضطهاد كان سبباً من أسباب هجرة الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة؛ أن بلالاً كان إذا أفلعت عنه الحمى يرفع عقيرته قائلاً: اللهم ألعن شيبه بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأميه بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء” (20) كذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليها لأذى

7. الرحلة للاستبصار والتذكر والاعتبار: قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة العنكبوت آية (20).

“أمر بالسير في الأرض لأن السير يدني إلى الرائي مشاهدات جمّة من مختلف الأرضين بجبالها وأنهارها ومحتوياتها، ويمر به على منازل الأمم حاضرها وبائدها، فيرى كثيراً من أشياء وأحوال لم يعتد رؤية أمثالها... فلذلك كان الأمر به لهذا الغرض من جوامع الحكمة. وجيء في جانب بدء الخلق بالفعل الماضي؛ لأن السائر ليس له من قرار في طريقه (21)، فندر أن يشهد حدوث بدء مخلوقات، ولكنه يشهد مخلوقات مبدوءة من قبل، فيفطن إلى أن الذي أوجدها إنما أوجدها بعد أن لم تكن، وأنه قادر على إيجاد أمثالها، فهو بالأحرى قادر على إعادتها بعد عدمه” وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلَ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ سورة الروم (42). “يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذبوا رسله، كيف كان آخر أمرهم، وعاقبة تكذيبهم رسل الله وكفرهم” (22). وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ أي : قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذبين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب، وهذا السفر مندوبٌ إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم، وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر، والمكذوبون هنا من كذب الحق وأهله لا من كذب بالباطل” (23). وقد جاءت آياتٌ عديدةٌ في القرآن الكريم تدعو إلى السير في الأرض، والاعتبار بأحوال الأمم الماضية... والناظر إلى ديار الأمم الغابرة يرى ما وصلوا إليه من قوة وحضارة، فبادوا وأصبحوا عبرةً لمن بعدهم، وقد أرشد القرآن العظيم إلى أن هذه الأمم الغابرة كان لهم شأن عظيم في بناء القصور، ونحت الجبال، وأعطاهم الله قوة في أجسامهم، فما أغنى عنهم كل ذلك لما كذبوا بآيات الله واستكبروا عن عبادته، وقالوا: من أشد منا قوة؟ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة (24).

إن استثمار الرحلات في عبادة التفكير بآيات الله ومخلوقاته لأمرٌ تغافل عنه الكثير من الناس وإلى الله المشتكى خاصة بعد التوسع في أمر الرحلة والارتحال في عصرنا الحاضر تلكم العبادة التي يحيي الله بها قلوب من شاء من عباده” فالخير والسعادة في خزانة مفتاحها التفكير؛ فإنه لا

بد من تفكر وعلم يكون نتيجة الفكر، وحال يحدث للقلب من ذلك العلم! فإن كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة، وينصبغ بصبغة من علمه، وتلك الحال توجب له إرادة، وتلك الإرادة توجب وقوع العمل⁽²⁵⁾.

وتعد هذه الرحلات التي جاء ذكرها في كتاب الله تعالى وذكرها الله جل في علاه للتذكير بمنته والتعريف بعظيم فضله إذ جعلها الله من أسباب العزة والسيادة والتمكين هذا ما يختص بلفظ الرحلات، أما لفظ البعوث فقد وردت مادة (بعث) في كتاب الله جل وعلا على معان متعددة تتنوع بتنوع ما علفت به تلك المادة، ومن هذه المعاني ما دل على المعنى المقصود من البعوث في هذا البحث، والذي يعنى الإرسال ووردت مادة (بعث) دالة على معنى الإرسال في عدد من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سورة الجمعة آية (2).

“والمعنى: أن الله أقام رسوله للناس بين العرب يدعوهم وينشر رسالته إلى جميع الناس من بلاد العرب فإن دلائل عموم رسالة محمد ﷺ معلومة من مواضع أخرى من القرآن كما في سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ سورة الأعراف آية (158) وفي سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة سبأ آية (28). وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه”⁽²⁶⁾.

سفر الرسول (ص) من مكة المكرمة:

1- الرحلة الأولى: كان عمر النبي اثنتي عشرة سنة، وكان مع عمه أبي طالب ضمن قافلة تجارية لقريش. وفي الطريق توقفت القافلة في منطقة تسمى بصرى، وكان فيها راهب يدعى بحيرا. وقد اتفق أن التقى الراهب قافلة قريش ولفتت نظره شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وراح يتأمل ويحدق في صفاته وملامحه، خاصة بعد أن رأى أن سحابة من الغيم ترافقه صلى الله عليه وآله وسلم أينما جلس لتحميه من حر الشمس، فسأل عنه بعض من في القافلة فأشاروا إلى أبي طالب وقالوا له: هذا عمه، فأتى الراهب أبا طالب وبشره بأن ابن أخيه نبي هذه الأمة وأخبره بما سيكون من أمره بعدما كان قد كشف عن ظهره ورأى خاتم النبوة بين كتفيه ووجد فيه العلامات التي وصفته بها التوراة والأنجيل وغيرها⁽²⁷⁾.

2- **الرحلة الثانية:** كان عمر النبيّ خمساً وعشرين سنة، ويقول المؤرخون: إنّ سفره هذا كان في تجارة لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوج بها، وإنّ أبا طالب هو الذي أشار عليه بالعمل بالتجارة مع خديجة بسبب الوضع الماديّ الصعب الذي كان يعيشه آنذاك. فدخل مع خديجة في شراكة تجارية، ولم يكن أجيراً لها، إذ لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أجيراً لأحد قط. وسافر برفقة ميسرة وهو يعمل لدى خديجة وربح في تجارته أضعاف ما كان يربحه غيره،

ولم يكن- صلى الله عليه وسلم- يعرف شيئاً عن التوراة ولا الإنجيل ولا غيرهما ولم يكن يكتب ولا يقرأ بل كان أمياً وفي بيئة أمية لا تعرف شيئاً عن هذه الكتب ولا غيرها، وهذه من أعظم معجزاته ولهذا قال له الله تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) سورة العنكبوت آية(48) وتذكر النصوص أنّ بحيراً أصرّ على أبي طالب بأن يعود به إلى مكة وأن يبقيه تحت رقابته خوفاً عليه من اليهود وغيرهم، فقطع أبو طالب رحلته ورجع به إلى مكة والسفر إلى الشام سنة 582م.

3- **الهجرة النبوية:** هي هجرة النبي محمد (ص) من مكة إلى يثرب(المدينة المنورة)

والهجرة النبوية هي حدث تاريخي وذكرى ذات مكانة عند المسلمين، ويقصد بها هجرة النبي محمد (ص) وأصحابه من مكة إلى يثرب والتي سُميت بعد ذلك بالمدينة المنورة؛ بسبب ما كانوا يلاقونه من أذى وعذاب من زعماء قريش، خاصة بعد وفاة أبي طالب، وكانت في عام 14 للبعثة، الموافق لـ 622م، واتخذت الهجرة النبوية بداية للتقويم الهجري، بأمر من الخليفة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله بعد استشارته بقية الصحابة في زمن خلافته، واستمرت الرحلة إلى المدينة مدة 8 أيام بتاريخ اليوم الأول من ربيع الأول من العام الأول للهجرة حتى اليوم الثامن من ربيع الأول من العام الأول للهجرة، في مسافة تقدّر بـ 380 كيلومتراً مروراً بـ 29 معلماً متفق عليها وتختلف في تعدادها من راوٍ إلى آخر.

القرآن والسنة عن الطائرات: في تفسير سورة الشورى (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام - (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهر إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) سورة الشورى آية(33-34) الإنسان يبحر بسفنه في البحار ويطير بطائراته في السماء.* وفي حديث أبي ذر: "تركنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم - وما طائر يطير بجناحيه إلا عندنا منه علم" وقد أشار القرآن الكريم إلى الأنظمة التي خلقها تعالى للطير وبها يستطيع الطيران في الجو، وذلك في قوله تعالى: "أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" سورة النحل آية(79) وكان صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بالجماعة في السفر، وينهى عن الوحدة، فقال صلى الله عليه وسلم: (لو يعلم الناس ما في

الوحدة ما أعلم، ما سار راكب بليلٍ وحده) رواه البخاري، فعلى المسافر أن يصطحب معه رفيقاً يكون له عوناً على سفره، يرغبه في الخير ويبعده عن الشر والنسيان. وفي السفر تفكّر في مخلوقات الله وبديع صنع الله تعالى؛ مما يزيد الإيمان ويعظم اليقين، وفيه من أسباب الرزق: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ سورة النساء (15). وموضوع الآية التي هي عنوان هذا المقال، قصر الصلاة في السفر عموماً، وحال الخوف من فتنة العدو خصوصاً، وحديثنا فيها يدور حول مناسبتها لما قبلها وما بعدها من آيات؛ وفي ذلك نقراً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سورة النساء آية (10). و(الضرب): هو السفر والسعي في الأرض، طلباً لرزق، أو تحصيلاً لعلم، أو جهاداً لعدو، ونحو ذلك مما هو جائز أو مطلوب شرعاً. فجاءت الآية هنا صريحة في الترخيص في قصر الصلاة حال السفر، تخفيفاً على المؤمنين، ورفعاً للحرص عنهم. ويطلب العون من الله، وكل ذلك طريقه الصلاة، التي هي صلة بين العبد وربّه (28).

وذكر الإمام الشافعي في فوائد السفر والغربة: (تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد تفريح هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد). ويقول أيضاً: سافر تجد عوضاً عن تفارقه وانصب فإن لذيق العيش في النصب إني رأيت وقوف الماء يفسده. ولقد قرأت حديثاً عن جبير رضي الله عنه يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا أردت الخروج في سفر عليك أن تقرأ سورة الكافرون والنصر والإخلاص والفلق والناس ولكن في مرة واحدة تبدأ بالبسملة وتنتهي بالبسملة)، لذا فأنا في حاجة إلى الإجابة على هذا في ضوء الكتاب والسنة والقرآن يدعونا (29) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَا يَدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سورة النساء آية (100)

فوائد السفر عند الإمام الشافعي:

هذه هي الفوائد التي ذكرها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ونبين ما جاء فيها مفصلاً:

أولاً: انفراج الهم والغم: فمما عرف واشتهر بين الناس أن الملازم للمكان الواحد، أو المسكن الواحد، إذا سافر الواحد منهم، وتغيّرت الوجوه من حوله، واختلفت المشاهد والأجواء عليه، فحينئذ يذهب همه، وينشرح صدره، ويعود لعمله ومسكنه بهمة ونشاط. وهذا ما ينصح به الأطباء النفسيون أيضاً، فمن أصابه همّ أو غمّ أو مشكلة، ينصحونه بأن يسافر ليرتاح ويغير الجو ويستجم.

ثانياً: اكتساب المعيشة: فإن من ضاق عليه رزقه في بلده، ربما نُصح بالسفر إلى بلاد أخرى طلباً للرزق، وسعياً في كسب المعاش، فالله سبحانه وتعالى يقول: {هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور} سورة تبارك آية (15). أي: سخر لكم الأرض لتسيروا في طرقها، ولتتالوا منها كل ما تحتاجون من غرس وزرع وبناء وتجارة وصناعة. وكم من رجل سافر لاكتساب الرزق ففتح الله عليه.

ثالثاً: تحصيل العلم: فقد كان سلفنا الصالح، ومن قبلهم ممن نفتدي بهم من الأنبياء والصالحين، يرتحلون في طلب العلم، ويقطعون المسافات الطويلة أحياناً لأجل سماع حديث واحد عن رسول الله. وقصَّ الله تعالى علينا في كتابه العزيز، قصة سفر موسى ﷺ للخضر عليه السلام في آيات من سورة الكهف، ولما لقيه قال له في تواضع جم: {هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً} سورة الكهف آية (61). ويقول رسول الله ﷺ: "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ"

رابعاً: تحصيل الآداب: وذلك إذا سافر والتقى بالصالحين والزهاد والعلماء والأدباء الذين لا يلقاهم ببلده، وما يراه منهم من الأخلاق والآداب الحسنة، والشمائل الفاضلة، فيكتسب من أخلاقهم ويقتدي بهم، قال تعالى لنبيه بعد أن ذكر جملة من الأنبياء {وأولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده} سورة الأنعام آية (90). وقال للمسلمين {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} سورة الأحزاب آية (21)

خامساً: صحبة الأمجاد: وهو مما أوصى الله تعالى به في كتابه، فقال {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} سورة التوبة آية (119). فالإيمان يقتضي أن يكون المؤمن مع المؤمنين الصادقين. وقال سبحانه أيضاً لنبيه عليه الصلاة والسلام {وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} سورة الكهف آية (28)، ويشهد لهذا الحسَّ والواقع، فكم من إنسان سافر فلاقى كرام الرجال وأطايبيهم، مما لم يكتسبه لما كان في وطنه وبين أهله من العلم والآداب والسمة الحسنة. ويقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى أيضاً:

سافرٌ تجد عوضاً عن تفارقه وانصب فإن لذيق العيش في النصب

إني رأيتُ وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

سادساً: استجابة الدعاء: لقول رسول الله ﷺ: "ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ" (حديث حسن رواه أبو داود والترمذي وابن

ماجه وأحمد). فلذا ينبغي للمسافر الحرص على الإكثار من الدعاء بالمغفرة والرحمة له ولوالديه ولجميع المسلمين، وأن يسأل الله عز وجل التسهيل والتوفيق لما فيه خير الدنيا والآخرة، ويتخير من الأدعية النبوية الشريفة ما شاء.

سابعا: زيارة الأقارب وصلة الأرحام: وهذا من أفضل القربات إلى الله سبحانه وتعالى، وأعلاه السفر للقاء الوالدين والإخوة والأخوات، قال سبحانه {واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى} سورة النساء آية (26) وكذا السفر للقاء الأحباب في الله، والتزاور مع المسلمين. ويشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ: "أَنْ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرِبُهَا؟ قَالَ: لَا غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتُهُ فِيهِ" (رواه مسلم).

ثامنا: دفع الإنسان الذل عن نفسه: فإنه إذا كان بين قوم لئام ظلمة، يظلم فيها ويهان، لأنه قد يكون مثلاً: صاحب دين وعلم، وهم أهل فسق وفجور، أو غير ذلك فيكرهون مقامه بين أظهرهم، وقد يستخفون به، كما قال قوم لوط لنبیهم وأهله {أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناسٌ يتطهرون} النمل آية (58)، فإذا فارقهم إلى بلد أخرى، فيها أهل الدين والعلم، أو صار بين من يحبه ويعرف منزلته، صار في عزٍّ وارتفع شأنه، وزال عنه ما كان يضره، ما لم يكن في بقائه ببلده مصلحة للدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيبقى لأجل ذلك. ويشهد لهذا أن النبي ﷺ خرج من مكة، مكرها بعد أن خطط المشركون لسجنه وحبسه أو قتله، ومنعه من تبليغ دعوته، فهاجر منها وهي أحب البقاع إليه، وتحول إلى طيبة الطيبة، والمدينة المباركة، فكان من أمره ما كان، من العز والقوة والتمكين في الأرض، ثم عاد إليها عزيزاً فاتحاً منصوراً⁽³⁰⁾.

إحصاءات تسويق السفر العالمي في عام 2024م:

يجمع إحصائيات تسويق السفر الحيوية ليعطيكم على اطلاع على أحدث الاتجاهات التي تشكل مستقبل السياحة وتساعدك على تحقيق نجاح كبير في حملاتك في عام 2024م. QRTIGER كانت جائحة فيروس كورونا (كوفيد-19) وقتاً مدمراً بالنسبة للشركات، على الرغم من أن قطاع السياحة تأثر بشكل كبير، حيث تم تسمية عام 2020م بـ "أسوأ عام في تاريخ السياحة". في عام 2021م، زادت السفر بنسبة 13% فقط. ومع ذلك، أصدر بارومتر السياحة العالمي لمنظمة السياحة العالمية تقريراً يظهر استعادة سريعة بنسبة 88% بحلول نهاية عام 2023م⁽³¹⁾.

مطارات العالم وخارطة السفر العالمي:

تُعد المطارات الأكثر ازدحاماً في العالم مراكز نقل عالمية محورية تسهل السفر والتجارة الدولية. تؤكد حركة الركاب الكبيرة في هذه المطارات على أهميتها في شبكة الطيران العالمية. وسواء كنت مسافراً دائماً أو مسافراً من حين لآخر⁽³²⁾، والعامل الأساسي هو عدد المسافرين السنوي الذي يتعامل معه كل مطار سنوياً. وتعكس هذه الإحصائيات قدرة المطار على خدمة المسافرين المحليين والدوليين، مما يبرز أهميته في حركة السفر العالمي.

1- مطار أتلانتا جاكسون هارتسفيلد الدولي: الموقع: أتلانتا، جورجيا، الولايات المتحدة الأمريكية وعدد الركاب السنوي: حوالي 110 مليون تقريباً تفاصيل مثيرة للاهتمام: يُعدّ مطار أتلانتا الدولي أكثر المطارات ازدحاماً في العالم منذ عام 1998، حيث يعمل كمركز رئيسي لخطوط دلتا الجوية. يوفر رحلات مباشرة إلى أكثر من 150 وجهة محلية و 70 دولية.

2- الدولي العاصمة بكين- مطار (PEK)

الموقع بكين، الصين وعدد الركاب السنوي: حوالي 100 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: هذا المطار هو البوابة الدولية الرئيسية لبكين ومركز رئيسي للخطوط الجوية الصينية. مبنى الركاب 3 هو أحد أكبر المباني في العالم، ويتميز بتصميم معماري متطور.

3- مطار دبي الدولي: (DXB)-الموقع: دبي، الإمارات العربية المتحدة عدد الركاب السنوي: حوالي 89 مليون تقريباً وتفاصيل مثيرة للاهتمام: يحمل مطار دبي الدولي لقب أكثر المطارات ازدحاماً في العالم بالنسبة لحركة المسافرين الدوليين. وهو بمثابة مركز هام لطيران الإمارات وفلاي دبي.

4- (LAX) مطار لوس أنجلوس الدولي:

الموقع: لوس أنجلوس، كاليفورنيا، الولايات المتحدة الأمريكية عدد الركاب السنوي: حوالي 88 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: يشتهر مطار لوس أنجلوس الدولي بمبناه المميز، وهو مركز رئيسي للخطوط الجوية الأمريكية وخطوط دلتا الجوية، ويوفر رحلات إلى ست قارات.

5-(HND)- مطار طوكيو هانيدا

الموقع: طوكيو، اليابان عدد الركاب السنوي: حوالي 85 مليون تقريباً تفاصيل مثيرة للاهتمام: يُعدّ مطار هانيدا أحد المطارين الرئيسيين اللذين يخدمان منطقة طوكيو الكبرى، ويشتهر هانيدا بدقة مواعيده وكفاءته، حيث يتعامل مع حركة مرور محلية ودولية كبيرة.

6- (ORD) مطار أوهر الدولي :

الموقع: شيكاغو، إلينوي، الولايات المتحدة الأمريكية وعدد الركاب السنوي: حوالي 83 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: تُعدّ مطار أورلاندو الدولي (ORD) مركزاً رئيسياً للخطوط الجوية

المتحدة والخطوط الجوية الأمريكية، وهي معروفة بنظام مدرجاتها المعقد وتصميمها المبتكر. ونظراً لعدم القدرة على التنبؤ بطقس إلينوي، فإن امتلاكك لخطة بيانات غير محدودة لشبكة ESIM لأمريكا الشمالية سيضمن لك متابعة عملك أو متابعيك، حتى لو ت طائرترك.

7- (LHR) لندن مطار هيثرو

الموقع: لندن، المملكة المتحدة عدد الركاب السنوي: حوالي 80 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: يُعد المطار الأكثر ازدحاماً في أوروبا من حيث حركة المسافرين، ويُعد مطار لندن الدولي مركزاً رئيسياً للخطوط الجوية البريطانية وشركة فيرجن أتلانتيك، ويشتهر بخيارات التسوق والمطاعم المعفاة من الرسوم الجمركية الواسعة⁽³³⁾.

8- (HKG) مطار هونغ كونغ الدولي:

الموقع: هونغ كونغ، الصين عدد الركاب السنوي: حوالي 74 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: يشتهر مطار هونغ كونغ الدولي بتصميمه العصري وكفاءته العالية، حيث يُعد مركزاً هاماً لشركة كاثي باسيفيك. ويُصنّف باستمرار من بين أفضل المطارات في العالم.

9- (PVG) مطار شنغهاي بودونغ:

الموقع: شنغهاي، الصين عدد الركاب السنوي: حوالي 72 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: تُعد بودونغ بوابة دولية رئيسية ومركزاً لخطوط شرق الصين الجوية وخطوط شنغهاي الجوية. وهي مشهورة بوسائل النقل السريعة والمرافق الحديثة التي تتميز بها.

10- (CDG) مطار شارل ديغول باريس الدولي:

الموقع: باريس، فرنسا عدد الركاب السنوي: حوالي 72 مليون وتفاصيل مثيرة للاهتمام: يُعد CDG أكبر مطار دولي في فرنسا، وهو مركز رئيسي للخطوط الجوية الفرنسية وأحد أكثر المطارات ازدحاماً في أوروبا، ويشتهر بهندسته المعمارية الرائعة وأنظمة النقل الفعالة.

ويكننا أن نخلص أن السفر ضرورة ملحه وغايه والهجرة تأتي بمعنى الترك يقال: هجرت الشيء هجرا إذا تركته .. وسمي المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله وأما الرحلة فهي انتقال واحد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد وأغراض مختلفة، وأسباب متعددة، فعلى هذا تكون الرحلة لأجل الهجرة⁽³⁴⁾ كما سعى المؤلفون المسلمون إلى وضع لطائف المدونات العلمية الخادمة لحياة السفر بكل تعقيداتها؛ فتولد من ذلك الاعتناء بكتب الجغرافيا الطبيعية والبشرية في جميع عهود الدول والعصور ومختلف أقاليم جغرافيا الإسلام. وظلت تلك الأدلة دوماً بمثابة أدلة إرشادية للمسافرين بما قدمته من معطيات جغرافية عن شبكات الطرق ومسافاتها، ومرافق خدماتها وتسهيلاتهما، ومخاطرها وتحدياتها، وبما سجلته

من إحصائيات عن تكاليف الرحلات وخاصة أسعار المراكب والأدلاء والمؤمنين لرحلات القوافل. والسفر والترحال سنة الأولين والآخرين وهو له عظيم الفوائد الشخصية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والترفيهية والسياحية والعلمية والمعرفية وله ضوابط ونظم في الحركة والتنقل من حيث الوثائق الرسمية وأذونات السفر وقيود البعثات ورسوم المطارات والمعابر والقنصليات والسفارات والتأشيرات وأختام الدخول والخروج وحرية التنقل والسماح بالسفر ومتعلقاته وأوزان حمولته في البر والبحر والجو لهذا وجب تناول السفر والرحلات من باب العلم والمعرفة والكشوفات الجغرافية والتعرف على الشعوب وأدب الرحلات والرحلات في القرآن والسنة الشريفة والأصول التاريخية للرحلات والسفر مع خصوصيته وفنونه وآدابه وهذا مستخلص الدراسة ودواعي الكتابة في هذا النص البحثي والمعرفي.

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم:

- الأحاديث النبوية

- 1-الصحيح تاج اللغة صحاح العربية (2/685).
- 2-يوسف الحزيمري مقال على النت بعنوان (السفر في القرآن) يناير 2025م.
- 3-القاسم بن سلام غريب الحديث (1 / 219).
- 4-راجع فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء 68/2/فتوى رقم 4873 من المجلد الثاني.
- 5-صحيح مسلم باب ما يقول إذا ركب سفر الحج حديث رقم 134(978/ 2)
- 6-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1999م، ص1694
- 7-تفسير القرطبي(180/20)
- 8- منهجية البحث في التفسير الموضوعي للكلمة والآية والسورة القرآنية، والآية، أمين محمد البطوش، جامعة مؤتة، الأردن، د ط، 2000م، ص51
- 9-عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة فهد الوطنية، د ط، 1996م، ص30
- 10-منهجية البحث في التفسير الموضوعي، أمين محمد البطوش، ص52 .
- 11- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص 796
- 12- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د ط، 1997م.
- 13- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص28، 825/101

- 14- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص 710.
- 15- ابن عاشور، التحرير والتنوير، تفسير سورة النحل آية 97-14، 98 / 73-74
- 16- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، 483
- 17- زاد المسير لابن الجوزي، المحقق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ، 170/5
- 18- معالم التنزيل في تفسير القرآن، (البغوي)، دار طيبة الرياض، الطبعة الرابعة، 1997م، 379/5.
- 19- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص 196
- 20- الرحيق المختوم للمباركفوري، دار العصماء، دمشق، الطبعة الأولى، 2007م، ص 44-45
- 21- محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، د ط، د ت، 21 / 230
- 22- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، حققه: عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، 2002م، 20 / 111.
- 23- المرجع نفسه، 6/370
- 24- التفكير في آيات الله تعالى ومخلوقاته في ضوء القرآن والسنة، عبد الله بن إبراهيم اللحيدان، مجلة البحوث الإسلامية، العدد السادس والستون، الإصدار: لسنة 2003، ص ص 146-160.
- 25- ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة الأولى، 2009م، 526/1.
- 26- تفسير ابن كثير، 8/117
- 27- يوسف الحزيمي، مصدر سابق.
- 28- ابن عاشور، التحرير والتنوير
- 29- تفسير الجلالين.
- 30- محمد الحمودي النجدي، باحث جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتي، مقالات 2024م.
- 31- خالد القرشي، جامعة الامام محمد بن سعود، الرياض، مقالات، 2024م
- 32- تقارير منظمة السياحة العالمية ومنشورات عام 2024م.
- 33- تقاري المنتدى الاقتصادي العالمي للسياحة والسفر، مقالات وتقارير 2024م.
- 34- عبد الله الشويمان، رسالة ماجستير غير منشوره، جامعة محمد بن سعود، كلية الدعوة والإعلام، 1997م، تقارير المنتدى الاقتصادي العالمي للسياحة 2024